AL - MARIFA

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٤٦ السنة ٤٨ - ربيع الأول ١٤٣٠ هـ - آذار ٢٠٠٩ م



أمومة للفنان حمود شنتوت

في هذا العدد

كلمة الوزارة

الدكتور رياض نعسان آغا
وزير الثقافة

غـــزة هاشـــم

ليست غزة وحدها تحترق، فقلوبنا تحترق معها، ونحن نشعر بالعجز العربي والإسلامي المريع عن نصرة جادة توقف هذا العدوان الهمجي على شعب فلسطين بأكمله، وقد بهر العالم صمود هذا الشعب العظيم، وإصراره على مواجهة

الاحتلال، وعلى رفض الاستكانة والإذعان، والرضوخ للظلم الذي لم تشهد البشرية في تاريخها مثيلاً له.

وأهل غزة العرب الأقحاح، هم المسيحيون الأوائل، والمسلمون الذين حرروا بلاد الشام، ولهم في غزة تاريخ يعود إلى آلاف السنين، فقد مرت على غزة جيوش المحتلين من كل صنف وعرق، وقاوم أهلها الغزاة، وتمرسوا في الدفاع عن أرضهم، وكانوا يحررونها بسخاء ما يبذلون من دماء يهبونها للوطن، و لقد عرفت غزة في تاريخنا العربي باسم غزة هاشم نسبة إلى عبد مناف الذي مات في غزة ودفن فيها، وقيل إنه أول من سن رحلة الشتاء والصيف، ويحفظ ذكراه مسجد السيد هاشم القريب من المسجد العمري الشهير الذي يعتبر أعرق مسجد في المدينة، وقد سمي العمري تخليداً لذكرى فاتح غزة الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (رض) وفي المسجد العمري مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيراً من المخطوطات النادرة في مختلف العلوم والآداب والفنون، ويقول المؤرخون إن مكتبة جامع الظاهرية، أسسها الظاهر بيبرس الذي أحب غزة وأهلها، وبنى فيها المساجد والزوايا والمكتبات والبيمارستانات (المشافي) وتضم المكتبة العمرية ما يزيد على عشرين ألف كتاب، وتشهد بغزارة مساهمة أهل غزة في ميادين العلوم والآداب، ويحفل كتاب الشيخ عثمان مصطفى الطباع (إتحاف الأعزة في تاريخ غزة) بأسماء شهيرة في تاريخنا الثقافي الإسلامي هم من أهل غزة وقد باتوا من كبار علماء الأمة، ولعل أبرزهم وأعظمهم تأثيراً في حياة المسلمين إلى اليوم الإمام الشافعي، وتبدو العودة إلى كتاب (الشيخ

الطباع) هامة لمن يريد تعرفاً أعمق إلى تاريخ غزة، فهذا المؤرخ الغزي ترك لنا أهم مرجع عن غزة، لم يتوقف فيه عند تاريخها القديم، إنما مر على تاريخ مجتمعها المعاصر كذلك، فقد جعل كتابه في أربعة مجلدات يتحدث في أولها عن تاريخ غزة في العصور القديمة حتى العهد المملوكي، وفي ثانيها يتابع البحث حتى نهاية العهد العثماني وبداية عهد الانتداب البريطاني، وتبدو هذه المعلومات متوفرة لمن شاء البحث في غير كتاب الإتحاف، لكن الفصل الهام للباحثين الاجتماعيين في المستقبل هو الفصل الثالث الذي يتحدث فيه عن عائلات غزة وأنسابها المتصلة بالتاريخ العربي والإسلامي اتصالاً وثيقاً، وقد بات كتابه في هذا الباب المرجع الوحيد، وفي المجلد الرابع يعرفنا الشيخ الطباع إلى تراجم الأعيان من نجباء غزة وقد ترجم لمئتين وأربع عشرة شخصية هامة، وقد توفي الشيخ الطباع عام ١٩٥٠ م، ولو أنه حي الآن لترجم لأبطال غزة الذين يصدون اليوم أشرس عدوان تعرضت له الأمة، وقد برز منهم رجال سيذكرهم التاريخ بوصفهم أبطال أمة، ورجال تاريخ قدَّموا ملاحم من الشجاعة النادرة، وقد عشنا عظمة ما قدمه الشهيد الكبير الشيخ أحمد ياسين من أمثولة بطولة حين بات هذا الرجل المريض المقعد مرعباً لإسرائيل، حتى اضطر شارون أن يقصفه بالصواريخ وهو على باب المسجد وفي مقعده المتحرك.

إننا مطالبون بأن نعرّف الأجيال الشابة بتاريخ غزة، فإن تأملوا كم مرة تعرضت للاحتلال عبر التاريخ، وكم مرة دحرت الاحتلال، كبرت ثقتهم

بشعبهم الفلسطيني، وبقدرته على الدفاع عن أرضه، وستضاف هذه الغزوة الصهيونية الإسرائيلية إلى قائمة الغزاة والمحتلين، وستكون لها خصوصية الوحشية والإمعان في الإجرام، ولكنها وإن طال زمنها ستبقى عابرة في تاريخ غزة العريق، فشارعها الطويل الذي يخترق المدينة، سار فيه من الغزاة العشرات من القادة الذين دحروا، فقد سلكه أباطرة الفراعنة مرات، وسلكه الإسكندر وأباطرة اليونان، ثم سلكه أباطرة الرومان و بيزنطة، ثم سلكه نابليون المندحر على أبواب عكا، وقد سمّي هذا الشارع باسم صلاح الدين الأيوبي لأنه بات رمزاً للتحرير، والآن يسلك هذا الطريق أحفاد عمر وخالد وصلاح الدين الذين يستقون ثقافتهم من هذا التراث العريق الذي شمخت فيه البطولات والانتصارات فوق ركام المآسي والفواجع.

كلمة العدد



كيمياء الحوار على ضفاف المتوسط

د. علي القيّم
رئيس التحرير

في إطار خطة تنمية الثقافة العربية في المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» عقد بين (٤و٥ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨) في مقر المنظمة، مؤتمر «لقاء الثقافات على ضفاف المتوسط: كيمياء حوار متواصل» وشاركت فيه سورية بصفتها «ضيف خاص» تقديراً لدورها الثقافي والحضاري عبر التاريخ، واحتفاء بدمشق عاصمة للثقافة العربية لعام ٢٠٠٨م، وكان لي شرف تمثيل سورية في هذا المؤتمر المهم، وإلقاء كلمة

الختام في حفل الافتتاح في قاعة «اليونسكو الثانية» وضمّت أيضاً كلمات الدكتور عبد العزيز عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «الإسيسكو»، والدكتور مارسيو باربوسا، مساعد المدير العام لليونسكو، والسفير الدكتور موسى بن جعفر بن حسن، المندوب الدائم لسلطنة عُمان لدى اليونسكو، رئيس اللجنة الاستشارية لخطة تنمية الثقافة العربية.

لقد تضمن المؤتمر أربع جلسات علمية:

- الجلسة الأولى: كان محور أبحاثها ودراستها حول الإطار العام لحوار يستقبل ويحول وينقل إرثاً عمره آلاف السنين، مفرداته الأساسية: أرض الإسلام، أصوات وطرق المعرفة، تنقّل الفكر في العالم المتوسطي، أهم مواقع الحوار وأبرز معالمه، وشارك في أبحاث هذه الجلسة المفتوحة النقاش والحوار علماء من السعودية وجامعة ييل الأمريكية والأردن،والمغرب، وعُمان، وفرنسا.

- الجلسة الثانية: كان محورها حول مواضيع الحوار ذات الأفضلية، فاعلوها وأحكامها، ومفرداتها الأساسية: فلسفة،آداب،معارف مهارات،وجوه بارزة، أهم مواقع المعرفة.. وشارك فيها علماء من ليبيا وتونس وفرنسا وكندا والسعودية والعراق وعُمان.

- الجلسة الثالثة: كانت مواضيعها تتمة لمواضيع الجلسة الثانية، ومفرداتها الأساسية: الطب، الرياضيات، علم الفلك، جغرافيون، رحالة، مترجمون، فن، وجوه بارزة، أهم مواقع المعرفة.. وشارك فيها علماء من: بريطانيا، المغرب، الكويت، السودان، أمريكا، لبنان، إيران، فرنسا.

- الجلسة الرابعة: كانت مائدة مستديرة حول آفاق الحوار في حوض البحر المتوسط، مفرداتها الأساسية، تحديات الحوار في الظرف الراهن، الظروف والبيئة المواتية لازدهاره، وتحديد العقبات التي تعوق تحقيقه في الحاضر والمستقبل،

وشارك في هذه الجلسة علماء من جامعة الدول العربية، ومنظمة اليونسكو، والمنظمة العالمية للسياحة، والاتحاد الوطني لمسلمي فرنسا، ومنظمة تحالف الحضارات التابعة لمنظمة الأمم المتحدة، والمدير التنفيذي لمؤسسة «أناليند» الأوروبية المتوسطية للحوار بين الثقافات.

❀ ❀ ❀

لقد اجتمع هؤلاء العلماء المشهود لهم بالعلم والثقافة والفكر المنفتح على الآخر، في وقت يتعرض فيه مستقبل البشرية في وقتنا الراهن إلى مخاطر جديدة تهدد التعايش والسلام العالميين، وما الحراك المتزايد، والذي هو إحدى سمات «العولمة» إلا ليشوّش المعالم التي كانت ترتسم حولها الحدود القديمة -الثقافية واللغوية والدينية وغيرها- ويرسم مشهداً غير مألوف تختلط فيه الخطوط وتتضارب الأشكال، وفي الوقت الذي يسمح فيه هذا السياق الجديد الوقوف بشكل أفضل على ثراء التنوع الثقافي، فإنه في الوقت ذاته يزيد من سوء التفاهم والتشنج حيال مسألة الهوية..

هكذا فرضت نظرية «صدام الحضارات» نفسها، ناشرة المفهوم الخاطئ القائل: إن العالم ينقسم إلى حضارات جامدة، يمكن أن تختزل أحياناً إلى جانب واحد من جوانبها، غالباً ما يكون الدين، وما كان هذا العرض المغرض والمتشائم لتاريخ الحضارات، إلا ليعتمد على مسلّمات عقائدية مشكوك أصلاً بصحتها العلمية، ولذلك كانت هناك حاجة قصوى لنبرهن أنه ليس هناك ثقافة مكتفية بذاتها، ولا ثقافة تطوّرت لوحدها، أو على أساس النزاع المستمر مع الغير..

إن الثقافات، على العكس من ذلك، ومنذ الأزمنة السحيقة، تغتني بالتبادل من خلال التواصل الدؤوب، كما أن الأفكار تسافر ويجري تبادلها مع الناس ومنتجاتهم.. إن تطور وسائل الاتصال عبر التاريخ، ثم الاكتشافات الكبرى، وأخيراً

«العولمة» بأشكالها الراهنة، ساهمت بقدر كبير في تشكيل حوار الثقافات والحضارات، حتى لو لم تكن هذه الاتصالات سهلة دائمة..

لقد قدَّمت منظمة «اليونسكو» في هذا المؤتمر رؤية مشتركة بين الثقافات في العالم العربي الإسلامي، والعالم الغربي، وأبرزت إسهام المنطقة المتوسطية في الإحياء الفكري الذي استفادت منه أوروبة في مجالات العلم والفلسفة والفن والأدب، وبينت مظاهر التأثير المشتركة، مع التركيز على أبرز معالم هذا الحوار، وأهم مواقعه، وألمع شخصياته، وأكد المؤتمر بشكل خاص على أوجه التفاعل، ومنها على سبيل المثال، استيعاب الحضارة العربية الإسلامية لثقافات الإغريق وفارس والهند، والقيام بنقل هذه المعارف والإضافة إليها، وإعادة تشكيلها، عن طريق إسبانيا وصقلية، إلى أوروبة، ودورها في ظهور عصر النهضة في أوروبة، وبفضل العرب ودورهم الحيوي والفاعل في الثقافة الإنسانية تم إنقاذ العلم والفكر والفلسفة العالمية بفضل ترجمتها إلى اللغة العربية، مع إضافات منهجية متكاملة كانت بمثابة «ثورة» أضفت طابعاً شاملاً، اعتمد الفكر الإسلامي المنفتح، المتسامح، الذي نتج عنه كيمياء الحوار المتواصل بين ضفتي البحر المتوسط.

منطق كيمياء الحوار دفع الدكتور مهدي أمبيرش، أستاذ فلسفة الحضارة في جامعة الفاتح (ليبيا) إلى القول إن العلاقات في المجتمع الدولي هي علاقات جسد حي، كل دولة قد يكون لها وظيفة ولكن الجسد العالمي لا ينهض إلا بهذا التكامل في الوظائف، وكل إنسان هو بمثابة الخليّة الحيّة والفاعلة في جسد العلاقات الاجتماعية الطبيعية التي تؤسس عليها العلاقات السياسية والاقتصادية، كما يؤسس عليها خطاب التفاهم أو حوار التفاهم، والتفاهم ليس الافهام، بل عملية مشتركة تنتج عنها الولادة الطبيعية للمفاهيم، وتتقدم الإنسانية من خلالها..

لا يمكن لأي إنسان أو لأي كيان أن يدّعي أنه الحقيقة المطلقة، وهذا الادعاء

هو الذي أوجد أزمة المنطق الحلولي، ومنطق الإقصاء والتهميش، وقد أدى هذا إلى نهاية الفكر، وموت الواقع ونهاية التاريخ عند «فوكوياما»، وظهور أزمات في منهج التفكير والخطاب السياسي..

❁ ❁ ❁

لقد أجمعت الدراسات والأبحاث التي قدّمت في المؤتمر على تجربة الإسلام في العصور الوسطى كانت الأكثر إشراقاً في التاريخ العربي الإسلامي، ويبدو التمسك بهذه التجربة بكونها مرجعية مطلقة، يعكس مدى الرفض العربي الإسلامي لواقع الضعف الذي نعاني منه، والرغبة في إمكانية تجاوزه في المستقبل، لذلك تصبح اللحظة الأكثر إشراقاً في التاريخ العربي الإسلامي، هي اللحظة التي يجب التمسك بها، للتدليل على قدرة العرب على إنجاز تاريخ مجيد، فالذي جعلهم في الماضي يصنعون هذا المجد، يجعلهم هو ذاته يصنعون المجد مجدداً، مع الإشارة إلى ضرورة الابتعاد عن الوقوع في أسر مرجعية الماضي، حتى لا يصبح المطلوب الإجابة عن أسئلة الماضي، وليس الإجابة عن الحاضر والمستقبل..

كيمياء الحوار المتواصل بين ضفتي المتوسط، تفرض عدم وضع عوائق أو موانع اصطناعية في طريق التعمّق في فهم الواقع البشري الذي يتحقق من خلال التحليل الاجتماعي وأدوات العلم والفلسفة، ومن المعروف أن المثقفين والمنفتحين على النقد مقتنعون اقتناعاً راسخاً بأن لا تضارب بين العلم والدين، وبين الفكر الفلسفي والحقيقة الموحى بها، فالعلم والفلسفة والدين في الواقع دروب تتلاقى لتهب الجنس البشري نظرة صحيحة للحكمة والمعرفة، ومعرفة الثقافة تبدد الريبة، وتشجع على البحث المطمئن عن قيم ومبادئ متساوقة مع الهويات الخاصة، لكنها في الوقت نفسه تعمل على الوصول إلى هدف المصلحة المشتركة بين ضفتي المتوسط، وهذا ما يمكن من خلاله الحدّ من «ثقافة الخوف»

التي أحد جوانبها ما أطلق عليه «الإسلاموفوبيا» التي لاحت رواجاً وانتشاراً في الغرب بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، ومع نمو الإسلام في أوروبة، حيث تصاعدت وتيرة هذه الظاهرة، التي تعني خوفاً دائماً وشاذاً، أو كرهاً شديداً لشيء ما.. وأصبحت تهمة «الإرهاب» جاهزة ضد العرب والإسلام عند أي حادثة مهما كانت صغيرة أو بسيطة، ويقومون بتجريد الثقافة العربية الإسلامية من إحدى أنبل خصائصها وهي «طبيعتها وقدرتها على التعامل مع الثقافات الأخرى» وينسون أن لهذه الثقافة التي يصفونها بالإرهاب تاريخاً طويلاً وغنياً في الأخذ والعطاء مع ثقافات الأمم الأخرى، وكان هذا ما أعطى الثقافة العربية مركزها العلمي ووجهها الإنساني الشامل، وكانت الحضارة العربية الإسلامية، أكثر حضارة عالمية واعية لرسالتها الحضارية الشاملة، مما ساهم بشكل كبير في حوار وتلاقح الثقافات والحضارات على أسس السلام والإخاء وتبادل المعرفة المشتركة..

لقد كانت أجواء المؤتمر ودّية جدّاً، حرص المشاركون فيه، البحث عن جواب يطرح نفسه بقوة في ضوء المتغيرات العالمية وتحولات «العولمة»، لسؤال: «إلى أي مدى نحن قادرون على خلق مناخات تسمح بإعادة تفاعل حقيقي بيننا، على ضفتي المتوسط، وبالذات مع حضارة الغرب التي أعطت عصرنا طابعه، وهل في ظروفنا ما يسمح بأن نمدّ الجسور، ونبني علاقات جديدة قوامها الاحترام المتبادل، من موقع الفاعلين أخذاً وعطاء، لا مستقبلين سلباً واستلاباً، بالرغم من واقع التجزئة والتخلّف الذي نعيشه في وقتنا الراهن».

❀ ❀ ❀

لقد أجمعت الآراء على أن لا معنى للحوار إلا في إطار موازين القوى، واحترام الآخر دون تعصب أو عنصرية، وبلا ضغائن أو أحقاد بعيداً عن نظرية «الإسلاموفوبيا» التي تقول: «إن الإسلام يقف ضد حرية التعبير»، وكان سحر

كلمات «أراغون» واضحاً في كثير من الجلسات والنقاشات: «ما كان سيكون شريطة أن نتذكره»، ونحن لا نريد حواراً بين النخبة فقط، بل حواراً بين الشعوب، والوضع الحالي لا يمكن أن يستمر إذا أردنا أن نتغيّر ونغيّر واقعنا، وما الفائدة إذا لم نخرج من هذه الجدران؟! يجب اختيار موضوعات تكون أكثر تمثيلاً لمجتمعاتنا ولواقعنا.. نحن بحاجة إلى إدخال التنوع في ثقافتنا وحياتنا.. الأجيال القادمة يجب أن لا تكون أسيرة نمط معين من المعلومات، وعلينا أن ننتقل إلى الأفعال وإعطاء الدور لمنظمات المجتمع الأهلي والمدني لتقوم بدورها في مجال كيمياء الحوار المتواصل بين ضفتي المتوسط، والتعامل مع الحاضر بصورة حيوية، وإتاحة الظروف المناسبة للتأكيد على حوض المتوسط، مكان وسيط يجمع بين الحضارات، وعلينا الاستفادة من الإرث الحضاري الكبير الذي يجمعنا منذ عصور قديمة، وما زالت آثاره شاهدة عليه حتى يومنا هذا..

الرغبة في تفكيك التاريخ الثقيل الذي نرزح تحته، كانت واضحة في جلسات المؤتمر، فهناك دعوات لوضع الأحداث في إطارها التاريخي، على قاعدة أن حلول الماضي لا تحل إلا إشكاليات الماضي، وأن استيرادها إلى الحاضر، هو استيراد لا يختلف كثيراً عن الاستيراد من الغرب، فالاستيراد يكون على نوعين: استيراد عبر الجغرافية، بنقل أفكار وسلع من بلد إلى بلد لا يتماثلان في القيم والتطور والمشكلات، والاستيراد عبر الزمن باستيراد أفكار وقيم وحلول لا تنتمي إلى الزمن الراهن، ولا تجيب عن مشكلاته، إنما على العكس تعمّق من جراحه وتجعله يدور في حلقة مفرغة لا يمكن الخروج منها، وهذا ما نجده في العلاقة المتأزمة -حالياً- مع الغرب..

العربي يريد أن يرى صورته الأكثر إشراقاً التي أفرزها يوماً التاريخ العربي في فترة من فتراته، وهذه الصورة لتعويض معنوي عما يعاني منه العربي في واقع

الحال، والعرب في مثل هذه المؤتمرات والملتقيات لا يريدون تكريس حالة الضعف والتبعية التي يعانون منهما منذ قرون عديدة، فيجدون نفسهم بين ذروتين ولكنهم يقبعون بين هاتين الذروتين في قعر الوادي، ذروة الحداثة والتقدم الغربي الذي لا يستطيعون الوصول إليه، وذروة التاريخ العربي الإسلامي الذي لا يمكن استعادته، والمطلوب استيعابه في سياقه الطبيعي، وأن يكون درساً نافعاً، وأن لا يكون درساً معيقاً، وفي كلا الحالتين فهو لا يصنع مستقبلاً.

لقاء الثقافات على ضفاف المتوسط الذي رعته «اليونسكو»كان فرصة جيدة ومهمة في مسيرة كيمياء الحوار المتواصل بين الشمال والجنوب، وكل ما نرجوه أن يتبعها لقاءات ومؤتمرات أخرى، فنحن ما زلنا بحاجة قصوى إلى تقويض جدران الفصل بين الحضارات، والقضاء على الدوافع التي أدت إلى ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، وتصحيح صورة العربي المسلم في المناهج التربوية الأوروبية، وتعزيز الحوار البنّاء بين الحضارة والثقافة على أساس الاحترام المتبادل بين الشعوب، وتحويل العلاقات من علاقات تصادم وحروب وكراهية، إلى علاقات حوار ومحبة وسلام..

اليونسكو، باريس
٤-٥ كانون الأول ٢٠٠٨م



الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث



المراهقة .... أخطر فترات العمر !

د. فاخر عاقل *

كتــب إليّ صديق لم أره أكثر من عشريــن عاماً يقول: «لي ولد في الرابعة عشــرة من عمره. وقد لاحظت أنــه تغير تغيراً عظمياً عمّــا كان عليه قبل سنتــين، وإني لأقف حائراً أمام الكثير مــن تصرفاته ومواقفه، كما أراني في كثير من الأحيان عاجزاً عن التفاهم معه أو مساعدته أو إرشاده..»

ثم يختتم كتابه بقوله « ... فهل لك وأنت المختص بعلم النفس أن تعينني على فهمه وإرشاده ...»

* أديب ومفكر وأستاذ تربوي.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي

ولما كنت أعلم أن مشكلة هذا الأب هي مشكلة كل أب وأم لهما أبناء وبنات في هذا العمر فقد رأيت أن أنشر على الناس جوابي على كتاب صديقي آنف الذكر .



ما هي المراهقة

قلت: «ابنك يا صديقي يمر بمرحلة تعتبر أخطر مراحل الحياة ويسميها علماء النفس بالمراهقة. وإذا كان صعباً عليّ أن أحدد لك زمن المراهقة بالضبط فإني أستطيع أن أحدد بدايتها ببداية بلوغ الفتى مبلغ الرجال، والفتاة مبلغ النساء؛ كما أستطيع تحديد نهايتها بما يسمى مطلع الشباب».

ومن حقك عليّ أن تعلم أن زمن البلوغ نفسه غير محدد فهو يختلف من فرد إلى فرد ــ في المحيط نفسه ــ كما يختلف من بيئة إلى بيئة ومن شعب إلى شعب ومن مناخ إلى مناخ ومن عائلة إلى أخرى.

وهكذا فقد يحدث البلوغ في البلاد الحارة كالهند مثلاً وعند الفتيات في سن يقارب التاسعة. وقد يحدث في البلاد الباردة مثل فنلندا في سن تجاوز السابعة عشرة .

هذا ويحدث البلوغ عند الفتاة عادة وبصورة عامة في سن يسبق حدوثه عند الفتى بما يتراوح بين السنة والسنتين.

وتستطيع أن تقول بأن هذه الحادثة التي تعتبر فاتحة المراهقة تحدث في بلادنا العربية في سن يتراوح بين الحادية عشرة

والثانية عشرة بالنسبة للفتيات، وبين الثانية عشـرة والثالثة عشرة عند الفتيان. مع أخذ الفـروق الفردية والعائليـة والمناخية بعين الاعتبار.

أما نهاية فترة المراهقة فهي نهاية العقد الثاني من العمر عنـد بعض علماء النفس، ولكـن بعضهم يرفعها قليلاً وبعضهم الآخر يهبط بهـا شيئاً ما، وتتفـق جمهرتهم على أنها محصورة في سـن التعليمين الإعدادي والثانوي أي فيما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة.

على أني أحب لك أن تعلم أن بعض الناس يبقـون مراهقـين في تفكيرهـم ومواقفهم وتصرفاتهم ولو بلغوا الستين، وبعضهم الآخر يبكر بالنضوج وإن كان في سن المراهقين.

ولعلَّ أهم ما يجب أن تعرفه عن المراهقة أنهـا بداية انتقال الطفـل ـــ فتى أو فتاة ـــ من الطفولـة إلى الشباب، إلى الرجولة أو الأنوثـة، وهي بالضبـط انتقال جسدي وعاطفي وعقلي واجتماعي.

ولست أحب لك أن تظن ـــ كما ظن بعض علماء النفسـ ـــ أن هذا الانتقال مفاجئ وأنـه بالتالي إضاعة للاتـزان النفسي. كلا ... فالطبيعة لا تؤمـن بالقفز. وإنما تؤمن بالتطور والتـدرج، ولكننا نحن البشر نعجز أحياناً عن الملاحظة التطور المتدرج في النمو فنقـول بوجود الأزمات والقفزات والثغرات ومـا إلى ذلك من المفاهيم التي كانت شائعة ومقبولة من قبل ولم تعد كذلك الآن.

ثـم إني لا أحب لـك أن تحسب ـــ كما يحسـب بعض المربـين بل وبعضـ علماء النفس ـــ أن وصـف المراهقة بالأزمة أمر لا غنى عنه، وأنها لذلك تتصف بما تتصف به الأزمـات من اضطراب وضيق واختلال. والواقـع هو أن المراهقة فـترة يتضح فيها النمـو اتضاحاً كبيراً، ولكـن النمو نفسه لم يتوقـف قط، ذلك بأن مـن صفات المخلوق الحي أن ينمو وإلا فإنه يموت، فابن التاسعة ينمـو ويكبر وكذلك ابـن العاشرة والحادية عشرة ومثلهم ابن الثانيـة عشرة الذي يبلغ مبلغ الرجـال، ولكن الفـرق كل الفرق بين النمـو قبل البلوغ وبعده هـو نسبة التسارع الكبيرة بعـد البلوغ مما يظهـر هذا البلوغ بمظهر القفزة أو الأزمة سواء في الجسد أو العقل أو العاطفة أو العلاقات الاجتماعية.

وإني لأحـب لـك بعد ذلـك أن تعلم أن جمهرة الأطفال ـــ فتياناً وفتيات ـــ تمر فترة المراهقة بسلام وتصل مرحلة الشباب

متمتعة بالهدوء النفسي والاتزان العقلي .

بيد أن هذا لا يمنعني من التأكد بأن فهم المربي ـــ أباً أو أماً أو معلماً ـــ لفترة المراهقة وخصائصها وخطورتها عون كبير له على مساعدة الفتى أو الفتاة على اجتياز هذه الفترة بأمن أكبر وسلام أضمن.

جسد المراهق

أما عن جسد المراهق فلست أجدني بحاجة لأن أصف لك ما يطرأ على الفتى من غلظ الصوت ونمو الشعر في أماكن معينة من جسده وزيادة وزنه وطوله، كما لا أرى لوصف ما يطرأ على الفتاة من طول وزيادة وزن وبروز صدر وما إلى ذلك من علامات الأنوثة .

وإنما الذي يهمني أن أذكر به هو أن الفتاة بحكم بلوغها قبل الفتى تسبقه الطول والوزن ولكنه لا يلبث أن يلحق بها بل ويزيدها قليلاً. كما يهمني أن أشير إلى قيمة حادثة البلوغ ـــ بلوغ الفتى مبلغ الرجال وبلوغ الفتاة مبلغ النساء ـــ في فترة المراهقة وعلاقة هذه الحادثة بالتوازن الفردي عند الفرد.

ولو سألتني تعريفاً للبلوغ لقلت لك إنه التطور الجسدي الذي يجعل الفتى قادراً على أن يولد (بالكسر). والفتاة قادرة على أن تحمل.

ولو سألتني عن سبب البلوغ لقلت لك إنه نمو الجسد، ولا سيما الغدد الجنسية. بيد أن عمل الغدد الجنسية مرتبط بعمل الغدد الصم، تلك الأعضاء التي لا تعادل أهميتها الحياة الجسدية والنفسية إلا أهمية القشرة الدماغية.

ومن هنا كان هاماً جداً بالنسبة للطفل المقبل على البلوغ أن يعلم شيئاً عمّا سوف يحدث له عما قريب، وبالتالي كان واجب الأب أو الأم شرح مسألة البلوغ للطفل بحيث لا يفاجأ بها.

وأيّاً ما كان فأرجو أن تتأكد أن نشاط الغدد الجنسية عامل من أهم عوامل البلوغ، وإن التوازن الفردي شرط من شروط مرور فترة المراهقة بأمن وسلام.

وحين أشير إلى أهمية نشاط الغدد الجنسية في النمو الجسدي فإني لا أحب أن أقلل من أهمية نشاطها هذا في النمو العاطفي والعقلي والاجتماعي، بل على العكس أريد أن أقرر أن الجسد وعاء النفس وشرط وجودها وأن هذا النشاط الجنسي الطارئ مرفوق عادة بنشاط عقلي وعاطفي

واجتماعي لابد للمربي من أن ينتبه إليه.

ولست أنسى هنا أن أشير إلى أن التربية الجنسية لا تظهر أهميتها في وقت من الأوقات مثلها في هذا الوقت بالذات، ذلك بأن الطفل حتى الآن كانت دوافعه الجنسية غافية راكدة، وبالرغم مما يقوله فرويد وأشياعه من علماء النفس التحليليين عن وجود الغريزة الجنسية عند الوليد الحديث والطفل الصغير، فإنني أعتقد أن المسألة الجنسية لا تكون ذات خطر حقيقي قبل البلوغ، وأنَّ التربية الجنسية لا تتعاظم أهميتها في أي وقت أكثر من تعاظمها في الفترة قبيل البلوغ .

والنضوج الجنسي عند المراهق كثيراً ما يدفعه إلى الاستمناء الذي تقلقه نتائجه مما قد يسبب له اضطرابات نفسية قد تكون خطيرة النتائج فيما يتلو من حياته، أما المراهقة فإن النضوج الجنسي يكون سبباً في إظهارها اهتماماً متزايداً بذاتها ومظهرها وزيادة في أحلام اليقظة عندها وانتباهاً مهتماً بالجنس الآخر. وفي كل الأحوال يظهر عند المراهق والمراهقة ميل متزايد للعناية بمظهرهما الخارجي .

التغيرات العاطفية

وأما عن التغيرات العاطفية التي تحدث للمراهق فأحب أولاً أن أؤكد لك أنه لم يقم دليل على أن المراهقة فترة غير سعيدة لأكثرية المراهقين بل إن التقارير العلمية تدل على العكس. ثم أحب أن أؤكد لك ــــ برغم ذلك ــــ أن ثمة اتفاقاً عاماً بين العلماء على أن عدم الاستقرار صفة شائعة بين المراهقين ويتناول عدم الاستقرار هذا الانفعالات والاهتمامات. وفعاليات المراهق لا تكون على شكل جهد مستمر دائم بقدر ما تكون دفعات موقتة ودفقات متقطعة. أما حال المراهق عاطفياً فيتراوح بين غاية الانبساط وزيادة الانقباض، وقد يتلو أحلام العظمة في المستقبل تفكير في الهرب من البيت أو حتى الانتحار.

وفي كل الأحوال يتزايد أثناء المراهقة الشعور بالذات والاهتمام بما يجري في النفس وما يحدث للجسد ــــ من تضخم الأعضاء أو تغيرها ــــ ولا شك أن أهم أسباب هذا الشعور هو نضوج الدوافع والاهتمامات الجنسية. ويتزايد أيضاً الاهتمام بالتدين والميل إلى التجمع في جماعات أو عصابات. أما بالنسبة إلى الفتاة فقد يتزايد شعورها

بالانقباض وميلها إلى زميلة من نفس جنسها. وأما بالنسبة للفتى فيتزايد اهتمامه بالجنس الآخر كما يزيد ميله إلى الانقباض وقد يفكر في الانتحار بالرغم من حلمه بالعظمة والتفوق في المستقبل.

ومن خصائص المراهق ـــ فتى أو فتاة ـــ ظنه بأن ما يجري له خاص به لا يجري لغيره ممن هم في عمره، وهو لهذا يحتفظ بمشاعره سراً له. وكثيراً ما يحسب المراهق أنه غير مرغوب فيه وقد يتكون عنده شعور بالنقص وعقدة قصور، وكل هذا مردود إلى تضخم شعوره بذاته .

العلاقات الاجتماعية

أما عن العلاقات الاجتماعية فيجب أن تعلم أن الصداقات الفردية التي تحدث في مطلع المراهقة كثيراً ما تشتمل على رباط عاطفي عميق لا يتوفر في الصداقات التي تتم فيما بعد، فمن المناظر المألوفة أن ترى فتاتين مراهقتين تتأبط إحداهما ذراع الأخرى متمشيتين ومصرتين على أن تجلسا جنباً إلى جنب ما أمكن. وعلى كل فالصداقة الصحيحة صفة مميزة للمراهقة المتأخرة. وفي دراسة أجراها العلماء على مذكرات المراهقين لوحظ أن أبناء الرابعة عشرة والخامسة عشرة يشيرون إلى أصدقائهم في مذكراتهم في صدد ذكر أعمالهم، أما فيما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة فهم يكثرون من الإشارة إلى اللحظات العاطفية.

وفي هذا السن يؤلف المراهقون الفرق والعصابات، الخيرة منها والشريرة، ويكون لهذه العصابات وتلك الفرق صفات تنظيمات الراشدين بشكل أوضح مما يكون لتجمعات الأطفال قبل سن المراهقة.

وفي دراسة أجريت على ١٤٠٠ فتاة تتراوح أعمارهن بين الحادية عشرة والسابعة عشرة وجد أن الثالثة عشرة هي السن التي يبلغ فيها انضمام الفتيات إلى الجمعيات ذروته.

وقد وجد عالم درس اهتمامات المراهقين السياسية في فيينا أنه حتى سن السادسة عشرة تكون (الرغبة في الانضمام إلى منظمة ما) أكثر أهمية في الانتساب إلى الجماعات السياسية من الاهتمام بالسياسة نفسها.

ثم إن الميل إلى عبادة الأبطال والانقياد إلى الزعيم يدعّم في هذا السن تعلق المراهق بجماعته أو عصابته أو ناديه الذي يضم فرداً يمكن أن يعتبره المراهق زعيماً أو بطلاً.

وفي هذه الفترة من العمر تتجلى الروح

الجماعية أكثر من تجليها في أي وقت مضى، ولذلك كان من الأهمية بمكان استغلال هذه الروح في التنظيمات الاجتماعية والرياضية والكشفية والأدبية والعلمية النافية بدلاً من تركها للجنوح والانحراف .

العلاقات بالجنس الآخر

أمـــا فيما يخص العلاقـــات بين الفتى والفتاة فمـــن المعلوم أن الفـــترة التي تسبق المراهقـــة تتميز بميل كل مـــن الجنسين إلى الافتراق عـــن الجنس الآخر وعدم مشاركته في ألعابـــه، ويبقى هذا الميـــل واضحاً حتى مطلـــع المراهقة الذي يتميـــز كذلك بابتعاد كل من الجنسين عـــن الآخر، بل وقد يصل الحال إلى شيء من العداء وذلك على اعتبار أن الفتيان يرون أن الفتيات أنعم مما يجب وأن البنـــات يرين الفتيـــان خشنون. وفيما بعـــد يبدأ شيء مـــن التنافس بين الجنسين في الظهـــور، ويتجلى هـــذا التنافس أكثر ما يتجلى في المدارس التـــي يكون فيها التعليم مختلطاً حيـــث تطمح الفتيـــات في مساواة الفتيان في الرياضيات وحيث يضيق الفتيان بتفوق الفتيات عليهم في اللغات .

وفيما بعد ذلك يبدأ الانجذاب إلى الجنس الآخر بالظهور كمـــا يظهر الحياء والتغزل.

وفي هـــذا العمر قد تقع الفتـــاة أسيرة حب أحـــد معلميها إذا كانـــت تدرس في مدرسة مختلطـــة، كما قد يقـــع الفتى في حب امرأة تزيده عمراً ـــــ وإن كان هذا أقل حدوثاً في حالة الفتى منه في حالة الفتاة .

وإذا امتنـــع الاختلاط علـــى الفتاة فإن عاطفتها تتحول إلى إحدى بنات جنسها ممن هن في عمرها أو يكبرنها وهو أمر شائع في مدارس البنات. وقد دلت الدراسات العلمية لهـــذه الظاهرة على أنهـــا تسبب الكثير من عدم الارتياح للفتاة .

وقـــد يحـــدث الأمـــر نفســـه ـــــ ولكن علـــى مقياس أضيـــق ـــــ للفتيان، وهو أمر يزيد شيوعـــه في المدارس الداخلية عنه في المدارس النهارية. ويجزم علماء النفس بأن المـــرور بمرحلة الميل إلى الجنس نفسه شائع بـــين الفتيان بمقدار يفوق ما يتصوره بعض المربين، ولكنه غالباً ما يكون ميلاً بريئاً وإن كان يعكر السلام النفســـي للمراهق ويؤرق ضميره .

وتقول الدلائـــل إن سمـــاع المراهق عن الانجذاب إلى نفســـ الجنس يساعد انتشار هذا الميل، وأنه حين ينتشر الأمر في مدرسة ما فإن السبب يكون الإيحاء .

وقد دلّت الدراسات العلمية على أن انتشار الميل إلى الجنس ذاته أقل في مدارس التعليم المختلط منه في مدارس الجنس الواحد .

ومهما يكن من أمر فإننا نعتمد في كل ما تقدم قوله على دراسات غربية، أما في بلادنا العربية فإن مثل هذه الدراسات مفتقدة ولذلك فإننا إذ نذكر هذه الدراسات نقصر نتائجها على المحيطات التي أجريت فيها ونترك الحكم على ما يجري في مجتمعاتنا العربية إلى الدراسات العلمية التي نرجو أن تتوفر في القريب العاجل لتميز طريقنا في عملياتنا التربوية .

أحداث أخرى

وفي هذه المرحلة من العمر تقوم اختيار المهنة (مما فصلناه في مقال خاص) ومشكلات الجنوح (مما تحدثنا عنه في مقال آخر) ومشكلة ميل المراهق إلى التحرر من سلطة الأهل، وفي بعض الحالات تساور المراهق شكوك دينية ويبدأ بالبحث عن حقيقة الله والعمل على تكوين فلسفة خاصة به وتبنى مثل عليا ذاتية لا تكون ـــ في الأعمّ الأغلب ـــ بعيدة عن الشائع في محيطه .

وفي هذا العمر أيضاً تظهر مطامح المراهق (فتى أو فتاة) وأحلام اليقظة عنده. إن الفتى يجتذب إلى الخدمات التي يؤديها إلى البلاد الزعماء السياسيون والمخترعون والعلماء والأطباء، أما الفتاة فتجذبها الخدمات الإنسانية ومساعدة الآخرين ولا سيما مساعدة الأهل عامة والأم خاصة، وفي هذا كله دليل على ظهور الميول الغيرية عند المراهق وامتزاجها بميله إلى توكيد ذاته.

على أن هذه الميول إلى الرفعة والتقدم والخدمة العامة كثيراً ما ترضيها أحلام اليقظة فيندفع المراهق إلى الخيال بدلاً من الاندفاع على العمل الحقيقي المثمر. وإذا كان سوياً بل ومفيداً أن يكون لدى كل مراهق مقدار من اليقظة، فإنه من غير السوي أن يستغرق المراهق في أحلامه استغراقاً يصرفه عن الحياة الواقعية أو يدفع به في مسالك خطرة، حتى ليقول (بورت): إن جميع المراهقين الجانحين تقريباً هم ممن اعتادوا الانغماس في أحلام اليقظة.

المراهق وأبواه

وفيما يخص موقف المراهق من أبويه يجب أن تذكر أن اعتماد الطفل على أهله

يجب أن يخف بتقدمه في العمر حتى يبلغ الشباب. ويجمع علماء النفس على أن عدم ميل المراهق إلى الانعتاق من رقابة أهله علامة سيئة يجب على المربي الانتباه إليها.

وهنا يجب أن تفرق بين الخضوع الأعمى للوالدين وبين حب الوالدين واحترامهما. إن المراهق بالرغم من ميله إلى الاستقلال في آرائه الاجتماعية والدينية والسياسية وفي اختبار أصدقائه فإن حبه لوالديه واحترامه لهما يتزايد لاسيما إذا أثبتا لهما من حسن الفهم وسلامة التقدير ما يبرر هذا التزايد ويعين عليه. والواقع إن زيادة تحرر المراهق تزيل — في بعض الأحيان على الأقل — أسباب الاحتكاك بين المراهق وأهله وبذلك تزيد انعطافه إليهم. ثم إن تزايد إدراك الطفل خلال فترة المراهقة ونمو ذكائه يساعدانه على فهم إن أوامر والديه ونواهيهما إنما تستهدف خيره ومصلحته .

على أنه من غير النادر في هذا العمر أن يحصل احتكاك بين المراهق وأحد والديه. وبديهي إن الأناة والصبر وحسن التفهم من جانب الوالد هي الدواء الناجع في هذه الحالة.

ومما يجدر ذكره ها هنا أن العلاقات السيئة بين الأبوين سبب هام من أسباب السلوك السيئ لدى أطفالهما. وأيا ما كان فإن مجالات الاحتكاك بين المراهق وأهله كثيراً ما تدور حول (المصروف اليومي) أو موعد الرجوع إلى البيت أو الثياب بالنسبة للمراهقة على الأقل) أو غير ذلك من المواضيع التي تتكفل حكمة الوالدين بمواجهتها على الشكل المناسب.

بيد أنه لا بد من تذكيرك بأن كل ما قلته لا يعني الخضوع لجميع رغبات المراهق وتلبية كل مطاليبه وتحريره من كل رقابة وتوجيه، بل على العكس فإني أريدك أن تعلم أن المراهق يحترم الوالد الشديد في غير عنف، المتسامح من غير ضعف، المتفهم من غير تعنت، المرشد دون إلحاح.

ذكاء المراهق وعقله

وفي مطلع هذا العمر يتزايد ذكاء الطفل وتأخذ قدراته العقلية بالنمو والتكامل وبصورة خاصة تتجلى عنده القدرة على التجديد والحكم والمحاكمة، وهو في الأمور التي لا تحتاج إلى خبرة وتجريب قد يبذّ من حوله من الراشدين. هذا ويذهب بعض علماء النفس إلى القول بأن نمو الذكاء

يبلغ نهايتــه في نهاية هذه الفترة مما بحثته مفصلاً في مقــالي عن الــذكاء المنشور في الباب الثاني من هذا الكتاب.

وبتزايد ذكاء المراهق تتزايد اهتماماته العقليــة، وتبدو ميوله التي لم تتح لها فرصة الظهــور فيما سبق من عمره. على أن ميول المراهــق العقلية تكــون في بداية الأمر غير ثابتة ولا مستقرة شأنها في ذلك شأن حالاته العاطفيــة وانفعالاتــه وهكــذا فقــد تجد المراهق منصباً على دراسة أو هواية علمية ولكنه لا يلبث أن يتركها إلى سواها وبصورة فجائية.

ولعلــك سائلــي في هذا الصــدد عما يتوجب عليك فعلــه: هل تسمح له بتجربة مختلف الهوايات حتى يستقر من نفسه على واحــدة منها. أم تشجعه علــى الثبات على الهواية التي بدأ بهــا ليستمر فيها ويتقدم! وجوابــي أنه من الخير للمراهق أن تترك له فرصة التجريــب والمحاولة وأنه من الخطر قسره علــى الاستمرار فيما لم يحب، كما أن هذا التجريب عملية مفيدة له بحد ذاتها .

ماذا يقرأ المراهق

هــذا ويتزايد اهتمــام المراهق بالقراءة إذا كان مــن بيئة مثقفــة تتوفر فيها فرص القــراءة من مثل وجود جريــدة أو مجلة أو مكتبة في البيت. ولقــد تساءل العلماء عما يجــب المراهقون أن يقــرؤوا ؟ ومرة أخرى أحب قبل الإجابة عــن السؤال أن أشير إلى أن الدراســات التــي نعتمــد عليها في هذا الصــدد أجريت في المحيطــات الغربية أما في محيطاتنــا العربية فما زلنا مفتقرين إلى دراســات علمية دقيقة في هذا الموضوع. ثم لا بد من ملاحظة أخرى في هذا الخصوص وهي إن الجواب على هــذا السؤال يتوقف إلى حد كبير علــى البيئة التي تجري فيها الدراسة. ذلــك بأن ما يجــب قراءته أبناء ذوي المهن الرفيعة مثــلاً يختلف بالضرورة عما يجــب أن يقرأه أبناء العمال، وما يجب قراءتــه الطالب في المدرسة الثانوية يختلف عما يجب قراءته العامل المراهق - هذا إن قرأ - .

وتصديقاً لما قلــت أذكر لك بأن دراسة أجراهــا (جور دان) دلــت على أن ٢٥٪ من البنات اللواتي تتراوح أعمارهن بين ١٤ ــــ ١٦ سنــة يحببن قراءة قصصــ المغامرات، في حين دلّــت دراسة أخرى أجراها العالمان (تورمان) و (ليما) أن بنات الرابعة عشرة لا يقــرأن قصص المغامرات إلا لماما. والسبب

في الاختلاف بين النتائج التي حصل عليها الفريقان هو أنهما أجريا دراستيهما في محيطين مختلفين.

ولقد دلّت دراسات أجريت في انكلترا على أن المراهقين أميل إلى قراءة الجرائد والمجلات المصورة منهم إلى قراءة المجلات والجرائد الأدبية أو العلمية أو الجدية. وأثبتت هذه الدراسات أن معظم المراهقين لا يقرؤون المقال الافتتاحي أو المقالات السياسية أو المقالات الهامة، وإنما يقرؤون (في حالة الفتيان): أخبار الحروب والكاريكاتور والقصص المصورة وأخبار الرياضة والسينما والنكات. أما البنات فيقرأن القصص المصورة وأخبار السينما والكاريكاتور والإعلانات والنكات وأخبار الحرب ورسائل القرّاء .

كما دلت الدراسات على أن أخبار الجرائم والفضائح والمغامرات والقضايا جذابة بالنسبة للمراهقين من الجنسين .

ولعلك سائلي على الطريقة ــ التي تستطيع بواسطتها زيادة قراءة طفلك. وجوابي إني لا أرى أن تقلق كثيراً لاهتمام طفلك بأخبار المغامرات وقصص الحب، إن هذا الاهتمام أمر طبيعي سوي. ولعلك تحسن صنعاً لو أنك اقترحت على طفلك كتباً من هذا النوع ولكنها من سوية أدبية رفيعة منتقاة، ثم أنك تحسن صنعاً لو عنيت بما تدخله إلى بيتك من جرائد ومجلات وكتب وحرصت على أن تكون مكتبة المدرسة التي يرتادها طفلك من النوع الغني بالكتب الرفيعة التي تتفق مع أهوائه .

قدرات المراهق العقلية

هذا وأريدك أن تعلم أن قدرات طفلك العقلية وقابليته الخاصة لا تنمو في سن مبكر كما ينمو ذكاؤه العام، وإنها لا تتجلى أثناء الطفولة. أما في بداية المراهقة فإن أهمية القدرات العقلية الخاصة تأخذ بالتزايد. ويقول (بورت) إنه حتى في الثانية أو الثالثة عشرة فإن أهمية الذكاء العام تزيد ثلاث مرات على أهمية القدرة الكلامية ومرتين على أهمية القدرة الرياضية وأربع مرات على أهمية القدرة العلمية.

ولكن هذه القدرات الخاصة لا تلبث أن تتجلى بتقدم المراهق في العمر. وباعتبار ميل الإنسان طبيعياً إلى الاهتمام بما يحسن فإن تجلّي القدرات الخاصة في أواخر هذه الفترة يدفع المراهق في طريق التخصص.

ثم إني أريدك أن تعلم أن المراهق يبدأ

في تفهم فائـدة المواضيـع المدرسية ويميل إليها على أساس من هـذه الفائدة والنفع. ولقـد دلّت دراسة قام بهـا العالم الانكليزي (فالانتايـن) على أن الفتيان المراهقين أبناء الثلاثـة عشرة يفضلـون الدروس حسب الترتيب التالي:

العمـل اليـدوي، العلـوم، الفنـون، الرياضيـات، الرياضـة البدنيـة، التاريخ، الإنشاء، الجغرافية، القراءة، الأدب، الشعر والاستظهـار، حفـظ الصحـة، الموسيقى والغناء، الخط، الإملاء.

كما وجد أن البنات المراهقات من نفس السن يفضلن الدروس وفق الترتيب التالي:

شغل الإبرة، الرياضة، الموسيقا والغناء، التدبـير المنـزلي، الفنون، العمـل اليدوي، القراءة، الرياضيات، حفظ الصحة، الإنشاء، الأدب، دراسة الطبيعة، الشعر والمحفوظات، التاريخ، الجغرافية، الخط، الإملاء .

ولا يفوتنـي أن أشـير إلى اتفاق علماء النفسـ علـى أن تقديـر الجمـال، جمال الطبيعة وجمال الفنـون المرئية والموسيقى والشعـر، يتزايد خـلال المراهقة، ذلك بأن نمو الذكاء خلال هذه الفترة يتسبب في مثل هـذا التقدير ويعتبر واحداً من أسبابه، كما أن التطوع الجنسي وما يرافقه من عواطف يساعد على هذا التقدير الجمالي ولا سيما فيما يخص الجسد البشري، وهو مرفوق بعد ذلك باهتمام المراهق بحسن مظهرهما .

تربية المراهق

وبعـد هذا الـذي قدّمت مـن تعريف بمناحي المراهقة ونمو المراهق جسداً وعقلاً وعاطفة وفي المجتمع، لعلك سائلي عن تربية المراهـق، ولعلَّ السـؤال الأول الذي يخطر ببالك هـو: هل أناقشـ المراهقة مع ابني المراهـق ؟ أم هل أتـرك الأمر دون مناقشة معتمداً على الظروف والعمر ؟ أم هل أتركه للمعلـم والمدرسة تنهض بهذا العبء عني ؟ وإذا ناقشتـه بنفسي فإلى أي مدى أستطيع مساعدته عن طريق إخباري إياه بأن تذبذب عواطفه بين نهاية الانبساط ونهاية الانقباض أو أن تفكـيره في الانتحار إنما هي مظاهر عابرة من مظاهر المراهقة؟

لقـد اقترح الكثيرون مـن علماء النفس والتربيـة إجـراء مثـل هـذه المحادثـات والمناقشات مع المراهقين واعتبروها دعامة من دعائم تربيـة الأجيال الصاعدة. ويبدو أنـه مفيد للمراهق أن نخبره بأنه سيتعرض لهذه الأزمات العاطفية المتذبذبة، وأنه ليس

وحيداً في ميله إلى الهروب من البيت أو ارتكاب الانتحار. ويقول العالم النفسي (فالانتاين) إن التقارير المجتمعة لديه تدل على أن الكثيرين من المراهقين يشعرون بعظم الكآبة لاعتقادهم أن ما يعتمل دخائلهم أمر خاص بهم ولا يقع لسواهم .

بيد أنه من غير المرغوب فيه أن تقول للمراهق بأن المثالية التي يشعر بها والاندفاع إلى جلائل الأعمال إنما هي عوارض عابرة من عوارض المراهقة، بل إن من واجبك أن تقويها فيه وتحثه على التمسك بها .

وثمة أمر واحد على الأقل أرى أن من واجبك بصفتك أباً كما أن من واجب الأم حيال فتاتها والمعلم إزاء طلابه والمعلمة تجاه طالباتها أن تتحدثوا به للمراهق ألا وهو الحقائق البسيطة الدقيقة الواضحة للنمو الجنسي. إن الغالبية العظمى من المراهقين والمراهقات في بلادنا ـــ بل وفي بعض البلاد المتقدمة علينا ـــ تواجه أزمة البلوغ وهي لا تعرف عنها شيئاً. ولقد أجمع علماء النفس التحليليون على أن الكثير من المخاوف والهواجس والآلام والانحرافات النفسية عند المراهقين والراشدين ترد إلى جهل هؤلاء المراهقين أو أولئك الراشدين ـــ حين كانوا مراهقين ـــ بحقائق النمو الجنسي مما سبب لهم كل هذه الاضطرابات. وكثيراً ما كان العلاج بكشف السبب وإيضاح الحقائق .

ويقترح الأستاذ (فالانتاين) أن تخبر الأم، أو صديقة كبيرة السن أو قريبة، الفتاة المراهقة بأن ما تشعر به من ميل إلى معلمتها أو رفيقتها الأكبر منها سناً إنما هو شعور مؤقت يجب ألا يسبب لها أي قلق.

بيد أن الأستاذ (فالانتاين) ينبه إلى أن الكثيرين من المراهقين والمراهقات يعتبرون أن خبرتهم أمر شخصي لا يبوحون به لأحد ولا يحبون أن يناقشوه مع أحد. ولكن هذا طبعاً يجب ألا يمنع الوالد والوالدة أو المعلم والمعلمة من تشجيع المراهق أو المراهقة على التحدث في شؤونهما الخاصة مع الوالدين أو المعلم .

وبعد

فتلك هي يا صديقي بعض المعلومات عن المراهقة وبعض النصائح العلمية التي اعتقدت أنها قد تفيدك في التعامل مع أبنك المراهق أرجو أن ترى فيها عوناً لك في مهمتك الأبوية والله أرجو أن يقر عينك.

الدراسات والبحوث



في بودابست زَمـــرُّدة أوروبـــا

سليمان العيسى ❁

هذه الغَواية..

هذا الحافز العميق

الذي نسميّه الانتقال، الحركة، السفر،

اختراق الجدران التي تحيط بك..

سَمِّه ما شئتَ..

❁ شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني: الفنان غيث العبد الله.

سأقف عنده قليلاً وأسأل،

هل هو إرْثٌ من الماضي، من أعماق الزمن،

من الجاهلية حين كانت حياة الأجداد

رحيلاً مستمراً.. وحركةً دائبة؛

هل هو الحنينُ إلى المجهول، إلى التغيير،

إلى تجديد أنفسنا، كما قال أستاذنا أبو تمام،

- فاغترِبْ تتجددِ -؟

هل هو الهرب من الرَّتابة، والحياة العادية، والأشياء المألوفة التي تتكرر في حياتنا كل يوم؟

لست أدري..

كلُّ ما أُحسه وأعرفه أنني ورفيقة دربي

نبدأ التفكير في رحلة جديدة إلى أي مكان نستطيعه في رحاب الأرض كلما دنا موسم الصيف، أو الإجازة الصيفية، على الأصح، فهي أستاذة في الجامعة، ولا تستطيع الانفكاك من عملها، والتصرف بوقتها كما تشاء، إلا في إجازتها الصيفية؛ أما أنا فمُحال على المعاش -كما يؤثر إخوتنا في مصر أن يقولوا- ووقتي كله ملكي.

منذ مطلع الربيع.. نبدأ التفكير في رحلة الصيف.

وتتوالى الاقتراحاتُ مني ومنها، بعد أن نحسب جيداً ما يمكن أن نوفره من نقود لمثل هذه «المشروعات» الأساسية في حياتنا.

أقول لها: رحلة إلى الجارة تركيا ستكون جميلة جداً.

سنرى، في الوقت نفسه، أسرتنا وأقرباءنا الذين تركناهم في أنطاكية منذ أمد بعيد. وإنهم في شوق إلينا كما تعلمين.

توافق مبدئياً.. فقد سبق أن قمنا بهذه الزيارة منذ نيِّف وثلاثين عاماً، وتحدثت عنها بكثير من الحنين، وعدد من القصائد الحميمة في معالم سيرتي الذاتية: على طريق العمر.

ولكني لست على يقين الآن أن جيراننا سيسمحون لي بزيارة «بساتين العاصي» - مسقط رأسي- مرةً أخرى..

قالت: وهذا ما أتوقعه.. ثم أردفَتْ:

لِمَ لا نزورُ بقعةً جديدة لم نعرفها من قبل؟

لِمَ لا نقصد «زُمرُّدَةَ أوروبة» هذه المرة؟

أتعرف ماذا أَعني بـ « زُمردة أوروبة»؟

إنها بودابست.. نعم مدينة بودابست، عاصمة هنغاريا (المجر) التي يخترقها الدانوب.

وهو في عنفوان شبابه، وجماله، وروعته.

❀ ❀ ❀

ويلمع في البال فجأةً فالس الدانوب الأزرق الذي أبدعه شتراوس، والذي كنت أسمعه، وما زلت، في كثير من المتعة والإعجاب. قصيدة موسيقية صغيرة لا أحلى ولا أعذب هذا الذي أملاه «الدانوب الأزرق» على أصابع شتراوس. وما أظن صفة «الأزرق» هذه إلا هدية من الموسيقي العظيم للنهر الجميل.

وتتابع رفيقتي: يقال إن بودابست أجمل مدينة في أوروبة بطبيعتها الساحرة. إنها وردة ضخمة تملك ألف لون ولون، يشقها الدانوب إلى نصفين عالٍ ومنبسط، ولا تدري أيهما الأمتع والأبهى.

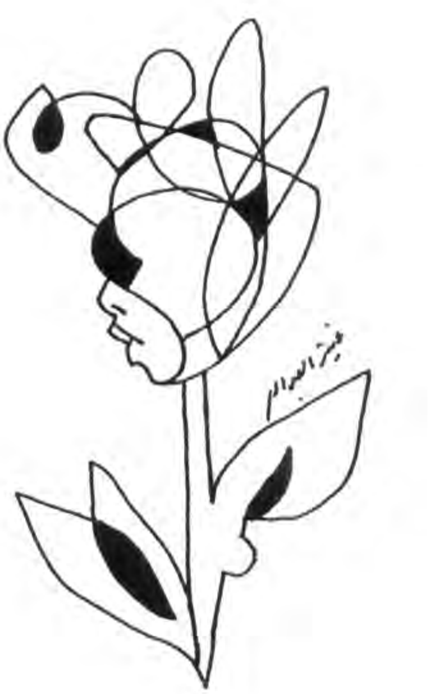
لقد مررت بها مروراً عابراً ذات يوم. وما زلت أحلم أن نمضي فيها بضعة عشر يوماً. إنها زُمُرُّدةُ أوروبة فعلاً..

وبدون أي تردُّد.. وجدتُني أوافق على الفكرة، بل أجعل منها قراراً نهائياً. ستكون إجازتنا إذاً هذا الصيف في بودابست أو بودابشت كما يلفظها أهلها.

❀ ❀ ❀

وتسارع رفيقة الدرب لتقول لي، وكأن شيئاً جديداً خطر في بالها فجأةً:

هل نسيت أن ابنة شقيقتي المهندسة



رشا تقيم في بودابست منذ عامين أو ثلاثة، وأنها ما تزال تلحُّ علينا من حين إلى آخر بزيارتها؟

قلت: وهذا ما يجعل الرحلة قائمة إذاً منذ الآن.

دعينا نتصل برشا، ونخبرها أننا قادمون.. ونكلفها أن تحجز لنا منذ الآن في فندق صغير مريح..

وهكذا كان..

فقد أخبرتنا ابنتنا المهندسة أنها اختارت فندقاً يقع على أطراف المدينة، في قلب

غابة صغـــيرة، وستكون الأشجـــار الباسقة، والعصافير من كل الألـــوان، وسقسقةُ المياه من حولنا، جيراننا الأدنَـــيْن طَوالَ إجازتنا، وأنهـــا تأسف أشد الأســـف لأننا رفضنا أن نكون ضيوفها في بيتها الصغير الذي لا يكاد يتسع لها ولزوجها وطفلتها.

❁ ❁ ❁

نحن في مطار بودابست..

صباح ناعم جميل يداعب وجوهنا ونحن نخطو أولى خطواتنـــا في المطار.. والطبيب الشاب الدكتور فهد، زوج رشا، يفتح ذراعيه مرحبـــاً بنا، ثم يضمنـــا في سيارته، وينطلق بنـــا إلى «مأوانا» في قلـــب الغابة الخضراء، حيث نلقي عصـــا الترحـــال، ونستقر على فنجان قهوة في شرفة الفندق، تسقسق تحت أقدامنـــا نافـــورة ماء صغـــيرة تذكّرني على الفور بنافـــورة الحديقة في بيت ابنتنا بادية بمونتريال. إنها النافورة عينها التي تركناها ذات يـــوم هناك، وألحانهـــا الحلوة ما تزال تملأ سمعنا وقلبنا معاً.

لَكَمْ تتشابهُ الأشياء الجميلة في كل مكانٍ من هذه الدنيا!

❁ ❁ ❁

ما كدنـــا نستقر.. حتـــى بدأنا نخطط، ماذا سنرى؟

وأين سنذهب؟ خلال هذه الإجازة التي تفتح ذراعيها الخضراوين لنا. كل شيء من حولنا يلفُّك بالخُضرة والنَّضرة. بودابست.. هـــذه الحديقة الضخمة بدت لنا أنها تملك أجمل ما أبدعته الطبيعةُ

من لون وظل وماء.

قلت لرفيقتي: طبيبنا الشاب معنا، وهو يؤكـــد أنه غير منشغل هـــذا الصباح بشيء. لقد خصَّصَه لنا.

دعينا نَقُمْ بجولـــة خاطفة إذاً في أرجاء المدينة نجتـــاز بها نهرهـــا الرائع، من على أحـــد الجسور التي تنتصـــب فوقه (كقلائد من جُمَان).. على حد تعبير أستاذنا المعري.. قلائد تصـــل بـــين ضفتيـــه الرائعتين هنا وهناك، تاركةً النهـــر العظيم ينساب تحتها زاخراً بالحركة والقوة والجمال.

وإنْ هـــي إلا لحظات.. حتـــى كنا فوق أحـــد الجسور، نجتـــازه بسيارتنا الصغيرة. ويدهشني أن الدانوب لم يكن أزرق كما أشاع عنه موسيقارنـــا الكبير في «فالسه» الخالد، ولكنه كان داكنـــاً، شديد الدُّكنة، حتى خلتهُ يُهـــدد بالتهامنا كل لحظة، ونحن نمر فوقه آمنين.

منذ فـترة قريبـة.. كان النهر قد طفح كيلُه، وغَزُرَت مياهه إلى حد تهديد ضفافه القريبة كلها بالغرق.

ولكن غضبتـه الشديـدة كانت لحسن الحظ قد انحسرت عند وصولنا، وإن كانت آثارها ما تزال عالقةً بالضفاف.

❀ ❀ ❀

هذا الداكـن الغاضب الذي يهدر تحتي وأنا أعبره، لـه في شعري ذكرى حلوةٌ حلوة، تومضُ في البال الآن.

لقد أهديـت إليه قصيـدةً صغيرة قبل بضعـة أعـوام، تُرجمـت إلى الفرنسيـة والإنكليزيـة، وماتزال تحتل مكانها في أحد دواويني السابقة. كانت القصيدة بعنوان:

خمس دقائق مع الدانوب.

أيها الداكـن الغاضب الذي يهدر تحتي الآن، وأنا أعـبر أحد جسوره، دعني أذكّرك بأبياتي الحلوة التي أمليتها عليَّ

ذات يوم.. هل تذكر أين؟

كل ذلك في بلغراد..

وأنت تعبر بلغراد كمـا تعبر بودابست.. كنـتُ مدعواً إلى ملتقى أدبي هناك.. وحين قادتنـي الصبيـة اليوغوسلافيـة، مندوبة المؤتمـر، إلى نزهة إليك، وقفـتُ في مكان تتلاقى فيه مع نهر السافا.

أحد روافدك؛ كنـت أزرق المياه فعلاً.. وكان المنظر رائعاً.

أذكر أني همست في أُذنك.

صباحُ الخيرِ.. يا أزرقْ!
ويا إيماءةَ المُطْلَقْ
صباح الخير.. شيءٌ من
ضفافكَ في دمي أورقْ
أَلُمُّكَ، والصِّبا خلفي
بِهُدْبي، في الرؤى أَغْرَقْ
زمانٌ مَرَّ.. لم نُصْبِحْ
معاً كأساً، ولم نُغْبَقْ
أَلُمُّكَ نغمةً عذراءَ..
سرَّ حكايةٍ مُغْلَقْ
وأنتَ تُعانقُ «السافا»
ويَنْسَى الصحبَ من يَعْشَقْ
وتسقي الوردةَ البيضاءَ(١)
حتى يسكر الزنبقْ
تمدُّ يديكَ للعشاقِ،
في خُطُواتِهم تَعْبَقْ
ووحدي أجتلي شفتيكَ..
يا للظَّامئ المُرْهَقْ!
صباحُ الخير.. قُلْها لحظةً
من عمرنا تُسْرَقْ

تلاقى الشاعران على
لُهاثِ قصيدةٍ تَغْرقْ
ولا أدري -وحقّ هواكَ-
أيُّ جِراحِنا أعمقْ!

دقائقُ.. ثم يدعوني
الشراعُ، ويُقلعُ الزورقْ
ويبقى خمركَ الأزليُّ،
يبقى العطرُ والدورقْ

× × ×

صباحُ الخير..

أشعرُ أنتَ..

أحلى أنتَ

يا أزرَقْ[2]

كان ذلك في ١٩/١٠/١٩٨٢. إني مولع بالتاريخ.

❀ ❀ ❀

نواصل جولتنا.. مؤثرين جوار النهر دائماً، نائين بأنفسنا من زحمة الأسواق ما استطعنا.

لزيارة الأسواق وقت آخر لابد منه..

ويلتفت إلينا الطبيب الشاب:

ما يزال الوقت مبكراً.. ما قولكم بزيارة لجزيرة مارغريت..

هناك في أقصى المدينة.. ربما كانت أروع ما يمكن أن تشاهدوه هنا.

جزيرة مارغريت.. أو مارغت.. كما يسميها أهل البلد..

هذا الاسم المقتطف من بيت شعر بالغ العذوبة والرقة. وبادرتُ بالجواب قبل الجميع:

إلى جزيرة مارغريت.. الاسم وحده يغري بالذهاب إليها.

قال مرافقنا الشاب:

نعم.. إنها تحمل اسم صبيَّة حسناء، كانت إحدى الأميرات في هذا البلد.

وفي دقائق.. كنا نمتطي أحد المراكب النهرية التي تؤمُّ الجزيرة ذهاباً وإياباً في صدر الدانوب.

وها نحن أُولاء في جوار الجزيرة غير البعيدة التي راح النهر يطوّقها، ويُغدق عليها ما شاء من هِباتِ الجمال.

نزلنا ميناءها الصغير، ودخلنا هذا الفردوس الغارق في الخضرة والعشب والظلال. كان فندق أنيق يستقبلنا منذ الخطوات الأولى، تنتثر أمامه بضعة مَقَاهٍ

تُغريك بالجلوس منذ اللحظة الأولى.

كنت متعَباً.. فلم احتَجّ إلى كثير من الإغراء لأجلس وأستريح. قلت لرفيقتي:

ائذني لي آخذ قسطاً من الراحة، وأملأ كل جارحة من جوارحي بهذه المشاهد الخلاَّبة التي تحيط بي الآن، وبعدئذ.. سأفكر في الطواف معكم في أرجاء هذا الفردوس المسوَّر. بمياه الدانوب.

ضحكت رفيقة الدرب وقالت: سنتركك هنا تأخذ قسطاً من الراحة كما تشاء، وسنمتطي هذا القطار الصغير ونقوم بجولة خاطفة في أرجاء الجزيرة، ثم نعود إليك.

وافقتُ على الفور، مكتفياً بما حولي من سحر وفتنة، وأخذتُ أرتشف فنجان قهوة طلبته بسرعة وأشرد في الأفق البعيد.

❀ ❀ ❀

لِسّت.. عازف البيانو المجري الأشهر، (مالئ الدنيا وشاغل الناس) في القرن التاسع عشر، هو عندي البلد كله.. لم ألمح له أثراً حتى الآن. كنت أتوقع أن أراه في مكان ما.. أصافحه.. أتحدث إليه فور دخولي المجر.

اعترف أني كنتُ في فترة من فترات الشباب مشدوداً إلى كل نقرة يوقّعها هذا العازف العظيم على أصابع البيانو، ولا سيما مقطوعته الشهيرة (رابسودي هنغارية).

لكمْ كنتُ مشغوفاً بهذه القطعة الموسيقية، الزاخرة بالانفعال، أنا وعدد من رفاقي، في مطلع الشباب. كنا نسميها (العاصفة). أذكر أننا ذهبنا مرةً إلى بائع أسطوانات موسيقية في دمشق، وطلبنا إليه شراء هذه (العاصفة)، فضحك.. وعلمنا منه لأول مرة اسمها الحقيقي.

❀ ❀ ❀

وتحدث المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، وأنا أرتشف فنجان قهوتي في حديقة الفندق الأنيق. يخرج إلى الحديقة فجأةً مجموعة من الفتيات والفتيان، بثيابهم الريفية المزركشة، ويبدؤون رقصتهم الشعبية على أنغام القطعة الموسيقية نفسها التي كنت مفتوناً بها، وما زلت. يا لها من مفاجأة! ربما كان هؤلاء الشباب يقيمون احتفالاً في مناسبة ما، وقد اختاروا هذه «الرابسودي» التي قيل لي إنها أصبحت منذ أمدٍ بعيد رمزاً من رموز الفن الشعبي الأصيل في المجر كلها. بل ربما اختاروها هدية لي..

من يدري؟

وما كادت الرقصــةُ الرائعة تنتهي حتى أقبلت رفيقة الدرب من جولتها في الجزيرة، ورأتني منطلق الأسارير، باديَ الارتياح، قلت لها:

لقد فاتكِ مشهد ربما كان أجمل من أية جولة يمكن أن نقوم بها

في هذا البلد. وحدثتها بما شاهدت قبل قليــل. كان حشد الصبايا والشباب ما يزال منتثراً في أرجاء الحديقة. أجابت:

كانــت جولتنا رائعة أيضـــاً، ويسرني أن تكون قــد وجدت ما يعوّضــك عنها خلال انتظارك لنا.

❁ ❁ ❁

لا أريد أن أتحدث بالتفصيل عن كل ما شاهدناه في بودابست وما حولها،

خــلال إقامتنا فيها. لا أحــب «السرد» العادي. إنني أوثر أن ألتقط من هذه الزيارة مــا كان له أثر يمكن أن يبقى في النفس وأن تستعيده الذاكرة بشيء من الحب والحنين.

الأشجار الخضراء واحدة في كل مكان..

ولكنّ.. أن تجد طفلاً في العاشرة،

يقفُ تحت شجرة خضراء سامقة، يؤدي لــك التحيــة الرسمية، وهو يرتــدي ثياب الطلائع، ثم يشير إليك أن تتفضل بالصعود إلى القطار الذي سَيُقِلُّك في نزهة ممتعة إلى ضواحي العاصمة..

تلــك لَعمري لقطةٌ لابد أن تأخذ مكانها في أعماق الذاكرة.

إني مـــا أزال أرى هؤلاء الأطفال، في زيّ الطلائع، يتولون قيادة «النزهة الممتعة» التي أقلتنـــا فعلاً، أنا ورفيقتــي، إلى ضاحية من ضواحي. بودابست.

كان الطريق وحده متعةً تأخذ بالألباب. ولكن أجمل ما فيه أطفـــال الطلائع الذين تولوا قيادة القطار في الذهاب والإياب.

❁ ❁ ❁

هل سيلومني قارئــي العزيز، أو قارئتي العزيــزة، إذا أغفلــتُ الحديــث قليلاً عن القصر الملكي الرائع في هذه العاصمة؟

لقد زرنـــاه غير مرة خلال إقامتنا فيها. طفنا قاعاته الفخمة، وباحاته الواسعة، بل تناولنا عشاءنـــا في إحدى حدائقه الجميلة ذات مرة.. كان عشاءً بسيطاً طبعاً، لا يعدو بعض الشطائر من اللحم أو الجبن،

وبعض أكواب العصير.

ولكن أنسام المســاء الباردة الناعشة في تلــك الحديقة الصغيرة كانــت أمتع وأشهى من أي طعام كان.

❀ ❀ ❀

سيعتب عليّ قصر (البرلمان)، أبرز بناء في الشطــر الآخر من المدينة إذا لم أذكره بكلمة عابــرة. إنه جدير بأكثر من كلمة. ها هو ذا يبدو أمامــي الآن وأنا في حديقتي الصغيرة التي تحدثت عنها قبل قليل شامخاً، مزهواً بجدرانه وسقوفه الرائعــة التي تلمع تحت أضواء المساء.

قال لي أحد الأصدقاء الهنغاريين:

لقــد أُنفقَ على هــذا البنــاء ما يكفي لانتشال نصف سكان المجر من الفقر الذي يعانونه.

ربما كان صديقــي مبالغاً، ولكن عَظَمة البنــاء التي تلــوح أمامي من بعيــد تسوّغ لصديقي أن يقول عنه ما قال.

❀ ❀ ❀

ها قد مر أكثر مــن أسبوع على وجودنا هنا.

ومــا أظننا تركنا مكانــاً جميلاً في هذا البلــد، أو فيمــا جــاوره إلا عرَّجنــا عليه، وأمضينا فيه ساعات جميلة.

ولكننا لم نقصد السوق حتى الآن.. رفيقة الدرب لا تريد أن تغادر هذه المدينة المعروفة بمطَرَّزاتها، ومنتجاتها اليدوية البديعة، دون أن تحمل منها بعض الذكريات.

وها نحن أولاءِ.. في السوق.

تختــار لي رفيقتي مقهــىً مريحاً على ضفــة النهر.. وتغيــبُ هــي في الحوانيت الأنيقة، القريبة، تتفــرج، وتختار ما يطيب لها من أشياء.

ومــا تلبث بعــد ساعــة أن تعــود وفي يدها كيسٌ يَغَصُّ بالأشيــاء الجميلة التي اختارتها.

ونجلس معاً على فنجان قهوة نستعرض مــا اختارته ممــا أبدعت الأيــدي الفنانة العاملة في المجر.

وأتذكر القول العربي الشهير:

لابُدَّ مما ليس منه بُدٌّ..

❀ ❀ ❀

لم أتحدث إلى الآن عن أي نشاط ثقافي، أو ملتقى إبداعي، في عاصمة لِسْت..

إنه موسمُ الصيف..

والحركةُ الثقافيــة كلها تتوقف عادةً في

هذا الموسم.

كلٌّ يريد أن يرتاح قليلاً..

أن ينعم بإجازة مثلنا..

هذا ما افترضناه نحن على الأقل..

ولذلك أرحنا أنفسنا من هذا الهم،

وتركنا سوانا يرتاح..

ولو بحثنا عن بعض هذا النشاط لوجدناه بالتأكيد.

ولكني كنت أعود إلى فندقي، بعد عناء نهار كامل، وآوي إلى فراشي على الفور. فمعذرة من كل المبدعين والمبدعات في وردة أوروبة الساحرة.

❀ ❀ ❀

وإلى لقاءٍ في مواسمَ أخرى.. أيتها العزيزة بودابست.

الهوامش

١- مدينة بلغراد، واسمها المدينة البيضاء.

٢- ديوان: رائحة الأرض المترجم إلى الفرنسية، ص٣٥.

الدراسات والبحوث



في مفهوم «اللاعنف» عند غاندي:

قراءة في الدلالات الفلسفية والأبعاد الإنسانية

د. علي أسعد وطفة ❊

قد يبدو مفهوم اللاعنف للوهلة الأولى مفهوماً كلاسيكياً لايختلف كثيراً عن غيره من المفاهيم التي تجاوره في المكان وتجانسه في الدلالة؛ ولكن ما أن يتأمل المرء فيه ويتمعن في تجلياته حتى يجد نفسه في فضاء فكري مترامي الأبعاد في مستوياته الفلسفية والإنسانية. وليس من المصادفة أن يرتبط هذا المفهوم ارتباطاً عميقاً بالحكمة الإنسانية الشرقية، بما تشتمل عليه هذه الحكمة من إشراقات إنسانية، وشطحات صوفية كانت وما زالت

❊ أديب وناقد وأستاذ في جامعة الكويت
العمل الفني: الفنان غيث العبدالله

قادرة علــى التوغل في أعمق مناطق الوعي الأخلاقــي والوجــداني في الإنسان؛ وليس غريباً أن يتعانق جمال هذا التسامح الصوفي المتضوّع بالحكمة الشرقية، مع سمو الحكمة المسيحية القديمة، وما أجمل أن يخفق بين هاتين الحكمتين قلب المهاتما غاندي الكبير، الــذي متحَ رحيق المحبــة من معين الحكمة الهندية القديمــة، ونهل من معين الحضارة الغربية المتدفقة، فجاء عطاؤه غمراً إنسانياً مصقــولاً في منهــج فكري فلسفــي أصيل، فأخذ المفكرون من ذلــك العطاء يرتحقون ومن هذا الفكر ينهلون في سبيل بناء فلسفة إنسانيــة للسلام قادرة علــى أن تنير دروب الشعــوب المظلومــة والمغلوبة علــى أمرها نضالها من أجل الحق والحرية والسلام.

لقد استلهم المهاتمــا غاندي[1] حكمتي الشرق والغــرب، فأخصب ما بينهما ليشيّد فلسفــة جديدة كان لها أثــر كبير في توجيه النضال الإنساني من أجل الحرية والسلام. ولكن حبــه للسلام ونضاله مــن الحرية لم يحصنــاه ضد الشهــادة التــي كان يطلبها تيمنــا بقوله «تعلمت من الحسين كيف أكون مظلومــاً فأنتصر»[2] فــكان على موعد من الشهادة وكان له مــا أراد، حيث منحه أحد الهندوســ المعتصبين شرف الشهادة فنهض بهــا رمزاً للحرية وعنوانــاً لفلسفة النضال السلمي من أجل الحريــة والسلام[3]. رحل غاندي ولكن أنساقه الفكرية مازالت تشكل طاقة إنسانية حيويــة تعتمدها الشعوب في النضــال ويعتمدها المفكرون في تأجيج هذا النضال وعقلنته فكريــاً ونظرياً مستلهمين روح غاندي وفلسفته.[4]

مؤثرات غاندي:

تشكل الحكمة الهندية القديمة (التاوية والبوذيــة والبرهمانية) المصــدر الأساسي لفلسفــة غاندي التسامحيــة. ويمكن القول بأن تأثير البوذيــة كان واضح المعالم في فكر وسلــوك غاندي. ومن يتمعــن جيداً سيجد بــأن بوذا كان بمثابة المثــل الأعلى لغاندي، وذلــك نظــراً للتجانس الكبــير في السلوك والتفكــير والعقيدة. وقد تبين لنا بعد قراءة متأنية لسيرة الرجلين وجود تأثير كبير لبوذا في غاندي، علمــاً بأن الدراســات الجارية حول غانــدي لا تتضمن الإشــارة إلى هذا الأمر علــى الرغم من أهميتــه، وقد يعود ذلــك إلى أن غاندي لم يُلِحّ على هذا الجانب لأسباب قد تكــون عقائدية. ومع ذلك فإنه تجب الإشارة إلى أن البوذية من أكثر العقائد تأكيــداً على قيم التسامــح، وأكثرها رفضاً لكل أشكال العنف والإكــراه والظلم، وهذا

ما تقتضيه بالضرورة عقيدة التناسخ التي تشكل الصمام العقائدي للبوذية.

ومن أجل أن ندلل على أهمية التأثير الكبير للبوذية في فكر غاندي التسامحي يمكننا أن نورد نموذجاً فكرياً حول قيمة التسامح البوذي في حوار يجرى بين بوذا وبورنا (أحد مريديه)، لقد أراد بوذا لمريده بورنا هذا أن يذهب إلى قبيلة (سرونا بارانتا) لنشر دعوته، وكان بوذا يعلم أن هذه القبيلة معروفة بالشراسة والخشونة ولا ينجح معها إلا الرجل الحكيم الصبور، فأراد بوذا أن يعرف مدى استعداد بورنا هذا لتحمل مشقة الدعوة وعناء المواجهة عبر الحوار التالي بينهما:

– بوذا: إن رجال هذه القبيلة قساة القلوب سريعو الغضب، فإذا وجهوا إليك ألفاظاً بذيئة خشنة، ثم غضبوا عليك وسبّوك، فماذا أنت فاعل؟

– بورنا: أقول لا شك إن هؤلاء قوم طيبون لينو العريكة لأنهم لم يضربوني بأيديهم ولم يرجموني بالحجارة.

– بوذا: فإن ضربوك بأيديهم ورجموك بالحجارة فماذا أنت فاعل؟

– بورنا: أقول بأنهم قوم طيبون لينون إذ لم يضربوني بالعصي ولا بالسيوف.



– بوذا: فإن ضربوك بالعصي والسيوف؟

– بورنا: أقول بأنهم قوم طيبون ورائعون لأنهم لم يحرموني من الحياة نهائياً.

– بوذا: فإن حرموك الحياة؟

– بورنا: أقول بأنهم قوم طيبون إذ خلّصوا روحي من سجن هذا الجسد السيئ بلا ألم كبير.

– بوذا: أحسنت يابورنا إنك تستطيع بما أوتيته من الصبر والثبات أن تسكن في بلاد

قبيلة سرونا فاذهب إليهم وخلصهم مما هم فيه.

وهذا الحوار يدلل بصورة واضحة على عظمة فكرة التسامح في البوذية ورفضها للعنف بصورة مطلقة. كما يدل من جهة أخرى على أهمية تطهير النفس من مطلق الشرور التي تتصل بالقلب الإنساني مثل الكراهية والبغضاء والحقد والخوف. فبورنا في هذه الصورة لايخاف ولا يوجد في قلبه إلا مطلق الحب والتسامح. وذلكم جوهر التسامح الذي يشكل صميم الفكرة الغاندية لمفهوم اللاعنف.

وما لاشك فيه أيضاً أن غاندي قد تأثر بصورة كبيرة جداً بالحكمة المسيحية القديمة التي تتجانس مع جوهر البوذية في رفض العنف وطلب المحبة والسلام الأبدي. فاللاعنف يأخذ صورة حكمة إنسانية خلاقة في المسيحية الأولى دين المحبة والسلام. لقد أفاض السيد المسيح عليه السلام في دعوته الإنسانية الشاملة إلى المحبة والخير والإخاء الإنساني وإلى الرفض المطلق للعنف طلباً للمحبة والتسامح والسلام؛ وتكمن هذه الحكمة كلياً في قوله المقدس «أحب أعداءك وأحسن إليهم». وفي قداسه الشهير أو عظة الجبل حيث يقول: «لا تناهض الشر، فمن ضربك على خدك الأيمن قدم له الأيسر(..) افعل الخير لمبغضيك وصلي من أجل ظالميك»(٥). وتلك هي نماذج من الشهادات المسيحية الأولى على قيمة اللاعنف ودوره في الحياة الإنسانية. وقد شكلت مقولة السيد المسيح حكمة إنسانية ولكنها تجاوزت حدود الحكمة واتخذت لها صورة برنامج نضالي لمواجهة الأقوياء، وقد تجلت هذه الصورة الجديدة للمفهوم التي اتخذت من اللاعنف منهجاً في مقاومة القهر والاستبداد، في ما سجله التاريخ من مقاومة البابا ليون Le pape Léon السلمية لاجتياح أتيلا Attila، عندما قام هذا الأخير بمهاجمة روما، وقد دهش أتيلا(٦) عندما لم يجد أي مدافع أو مقاتل على الأسوار، وكان الناس يصلون في الكنائس، وكان رجال الدين من كهنة وقساوسة يطوفون بالدعاء المسالم والتراتيل الدينية في أرجاء المدينة، واستطاع البابا بطريقته هذه إنقاذ المدينة من السلب والحرق والاجتياح. وهناك عدد من الطوائف المسيحية التي مارست مبدأ اللاعنف في مواجهة القضايا السياسية، واقتصر اعتراضهم على الجانب الأخلاقي مثل (المومونيتس Memonites والأميش les Amish والمورمون les Mormons

في أوروبــة والولايات المتحــدة الأمريكية؛ والدوكهوبورس Doukhobors في روسيا، والهيتريت Hutterites في مورافيا.

ولا يتنكــر غانــدي أبداً لتأثــره بالفكر الإسلامــي وإعجابه بــه، إذ كان لشخصية النبــي محمد (صلى الله عليــه وسلم) تأثير كبــير في التكويــن الفكــري عنــد غاندي، ولنترك غانــدي يعبر عن هذا التأثير بنفسه حيث يقول «لقد أردت أن أتعرف على أفضل ما في حيــاة شخص تخفق له قلوب ملايين من بني البشر.. ولقــد اقتنعت أكثر من أي وقت مضى بحقيقة أن السيف لم يكن هو من فاز في تلك الأيام، بل كانت البساطة والحب والتسامح، والمحو الذاتي التام للنبي (ص)، والاحترام الدقيق للعهود، والتكريس العظيم تجــاه أصدقائــه وأتباعه، وجرأتــه، وقلة خوفــه، وثقته التامة بــالله وبرسالته. هذه القيــم الإنسانية وليســ السيف هو السلاح الذي اعتمده المسلمون الأوائل في انتصارهم الإنساني. يقول غاندي عندما قمت بإغلاق المجلد الثاني (من سيرة النبي)، قمت بذلك بأسف لأنه ليس هنالك المزيد لأقوم بقراءته عن هذه الحياة العظيمة. ليس هنالك طريق للسلام، بل إن السلام هو الطريق»(٧). ومما لا شك فيــه أن تجربة انتشــار الإسلام في الشــرق الأقصى دون استخدام للقوة تجربة مثــيرة للاهتمام ومن الضرورة بمكان لرجل في مقام غاندي أن يتلقف المعاني الأخلاقية التسامحية لهذه التجربة العظيمة.

كما يمكن الإشارة إلى عدد من المفكرين الغربيــين المحدثــين الذين أثــروا في فكر غاندي وفلسفته، مثل: الفيلسوف الإنكليزي النقدي جون راســ كينغ John Ruskin، وليو تولستــوي Léon Tolstoï في روسيا الذي تبادل الرسائــل مع غاندي الشاب في نهايــة حياته ما بين ١٩٠٩-١٩١٠، في وقت الذي كان فيه غاندي يناضل من أجل تحرير الهند والدعوة إلى الحقوق المدنية للهنود في جنوب إفريقيا(٨). ويمكن الإشارة أيضاً إلى الشاعر الأمريكي هنري دافيد تورو Henri David Thoreau (١٨١٧-١٨٦٢) الذي ألــف كتاباً حول الحــق في الرفض المدني، (Civil Disobedience ١٨٤٩) وهــو الكتاب الذي أثــر في كل من غاندي وكينغ. لقد أســس تورو لأهمية الحكم الصادر عن الوعــي الأخلاقي، حيث يــرى أن الأحكام الأخلاقية الصادرة عن الوجدان الأخلاقي تكون عادلة بالضــرورة وهي تعلي من شأن الكرامــة أكثر من الخضــوع للقانون. هذه النزعة التسامحيــة الفردية عند تورو أثرت

في غانـدي، واستطاعـت أن توقـظ فيـه إحساساً متوقداً بالتقاليد الهندية القديمة المتعلقة باللاعنف والتسامح.(٩)

وباختصـار، يمكن القول بـأن غاندي قـد تأثـر بعـدد مـن المؤثـرات الفكرية التـي كان لهـا دور كبير في بلـورة فلسفته ومواقفه السياسيـة، لقد تأثر غاندي وأيما تأثـير بـ«نشيد الطوبـاوي» وهي عبارة عن ملحمـة شعرية هندوسية كتبـت في القرن الثالث قبـل الميلاد واعتبرها غاندي بمثابة قاموسـه الروحي ومرجعـاً أساسياً يستلهم منه أفكاره. كما تأثـر تأثيراً كبيراً بموعظة الجبـل اليسوعيـة، وفوق ذلـك كله بكتاب «حتى الرجـل الأخير» للفيلسوف الإنكليزي جـون راسـ كينغ الـذي مجد فيـه الروح الجماعية والعمـل بكافـة أشكاله، وكتاب الأديـب الروسـي تولستـوي «الخلاص في أنفسكم» الذي زاده قناعة بمحاربة المبشرين المسيحيـين، وأخيراً كتاب الشاعر الأمريكي هنري ديفد تـورو «العصيان المدني». ويبدو كذلـك تأثر غانـدي بالبراهمانية التي هي عبارة عن ممارسة يومية ودائمة تهدف إلى جعل الإنسان يتحكم بـكل أهوائه وحواسه بوساطـة الزهـد والتنسـك وعـن طريق الطعام واللباس والصيام والطهارة والصلاة والخشوع والتزام الصمت يوم الاثنين من كل أسبوع. وعبر هذه الممارسة يتوصل الإنسان إلى تحريـر ذاتـه قبـل أن يستحق تحرير الآخرين.(١٠)

في مفهوم اللاعنـف عنـد غانـدي: الأهيماسا والساتياغراها:

صقـل غاندي مفهـوم اللاعنف وقدمه للإنسانيـة منهجـاً أخلاقيـاً في النضـال الإنساني من أجل الحرية والحقيقة. ويرتكز مفهوم اللاعنـف عند غاندي على ركيزتين أساسيتين همـا الأهيماسا والساتياغراها. ولايمكننـا فهـم الدلالـة الفكريـة لمفهوم اللاعنـف عند غاندي مـن دون العودة إلى هذين المفهومين.

فاللاعنف ترجمـة لكلمة A-himsa في اللغـة السنسكريتيـة (لغـة البراهمـة القديمة في الهند). وهذه الكلمة موظفة في اللغة السنسكريتيـة وفي النصوص البوذية والهندوسيـة واليانية. وتجـدر الإشارة في هذا السيـاق إلى أن الديانة اليانية -إحدى ديانات الهنـد القديمة-كانت تعتمد منهجاً في تطهير النفس الإنسانية باللاعنف. وهذه الكلمـة كما هو مبـين مركبة مـن كلمتين هما العنف ونفيـه في السنسكريتية فكلمة himsa تعني الرغبة في التدمير واستخدام

العنف ضد كائــن حي، وبالتالي فإن إضافة البادئــة «a» تعطــي الكلمــة معنــى النفي فتتحول الكلمة إلى صيغة A-himsa وهي هنا تعني العرفان والترويض والسيطرة على الرغبة والميول والعنف الذي يوجد في داخل الإنسان وهي الطاقة التي تدفع إلى إقصاء الآخر وإيذائه وإبعاده ومن ثم إماتته.

ويعــد مفهــوم الساتياغراهــا الركيزة الثانيــة لمفهــوم اللاعنــف عنــد غاندي. لقــد اتخذ غانــدي مفهــوم الساتياغراها شعاراً لمسيرته النضاليــة. وعنواناً لفلسفته الأخلاقية، والساتياغراهــا saty graha كلمــة سنسكريتية قديمة تعني قوة الحقيقة (saty= قوة- agraha= الحقيقة). وهكذا قام غاندي بتسويق فكــرة «الساتياغراها» المعتمــدة علــى التــزاوج ما بــين الحقيقة (ساتيا) والحب (أغراها). ومن هذه الفكرة استنبــط مبــدأ المقاومة اللاعنفيــة، باذراً بذلك البذرة الأولى لحركة شعبية جماهيرية ستتوسع وتتعدد وسائلهــا السلمية وينحني لها العالم احتراماً.(١١)

وفي التصور الجديد لهذا المفهوم تأخذ الساتياغراهــا صورة القــوة الأخلاقية في أسمــى صورها، «إن الثبــات على الحقيقة يحتــاج إلى إرادة كبيرة لا تتوفــر لأي كان، لأن هذا الثبات سيتعرض لامتحانات كثيرة، قد تجبر كثيرين على التراجع والتسليم. كما أن الثبــات على الحقيقة يتطلــب أن يكون الإنســان مستعداً للتضحيــة وتجشم عناء التعذيب والاضطهــاد، وهذا كله يحتاج إلى قوة وإرادة واستعداد للبذل والتضحية»(١٢). والساتياغراهــا فوق ذلــك كله تجسد مبدأ الحب، إذ لا تدعو أبداً إلى كراهية الخصوم والحقد عليهم، وهــذا ما كان غاندي يحثّ أتباعه عليه ويحضهم على كره الإثم وليس الآثم، ووفقاً لهذا التصور فإن الساتياغراها تعتمد الحب الإنساني وتركن إليه في مواجهة العنف والكراهية والانتقام.

ومن جديد يجب التأكيد أن الساتياغراها تحتاج إلى ضبط النفســ والتحكم بالذات، والصبر وقوة الاحتمال، فمن يتعرض للأذى بسبــب موقفه الثابت علــى الحق، ولا يرد العنف بمثله، ولا يسمــح للبغض أو الرغبة في الانتقــام بالتسلــل إلى نفسه إنسان قوي جداً، وليس ضعيفاً أبدا(١٣). والساتياغراها ليســت حركــة رفض غــير واعــي لمجرد الرفض، بــل هي حركة واعية عاقلة تعرف مــا تريد، وتعرف لماذا تقاوم، وبعبارة أخرى ليست حركة فوضــى وشغب، بل حركة بناء وتصحيح.(١٤)

لقد عمل غاندي على نشر مبدأ الساتياغراها وتوضيح معالمه، ووجد أن الشعب لن يفهم هذا المبدأ ما لم تقم فئة متنورة واعية من المفكرين والمناضلين باستخدامه بينهم بصورته السليمة الصحيحة، لذلك فقد توجه إلى العمل على إيجاد هذه النخبة المثقفة القادرة على فهم مبادئ الساتياغراها ونشرها بين الناس بالصورة المثلى لمعانيها ودلالاتها.[١٥]

إن إصرار غاندي على نشر مبدأ الساتياغراها يدل على إيمانه العميق بها منهجاً للمقاومة، ولا ننسى أن غاندي استخدم الساتياغراها في جنوب أفريقيا حيث كانت حينها بلداً عنصرياً، وعندما كان الهنود فيها جالية مهاجرة وهي على صغرها كانت متعددة الطوائف والأعراق والأديان. وعندما عاد غاندي للهند استمر في دعوته إلى فلسفة اللاعنف ومنهجه رغم أن الهند كانت بلداً محتلاً، عمل فيه الانكليز على تفرقة الناس وإثارة النعرات الطائفية بينهم، وقد وجد غاندي أن العنف يؤدي إلى الخراب والتدمير، بينما يأخذ الثبات على الحقيقة إلى وحدة الشعب الهندي ويجعلهم قوة لا يستهان بها قادرة في النهاية على تحقيق النصر المنشود.[١٦]

وهكذا ووفقاً لهذه الصورة فإن اللاعنف الغاندوي يأخذ صورة مبدأ أخلاقي، يرسخه غاندي بقوله: «إنني أؤمن بمبدأ اللاعنف»[١٧]. وهو إذ يؤمن به فلأنه وكما يراه غاندي يشكل المنهج الصحيح في البحث عن الحقيقة، ولذلك يعلن دون تراجع أو تردد بأن اللاعنف هو الطريق الذي يهتدي به الإنسان في بحثه عن الحقيقة، وأن اللاعنف والحقيقة مرتبطان برابطة لا ينفصم عراها أبدا، وكلاهما يشكلان وجهين غير متمايزين لحقيقة واحدة.[١٨]

اللاعنف بين الحكمة والفلسفة:

يأخذ مفهوم اللاعنف كما أشرنا في البداية حضوره المميز في الحكمة القديمة، حيث يتألق مضيئاً في حكمة بوذا وفلسفته[١٩]، ويأخذ امتيازه الروحي في رسالة السيد المسيح ودعوته. وقد قدّر لهذا المفهوم أن ينتقل من صورته كحكمة إنسانية قديمة إلى هيئته كفلسفة إنسانية واعدة أومضها غاندي بعبقريته الأخلاقية في العصر الحديث.

ولكن حكمة اللاعنف الذي كان بالنسبة لأسلافه من المفكرين أداة فردية لتطهير النفس وتحسين أدائها الأخلاقي اتخذت على يد غاندي صورة منهج فكري

وفلسفة للنضال السياسي والاجتماعي ضد الظلم والقهر الذي تعانيه الشعوب. وقد تعددت عوامل تطور هذا المفهوم من مقام الحكمة إلى وضعيته كفلسفة، وتنوعت دلالاته الوظيفية والفكرية، حيث اتخذ صورته الفكرية النضالية الأكثر سمواً وتوقداً على يد المهاتما غاندي ١٩٤٨-١٨٦٩ GANDHI (Mohandas Karamchand) الذي أسس له ليكون منهجاً فكرياً ونضالياً لتحرير الهند من الاستعمار البريطاني، وإلغاء نظام الطبقات الاجتماعية، وتحقيق المصالحة السياسية والمذهبية بين الهندوس والمسلمين. وقد استحق غاندي في نضاله الفكري السلمي احترام وتقدير الشعوب المناضلة والمفكرين الأحرار في مختلف أنحاء العالم، وقد تجلى هذا التقدير في قول المفكر الأمريكي مارتن لوثر كينغ King Martin Luther (١٩٢٩-١٩٦٨): «لقد أحيا المسيح الروح في أعماقنا فعلمنا غاندي كيف نعيشها» «Le Christ a Fourni l'esprit، Gandhi a montré comment l'utiliser».(٢٠)

لقد برهن غاندي عبر نضاله السلمي أن مفهوم اللاعنف بأبعاده الإنسانية يشكل أداة حقيقية في الصراع من أجل الحق والعدالة ونصرة المستضعفين والمظلومين، وبرهن أيضاً أن هذا المفهوم يمتلك قدرة هائلة في تحقيق الأغراض السياسية والاجتماعية للشعوب المستضعفة في مختلف أنحاء العالم. وانطلاقاً من النجاح الكبير الذي حققه غاندي في توظيفه النضالي لمفهوم اللاعنف، بدأ هذه المفهوم يستخدم كأداة نضالية في عدد كبير من بلدان العالم في الأمس واليوم، لقد استخدمه الأيرلنديون في نضالهم من أجل الاستقلال، ووظفه السود في الولايات المتحدة الأمريكية من أجل حقوقهم السياسية والمدنية، وتبناه الشعب الفرنسي لتحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، وما زال هذا المفهوم يطرح نفسه بأدواته الفاعلة مشروعاً إنسانياً نضالياً تتبناه الشعوب المغلوبة على أمرها في مواجهة مختلف أشكال الظلم والقهر الإنساني.(٢١)

فاللاعنف، وفقاً لغاندي، برنامج نضال متكامل، إنه سلاح حقيقي فاعل يمكن للضعفاء والمقهورين أن يوظفوه في معاركهم الإنسانية من أجل الحق والخير والسلام، ويمكنهم أن يستلهموه قوة قادرة على إحياء الوعي الأخلاقي للجماهير، وتثوير الرأي العام، وفضح الجرائم الأخلاقية للظالمين، وإيقاظ الضمائر، وإحياء القلوب الميتة، وفتح

العيـــون الهاجعة، وهـــو في النهاية، وعندما يحسن استخدامه، يؤدي إلى إضعاف عزيمة المعتدي وهزم إرادتـــه، وكسر شوكته ودفعه إلى طاولة الحوار والبحث عن السلام.

جبروت اللاعنف وقوته: اللاعنف ليس ضعفاً واستسلاماً.

يقول غاندي «يمكن لمجموعة صغيرة من الشجعـــان بعزيمتها وإيمانها أن تغيّر مجرى التاريـــخ».[٢٢] وكان يؤكد دائمـــاً «بأن أعتى نظـــام سياسي يمكن إسقاطـــه بدون سفك قطـــرة دم واحدة».[٢٣] ويتضـــح هذا الأمر في قول الفيلسوف البريطاني برتراند راسل الـــذي رفض الاشـــتراك في الحرب العالمية الأولى: «إذا استعمـــل شعـــب بأسره المقاومة السلبية بإصرار وإرادة عازمة وبنفس القدر من الشجاعة والانضباط اللذين يظهرهما الآن في الحـــرب، فبإمكانهـــا أن تحقـــق حماية أكـــبر وأتم لكل ماهو جيد في الحياة العامـــة مما تستطيـــع أن تحققـــه القوات البريـــة والبحرية وبدون أي من تلك المجازر والخسائـــر ومشاهد القســـوة التي ترتبط بالحرب الحديثة».[٢٤]

لقد أوضح غاندي، في كثير من المواقف والرؤى والاتجاهات، أن اللاعنف ليس عجزاً أو ضعفاً أو استسلاماً أو هزيمة بل هو كما يقول: « أعظم قوة متوفرة للبشرية، إنه أقوى من أقـــوى سلاح دمـــار تمَّ تصميمه ببراعة الإنسان». وهو بذلك يوضح بأن اللجوء إلى العنف قـــد يكون مبرراً ومشروعاً في حالات معينة حيث يقول: «إنني قد ألجأ إلى العنف ألـــف مرة إذا كان البديل القضاء على عرق بشري بأكمله». فالهدف من سياسة اللاعنف في رأي غانـــدي هي إبـــراز ظلم المحتل من جهة وتأليب الرأي العام على هذا الظلم من جهة ثانية تمهيداً للقضاء عليه كلية أو على الأقل حصره والحيلولة دون تفشيه.

وفي هـــذا تقـــول سونيا غانـــدي رئيسة الائتلاف التقدمي الموحد في الهند: «يعتقد البعض أن اللاعنف هو دليل على الضعف أو الجبن، ولكن هذا بعيد تماماً عن الحقيقة. إن اللاعنـــف يتعـــدى المقاومـــة السلبية أو العصيان المدني، فتتطلب ممارسته الحقيقية انضباطاً صارماً للعقـــل، وشجاعة لمواجهة العدوان، وقناعـــة أخلاقية لمواصلة المسيرة، والقـــوة لتنفيذ ذلـــك دون الشعور بأي حقد على الخصم».[٢٥]

وغالبـــا مايجري الخلـــط بين اللاعنف وبين السلبية والاستسلام، ولكن الأمر ليس على هذه الصورة أبداً، فاللاعنف شيء آخر مختلف تماماً عن معنى السلبية والاستسلام،

إنه وإن كان فعــلاً مسالماً لاعنف فيه، فإنه نشاط حيوي فاعل ومؤثر، يمتلك طاقة حيوية من القــوة والقدرة والاقتــدار، ويتطلب في الوقت ذاته درجة عالية من السيطرة وضبط النفس، مــن أجل تحقيق مراميه الإنسانية. فالتمرد، ورفض الإذعان والخضوع، وعدم التعاون مــع الظالم، والإضراب والمظاهرات، والاحتجاجــات، والمسيرات، والاعتصامات، والنــدوات الفكريــة المناهضــة، هــي في جوهرها صيغ من الممارسات التي يقتضيها مفهوم اللاعنف بدلالاته الإنسانية.

ومما لاشــك فيــه أن اللاعنف يمارس القوة والضغط والإكراه، ولكن ممارسة هذه القوة تجري في سيــاق مسار إنساني يتحلى بالقيم الأخلاقية ويستلهم معانيها، إنه عنف أخلاقي يستهدف إحياء الضمائر وتحريك الوجــدان؛ فاللاعنف يمتلــك أدواته وقوته إنه ســلاح، ولكنه سلاح إنساني بامتياز لأنه يجعل الآخر أكــثر إنسانية ويحرّض فيه كل المعــاني المفترضة في الإنســان. وهو بذلك يتميز بنبله وأصالته وتفوقه الأخلاقي حيث يتم استخدام المعايير الأخلاقية الأفضل في حركته وفعله وممارساتــه. وعندما يحدث أن يجري العمل وفقاً للمبدأ الأنوي الذاتي بعيداً عن مبدأ الحوار مع الخصم فإن الأمر يتحول إلى سياســة وليس إلى ممارسة لمبدأ اللاعنف بتعيناته الحقيقية. ولكن هل حقاً يمكــن للعنف أن يكون حــلاً مثالياً لمختلف أشكال الصراعات؟ وهل يمكن لهذا المفهوم أن ينمي لدى الأفراد وعياً أخلاقياً ليس له وجود في الحالة الفطرية للإنسان؟

اللاعنف طاقة روحية:

يومضــ اللاعنف بطاقــة روحية تكره الخصم على التفكير وتدفعه لمراجعة الذات ووضعهــا في موضع التســاؤل. وتكمن قوة اللاعنف هنــا في قوة الحقيقيــة والعدالة التي تفرضــ هيمنتها على الناس والأفراد. فالخصــم كما يراه غاندي ليس عدواً يجب الانتصــار عليه، بل رجلاً ضالاً غافلاً يجب صدمه وإيقاظه من غفلته وغفوته. وهنا نجد غاندي لا يدعو إلى الحقد على الخصم أبداً، بل يدعو إلى الشفقة عليه دائما. فاللاعنف يهــدف إلى الكشــف عن أخطــاء الخصم وإصلاحها واستبعاد المفاهيم الخاطئة غير الأخلاقية لديه. وبالتالي فإن الإنسان الذي لا يجــد في نفســه الكفاءة علــى تمثل هذه الرؤيــة لا يمكنه أن يتابــع النضال من أجل العدالة والسلام. فالعنف غالباً ما يكون ردة فعــل على عنف الخصــم واحتمالاته، وهو العنف الذي يجــد في العنف المضاد تبريراً

له، ولكن عندما يصطدم هذا العنف بالفراغ فإنه يعقلن نفسه وتتبدد قوته. وهنا يمكن القول بأن قلب الإنسان هو ميدان اللاعنف ومجاله الحيوي. فاللاعنف يمارس قوته ولكنه يستهدف الجانب الإنساني والوجداني في الإنسان.

إذا جارينا ما يذهب إليه الفيلسوف الإنكليزي هوبس (Hobbes (Thomas ١٥٨٨-١٦٧٩ بقوله إن «الإنسان ذئب الإنسان» «l'homme est un loup pour l'homme» فإنه لا يوجد حل آخر سوى استخدام كل الوسائل المتاحة من أجل القضاء على هذا الذئب الذي يهددنا[٢٦]. ولكن مفهوم اللاعنف لدى غاندي وعلى خلاف رؤية هوبس يريد أن يثق بالمبدأ الأخلاقي، وقد يكون هذا المبدأ مدفوناً غائراً غائباً ولكنه بالتأكيد موجود في قلب الخصم. ووفقاً لهذا التصور فإن المعركة ليست معركة فيزيائية بين طرفين متعارضين: بل في صميم الصديق والخصم حيث يجب على الإنسان أن يتحرر من هيمنة الغرائز البدائية والأولية التي تمنعه من إطلاق الوجدانية الكامنة فيه.

فاللاعنف لا يهدف أبداً إلى سحق الخصم ومغالبته، بل إلى الانتصار على الشر الذي ينمو في قلبه مانعاً إياه أن يكون كما يجب أن يكون الإنسان. وإذا كان الناس قد تورطوا في أعمال الشر واستخدموه، فإن فلسفة اللاعنف تدرك هذه الحقيقة وتدفع مريديها إلى العمل على تطهير النفس الإنسانية من أدرانها وأوجاعها الكامنة في الشر والحقد والكراهية. وهكذا تأخذ فلسفة اللاعنف صورة منهج أصيل يعمل على تحريض الخصم على الحوار والتأمل مع ذاته ومع خصومه. وهنا تكمن الوسيلة الوحيدة لكسر حلقة العنف وتكره ممارسيه على التراجع. وذلك لأن الرد على العنف بالعنف وعلى الشر بالشر يزيد العنف عنفاً والشر شراً. ولكن وعلى خلاف ذلك فإن اللاعنف يدفع بقوته الروحية أنصاره إلى التماهي مع قيم السلام والخير. فالشر لا يوقفه الشر بل الخير هو الذي يستطيع أن يواجه نزعة الشر وطفرته كما يقول بوذا.

نوعية اللاعنف:

ينبع اللاعنف من قوة الحقيقة، ويعمل على تطوير العمق الداخلي للإنسان والارتقاء به. فاللاعنف لا يختزل إلى مجرد فعاليات آنية تكتيكية أو تقنية للصراع، بل هو تدفق روحي وانسياب وجداني داخلي يتجلى في طلب الحق والعدالة. ومع ذلك

فإن اللاعنف يتطلب في الوقت نفسه تفكيراً وتأمــلاً وتماسكاً، وهو نتــاج تخطيط بعيد المدى يأخــذ في حساباته الأسباب والنتائج. فكل عدوان يولد ضغطــاً نفسياً وإحساساً بالإكراه وهنا يتوجب على الإنسان المسالم أن يضبط اندفاعاته المضادة للعدوان ويسيطر عليهــا، وهذا السلوك المنظم غالبا ما يأخذ طابعاً اجتماعياً إذ يتجلى في نضال الطبقات الاجتماعيــة والأمم المغلوبــة. وبالتالي فإن كبت الدوافــع العدوانية يتطلب قدرة كبيرة علــى ضبط الأنــا والسيطــرة عليها. وهنا يجب تصحيح فكــرة خاطئة: فاللاعنف لا يعني أبــداً أن الإنسان المؤمــن به هو كائن سلبــي دائماً، بل وعلى خــلاف ذلك يتميز اللاعنفــي بأنــه مناضل شرســ في البحث عن الحقيقة والكشف عن المظالم ومحاصرة الظالمين. ومن أجل ذلك يجب على المرء أن يحظى بالشجاعة والقــدرة على التضحية الإنسانيــة التي تفوق تضحيــة الشهداء في ساحات الحرب.

وهنا يميز لانزا ديل فاستو بين البطولة في ساحة المعركة والبطولة الأخلاقية، ففي المجــال الأخلاقي تتــمّ مهاجمــة الشر في النفس، بينمــا يهاجم الإنسان أخاه الإنسان في ساحة الوغى. فالإنسان الذي يؤمن بمبدأ اللاعنف يطلــب العدالة من خــلال القوة الداخلية الكامنة فيه، وإذا ما تعرض للموت فإنه يعي تماماً بأنه قد أخذ على عاتقه بأن يتحمل هذا الأمر بدلاً من أعدائه وجلاديه. فاللاعنــف مطهم بكل الدوافــع الإيجابية الخلاقة المفعمة بالشجاعة والعزيمة والقوة. فاللاعنفي يقدم نفســه قرباناً على مذابح الحرية والعدالة والحــق والخير والجمال. إنه شهيد يصفح لجــلاده، ويعمل على بناء الخير المطلق في النفوســ، وذلك عبر القوة الروحيــة التــي تنطلق من القلــب وتستقر في الوجــدان. وفي الحقيقــة فإن اللاعنفي (معتنق اللاعنف كصيغــة للنضال) يمتلك قــوة تربوية هائلة إنــه يعلم ويربي ويضرب مثلاً في معاني الحق والحرية والجمال.

إن الابتزاز العاطفــي والأخلاقي شكل مرفوضــ في منهــج اللاعنــف، فالتهديد والوعيــد والابتــزاز عمليــات لا قيمة لها ولا معنــى في الصــراع المســالم، لأن هــذه الممارســات ليست ممارســة روحية بل هي نوع من الاحتيــال الزائف لتحقيق المصالح الخاصة والأنانية. واللاعنف لا يهدف أبداً إلى تحقيــق مصالح خاصة أنانية، إنه جهاد اجتماعي مكرس لتحقيــق أهداف إنسانية تتميــز بنبلها وسموها. وفي هذا الأمر يقول

غاندي «يمكنني أن أصوم ضد أبي من أجل أن يشفى من مرض أو عيب ولكنني لا أستطيع أن أفعــل ذلك من أجــل أن أحظى بتركته». فالعنــف الأخلاقــي وسوء المعاملــة ليست سلاحاً مشرفاً، إنه أداة تستخدم للقهر وليس لتحرير الإنسان ومخاطبة النزعة الإنسانية فيه. فاللاعنف دائماً مايجلجل نفسه بألوان النظــام الروحــي وشفافيتــه، وهو لا يمثل خطرا أبداً بل يدفع عن الإنسانية كل خطر ممكن وينمــي في الإنسان قــواه الإنسانية الخلاقــة. وهكذا فإن اللاعنف يفقد سموه الأخلاقي وعمقه الفلسفي وطابعه الإنساني إذا لم يأخذ صورة غاية إنسانية عليا تتصف بسموها وصفائها.

لقد أوضــح غاندي في كثير من محطاته المنــيرة بــأن النضــال السلمي قــد يخفق أحيانــاً إذا كان الخصــم الذي يمتلك قوى قاهرة جبارة بلا ضمير أو أخلاق وهنا يجد أنصار اللاعنف أنفسهم أمام الموت المحتم. والسؤال هنا هل يجب على أنصار اللاعنف أن يتراجعوا ويتخلــوا عن غايتهم الإنسانية إزاء هذه القوة الجبارة؟ وجواب غاندي هو لا وألــف لا «بل يجب عليهم في هذه الحالة أن يتسلحــوا ويقاومــوا وإذا لم يكــن هناك خيار أبــدا إلا العنف فإنني أنصح بالعنف» ومع ذلــك كله فإنــه وفي مواجهــة العنف المعاصر فــإن غاندي ينصح بالعودة إلى قوة الروح.[٢٧]

وهنا بالتحديد يؤكد جــان ماري ميللر أن اللاعنــف قوة حقيقــة وليس مجرد حب مسالم، أنهــا قوة تمارســ الضغط من غير عنف، وقد بينــت التجارب أن اللاعنف قد أثمر نتائــج غالباً ما كانت مجدية، وهذا ما برهن عليــه سيزار شوفيرز، والمدافعون عن حقوق العمال المكسيك في كاليفورنيا، حيث نجحوا في حملة مقاطعتهم للعنب والخمور في تحقيق النتائــج المرجوة وتغيير الوضعية القائمــة. والوضع هنا يتعلــق بوضعية من اللاعنف (المسلح) الذي يشكل أداة المجتمع من أجل الحصول على نتائج عاجلة: وبدلاً مــن نداء القلب يمكــن العمل على مخاطبة المصالــح ومن أجل ذلك يتــم تنظيم اللعبة، وبعدها يتم تحريض العدد الكبير من الناس من أجل التعاون والمشاركة.

تجارب غاندي النضالية:

لقد بــدأ غاندي حركتــه النضالية في جنوب أفريقيا، حيــث عمل محامياً مدافعاً عن حقوق العمال الهنود المهاجرين ضحايا التمييــز العرقي، واستمــر نضاله الإنساني ضــد الظلــم والقهــر حتــى استشهاده في

وطنــه الهنــد ١٩٤٨. لقد ناضــل غاندي ضد الحكم البريطــاني في الهند، ومن أجل حقوق المنبوذين وضد الحروب الدامية بين المسلمين والهندوس منادياً بالحرية والسلام، واستطاع عــبر نضاله هذا أن يسجل أعظم سيرة نضالية في العصر الحديث.

مسيرة الملح:

تعــد مســيرة الملح مــن أكــثر التجارب النضاليــة أهميــة وخطــورة في العصــر الحديــث، لقد أصبحت هذه المسيرة ملحمة تاريخيــة مــن ملاحم النضــال السلمي في العــالم أجمع. ففي فبرايــر (شباط) ١٩٣٠، أعلن حزب المؤتمر الهندي، بزعامة غاندي، العصيــان المــدني للحصــول علــى الحكم الذاتــي، عبر رفض دفــع ضريبة الملح التي فرضهــا البريطانيون، والســير نحو مصنع الملح في دانــدي رفضاً لاحتكار البريطانيين لصناعــة الملــح في البــلاد، وتأكيــداً لحق الهنود في القيــام بتصنيع الملــح بأنفسهم، بل واستعادة السيطــرة على كل الصناعات الوطنية التــي تحتكرهــا بريطانيا. وكتب غانــدي، وكان يبلغ ٦١ مــن عمره في ذلك الحــين، في جريدة «يانج انديــان» (الهندي الشــاب) الأسبوعية، التــي كان أسسها قبل ذلك بسنة «ربما فكــر البريطانيون في ظلم كل هنــدي بفرضــ ضريبة على المــاء، ثم وجــدوا أن ذلك مستحيــلاً. ولهذا فرضوا ضريبة على الملح، وبدؤوا ظلماً قاسياً لمئات الملايين من الجوعى والضعفاء».

قبــل المســيرة بشهــر، أي في فبرايــر (شبــاط)١٩٣٠، أرسل غانــدي خطاباً إلى اللورد اروين، حاكم الهند البريطاني، قال فيه «صديقي العزيز، فكرت لسنوات كثيرة قبل أن أبــدأ هذا العصيان المدني، لكني وجدت أنه الطريق الوحيد حتى تبقى الهند كدولة، وحتى لا يموت الهنود من الجوع» (...) «إننا نريد الحرية نفسهــا التي يريد تشرشل من البريطانيين أن يموتوا في سبيلها».

وفي الشهــر التــالي، وعندمــا لم يتسلم غاندي رداً، اجتمع حــزب المؤتمر الهندي، وقرر أن موضــوع الملح يؤثر على كل الهنود تقريباً، وأنــه سيساعد على جمع عدد كبير من الناس. وكانــت بريطانيا، كلما واجهت مشــاكل مالية وعجزت عــن الصرف على حكومتها في الهنــد، خاصة وقت الحروب، تزيد الضرائب على الهنود، وبالتالي عندما واجهــت صعوبــات ماليــة في العشرينــات أصــدرت قانوناً يخول لهــا احتكار صناعة وبيع الملح، وتضمن القانون عقوبة بالسجن ستة شهور على كل مــن يصنع ملحاً، وعلى

كل من يذهب إلى البحر لصناعة الملح.

وفي أول خطاب، يوم بداية المسيرة من أحمد آباد، خطب غاندي في المسيرة فقال: «نقسم بأننا إما سننال استقلال الهند، أو ندخل السجون. ونقسم أن استقلال الهند سيتحقق بدون عنف». وفي ثاني يوم للمسيرة، في قرية ذابان قال إن «في الهند ثلاثة أرباع مليون قرية، وإذا تطوع عشرة رجال من كل قرية لصناعة الملح لقريتهم، لن نحتاج إلى ملح البريطانيين». وفي رابع يوم، في قرية فاسانا قال «أعاهدكم بأن يوماً سيأتي يعتذر فيه البريطانيون لنا على ما فعلوا بنا».

وفي سادس يوم، في قرية بوريايفي، قال: «لن نؤذي أي مسؤول بريطاني. نعم، يحكموننا، لكنهم ضيوفنا». وفي اليوم الخامس والعشرين، في قرية تارسالا، قال إنه سيقضي «هذه الليلة في منزل أخ مسلم بناء على دعوته». وقال: «يجب ألا نعطي البريطانيين الفرصة ليقسمونا إلى مسلمين وهندوس». واستمرت هذه المسيرة السلمية خمسة وعشرين يوماً (من ١٢ مارس حتى ٦ أبريل)، وعندما وصلت المسيرة إلى البحر، نزل غاندي البحر ورفع صخوراً مالحة، رمزاً لتحدي قانون الملح، وبداية لسبع عشرة سنة من العصيان المدني ضد الاحتلال البريطاني. وخطب غاندي أمام أتباعه بأن الهدف «ليس فقط إعلان العصيان المدني في الهند، ولكن، أيضاً، إقناع الشعب البريطاني نفسه بالعصيان المدني بعد أن يتضح لهم الظلم الذي يلحق بالشعب الهندي. واستطاع في النهاية عبر هذا النضال المسالم إلى خضوع السلطات البريطانية وتوقيع معاهدة دلهي.[٢٨]

الصيام حتى الموت:

ولاحقاً في عام ١٩٣٢ أبدع غاندي طريقة جديدة في النضال أطلق عليها الصيام حتى الموت، حيث قرر غاندي البدء بصيام حتى الموت احتجاجاً على مشروع قانون يكرس التمييز في الانتخابات ضد المنبوذين الهنود، مما دفع بالزعماء السياسيين والدينيين إلى التفاوض والتوصل إلى «اتفاقية بونا» التي قضت بزيادة عدد النواب «المنبوذين» وإلغاء نظام التمييز الانتخابي.

وقد وجدت هذه المنهجية السلمية التي اعتمدها غاندي طريقها إلى كثير من بلدان العالم حيث تبناها كينغ في نضاله من أجل المساواة بين السود والبيض في وسائل النقل العام في عام ١٩٥٥. وقد شكلت هذه الطريقة منهجية سياسية تعتمد المسالمة مبدأ أساسياً في الصراع من أجل المبادئ والحق والعدالة.

ومما لاشك فيه أن الرفض والتمرد وعدم وجود التعاون الجمعي يؤدي إلى اضطراب السلطة وخوفها. وعندما يشارك الشعب بقوة وحماسة في النشاط اللاعنفي السلمي فإن هذا يؤدي إلى شلل في الحياة العامة للبلاد. وماذا يمكن للسلطة أن تفعل إزاء أناس يتدافعون كالجحيم دون خوف من عصي رجال الأمن وهراواتهم، إزاء قوم يرهبون الموت أو السجون؟ والسلطة عندما تواجه جحافل المتدافعين إلى الموت من أجل حقوقهم تفقد صبرها وبرودة دمائها وتبدأ بتوظيف العنف المهين ولكنها في النهاية تضعف وتستكين وتخضع لإرادة الشعب الشاملة.

وعندما انفجر العنف بين الهندوس والمسلمين في «كلكتا»، وسالت الدماء، أعلن غاندي «الصيام». حتى إذا شارف على الموت، دخل عليه رجل مفجوع بولده وألقى إليه بقطعة خبز وقال له: كل حتى لا أكون سبباً في موتك. تابع: هل تعلم ماذا فعلوا بابني؟ لقد قتلوه. وأنا قتلت من قتل ابني؟ نظر إليه غاندي برحمة وهو بالكاد يفتح عينيه من الإعياء وقال له: هل أدلك على ما هو أفضل مما فعلت فيأخذك إلى الجنة؟ عليك أن تأخذ الولد الذي قتلت أباه فتربيه على الدين الذي كان أبوه يريد أن ينشئه عليه. اغرورقت عينا الرجل بالدموع، وانكب على قدمي غاندي فقبلهما. وعندما توقفت مظاهر العنف في كلكتا، وهدأ الناس عن ذبح بعضهم بعضاً، فقال غاندي لمن حوله: أعطوني كأساً من الليمون. بعدها بقليل، قرر غاندي أن يزور باكستان وهو يقول، «سوف أكشف عن الشيطان الموجود في قلوب الهندوس والمسلمين».(٢٩)

العصيان المدني:

في عام ١٩٢٢ قاد حركة عصيان مدني اشترك فيها المسلمون والسيخ والهندوس فتصاعد الغضب الشعبي إلى ذروته، فحدث الصدام الدموي بين الجماهير وقوات الأمن والشرطة البريطانية، وعندها أعلن غاندي الصيام احتجاجاً على سفك الدماء ووقوع القتل، فجاءه نهرو وهو لا يصدق، وسأله هل تريد منا إيقاف المظاهرات وقد عمت كل البلد وليس بيننا وبين طرد بريطانيا إلا شعرة؟ قال غاندي ليس المهم طرد بريطانيا بل طرد الشيطان من قلوبكم، وليس المهم أن يتظاهر الناس، بل المهم كيف يتظاهرون سلمياً بدون قتل؟ واعتبر (نهرو) يومها أن هذه سذاجة كبرى في علم السياسة. ولكن غاندي طلب من (نهرو) فك المظاهرات

واستمر في الصيام حتى توقفت المظاهرات، ثم طلب (غاندي) أن يعتذر المتظاهرون علناً لمركز الشرطة وطلب الصفح وتقديم التعويض عما حدث![٣٠]. ومع ذلك وجهت ضده تهمة الإثارة ضد الدولة والعصيان واعتقل وسجن وعذب في المعتقلات البريطانية لأربع سنوات متتالية.

لقد وهب الزعيم الهندي المهاتما غاندي حياته لنشر سياسة المقاومة السلمية أو اللاعنف واستمر على مدى أكثر من خمسين عاماً يبشر بها، وفي سنوات حياته الأخيرة زاد اهتمامه بالدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة، وتألم لانفصال باكستان وحزن لأعمال العنف التي شهدتها كشمير، ودعا الهندوس إلى احترام حقوق المسلمين مما أثار حفيظة بعض متعصبيهم فأطلق أحدهم رصاصات قاتلة عليه أودت بحياته.[٣١]

تأثير غاندي:

شكل فكر غاندي وعقيدته النضالية مدرسة فلسفية كبرى في مفهوم التسامح والنضال السلمي في العالم أجمع. وهناك إجماع فكري عالمي على سمو وعظمة الفلسفة التي أوقدها غاندي في مجال النضال السلمي لتحرير النفوس والأوطان. لقد ترك تأثيراً ينقطع نظيره في ميدان الفكر والممارسة. وبعد كل من رومان رولاند Romain Rolland ولانزا ديل فاستو Lanza del Vasto[٣٢] ولوي ماسينيون Massignon Louis من أوائل المفكرين الفرنسيين الذين تأثروا بعقيدة غاندي ومنهجه الإنساني. وكان لأفكاره قبيل الحرب العالمية الأولى دور كبير في توجيه نشاط جان جيينو Jean Giono الذي تعرض للاعتقال مع رفاقه على أثر تمرده المدني في عام ١٩٣٩.

وقد عرف مفهوم اللاعنف صعوداً جديداً مميزاً في عام ١٩٥٥ في مونتغومري في الاباما Montgomery en Alabama في الولايات المتحدة الأمريكية على يد المفكر الإنساني والقس المعروف مارتن لوثر كينغ Martin Luther King حيث ناضل من أجل المساواة والعدالة الاجتماعية للسود الأمريكيين في عصره. وقد لعب النجاح الكبير الذي حققه كينغ في مستوى الولايات المتحدة الأمريكية أن يعزز مسيرة كينغ وأنصاره في مسار النضال المسالم (اللاعنف)، وذلك على الرغم من معارضة قادة السود الذين انتصروا للعنف في نضالهم وصراعهم. ففي عام ١٩٦٨ قتل كينغ في ممفيس Memphis على

أثر مسـيرة سلمية من أجل المطالبة بحقوق عمال النظافة في المدينة.[٣٣]

واستمـر تأثير منهج غانـدي المسالم في عـدد من بلـدان العالم ولاسيمـا في فرنسا حيث اتقـدت المعارضة الشعبيـة السلمية ضـد الاحتـلال الفرنسي للجزائـر. وقد تأثر فاستـو Lanza Del Vasto بغاندي فقـاد مظاهـرات مسالمـة علـى صـورة مسـيرات صامتة، وإضرابـات عن الطعام، وإقامة مخيمـات للمعارضة السلمية.. إلخ. وقـد ظهرت حركات مسالمـة ضد الخدمة العسكرية والضرائب وضد كثير من مظاهر الحيـاة الاجتماعيـة في أوروبة وغيرها من البلدان الغربية.

وفي هذا السياق يشار إلى دانييلو دولسي Danielo Dolci الـذي أسس عام ١٩٥٢ حركـة مسالمة (غير عنيفة) من أجل إرهاف الـرأي في صقلية بأوضـاع الأحياء الفقيرة في باليرم Palerme. وفي الهند قام تلميذ غانـدي Vinoba Bhave بالمشاركـة مع الشبـاب الهنـدي ورجال الديـن بالنضال السلمـي (غير العنيف) مـن أجل الحصول على ملكيات عقارية كبيرة لصالح الفلاحين الفقـراء. وفي البرازيل قام هيلـدر كاميرا Helder Camara بتأسيـس رابطـة من أجـل العدالة والسـلام في عام ١٩٦٨ وكان هدفها تنمية الثقافـة السلمية والأخلاقية عند الأغنيـاء والفقـراء. وفي يوغسلافيا ظهـرت صيغ متطـورة ومتطرفـة للنضال السلمي (الانتحار حرقـاً كما حدث لـ إيان بالاشـIan Palach). وهـذه الحركات النضاليـة المسالمـة ظهـرت في فيتنام وفي الولايـات المتحدة الأمريكيـة ولاسيما ثورة الطلاب ضد الحرب على فيتنام وغير ذلك من أشكال النضال السلمي.

وباختصار يمكن القول بأن منهج غاندي للنضـال السلمي قد تحول إلى أداة نضالية في متناول الشعـوب المظلومة والمغلوبة على أمرهـا من أجل العدالة والحـق والمساواة. وهكـذا فـإن مفهـوم اللاعنف قـد سجل حضـوره في التاريـخ الإنساني قـوة هائلة تستلهمهـا الشعوب المظلومـة كطاقة ثورية من أجل العدالة والحرية. لقد أطلق غاندي قوة فكرية إنسانيـة هائلة لتحرير الشعوب وهذا ما حدا بـ رومان رولاند بأن يشبه فكر غاندي بتسونامي هائلة انطلقت من أعماق الشرق ولكنها لن تسقط إلا عندما تغمر العالم برمته[٣٤]. لقد نجحت استراتيجية اللاعنف في السنوات الأخيرة في شيلي وجنوب أفريقيا وبولونيا والمجر وبورما وأوكرانيا وجورجيا.

وكذلــك استعمل اللاعنــف لإسقاط نظام الطاغية سلوبودان ميلوسوفيتش في صربيا. وقد مارســت فلسفة اللاعنف تاريخياً دوراً هائــلاً في نضال الشعــوب ولاسيما عندما طُبقت ببراعة وذكاء ولم يكن أدل على قوتها إلا القمــع الــذي استخدمــه الخصوم في مجابهتها ومواجهتها.(٣٥)

خاتمة:

رسخ غانــدي منهجاً عبقريــاً للنضال السلمــي العالمي وشيد له مملكته الفلسفية. وأصبح اللاعنف عنوانا لفكر غاندي ورمزاً لنضالــه الإنساني. ومن البداهــة اليوم أن اسم غاندي يرتبط برمزية السلام والكفاح من أجــل الحق والحرية. وليســ غريباً أن تخصص الأمم المتحدة إكراماً لغاندي يوماً احتفالياً للكفاح السلمي كل عام تحت شعار اللاعنف يصادف يوم ميلاده.

وإننا في حيّز هذا الاختتام الصعب نريد القــول بــأن فلسفة اللاعنــف عند غاندي ليست مجرد فلسفة نضالية من أجل السلام والحرية بمعناها السياسي. لقد أراد غاندي فوق ذلك كلــه أن تكون فلسفته نداء داخلياً لتطهير النفس الإنسانية وصقلها وتحريرها من كل أشكال الكراهية والحقد والتعصب. لا بل إن غاندي اشترط أن النضال من أجل الحرية الوطنية لا يمكن أن يكون إلا بتطهير القلوب وصفــاء الضمائر وصقل الوجدان. وهذا يعني بأن فلسفته كانت تحريراً للذات والنفس قبــل أن تكون تحريراً للمجتمع من الظلم والقهر والعدوان.

ومن أجــل أن نختتم هذه الدراسة حول مفهــوم اللاعنف وفلسفتــه النضالية عند غاندي وجدنا أنه لمن المناسب أن نستعرض بعضاً من حكمته الإنسانية ومواقفه الفكرية إزاء الحق والعدالة والحرية. فأقوال غاندي كلماته وأفــكاره تشكل اليوم ملحمة مضيئة من الحكمة الإنسانية.

وإذا كان مــن بداية للقول فإن ما يتقدم هو إعلانه عن إيمانه المطلق بمبدأ اللاعنف حيــث يقول: «إن اللاعنف هــو البند الأول لإيماني والبند الأخير في مذهبي»(٣٦). ولكم هي كلماته مثقلة بالمعــاني الخفية والذكية عندما يقــول: «إن النصر الناتج عن العنف هو مساوي للهزيمــة»، فالحرب دامية كان من كان المنتصــر فيها وبالتالي فإن الانتقام والرد علــى العنف بالعنف كارثــة إنسانية حيــث يقول: «إن العــين بالعين تجعل العالم بأكمله أعمى».

وإذا كان يؤكد دائماً وأبداً بأن العنف هو عمليــة تطهير للنفس وتنقيــة لها من أدران

الحقد والكراهية والتعصب فما أجمل قوله في تمجيد القانون الأخلاقي القابع في النفس حيث يقول: «إنني أرفض الخضوع للقانون وذلك ليس لنقص في قدرتي على احترام القانون بل لأنني أخضع إلى القانون الأسمى وهو قانون العقل الإنساني». وهو في هذا المسار ومن أجل أن يؤكد هذه الطهارة النفسية وضرورتها يؤكد أهمية تحرر الإنسان من الخوف من الموت في صراعه من أجل الحياة يقول وكم هو رائع قوله: «أنا مستعد لأن أموت، ولكن ليس لدي ولن يكون أبداً أي استعداد للقتل»، وهكذا يقرر بأن الحرية هي الاستعداد للموت لأن في هذا الاستعداد يستطيع الإنسان أن يتحرر من الخوف المطلق ويبلغ نشوة الانتصار على الذات الإنسانية. ولم ترهبه أشواك الموت وأشراكه بل كان دائماً على أهبة الاستعداد لهذا الموت الذي خطفه في النهاية إلى قائمة شهداء العقل والفكر والحرية، فكانت شهادته تتويجاً لرحلته النضالية المفعمة بالعناء والعطاء في سبيل الحق والحرية.

لقد أراد كما أراد كانط من قبله أن يكون القانون الأخلاقي كلياً شاملاً فالخير هو خير الإنسانية كلها والشر بأي صيغة هو شرها بالمطلق ومن هنا كان يعتقد بأن الجريمة أية جريمة هي إجرام ضد الإنسانية وفي هذا القول «إن أية جريمة، أو إصابة بغض النظر عن القضية، ارتكبت أو سببت لشخص آخر هي جريمة ضد الإنسانية». وكم هو قوله هذا جميل ومجانس لقول ماوتسي نفسه «أن تقتل إنساناً من أجل خير العالم أمر يتناقض مع خير العالم، ولكن أن تتألم وتضحي بنفسك من أجل العالم ذلكم هو الخير كله».[٣٧]

لقد حرر شعبه وبرهن لتشرشل حقيقة يجهلها وهي أن الحرية مطلب إنساني لكل الشعوب، وأن في طلب هذه الحرية تهون النفوس حيث يقول في رد له على تشرشل «إننا نريد الحرية نفسها التي يريد تشرشل من البريطانيين أن يموتوا في سبيلها». وتلك هي الحقيقة الصارخة ألم يقض غاندي نفسه فداء للحرية التي كان يطلبها لشعبه ويضحي بحياته من أجل الكرامة الإنسانية؟

إن فكرة اللاعنف التي أسسها غاندي تزداد رسوخاً وثباتاً مع الأيام، وفلسفته المسالمة أصبحت اليوم مدرسة إنسانية وفكرية ينهل من عطائها الإنسان المعاصر في مختلف أنحاء المعمورة. إن نجاح أسلوب النضال–وفق منهج اللاعنف عند غاندي– مازال يضع الشعوب الإنسانية على المحك

التاريخـــي في قدرتها على ابتـــداع أساليب سلميـــة وأخلاقية متجددة قادرة على صون كرامة البشر وحمايتهم من كل أشكال العنت والقهر والظلم والتطرف.

الهوامش

١- المهاتما لقب نسب إلى غاندي ويعني صاحب النفس العظيمة.

٢- الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مهاتما غاندي،

/http://ar.wikipdia.org.

٣- لم تـرق دعوات غاندي للأغلبية الهندوسيـة باحترام حقوق الأقلية المسلمة، فأخذته بعض الفئات الهندوسية المتعصبة بالخيانة العظمى فقررت التخلص منه، حيث قام أحد الهندوس المتعصبين باغتياله فسقط شهيداً عن عمر يناهز ٧٩ عاماً في ٣٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨.

4- Regarde: W. BORMAN، Gandhi and Non-Violence، State Univ. of New York Press، 1986.

٥- عظة الجبل أو الموعظة على الجبل، بحسب إنجيل متى: الإصحاحات الخامس والسادس والسابع، هي عظة استثنائية ألقاها يسوع حوالي عام ٣٠م على تلاميذه وحشد كبير من الناس.

٦- أتيـلا الهـوني (**The Hun Attila**) ملك وفاتح تركي قديم عاش مـا بين (٤٠٦-٤٥٣م) كان آخر وأقوى حكام الهون والهون (**Huns**) هم أجداد الأتراك.

٧- انظر: غاندي، موهندس كرمشاند (المهاتما)، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المجلد الرابع، الطبعة الأولى ١٩٨٦.

٨- سافـر غانـدي وعائلتـه إلى جنوب أفريقيـا عام ١٨٩٣، وسكـن ولاية «ناتال» الواقعـة على المحيط الهندي، مقيماً في «دوربان» التي عرفت بصناعة السكر والتبغ والفحم، وعمل محامياً مدافعاً عن حقوق عمال الزراعة الهنود والبوير العاملين في مزارع قصب السكر.

9- H. THOREAU، Du devoir de désobéissance civile (civil Disobedience، 1849)، trad. G. Brailion-Zeude، Seghers، Paris، 1965.

١٠-انظر: غاندي، موهندس كرمشاند (المهاتما)، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٦، ٣١-٣٢.

١١-غاندي، موهندس كرمشاند (المهاتما)، موسوعة السياسة، المرجع السابق.

١٢-رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها،

/http: //www. grenc. com/a/Rzaydan/show__Myarticle. cfm?id=8991.

١٣-رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق.

١٤-رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق.

١٥-رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق.

١٦-رغداء زيدان، غاندي والساتياغراها، المرجع السابق.

17-Gandhi، The Collected Works of Mahatma Gandhi، Ahmedabad، The Publications Division، Ministry of Information and Broadcasting، Government of India، 1965، Vol. 18، p. 265.

18-Gandhi، All men are Brothers، Ahmedabad، Navajivan Publishing House، 1960، p. 119.

١٩-سيد هارتا بوذا **Siddhartha Gautama** (٥٥٨-٤٨٣ ق.م)، وتعني كلمة بوذا **Buddha** حرفياً المستنير أو المتنور و هو لقب أطلق على جوتاما بوذا إقراراً له بالعبقرية والذكاء و القدرة على الكشف النوراني. أنظر: علي وطفة وسعد الشريع، التربية تاريخا والفكر التربوية تطورا: معاينات في جدل الواقع و النظرية،مطبعة دار الفيصل، الكويت ٢٠٠٥، ص٧٧-٧٨.

20-Enumus Jean. Lanon-violence، dans Encyclopédie française، France S. A، Paris، 1999، Encyclopédie sur C. D.

21-Regarde: A. Vinoba Bhave، La Révolution de la non-violence (Revolutionary Sarvodaya، 1955)، trad C. Andrieu، Albin Michel، Paris، 1958.

٢٢-راجموهان غاندي فلسطين وإسرائيل: من أجل جدار من الحماية، جريدة الحياة اللندنية، ٢٠٠٥/٠٦/٢٦.

٢٣-صبحي درويش، هل نحن بحاجة إلى غاندي جديد، موقع أشرعة

/http: //www. ashreah. net/vb/showthread. php?t= 1156.

٢٤- صبحي درويش، المرجع السابق.

٢٥-راديو الأمم المتحدة، الثلاثاء ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧:

/http: //www. un. org/radio/ar/story. asp?NewsID= 7029.

٢٦-انظر: بيير فرانسوا مورو، هوبس، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣.

27-L.FISCHER، lA Vie du Mahatma Gandhi (Life of Mahatma Gandhi،، 1951)، trad. E.Bertaux، Calmann- Lévy، Paris، 1952.

٢٨-انظر: محمد علي صالح، غاندي: مسيرة بدأت بالملح وانتهت بالاستقلال، الشرق الأوسط، الجمعة ١٥صفر ١٤٢٦هـ، ٢٥مارس ٢٠٠٥، العدد ٩٦١٤.

٢٩-صبحي درويش، داعية اللاعنف المهاتما غاندي، في مجلة المثقف، مجلة الكترونية، WWW.almothaqaf.com.

٣٠-صبحي درويش، داعية اللاعنف المهاتما غاندي، المرجع السابق.

٣١-أديسون هيدو، المهاتما غاندي داعية اللاعنف، شبكة زهريرا الإخبارية، /http://WWW.zahrira.net

32-LANZA DEL VASTO، Les Quatre Fléaux، 1959، nouv. éd، 2vol، Gonthier، Parris، 1977.

33-C.S.KING، Ma Vie avec Martin Luther King (my Life with Martin Luther King، 1969)، trad A.M. Soulac، Stock، 1970.

34-M.K. GANHI.La Jeune Inde(articles de Young India، 19191922-)،Trad H.Hart، Paris، 1924.

٣٥-صبحي درويش، هل نحن بحاجة إلى غاندي جديد، موقع أشرعة: /http://WWW.ashreah.net/vb/showthread.php?t=1156.

٣٦-راديو الأمم المتحدة، الثلاثاء ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر/ ٢٠٠٧: /http://WWW.un.org/radio/ar/story.asp?NewsID= 7029.

37-Enumus Jean.la non-violence، dans Encyclopédie française، France S.A، Paris، 1999، Encyclopédie sur C.D.

الدراسات والبحوث



الوقت والحضارة حقائق فكرية
«المعايير الإنسانية للحضارة»

د. كمال حسين الحمصي ❁

-١-

لــو بحثنا في أوجه التشابه والاختــلاف بين الإنسان في الدول المتحضرة التــي بلغت مــن الازدهار الحضــاري ما يدعو للإعجــاب والاحترام، وبين الإنســان في الدول المتخلفة الفقيرة، وعن السبب في تقدم هذه وتخلف تلك، وعن السر في اختلاف القدرات الخلاقة لهذا الإنسان، والبالية الرثة لذاك، والذي قد تصل به الأمور بألا يقوى أو يكون على استعداد ليزيح الذباب عن

❁ أديب وباحث سوري.

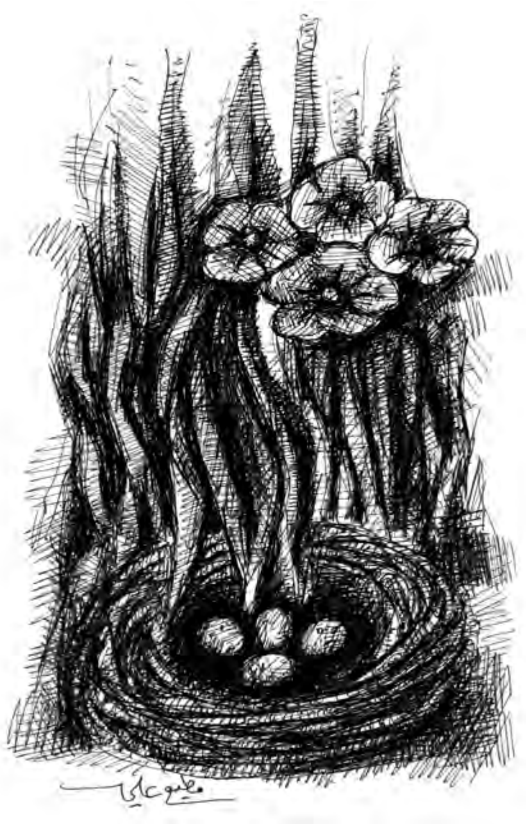
العمل الفني: الفنان مطيع علي.

وجهه! فربما نجــده في الحقائق التالية.

- النـاس جميعاً متسـاوون بالتكوين العضوي المادي باستثناء بعض الحــالات الـتـي لله فيها حكمـة، أو النـاتجـة عـن جهل الإنسان وعاداته السيئة التي قد تسيء لهذا التكوين، والتي سيكون لها أثر معنوي على فعالية حياة هـذا الـفـرد أو ذاك، أمـا اللون والسحنة فلا يُعدّان خلافاً ولا ضير فيهما لأنهما وجدا لتمايز الأعـراق والشعوب وفيهما حكمة أيضاً للتعارف والتقارب.

فالإنســان ليس بلونــه وإنما بتلوينــه الداخلــي، أي بصبغتــه التي فُطر عليها.

- النـاســ جميعــاً يُخلقــون متســاوي القــدرات المحركة لهذا التكويــن العضوي (الــروح والعقل) باستثنــاء قليل جداً ممن اختصهــم الله ببسطة من العلــم والجسم التي توهب قــدرات روحية وعقلية متميزة، أو قليــل ممن تميزوا وراثيــاً ومرده لحكمة شاءها الخالق عــز وجل في هذا دون ذاك،



كما نجد من هو محروم من القدرات العقلية أيضا.

- الناســ متســاوون جميعــاً في الوقت الذي يمــر عليهم، والاختــلاف الناتج بين فرديــن أو مجتمعين في وقت واحد معلوم لا يعود سببه للوقت وهذا دليل على أنه عامل محايد ومنصف بين الناس.

يـعـيـب رجــالٌ زمـانــاً مضـى
ومــا لــزمـانٍ مضـى مـن غِـيَرْ

فقلْ للذي ذمَّ صرف الزمان
ظلمتَ الزمان فذُمَّ البشرْ

- الناس جميعاً متساوون ضمن مجموعات أو مجتمعات لأن البيئة واحدة تقريباً لهم جميعاً.

الناس متساوون جميعاً بأن خلقهم الله أحراراً، والعبودية في النفس الإنسانية ومنها لا عليها.

العبد عبد النفس في شهواتها
والحرُّ يشبع تارةً ويجوع

وقبل الإشارة إلى ما يختلف فيه الناس، تجدر الإشارة إلى الأسباب والعوامل المساعدة لوجود هذا الاختلاف والذي تقوم به الحياة وتتكامل.

- الاهتمام المختلف بالوقت واحترامه المتفاوت من قبل الأفراد، فقد يقدسه البعض ويهمله بعضهم الآخر ويقلل من شأنه.

- عدم الاهتمام الفردي أو الجماعي المتساوي بالحياة، لذا يتفاوت التحصيل المعرفي والمهاري والوجداني وتختلف درجة الحفاظ على الحياة، وتختلف النظرة إلى الاهتمام بالعلم والثقافة، لذلك فالعطاء الإنساني متفاوت.

- تفاوت الرعاية والتنشئة والاحترام للإنسان من قبل المجتمعات وهذا قد يوجد في مجتمع وقد لا يوجد في مجتمع آخر وهذا هو أقوى الأسباب لوجود التباين وهو سر التخلف والتقدم على السواء

- التفاوت في تنمية القدرات الروحية والعقلية للفرد وقد يعود نموها البطيء لسبب ذاتي أو موضوعي وكلاهما واسع جداً جداً ولكن كلاهما يتعلق في كلمات ثلاث فقط تؤخر نمو هذه القدرات وهي (الحسد . الطمع . الحرص) والتي هي السبب لكل معاناتنا القاسية أفراداً ومجتمعات أما نقيضها في الإنسان الذي يسعى نحو الكمال فهي (الرضا - التسليم - الاجتهاد).

أما ما يختلف فيه الناس فهو:

- التفاوت في استثمار الوقت كماً وكيفاً.

- التفاوت في استثمار القوى الذهنية التي منحها الله، والتفاوت في الاستزادة من العلم والمعرفة وكيفية تنمية هذه القدرات وشحذها أو صقلها.

- التفاوت في استثمار القوى الروحية (النفسية) التي وهبها الله للإنسان، والتفاوت في العمل على تهذيبها وتزكيتها، والعمل على شفافيتها وتغذيتها وتنمية

الارتقاء بها للمهـام الإنسانية التي وجدت من أجلها.

- التفـاوت في تنمية القـوى الجسمية لتتماشى مع القدرات الفكرية والروحية.

- لهذه الأسباب يتفاوت الناس ويختلفون بعضهم عن بعض في الجد والاجتهاد والعمل الذاتي الذي يجد الإنسان من خلاله نفسه، ومن دون العمل الجاد فهو لا شيء، فالإنسان هو الـذي يسعى لتحقيق وجـوده واحتلال دورٍ في المجتمـع وأن يكـون له من الفاعلية والجدوى والفائدة، ومَن يأخذ بهذه العوامل المذكورة أعـلاه والتي أستطيع تلخيصها في كلمات ثلاث هي:

(الوقت . الفكـر . العمل) يصل لتحقيق الذات بإدارة الإنسان لأعماله، فهذه الكلمات هـي السبـب في كل هذا التنـوع والخلاف الإنساني.

ونظراً لشديـد أهميتهـا تولدت فكرة هـذا المقال خصوصا في واقعٍ عربيٍّ يصاب الناظـر إليـه ليس بالقنـوط فحسب بل بالذهـول والاكتئاب، لأن من يتمعن في هذا الواقع يجد أن البيئة العربية غنية متكاملة بثرواتها المتنوعـة، وكذلكَ فهي متكاملة في مناخاتها ومتكاملـة بكافة الطاقات، وحتى البشرية، وفيها من الفكر ما أنار للإنسانية دروب حضاراتهـا، وفيهـا مـن الكفايات العلمية ما يدهش.

والخلاصة إن كل شيء متوافر في الوطن العربي ومع ذلك فهو متعثر والسبب في ذلكَ (الوقـت . الفكر . العمل) هذه الكلمات التي لو أجدنـا احترامها، وأجدنـا استخدامها، وأخلصنـا في استثمارهـا، لكانـت قصُرَتْ طريقنـا الطويلـة، وسهُلـت بعـد صعوبة، وعُبِّـدت بعد وعـورة. وحققنـا ذواتنا من خلال أمة لهـا وزن وشأن كبير، لذلك لا بد من تسليط الضوء على أهمية الوقت والفكر والعمـل والعلاقـة بين هـذه الثلاثية التي تشكل الأساس في حياة الإنسان.

وكيـف يجب أن يشـق الإنسان طريقه ليجد موطئ قدم له في عالم شديد التعقيد، وكيف يجب على الإنسـان استعمال أسلحة الوقت والفكر والعمل ليصنع الحياة ويحقق المستقبل.

فالإنسان بالوقت يحقق الوجود، وبالفكر يحقق العصـر الذي ينتمي إليـه، وبالعمل يحقـق الحضـارة، والإنسـان حرية تصنع الوجـود والعصر والحضـارة، ولا إبداع مع فقدانها إلا الجهل والفقر والتخلف.

الوقت حضارة والحضارة إرث قيمي وتراث حضاري

الوقت ليس فراغاً، بل وجود مادي وحقائق قيمية تملأ البعد والأوان، والحقائق تبدأ من الوقت ويديرها فكر، فإن كان الفكر سليماً بدأت هي سليمة واستمرت في مساراتها لتستقر في غاياتها بشكل سليم والعكس صحيح.

والفكر قيادة تسيطر زمانياً أو إدارة تستحوذ على الزمان كعهدٍ أو حقبةٍ أو عصرٍ، فيتسم بسمات فكره السائد كأن نقول مثلا العهد الروماني أو العهد الفارسي أو العصر الإسلامي.

والتاريخ يؤكد أن للأفراد الموهوبين دورا في تحديد مسارات الأمم وتطورها وإن لكل عصرٍ دولة ورجالا. وإن مجمل الحقائق لمجتمع ما تمثل تاريخه (إرثه القيمي) بكافة ألوانه المعرفية والثقافية والأخلاقية وغيرها.

والوجود يبدأ من أعمال صداها القيمة والأثر الذي تتركه الأعمال، والأعمال تحتل مكاناً (وجوداً) تمارس فيه الإدارة أو القيادة أو الفكر سلطاناً عليها.

وإن مجمل الأعمال لمجتمع ما تمثل تاريخه (تراثه الحضاري) بكل ما فيه من منجزات مادية ذات دلالات ومعاني تبهج النفس وتبعث النشاط والأمل إذاً فالوقت حضارة والحضارة إرث وتراث.

إدارة الأعمال لإرث الإنسان وتراثه

إن إدارة الأعمال مصطلح علمي قديم جديد متجدد، كان ولا يزال من أشد العلوم تطوراً، حتى أصبح يقترن بالثروة الذهنية التي تحدد معالم الحياة وترسم خطاها في كل صغيرة وكبيرة وفي كل الاختصاصات والمجالات وفعاليات وأنشطة الحياة كافة، فإنجاز أي شيء على مستوى الأفراد والمجتمعات يلزمه.

أولاً – فكر – أي إدارة أو قيادة تمثل الوجه التطبيقي للفكر.

ثانياً – عمل – وتمثل الأفعال فيه خطواته الفعلية.

والعمل تابع للفكر و الفكر سابق له، ويرسم معالمه، ويحدد خطواته ومراحله، وإدارة الأعمال كلمتان:

الإدارة – وهي التي تدل على أن الإنسان قبل العمل والفكر الإنساني مولدُ الأعمال وقائدها الذي يسبقها ويسير معها ويعمل على تجديدها وتطويرها باستمرار.

الأعمال – هي وليدة الأفكار، وتتم تحت لوائهـا و تتأثر بمستوى صحتهـا، كما أنها تؤثر في الفكر فتدعمه وتقويه وتعزز مكانته، من هنـا نستطيع أن نقول إن إدارة الأعمال مصطلح مركب مـن جزءين متلازمين يؤثر كل منهمـا في الآخر إلا أن تأثير الفكر على العمل أكبر.

والتسلسليـة التالية: توضح التأثير وفقاً للأسبقية والأهميـة كلٌّ فيما تلاه و إلى ما يشير إليه.

الإدارة هي ← وقت ← فكر ← عمل

↓ ↓ ↓

الأعمـال هي حقيقـة (إرث قيمي) ← قيادة ← قيمة (تراث حضاري)

تفاعلات الفكر والعمل

وفي هذه التسلسلية يشير الأسبق والأهم إلى ما يليه في الأهمية (أفقياً) وإلى ما انبثق عنه (رأسياً)

فماذا نفهم من هذه العلاقة؟

إن الحقيقـة (إرث أمـة مـا) تتولد في الوقت، والحقائق في الوقـت كثيرة، تتوالد وتستمـر وتنتهي فيه، والوقـت لا بداية له تعـرف ولا نهاية تدرك وهـو الأشمل الذي يضم حقائق المجتمعات والإنسانية كافة.

والفكـر هـو الأساس والمطـور والمبدع والمبتكر، والقيادة وليدة الفكر، وتعمل بوحيه وإرشاده، فالقيادة الناجحة لا تنبثق إلا عن فكر ناجح.

والعمل يتولـد عن فكر وحاجة، والعمل قبـل القيمـة ويسبقها، وهو الـذي يحدد مسـتوى القيمـة وفقـاً لجودتـه وفوائده واعتبـارات عديدة أخرى تؤثر في ذلك، أما القيمـة فتحدد جدوى العمـل وخلوده، لذا فالقيمة لا تظهر قبل اكتمال العمل وتنفيذه أي أن الأسبقية للعمل، إلا أن أهمية القيمة أعظـم من العمل ذاته، لأن القيمة إذا كانت عالية المستوى ومفيـدة للمجتمع فهي التي تمنح العمـل الاحترام والجـدوى وديمومة البقـاء وبالتالي إعطـاء المباهج الحضارية الخالدة.

فالقيمة العاليـة المتأتية من عملٍ مميز تؤصل هذا العمل في تواجده واستمراره كما هو يوجدها ويعمـم الانتفاع بها باستمرار. والوقـت أهـم مـن الحقائق لأنـه مصدر الحقائق وهي موجـودة فيه، ووجودها فيه تجعلنا نشعـر بأهميته ومعناه فمن دونها لا نشعـر بقيمة الوقت. لذا فتأثير الحقائق في

الوقت مادي، بينما تأثير الوقت في الحقائق معنوي فلولاه لما عرف لها أي معنى ولا جدوى. والفكر أهم من القيادة لأنها تنبثق عنه ومنه تتغذى وبه نجاحها، فالقيادة ثمرة الفكر، والفكر ثمرة الإنسان والإنسان صنيعة الله والفكر هبة منه إليه.

لذا فالقيادة الناجحة تصدر عن فكر سليم، وقد يكون للقيادة دور عظيم لتعود نسغاً يعمل على تغذية الفكر وزيادته مضاءً وعطاءً.

أما العمل فهو المحدد لمستوى القيمة، فكثير من الأعمال لا قيمة لها، وتفضي إلى الندم، أما ذات القيمة فترتد قيمتها عليه لتقوية الطلب على هذا النوع من الأعمال وإطالة عمرها وتحولها إلى إنجازات حضارية خالدة لذا فالوقت والفكر والعمل هي الإنسان والإنسان هي، بها يوجد وبها يعيش ويحيا وبها ينجز إرثه وتراثه وبها يخلد.

أهمية إدارة الأعمال

إن إدارة الأعمال الناجحة هي التي لا تهدر وقتاً ولا يفوتها فكر ناجع، أو يضيع منها عمل ناجح.

وهذا حسن تدبير بألا يتعامل الإنسان مع مالا ينال، وما لا يستطيع ويناسب.

إذا لم تستطع شيئاً فدعهُ
وجاوزهُ إلى ما تستطيعُ

والنجاح يؤول لأسباب أخرى عديدة.

فمن لا يحترم الوقت، لا يحترمه الوقت ويتجاوزه فتتخطاه الحياة، فيتخلف عن الركب الإنساني والحضاري.

وليس هناك شكٌ في حياةٍ
تدوس العاجزين ولا مراءُ

فالأفكار الإنسانية كأنها البحر، والأعمال سفنها وبوارجها والوقت هو الزمان المستوعب لهما، والإدارة (القيادة) تمثل ربانيها، لنقل المجتمعات إلى شاطئ الأمان والسلام.

معايير تقييم المجتمعات

إن تقييم المجتمعات والشعوب والأمم يتم من خلال احترامها للوقت، واستثماره بالأفكار الواعدة الجديدة، ذات الأثر على إيجاد الأعمال وتطويرها المستمر ورفع مستوى الإنتاج، وبالتالي خلق القاعدة التحتية الاجتماعية الاقتصادية القوية. ليقوم عليها بناؤها الفوقي (القيمي) الأخلاقي الحضاري. ومن أهم هذه المعايير التي تقيس اجتهاد المجتمعات وتحصيلها ما يلي :

١- حقيقة الوقت فيما تقضيه من خلال الإرث القيمي الذي أنجزته وحققته.

٢- القيادة سلامتها وفعاليتها والتزامها بالفكر وجدواها ومدى الانسجام مع فكرها ومدى سعيها لتنمية الفكر، والنهوض بمهام القيادة الناجحة، والوصول لعطاء فكري راقٍ، يرقى بما أُنيط به من مهام فكرية وعملية، أي النجاح في بناء الإنسان.

٣- قيمة الأعمال وجدواها الاقتصادية، وفوائدها الاجتماعية على المجتمعات والإنسانية،واستبعاد الأعمال التي لا تتمخض عن قيمة، والقيمة هنا بحضارة الإنجازات المحققة والمفيدة للإنسانية.

حضارة الغرب والشمال على حساب الشرق والجنوب

لو نظرنا إلى الإدارة الأمريكية برئاسة أي كان جورج بوش أو غيره، لأن الرئيس هناك ليس سوى لسان الإدارة الناطق بما تريد. والقيادة الأمريكية قيادة مؤسساتية رأسمالية كثير منها من أصحاب الاستثمارات العالمية الكبرى عبر الأقطار. حيث يشكلون مع الخلفية غير المرئية من أصحاب النفوذ المالي (الموجه) للقرار السياسي الأمريكي لاسيما كبار المنظمات الصهيونية من أصحاب الرساميل الكبرى.

لو نظرنا للقيادة الأمريكية من خلال المعايير الآنفة الذكر التي تقيم المجتمعات فماذا سنقرأ:

- المعيار الأول

إن حقيقة الوقت للإدارة الأمريكية هي إنها تقضي الوقت بالسعي المستمر للهيمنة على الشعوب وقهرها وابتزاز خيراتها والسيطرة على ثرواتها ولو أدى ذلك إلى القتل والدمار والفقر والجهل، هذه هي النواتج لهذه الحقيقة.

لأن أمريكا جاءت كوليد لعالم متقدمٍ متحضرٍ ساد العالم عدة قرون متمثل بإمبراطورية لا تغيب عنها الشمس (بريطانيا العظمى) ودول مثيلة لها كفرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال ومن الصفوة العلمية لدول العالم الأخرى، فالإمبراطورية البريطانية سادت العالم وابتزت خيراته، ونهبت ثرواته، واستعبدت شعوبه ورسمت خرائطه الجيوسياسية بمدادٍ من الأضغان والأحقاد والخلافات التي لن تزول، ومازالت دول العالم تعاني المرارة من هذه الخرائط الجيوسياسية والتقسيمات الجغرافية الإنسانية الخطيرة.

وما إن كادت هذه الدول تشيخ حتى

بــرزت أمريكا من رحم هــذا العالم المتقدم كوليــد جديد نمــا بسرعة وتطــور تطوراً مذهــلاً خاصــة بعــد الحربــين العالميتين الأولى والثانيــة، واستمــرت في تصاعد إلى أن أصبحت القوة العالمية العظمى والقطب الأوحد، وها هي جيوشهــا تغطي الكوكب، وأساطيلهــا وبوارجهــا وطائراتهــا في كل محيطات العالم وبحاره.

ونظــرة إلى العالم في جنوبه وشرقه أو في دوله الفقيرة المعدمة.

وإلى مــا يحــدث في أفغانستان والعراق وفلسطــين، فــإن المرء تعــاوده الذاكرة إلى تصور أيام الاستعمار التقليدي، فيشاهد أن أمريــكا ليست سوى وليــد وفيّ للرحم التي خرجت منها

(والمثيــل يلد مثيله) نعــم يشاهد أن لا فرق بــين الظالم بالأمس والظــالم اليوم، بل علــى العكس فظالم اليوم أشــد قسوة وأكثر علمــاً وهــو مدجج بمــا يحــرق الأخضر واليابس، ويكتــم الأنفاس.نعم إنها الحقائق التي يضيق بخططهــا الاستراتيجية الشرق الأوســط ولا يهمهــا ســوى مصالحها ولو قامــت على الجماجم نعــم إنهم على خطا الأجداد سائرون.

المعيار الثاني (وهو القيادة)

فحينما تريد معرفــة إنسان فانظر إلى قرينه، وحينما تريد معرفة دولة فانظر إلى قيادتها.

ونظرة إمعان للإدارة الأمريكية تريك أن هذه الإدارة مع من يدعمونها من احتكاريي وسماســرة الأمــوال وأصحــاب الشــركات العملاقــة انبثقــت عن فكر هدفــه القوة والعظمة حتى الجنون والسيطرة والهيمنة. فماذا ينتظــر فقراء العالم مــن هذا الفكر وهذه القيادة التي تمثله وترعى مصالحه؟

لذا فلا آثار لهــذه القيادة سوى التوسع والقتــل والتدمير نعم إنها مخرجات صادقة المدخلات شــاءت هذه المخرجات، هذه هي الآثــار المادية التي خلفتهــا وتخلفها يومياً، أمــا الآثــار المعنويــة فهي لم تخلــف سوى الحقد بين الشعوب بدلاً من المحبة وتأجيج صراع الحضارات والثقافات وربما الأجناس والديانات والفــتن الطائفية والمذهبية وما حدث ويحدث وسوف يحدث في المنطقة من لبنان إلى العراق ويتوسع هو هدفها الرئيس. فهــي تعلن عن محاربــة الإرهاب وهي التي تباركه في إرهاب الدولة الإسرائيلي وتمارسه في العــراق، والعــالم يريــد عــودة الحقوق

لأصحابها -عودة حقوق اللاجئين- أي العودة إلى موطنهم وبوش يتجاهل ذلك، ناهيك عن الموازين والمكاييل والمعايير المختلفة للتعامل مع القرارات الدولية (ليس ما يجري في الشرق الأوسط سوى المقدمة هذا ما قاله الرئيس بوش إلى اللوبي الصهيوني.)

بداية النهاية

توّجت الإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش آثارها السيئة على الإنسانية باستصدارها قانونا من مجلس النواب والشيوخ الأمريكيين يطالب وزارة الخارجية الأمريكية بتصنيف دول العالم من خلال وعيها بمكافحة معاداة السامية أو ما يسمى بقانون مكافحة انتقاد السامية والذي سارع الرئيس الأمريكي جورج بوش لتوقيعه في ٢٠٠٤/١٠/١٦م. فهل نحن أمام دولة أمريكية أم صهيونية ؟ لقد صدق بنيامين فرانلكين عندما قال للأمريكيين (لا تفتحوا أبواب الهجرة أمام اليهود، لأن الأحفاد سيلعنونكم في لحودكم.)

إن قانونهم هذا هو نقطة البداية لنهاية العالم لأنه الوبال الذي سيعم العالم، ويحرك مشاعر الإنسان على وجه الأرض. لأن الناس جميعاً متساوون وليسوا عبيداً لمن هم يظنون أنهم ينتسبون إلى السامية، فالسامية بمفاهيمها وتعاريفها القديمة قد تهالكت أمام وعي إنساني متطور، فالناس يعيشون في القرن الحادي والعشرين وكلهم أخوة في الإنسانية وجميعهم سواسية، فالسامية بمفهوم الرقي الحضاري الحالي هي السمو والرقي والشفافية الإنسانية، وهي ألا نسيء لبني البشر. السامية في الفرد نفساً سامية محبة للخير لها ولغيرها من الأنفس بما تكن وبما تظهر؛ لأنه في الحالتين يجب أن يكون محبة وتعاوناً وتآلفاً إنسانياً، لا فرقة ولا تميز ولا تفضيل لأمريكي على روسي أو لروسي على فرنسي أو لفرنسي على عربي أو لعربي على هندي إلا بما يحسن من خدمة لتطوير الإنسانية.

فالسامية لم تعد أنساباً وأعراقاً بل أصبحت وشائج إنسانية من النبل رسخها أبراهام لينكولن وغاندي وطاغور ونيلسون منديلا وغيرهم من مناضلي العالم الذين حرروا إرادة الشعوب وقضوا على كل تمايز أو تفاضل بين الأعراق والشعوب والأجناس، فكلنا أبناء آدم وحواء، زرع فينا الخليل إبراهيم عليه السلام النفس التي لا تعيش

مـن غير أخـلاء، وزرع فينـا الكليم موسى عليه السلام سمو الروح بالمناجاة التي تطهر الأنفس وتقتلع الكبر والتمييز.

سمت نفوسهمُ طهراً فعاش بها
حبٌ ترفّع عن سوءٍ وفحشاءِ

وزرع فينا روح الله وكلمته الطيبة سيدي المسيـح عيسى بن مريم عليهما السلام روح المحبة والسلام وكان رسول المحبة والسلام، وزرع فينـا رسول الله وحبيـب الله محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه التآلف والأخـوة. فهو أول من أوجد الأخوة فآخـى بين المهاجرين والأنصـار، وهو أول من قضـى على التميز العنصـري وقال لا فرق بين عربي وأعجمي أو أبيض أو أحمر إلا بالتقوى. وهل بعـد التقوى وأن يعيشها الإنسـان في قلبه مـن استقامـة للإنسان أجدى منها؟ ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم)) الحجرات ١٣.

فما هـذه السامية التـي تستبق الإدارة الأمريكيـة بها مـن يدّعيها؟ ليـت الإدارة الأمريكية سمته قانون السُّمية الذي سيزرع السم والحقد في نفوس البشر،فالإنسانية لم تعد بحاجة إلى ما يفرقها كفاها من الفرقة والشتـات التـي خلفتهـا وراءهـا الفاشية والنازية والستالينيـة والقوميات المتعصبة، فإنسـان القـرن الحـادي والعشرين لم يعد يحتمل هذه النزاعـات التي تمايز المجتمع الإنسـاني إلى فئـات فهل عدنـا إلى طبقة النبـلاء والدهماء التـي عاشتها الحضارة اليونانية قبل خمسة آلاف سنة، أتمنى على الإدارة الأمريكيـة أن تكـون صريحـة فأيّ أفـواه تريد أن تسكت؟ أفـواه العرب الذين طردوا من أرضهم ووطنهم وديارهم أم أفواه الشعوب الأوروبية التي صوت منها ٦٣٪ في عـام ٢٠٠٣ بأن إسرائيل تسبب قلقاً للسلام العالمي.

خلق النـاس للقوي المزايا
وتجنوا على الضعيف العيوبا

نعـم إن الضحية سيكونون العرب لأنهم الأضعـف، لكن القوي النبيل لا يتقاوى على الضعفاء فليظهر قوته على الأنداد الأقوياء هنا النبـل يكمن أيتهـا الإدارة الأمريكية، وهـذا ما أكدته بعضـ الإدارات الأمريكية بمواقـف مشرفة لها وللشعب الأمريكي كما حـدث في حرب السويـس سنة ١٩٥٦، وفي البوسنة والهرسـك وكوسوفا وغيرها حيث وقفت الإدارات الأمريكية مع الضعفاء ضد الأقوياء. وهل هناك أجمل من وقفة الأقوياء في العالم لجانب الحق.

ولم أرَ كالمعروفِ أما مذاقه
فحلوٌ وأما وجهه فجميلُ

وأتمنى على الإدارة الأمريكية أن تسأل هؤلاء الساميين من أقام لهم الأفران؟ ومن أقام لهم المحاكم محاكم التفتيش؟ ومن أقام لهم معسكرات الاعتقال؟ هل العرب أم أوروبة؟ وهل عاش هؤلاء عصراً ذهبياً غير الذي عاشوه في كنف الحضارة الإسلامية التي حققت من المحبة والمؤاخاة ما كان لها شرف الريادة فيه وعلمته إلى الشعوب الأخرى؟. وهل السامية هذه تنسجم مع مفهوم العولمة والعالم الجديد؟ فالعولمة تقوم على العلم والاقتصاد. وهل في العلم نقاء لأعراق أو أجناس؟ وهل مع العلم تفاضل بين الناس إلى نبيل ووضيع وغير ذلك؟ كما حطم التطور الاقتصادي الحدود والجدران بين الشعوب وأصبح العالم قرية صغيرة.

القضية واضحة بل طبخة شاطت رائحتها منذ أن بدأها الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجن في الثمانيات من القرن الماضي بتغلغل التيار الديني المحافظ للإدارة الأمريكية وبتلاقي وبتناغم مع الصهيونية العالمية أُم الرساميل الكبرى، إلى أن وصلت قانوناً من الإدارة الأمريكية ووقعه الرئيس بوش بلمح البصر ليجعل منه مظلة تشوي العالم لا ليستفيء بها العالم.

الشرق الأوسط على نار حامية

لنستعرض سويةً ماذا يعني هذا القانون. إن هذا القانون جاء هدية من الرئيس الأمريكي بوش لليهود، جاء أكبر من الحلم وأعظم من الطموح، جاء إرضاءً لليهود وكسب ثقتهم وودهم، ولضمان أصواتهم وأصوات من يشرونهم بأموالهم لصالحه في انتخابات تشرين الثاني ٢٠٠٤، أي قبل أقل من شهر من موعد الانتخابات وقع الرئيس هذا القانون وقدَّمه على طبق من ذهب لليهود، وليجعل منهم السادة وكل هذا العالم خدمهم وطوع أمرهم، لكنه فات الإدارة الأمريكية أن هناك من لا يطأطئ رأسه واليهود ليسوا فوق الخطأ، إنهم بشر يصيبون ويخطئون، والمخطئ يجب أن ينقد، إن هذا القانون يلزم وزارة الخارجية الأمريكية بتقديم تقرير دوري يصنف دول العالم وفقاً لخضوعها لهذا القانون والرد بحزم على من سيخرج عن الطاعة.

لَيْتَهم لم يطلقوا عليه قانون الوعي لأنهم يعون تماماً أن من لفظ اليهود من بلدانهم إلى فلسطين هم الأوروبيون وليس العرب،

وذاكرتهم لم تنسَ بعد محاكم التفتيش. لو أطلقوا عليه قانون الفيتو الأبدي لتطابق الاسم مع المضمون، لأن كل من يتكلم أو يعمل أو ينشط أو يطالب حتى بحقه وأرضه وكرامته، إذا كانت هذه المطالبة لا ترضي الطفل المدلل فهي باطلة ومرفوضة وإرهابية، فهل هذا استغفار عن ذنب طردهم وعلى حساب شعوب أخرى؟

حقاً إن بداية النهاية في هذا القانون لأن كل من يناضل في العالم ويتعارض نضاله مع من اتخذته القيادة الأمريكية نبراساً (إسرائيل) سيتهم بأمرين أحلاهما مر إما بالإرهاب وإما بالعداء للسامية، وهذا إلغاء لقانون إلهي ينص بعدالة الدفاع عن النفس وإلغاء أيضاً للقانون العلمي الفيزيائي (لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويعاكسه بالاتجاه)، فهل هذا القانون بداية لديانة جديدة؟ وأمام ذلك فالإنسان أمام أمرين أيضاً أحلاهما مر إما السكوت والاستسلام وإما فجيوش أذرع الإخطبوط الأمريكي جاهزة لتصل إلى أقاصي العالم، أعتقد أن هذا هو جنون العظمة الذي يريد إخضاع العالم لهوى النفس الأمريكي في خدمة المحبوب المدلل (ومن الحب ما قتل) لكن هذا ليس كل شيء بل هو بداية مالا يرى من طوفان فتحت بابه أمريكا.

مستقبل الشرق الأوسط يصنعه أهله

ستوسوس الصهيونية في صدور الإدارة الأمريكية، وتؤزُّ في آذانهم أزاً كي يحدّوا من الأنشطة العالمية الناطقة بالحق والعاملة من أجله، وخاصة نشاط الجاليات العربية في أوروبا وأمريكا، من خلال حملة عقلها المدبر الصهيونية، أما المعاداة للسامية ستكون الحجج والمبررات لها، وكثير من الأنظمة الأوروبية ستكون لجانب أمريكا وسائل تنفيذ لمضايقة الجاليات العربية التي سيتصاعد اضطهادها وظلمها ومن ثم تطفيشها، كي يخلو للطفل المدلل وجه أبيه وأمه فلا يعكر صفوهم أي نشاط معادٍ لهم، وهذا لن يحتاج لأكثر من عقدين من الزمن. فهذه هي فرنسا وبريطانيا واليمين الإيطالي وغيرها بدأت بالتناغم مع العزف الأمريكي، ودلالات هذا التناغم عديدة ولم تنته، وفرنسا هي عربة القطار الأولى بعد الرأس (أمريكا)، ولن يتوقف هذا القطار حتى يضم عربات العالم! وكانت أولى ثمار هذا القانون قانون مكافحة العداء للسامية (القانون ١٩٥٩) نعم إنه الثمرة الأولى لقانون حماية السامية والحبل على الجرار وما

رافقت هذا القرار ١٥٥٩ من ضجة إعلامية وجلبة داعية لخروج الجيش السوري من لبنان وعدم شرعية التمديد للرئيس اللبناني إميل لحود. رغم أن التعديل قانوني وشأن داخلي، وتواجد الجيش السوري أمر محلي وتم وفقا لمعطيات إنسانية وإجراءات قانونية وليس هناك أي خلل قانوني في هذا التواجد.

ولنعد إلى الوراء قليلا لقد دخل الجيش السوري لوضع حد لمتطرفين ذوي ارتباطات مشبوهة أرادوا حرباً أهلية قذرة تستهدف القضاء التام على بعض الفئات، وهذا ما كانت تخطط له إسرائيل فهي التي تجيد ألحان الحرب والفتن كما تجيد ألحان السلام، ودخل الجيش السوري وأسقط هذه الفتنه إلى الأبد، دخل بدعوة رسمية من الحكومة اللبنانية وبمباركة وتأييد عربي ودولي، وكان من ثمار دخوله هذا تعزيز العمل الوطني واللحمة الوطنية التي ولدت مقاومة وطنية لبنانية حققت ما عجزت عنه الجيوش العربية النظامية، وقهرت إرادة إسرائيل فخرجت تجرُّ أذيال الخيبة من لبنان وانتصرت إرادة المقاومة الوطنية اللبنانية عام ٢٠٠٠ م وعام ٢٠٠٦ م.

لقد أصبحت اللحمة السورية اللبنانية مصدر قلق لإسرائيل ولأمريكا على السواء، لأنه لم يبق من يقف في الأمة العربية أمام التوسع السرطاني الإسرائيلي الأمريكي سوى اللحمة السورية اللبنانية، فالعراق احتل ومصر والأردن والسلطة الفلسطينية عقدت ما يسمى اتفاقيات سلام، وقامت سفارات وفتحت مكاتب ونشطت العلاقات التجارية والسياسية، الأمر الذي شجع أمريكا وجعلها تتمادى وتتمدمد في المنطقة، وازداد دعمها لإسرائيل فبعد أن كان خجولاً فلا حياء فيه الآن كما أن أكثرية الأنظمة العربية لم يعد موقفها المجافي للمقاومة والمناهض للممانعة لم يعد خجولاً بل كان أكثر سفوراً من الموقف الأمريكي. ولم يبق ثابتاً على موقفه إلا اللحمة السورية اللبنانية في وجه ما يتهدد الأمة العربية من مخاطر ولا أبالغ إذا قلت إن التاريخ يعيد نفسه فالمقاومة الوطنية اللبنانية دحرت أعتى جيوش العالم عدةً وعتاداً كما فعل جيش سيف الدولة الذي دافع عن الثغور الشمالية لأمة عربية مفككة ضعيفة آنذاك.

إن انتصارات المقاومة الوطنية اللبنانية شبيهة بانتصارات جيوش سيف الدولة الحمداني، وبالطبع فإن ما تم هو بهمة

وإيمان الشباب والشابات اللبنانيات بالذود عن الوطن ومدعومة بالنَّفس السوري والتأييد الشعبي والرسمي السوري وبالتغطية الإعلامية والدعم الاقتصادي الذي ليس له حدود من جمهورية إيران الإسلامية، وبدعم من القوى المحبة للسلام في العالم.

فاللحمة السورية اللبنانية هي بقية الأمة العربية والسياج الذي يحمي ما تبقى من قيم هذه الأمة ونواميسها.

وهذا ما تعمل الصهيونية لتبديده باليد الأمريكية وعلى تفكيكه وهدمه لأنه الحصن الأخير الذي إذا انهدم لن يبقى لأمة العرب وجود ولن تقوم لهم قائمة نعم فلولا محور الممانعة لكان الشرق الأوسط أمريكياً إسرائيلياً بامتياز.

ومن أسفٍ أن فرنسا انجرت وراء أمريكا والصهيونية لإزالة هذا السد المنيع الذي يقف حجر عثرة في وجه إسرائيل الكبرى إلا أن الصمود والصبر والحنكة السياسية السورية أعادت العلاقات الفرنسية السورية إلى مسارها.

أيها العرب إن اللحمة السورية اللبنانية تمثل عقد الشرف، الذي يتغنى به كل عربي ويرى فيه قبس النور الذي يبعث الأمل في نفس كل عربي القادر بالإرادة والحق من الانتصار على الباطل القوي، فالحق والإرادة هما الشفاء والنجاة من انقراضٍ محقق.

فالشعوب العربية تعيش الوحدة العربية واقعاً حياً لن يموت ما داموا أحياء وإن باعدتهم الأنظمة. لنلقي نظرة على الماضي غير البعيد لنشاهد كيف استطاع عبد الناصر إيقاظ الأمة بعد نوم يقرب من ألف عام، وكيف تحققت وحدة ١٩٥٨ وكيف عمل العالم على هدمها؟ وكيف وقف عبد الناصر مدافعاً عن حقوق مصر في تأميم قناة السويس؟ وكيف كان يمد يد العون لدول الخليج العربية ولليمن؟ وكيف كان الرد العربي الخليجي في ١٩٧٣ في حرب رمضان مشرفاً، حين أطلق زايد –رحمه الله– مقولته المشهورة «إن البترول العربي ليس أغلى من الدم العربي»، هذه هي فطرة الأمة التي دينها واحد ولغتها واحدة وتاريخها وعاداتها واحدة، فكيف تتجزأ وفيها كل عوامل الذات الواحدة؟ وكلنا يعرف سليمان الحلبي البطل السوري الذي قتل كليبر في مصر،وجول جمال الضابط السوري الذي دافع عن وطنه الثاني مصر. كلنا رأى وحدة الدم العربي في حرب تشرين الأول ١٩٧٣،

وهذا ما يزعج الصهيونية ويؤرقها ومن يدور بفلكها ويعمل بأمرتها. لن يهدأ لهم بال وهناك مكامن قوة في الأمة العربية ولم يتبق إلا هذا الكمون السوري اللبناني المدعوم من جمهورية إيران الإسلامية ومن القوى المحبة للسلام في العالم. وهذه اللحمة تقلقهم من هنا يتضح حجم الهجمة الشرسة والضغوط الكبيرة التي تتعرض لهما كل من سورية ولبنان.

لذا جاء القرار ١٥٥٩ الثمرة الأولى لقانون السامية لتحطيم آخر معقل مقاوم في الأمة العربية وجاءت مؤامرة اغتيال رئيس وزراء لبنان الأسبق الشهيد رفيق الحريري الثمرة الثانية التي تجنيها إسرائيل وأمريكا. حيث فتحت مؤامرة الاغتيال هذه أبواب المنطقة من الشرق ومن الغرب على الجحيم وعلى المجهول الذي يمكن الحديث فيه طويلا حول إفرازات وحقائق ما جرى وما يجري وما هو مبيّتٌ وقادم للمنطقة وهذا ما قام بتحليله المهتمون بالصحافة والإعلام والسياسة فمستقبل المنطقة أصبح استراتيجيات مفتوحة الأبواب، مفتوحة الأهداف ومفتوحة النتائج. إن كل هذا المجهول إفرازات خطيرة لقانون السامية الذي سمم وسيسمم شعوب المنطقة ومن إفرازات (ثمار) هذا القانون موقف الرئيس الفرنسي شيراك المتناغم مع أمريكا وإسرائيل حيث شاهدنا وزير خارجيته آنذاك في زيارته لفلسطين المحتلة (لغزة) أكتوبر ٢٠٠٤. لقد نسي مهمته فرغم أنه شاهد بالصوت والصورة والواقع كيف قتلت إسرائيل الحياة في غزة، ورغم ذلك صعد ليعلن ليس ما شاهده في غزه بل ليعلن أن فرنسا لن تساوم في شأن مكافحة العداء للسامية أما الثمرة الثالثة فهي الحرب الأمريكية الصهيونية على لبنان ٢٠٠٦ م بعد أن فشلتا في كل محاولاتهما السابقة، لكن حرب تموز ٢٠٠٦ م تمخضت عن نصر مبين للبنان بمقاومته وشعبه وجيشه، ولخط الممانعة في المنطقة مدعومة من القوى المحبة للسلام في العالم، وفشل ذريع لأمريكا وإسرائيل فكان القرار ١٧٠١ الذي أنهى الأعمال العدوانية لكنه لم ينهِ وقف إطلاق النار وهذا يعني أن الصراع لا يزال قائماً بين المشروعين المشروع الأمريكي للسيطرة على مقدرات الشرق الأوسط والمشروع الوطني القومي الذي يحافظ على مقدرات وثروات الأمة.

وعجيب غريب إن من قتل السامية وأماتها بالأمس هو من يريد إحياءها اليوم وإرجاعها حية؟!

ألستم أنتم أيها الغرب من طردتم اليهود؟ وأنتم من أتيتم بهم إلى فلسطين تحت حمايتكم وسطوة أسلحة انتدابكم، وأنتم الرعاة لنمو وتطور وتعاظم إسرائيل؟ فدعمكم العسكري والإعلامي والسياسي والمالي لا يزال مستمراً لم يتوقف ففواتير التكفير عن الذنب المصطنع لا تزال تدفع بالمليارات.

والغريب العجيب أن من طردته إسرائيل واغتصبت أرضه وحقوقه هو المتهم من قبلكم لأنه يناضل لاسترجاع حقوقه المشروعة! والأغرب من ذلك وضع القوانين الدولية المؤيدة للحق العربي في ثلاجة التاريخ!

فأي منطق هذا في العالم الجديد من يسمى صاحب الحق في الدفاع لاسترجاع حقه بالإرهابي؟ وأي عدالة هذه؟

كلنا شاهد على الشاشات الفضائية مصير نائب مدير إذاعة فرنسا الدولية (الآن مينارغ) كيف أزاحته الضغوط الصهيونية والتيارات الوطنية المتشددة في فرنسا، كيف أطاحوا به لأنه نطق بالحقيقة فقال إن الجدار الإسرائيلي جدار عنصري.

أتمنى العودة إلى كتاب الطاعون أحد كتب الدراسات الفلسطينية لترى أخي القارئ ماذا عملت الصهيونية؟ وما هو دورها في تدمير العالم قديمه وحديثه؟ لنعد إلى الكاتب الروسي الشهير ديستوفسكي «إن الله وحده يعلم ما سيعاني العالم من هؤلاء اليهود» إنني أسأل القيادة الأمريكية والتي كثيراً ما تقرُّ وتعترف بخطئها لماذا لا تقرُّ وتعترف بخطأ الصهيونية؟ والجواب لا يحتاج إلى فطنة.

أعتقد أن هذا القانون كان من الأولى أن يطلق عليه قانون الغضب وليس قانون الوعي، قانون تفجر الانتقاد وليس قانون التحكم والسيطرة ومكافحة الانتقاد أو قانون الاستغفار عن الذنب. فهذا القانون تشاء منه أمريكا أداة قمع للشعوب وما يحصل في العراق وأفغانستان وفلسطين وما هو متوقع حصوله في المشرق العربي ليس سوى مقدمة لبث الرعب في النفوس لتمرير هذا القانون، وليصبح المظلة التي تستظل به شعوب الأرض قاطبة. إنه البداية والبوابة التي افتتحتها أمريكا لكن وراءها عالم مجهول تظن أن ترسم معالمه كما تشاء وهذا ما تظن؛ والظن حساباته غير حسابات واستحقاقات الواقع.

إن الـغـرور إذا تمـلـك أمـة
كالزهر يخفي الموت وهو زؤام
صاحب البغي ليس يسلم منه
وعـلـى نفسـه بـغـى كـل بـاغِ

نعم لقد بدأت أمريـكا على يد إدارتها بداية هذا القانون أما نهايته فلن يكون بيد أمريـكا لأن نهايتـه عالم مجهـول والمجهول تحدده إفـرازات الحاضر المخيفة، فأمريكا تقول إنها تريد إحلال الديمقراطية والسلام في الشـرق الأوسط، ونسـأل أمريكا ذاتها مـاذا حققت مـن قدومهـا إلى أفغانستان والعـراق؟ هـل حققـت الأمـن والسلام والديمقراطيـة التي تتشدق بهـا أم القتل والدمار؟ ونمـو وتفريخ الإرهاب الذي هم بأيديهـم زرعوه فانفلت من بـين أصابعهم كانفـلات المـاء. فلماذا يتهمـون الآخرين بأنهـم مصـدر الإرهـاب؟ أليـس دعمهم اللامحـدود لبعض الأنظمـة المتطرفة في نهجهـا ولعقود عديدة مـن السنين لم يكن أوضـح من الشمس فحسب بـل وكان بيئة التفريخ الملائمة للتطـرف. ونسأل أمريكا مـاذا حققت في العـالم أجمع مـن سياسة الغطرسة هـذه؟ المحبة أم البغضاء؟ اللقاء أم الجفـاء؟ وهل هـذا القانون هو الوجه الحقيقي لـ(من ليس معنا فهـو ضدنـا)؟

إن من يدير ظهره للحق والعدالة مصاب بجنـون العظمة، فالقـوة والبطش من غير حـق ومن دون عدالة هـي سياسة الغابة لا سياسـات الإنسـان السامـي، ولا سياسات الإنسانية والسامية التي يدَّعون.

فهل يريـدون إحياء فكرة تحويل شعوب الشرق الأوسط لسماد تنبت عليه عبقريتهم، لكنهم وبأيديهم وبصناعـةٍ منهم سيولدون من الأجيال ما هو أدهـى وأمر مما عملوا علـى صناعته في أفغانستان وهم يحصدون الآن ما زرعوه.

وهل آنَ للصمـت العربي أن يتحرر من عقالـه لينطق وينطلـق فالصمـت إما أن يكون موافقة أو عجـزا أو ضعفا أو سكوتا علـى خطأ أو تغطيه على تقصير أو ذنب أو استراحـة محارب ولا ضـير في صمت يجد الإنسان فيه نفسـه، جعل الله صمتنا وقفة مع الـذات لا ضياعاً عن الـذات وانغماساً بالملذات وضياعاً للثروات.

خاطر بنفسك لا تقعد بمَعْجَزةٍ
فليس حرٌّ على عجزٍ بمعذورِ

- المعيار الثالث: قيمة العمل

إن المجتمعـات تقاس بقيمـة أعمالها المنجزة (المباهـج الحضارية)، وبالطبع فإن الأعمال الأمريكية تتصدر الأعمال العالمية

بمــدى الفائــدة والجدوى التــي تعود على المدى القريب على أمريكا فقط.

أما على المدى البعيد فهي تضر بالشعب الأمريكــي لأن من يتخطــى إرادة الشعوب خاسر لا محالة إن آجلاً أو عاجلاً.

وأذكر هنا إجابة لأحــد السياسيين رداً على ســؤال وجه إليه وهو «هل يمكن لدولة كبرى وقويــة أن تخسر حرباً؟» فأجاب بنعم وموضحاً إجابته بالمثال التالي:

«كان لأحد جارين كلب صيد كبير مربوط ولجاره الآخــر كلب منزلي صغــير وطليق، وأخذ الكلب الصغير ينبح على الكلب الكبير ويهجم عليه ثم يرتد قبل الوصول إليه مكرراً هذا الاستفــزاز مرات عديــدة فاستشاط الكلب الكبير غضباً وتظاهر بالكسل والنوم فاقــترب منه الكلــب الصغــير وسرعان ما أمسكه وبدأ ببلعه لكنه لم يستطع بلعه وأراد لفظه فلم يستطع ومات الكلبان معاً».

عظة واعتبار

الأمثلة في الحياة كثيرة للعظة والاعتبار ولكــن الإنســان وعلى الرغم مــن أنه سيد المخلوقات وأذكاها إلا أنه أشدها غباءً وهو الأقــوى والأضعف وقلمــا يتعظ، ولنضرب مثــالاً لمــن أراد أن يعتبر، فالنحلــة العاملة المنتجــة للعسل والمنتجــات الأخرى المفيدة مثــل الغذاء الملكي وحبــوب اللقاح والشمع والمــادة الكريهة المنظر لكنهــا الأكثر فائدة (بروبولس-العكبر).

هذه النحلة الصغــيرة الضعيفة إذا مر إنســان من بــين مستعمراتهــا (خلاياها) مسالمــاً وبرفق ومن غير جلبــة أو إزعاج أو إيذاء يمر بسلام، لكن ماذا يحصل له لو مر متحديا وبإرادة القهر المقصود والمتعمد إن مئات بــل آلاف النحل سيهجم عليه ويلسعه رغــم أن النحل الذي يلسع يموت بعد غرز آلــة لسعه في الجسم المهاجم وهذا لن يثنيه عن الدفاع عــن مستعمراته (وطنه) حينما يتعرضــ للتهديد وهكذا هــي نهاية أمريكا وإسرائيل.

فهل اتعظ الضعفاء والأقوياء بأن القوة للحــق، والضعف للباطل حتى لو كان مخيفا في قوته؟ والتاريخ بــه مئات الأحداث التي تــروي المصير الذي آل إليــه أصحاب القوة والتجبر. ليقتنع الإنسان الضعيف أنه الأقوى مع الحق والمنتصر مع الإرادة.

علمت بأن وراء الضعف مقدرةً
وأن للحق لا للقوة الغلبة

لقد اندرس النمرود والفرعون والأباطرة

و الأكاسـرة وحضارات اليونـان والإغريق. وبقي في ذاكـرة التاريخ الإنساني وفي قلوب الناس الضعفاء أصحاب الحق بقي إبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله وكلمتـه ومحمد حبيب الله سلام الله عليهم أجمعين. نعم بقيـت أفكارهم هي المحركة وذات الأثر الفعال.

مـا أقـل اعـتـبـارنـا بـالـزمـان
وأكـثـر اغـتـرارنـا بـالأمـان

معايير تقييم الإنسان الفرد

كمـا شاهدنا بـأن الحقيقـة والقيادة والقيمة هي معايـير لتقييم المجتمعات فإن من أهم المعايير الشمولية التي تقيس إنسانية الإنسـان هي الوقت الفكـر العمل فحينما يصل الإنسان الفرد إلى قناعة ويقين راسخ بقدسيـة الوقت، وأنه مـن دونه لا يستطيع أن يوجـد أو يفكر أو يعمـل أو يصل إلى ما يتمنى ويطمـح إليه، وحينمـا يقدر أهمية الفكـر في حياتـه ويقنع بأن ثـراء الإنسان بفكره (عقله) وجمال الحياة بفكره المضيء المتوقد اليقظ ذي الفطنة والبداهة. وحينما يصل به التقدير السليم للأعمال الإنسانية ويثمن فوائدهـا ويعظم جدواها وبأنها هي التي تنقـل الإنسـان إلى الرفاهية والحياة الرغيدة.

حينئـذ يكون هذا الإنسان هو الحريص على الوقت وبـأن يستثمره خير استثمار في الفكر المبدع والعمل المتجدد المبتكر.

فالإنسان يحقق ذاته واحترامه من خلال فكـره المنتج وعملـه المفيـد، ويحتل بذلك المكانة الاجتماعية اللائقة، فيصبح عضواً فعالاً في المجتمع ويسهم في تحقيق حضارة المجتمـع حينما ينتقل من معايـيره الذاتية إلى المعايير الاجتماعية إلى الحقائق والقيم والفكر الاجتماعي (قيادة المجتمع).

نعـم إنه يجد ذاته من خلال انتقاله من الأنا إلى النحن، ومن الفردية إلى الجماعية، ومن الطائفية والقبلية والعائلية إلى الوطن، ومن الوطن إلى الأمـة، فأمة بها من أمثال هـؤلاء تخلد عصـراً أو عهـداً عظيما أو حضارة مبنية علـى معايير إنسانية سامية، ويكون إرثها القيمي وتراثها الحضاري كبيراً لأجيالها اللاحقة فتراث الأمة أية أمة وإرثها من إرث الأفراد وتراثهم وثقافتهم وقوتهم.

سوف يبقى الحديث بعدك فانظر
أي أُحـدوثـةٍ تحـب فكُنْهـا

الدراسات والبحوث



الأسس الحيوية للذاكرة

د. عمر التنجي*

مقدمة:

لا ينبع الاهتمام بالذاكرة من كونها ظاهرة نفسية متميزة فحسب، أو لأنها أحد المباحث الرئيسية في علم النفس، بل من صعوبة إيجاد التفسير العلمي الدقيق لها، والذي بدونه لا يمكن وضع تفسيرات موضوعية للظواهر النفسية الأخرى، ولعدد من الظواهر الفيزيولوجية المتعلقة بالنشاط العصبي الأعلى Higher Nervous Activities عند الحيوانات عامة، وعند الإنسان بشكل خاص.

* باحث وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ولقد انتبه المفكرون إلى هذه الظاهرة منذ العصور الغابرة، حتى إن المفكرين الإغريقيين القدامى كانوا يشبّهون الاستذكار (إعداد المادة وإدخالها إلى خزان الذاكرة لتثبيتها) بالطباعة على الشمع (كتاب التطبيقات في علم النفس العام، ١٩٧٩، ص ١٦٦). أما الآن فقد ساعدت الثورة العلمية التقنية الهائلة التي حققتها البشرية على الكشف عن الكثير من الظواهر التي كانت ما تزال غامضة إلى عهد قريب، والذاكرة من ضمنها.

وتعتبر الذاكرة في الوقت الحاضر موضوعاً هاماً تدرسه مجموعة من العلوم كالفيزياء الحيوية، والكيمياء الحيوية، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم النفس، والسيبرانية، والمعلوماتية وغيرها، لكن المعروف عنها في علومنا المكتوبة باللغة العربية ما زال محدوداً جداً حتى الآن، ويستثنى من ذلك كتاب «علم النفس الفسيولوجي» للدكتور عزت سيد إسماعيل الصادر في الكويت سنة ١٩٨٢.

ما ذكرناه من أهمية الذاكرة بالنسبة لعلوم عدة بشكل عام، وبالنسبة لعلم النفس بشكلٍ خاص، وقلة الأبحاث العلمية العميقة والجادة حولها، دفعنا إلى القيام بالبحث الحالي مفترضين ما يلي:

١- لابد من الاستعانة بعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس الفيزيولوجي للكشف العميق عن الأسس الحيوية لظاهرة الذاكرة؛

٢- الذاكرة ظاهرة معقدة لا يمكن تفسيرها بمستوى واحد من الفعاليات الفيزيولوجية، بل لابد من استقصاء كل من:

أ- الأسس الكيميائية الحيوية للذاكرة؛

ب- الأسس الفيزيائية الحيوية للذاكرة؛

ج- الأسس الفيزيولوجية للذاكرة.

النظامان الإشاريان

يتلقى الدماغ كل ثانية سيلاً هائلاً لا ينضب من المعلومات والإشارات التي تردُ من المستقبِلات Receptors الكثيرة المنتشرة داخل الجسم الحي وعلى محيطه. تتهيج البؤر المناسبة في القشرة المخية، وتَصدر عنها أوامر إلى أعضاء العمل Effectors، فتتقلص العضلات أو تنبسط، أو تفرز الغدد، وتتشكل المنعكَسات والأقواس والحلقات الانعكاسية المتخصصة.

ونتيجة للاقتران الزمني المتكرر في تَهيج الخلايا والبؤر العصبية القشرية تنشأ

بينها روابط مؤقتة ذات طبيعة كهربائية، تـؤدي إلى تشكل المنعكسات الشَّرطية Conditioned reflexes بدرجاتها المتعددة، والتي تدخل في منظومة محددة أطلق عليها بافلوف I.P. Pavlov (١٨٤٩ – ١٩٣٦) اسم «النظام الإشاري الأول» First Signal System الذي يتشكل عند الحيوان كما يتشكل عند الإنسان. لكن بسبب تطور النشاط العملي الاجتماعي عبر التاريخ، وتراكم الخبرة واستيعابها، تنشأ في قشرة مخ الإنسان روابط Connections جديدة بين الروابط القائمة في قشرة المخ وماتحت القشرة، هي روابط الروابط، وهي من مستوى ثانٍ، تدخل في منظومة متطورة أطلق عليها بافلوف اسم «النظام الإشاري الثاني» Second Signal System، الذي يظهر عند الإنسان فقط ويميزه عن سائر الكائنات الحية كنوع فريد. يتميز النظام الإشاري الثاني بظهور الكلام، إشارة الإشارة، وبالقابلية للقيام بعمليات نفسية راقية ومهارات وقدرات عقلية معقدة،كالقدرة على الترميز والتجريد (أُتُّنجي، ١٩٨٩).

لكن الجهاز العصبي لا يرد على كافة التنبيهات الواردة إليه من المستقبلات، بل يحتفظ في الدماغ ببعض الإشارات في هيئة آثار الذاكرة، يتم تثبيتها في عصبونات الدماغ، يقارِن الدماغ بها الإشارات الجديدة قبل أن يقوم بصياغة مخططات الاستجابة اللاحقة. وقد تأكد أن الدماغ لا يحتفظ بالإشارات فقط، بل وبالروابط المؤقتة المتشكلة فيه.

لقد تبين أن الحيوانات تحتفظ بالمنعكسات الشَرطية طويلاً. فقد تم العثور لدى القرود الدنيا والكلاب على منعكسات شرطية بعد تشكيلها بحوالي ٨ أعوام، كما تمَّ العثور عليها لدى أسماك الشبوط بعد حوالي ٣ أشهر من انقضاء التدريب (فرونين، ١٩٧٩، ص ١٣٥). أما الإنسان، فالمعروف أنه يحتفظ بالمعلومات المسجلة في دماغه لسنوات عديدة، ولربما طوال حياته. ولا يُعتبر النسيان مؤشراً أكيداً على زوال هذه المعلومات.

وتتحدث المواد المتراكمة في الطب العيادي عن أن الإنسان يمكنه أن ينسَ الأحداث القريبة زمنياً، أما الأحداث القديمة فإنه يحتفظ بها لفترة طويلة. يشير هذا إلى وجود نوعين من الذاكرة: ذاكرة قصيرة الأمد، وذاكرة طويلة الأمد.



الأسس الكيميائية الحيوية للذاكرة

إن النجاحات الكبيرة التي حققتها الفيزياء الحيوية، والكيمياء الحيوية، وكيمياء الأنسجة، وعلم الخلية في العقود الأخيرة ساعدت في التغلغل إلى عمق الدماغ، وفي الكشف عن الأسس الفيزيائية الكيميائية لحفظ الروابط العصبية المؤقتة.

من المعروف أن نشاط الجهاز العصبي مبني على عمليات الاستقلاب (الأيض) Metabolism في خلاياه ونسجه، وقد أصبح هذا أكثر وضوحاً مع تطور أبحاث الكيمياء العصبية وعلم العقاقير العصبية. وقد أعار الاختصاصيون في علم العقاقير اهتماماً خاصاً لتأثير المواد الدوائية المتنوعة على النشاط العصبي الأعلى، حتى إنهم أنشؤوا فرعاً في علمهم اشتهر باسم علم العقاقير النفسية. كان هذا ثمرة جهود طويلة بدأها بافلوف وتلاميذه في العقد الأول من القرن العشرين حين كانوا يدرسون تأثير البروم والكافئين وكلور الهيدرات والمواد الأخرى على المنعكسات الشرطية. ولقد تبين أن العقاقير النفسية التركيبية، والتي تتميز بتركيبها عن تلك المواد التي تتشكل في نسيج الدماغ، تستطيع تقوية النشاط الانعكاسي الشرطي أو إضعافه، كما تستطيع إحداث

حالات انفعالية مختلفة، بعضها يرفع المزاج ويُحدث شعوراً بالفرح، وآخر يقضي على الخوف، وغيرهما يضعضع التفكير ويوصل الإنسان إلى حالة مرَضية شبيهة بالفصام على سبيل المثال، وبعض هذه المواد يوقف الحالات العصبية أو يخففها.

ويمكن للمادة العقاقيرية أن تصبح عنصراً داخلياً من عناصر المنبه الشرطي، فلا يظهر المنعكس الشرطي، المصنَّع تحت تأثيرها، بدون وجودها في عضوية الكائن، ويعود المنعكس الشرطي للظهور إذا حُقن الكائن بها. ويمكن تصنيع استجابتين مختلفتين رداً على منبه واحد: الأولى تحت تأثير مادة عقاقيرية، والثانية بدونها. ونالت هذه الظاهرة اسم التعليم المفكك Dissosiated (فرونين، ١٩٧٩، ص ١٣٦).

ينتقل التهيج من خلية عصبية إلى أخرى باتجاه واحد عبر تشابكات الخلايا Synapsis بوساطة الأعصاب الموردة أو المصدرة (ألتُنجي، ١٩٨٩، ص ٨٣). ولكي تمر الدفقة العصبية عبر التشابك لا بد أن تتشكل فيه مواد خاصة تسمى المواد الوسيطة Mediators.

إن تشكل المواد الوسيطة عملية أكثر تعقيداً من مرور موجة التهيج الكهربائية، لذلك فإن الدفقات الأولى تجتاز التشابك بصعوبة (فيتنكو، وآخرون، ١٩٨٤، ص ٦٦). والمواد الوسيطة هي من مثل: الأستيل كولين، الأدرينالين، النورأدرينالين، السيروتونين، الدوبامين وغيرها. تتغير كمية هذه المواد في الدماغ في حال حدوث تغير في حالته الوظيفية. وإن حقنها في العضوية يُحدث تغيرات متنوعة في نشاط الجهاز العصبي. ويؤكد الباحثون تأثير هذه المواد الوسيطة في تشكل الروابط المؤقتة بتأثيرها على الحالة الفيزيائية الكيميائية للتشابكات (فرونين، ١٩٧٩، ص ١٣٩).

وتلعب الهرمونات دوراً ملحوظاً في حدوث الاستجابات الانعكاسية اللاشَرطية بصورة خاصة. ولا يمكن لهذا إلا أن يؤثر على النشاط الانعكاسي الشرطي. فالمعروف أن إضعاف وظيفة الغدد الصم أو تقويتها يؤدي إلى اختلال النشاط العصبي الأعلى وإلى تغير في توتر القشرة المخية. ويدل التأثير المتنوع للهرمونات على النشاط العصبي الأعلى للعضوية السليمة على وجود ما يسمى الحلقات الخلطية في آليات الضبط الذاتي للأقسام العليا من الجهاز العصبي المركزي، حسب العالم الهنغاري

ليشاك (فرونين، ١٩٧٩، ص ١٤١).

وانتبه العلماء منذ أربعينيات القرن العشرين إلى حدوث تغير في بعض التراكيب الكيميائية الحيوية في دماغ الإنسان بناء على الحالات الوظيفية المختلفة. فقد قدم بالادين بيانات عن استقلاب حمض ثالث فوسفور الأدينوزين والأحماض النووية، وعن استقلاب السكريات في دماغ الجرذان ذات الجهاز العصبي المتهيج. وبعد أن حقن كريبس كلباً بفوسفور مشع تبين له أن كمية الفوسفور المتسربة إلى الدماغ أثناء النوم هي أقل بنسبة الربع مما هي عليه أثناء اليقظة. كما أن كمية الفوسفور في مختلف أجزاء الدماغ أثناء النوم ليست مساوية لها أثناء اليقظة. واكتشف فلاديميروف زيادة الاستقلاب البروتيني في دماغ الجرذان في حالة التهيج الدفاعي الشرطي، وانخفاضه أثناء الكبح، وربط ذلك بمستوى حاصل تفكك غاز النشادر. وأكد الباحث السويدي هيدن ارتباط نسبة الحمض النووي الريبي RNA وتركيبه النوويدي في الخلية العصبية بالتعلم. ووقف ماك كونل في ذلك إلى جانبه. واندفع عدد من الباحثين إلى حقن خلاصة دماغ جرذان متعلمة في دماغ جرذان غير متعلمة، مما حدا بالأميركي اونغار إلى اعتبار أن المادة الفعالة «خوف العتمة» تتكون من قائمة طويلة من الأحماض الأمينية حسب التحليل الطيفي. وبالتالي فقد قدم اونغار فرضية الجفرة (وهي الأصل العربي لكلمة الشيفرة – ع.أ) الجزيئية للمنعكس الشرطي في صورة مخطط. وشاع بذلك مفهوم (RNA – جزيء الذاكرة)، فاتجه كثيرون إلى معالجة خرف الشيخوخة بحقن RNA (عن فرونين، ١٩٧٩، ص ١٤١–١٤٣).

ويشير فيتنكو وزملاؤه في هذا الصدد إلى أن العلماء يربطون الاحتفاظ الطويل بالمعلومات بالتبدلات الحاصلة في الحمضين النووي الريبي RNA والنووي الريبي منقوص الأكسجين DNA في العصبون. فالدفقات العصبية المتكررة تؤدي إلى تغير نظام تناوب النوويدات Nucleotides في هذه الجزيئات، كما تؤدي إلى تغيير خصائص العصبون، فتصبح الخلية بذلك أكثر تحسساً للدفقات العصبية المماثلة. ويضيف فيتنكو: إن المعلومات الوراثية «مسجلة» في حمض DNA، ويعاد إنتاجها بمساعدة حمض RNA. ومن الجائز أن تتسجل المعلومات النفسية أيضاً بطريقة مماثلة. إن الأحماض النووية هي المواد العضوية الأكثر ثباتاً، ويناسبها دور «حافظات المعلومات»، لذلك

فإن مستحضرات RNA أصبحت تُستخدم بنجاح في علاج المرضى بضَعف الذاكرة (فيتتكو وآخرون، ١٩٨٤، ص ٦٦-٦٧).

وحين يؤكد أسبيز على أن تَشكل المنعكسات الشرطية يرتبط بتبدلات حمض DNA في عصبونات الدماغ، فإنه يعتبر أن التبدلات لا تحمل طابعاً وراثياً. ويشير إلى أن الأبحاث التي تجري في هذا الخصوص تتيح إمكانية دراسة طرق التحكم بالسلوك على المستوى الجزيئي (موسوعة البيولوجي الفني، ١٩٨٦، ص ٧٤).

ويتجه عدد من الباحثين (دانيلوفا، ماركوفا) إلى التأكيد على أن عملية تسجيل المعلومات والاحتفاظ بها مشروطة بإعادة البناء الكيميائية البنيوية في أغشية التشابكات العصبية، إذ تم اكتشاف تبدلات تكوينية في البروتينات الداخلة في بناء أغشية مجموعات التشابكات في القشرة المخية للجرذان بنتيجة التعلم (تصنيع المنعكس الشرطي)، وليس من المستبعد تركيب البروتينات بتكوين جديد. ومن الممكن حدوث تثبيت للتبدلات الكيميائية البنيوية للأغشية التشابكية الحادثة عند التعلم من خلال هذا التركيب للبروتينات بتكوين جديد (فرونين، ١٩٧٩، ص ١٤٤).

ويوجه الهنغاري هاموري الاهتمام إلى الأبحاث التي تربط الذاكرة باستقلاب الخلية وبتغيراته الممكنة، بل بتركيب البروتينات بالدرجة الأولى. فقد تم استخدام مثبطات Inhibitors تركيب البروتينات (كالبورومايسين) في عدد من التجارب، كانت نتيجتها محو آثار الأحداث التي كانت قد ثبتت في الذاكرة. وإضافة إلى إقرار هاموري بالأسس الكيميائية لتثبيت المعلومات، فإنه يشير إلى أن الذاكرة طويلة الأمد لا تخص عصبونات منفردة، بل تخص شبكات عصبية كاملة. وعلى اعتبار أن الشبكة العصبية قد تضم حتى عشرة ملايين تشابك عصبي، يمكن أن ينشأ عدد هائل من الأوضاع المختلفة قادرٌ على تأمين الاحتفاظ بالحدث في الذاكرة. وإن تلف خلية عصبية أو اثنتين لن يترافق في هذه الحالة بفقدان الذاكرة (هاموري، ١٩٨٥، ص ١١٨-١١٩).

وينوه زينْتشينْكو بأن أنصار النظريات الكيميائية للذاكرة يَعتبرون أن التبدلات الكيميائية الخاصة الحاصلة في الخلايا العصبية تحت تأثير المنبهات الخارجية تقوم في أساس آليات Mechanisms عمليات تثبيت الآثار، وحفظها، واسترجاعها.

المقصود هنا، عمليات إعادة تجميع مختلفة للجزيئات البروتينية في العصبونات، وخاصة جزيئات الأحماض النووية.

ويُعتبر الحمض DNA حاملاً للذاكرة التكوينية الوراثية، ويعتبر الحمض RNA أساساً لذاكرة نمو الفرد ولذاكرته الفردية. ولقد أثبت هيدن أن تهيج الخلية العصبية يزيد فيها نسبة RNA، ويُخَلف آثاراً كيميائية حيوية طويلة الأمد، تُكسب الخلية قدرة على الرد Resonate على التأثير المتكرر للمنبهات المألوفة.

إن حمض RNA كثير التغير، وتقاس كمية تغيراته الخاصة الممكنة بالرقم (١٠)١٠. يتبدل محيط مكوناته، وتَوضّعها في المكان، وسرعة تفككها، وغير ذلك. هذا يعني أن RNA يستطيع الاحتفاظ بكمية لا حدود لها من الجفرات المعلوماتية. ولا يُستثنى في ذلك أن قدرة RNA على الرد على البُنى الخاصة للمنبهات المألوفة – دون أن يرد على التنبيهات الأخرى – تشكل آلية كيميائية حيوية جوهرية للذاكرة.

ويتابع زينتشينكو كلامه عن التجارب الجارية، حيث تم البرهان على أن الجرذان التي وُجِدت في ظروف غنية بالانطباعات التي كانت تُنشط أفعالها المختلفة أصبحت قشرة دماغها أكبر، وأثخن، وأثقل، مما لدى الحيوانات الخاملة التي كانت ظروفها فقيرة نفسانياً. كما تحْدث تغيرات خاصة في التركيب الكيميائي لدماغ الجرذ النامي، فتزداد – على سبيل المثال – كمية الأستيل كولين، وهو الإنزيم المساهم في نقل الدفقات العصبية.

وعلى اعتبار أن التغيرات البنيوية والكيميائية المشار إليها في خلايا الدماغ هي نتاج النشاط السابق، فإنها تصبح فيما بعد شرطاً ضرورياً للأفعال اللاحقة الأكثر تعقيداً، وتدخل في آلية تحقيق هذه الأفعال (علم النفس العام، ١٩٧٦، ص ٢٨٩–٢٩٠).

الأسس الفيزيائية الحيوية للذاكرة

بدأ اهتمام علماء الفيزياء الحيوية بالدور الحساس الذي يلعبه العصبون وأغشيته في أداء الوظائف الدماغية منذ خمسينيات القرن الماضي. قام العلماء أول الأمر بدراسة قابلية التوصيل الشاردية Ionic Conductivity للأغشية العصبية، فبدون هذا لم يكن بالإمكان تصور أبسط وظيفة من وظائف الدماغ، ثم اتجهوا إلى تقصي الظواهر الثرية في العصبون.

لقد أثبت العلماء وجود نفاذية شاردية انتقائية في الأغشية العصبية سببها تأثير

المواد الوسيطة. فالمواد الوسيطة تبدل نفاذية الأغشية، ويحدث بنتيجة ذلك تبادل شاردي عبر الأغشية بين الوسطين الداخلي والخارجي للعصبون. وتخلق هذه العملية فرقاً معيناً في الكمون، حسب الظروف. يؤمن زوال استقطاب العصبون توليد الدفقة العصبية وتمريرها، أما فرط الاستقطاب فيقوم بكبح العمليات المذكورة. ولقد سمحت دراسة الخواص الفيزيائية الكيميائية للعصبون باكتشاف كيفية نشوء الدفقات العصبية وتمريرها، كما ساعدت على اكتشاف مواد وسيطة مهيجة، وأخرى كابحة.

إن الاستجابات المهيجة والكابحة هي خواص ابتدائية (لا شرطية) للعصبون. أما العمليات العصبية الشرطية في القشرة المخية فيفترض العلماء أنها نتيجة للنشاط التكاملي لشبكة العصبونات، أي للدماغ بمجمله (كوستيوك، ١٩٧١، ص ٣٧-٨٦).

وقد تناول الباحثون مسألتين عند دراستهم لخواص العصبون: الأولى هي تسهيل تمرير الدفقة العصبية، والثانية هي تلاقي (التِمام) Convergence دفقات عصبية قادمة من نُظم موردة مختلفة إلى بعض العصبونات وبعض بنى الدماغ. يشكل تسهيل التوصيل أو زيادته في البنى الشبكية أهمية كبيرة، لأنه ينشأ بعد عدة تمريرات للدفقات العصبية، أما التلاقي فيتعلق بالعمليات التحليلية التركيبية التكاملية في الدماغ.

اقترح لورينتيه دونو في ثلاثينيات القرن الماضي اعتبار أن النبضات العصبية التي ترد إلى الدماغ تحقق ارتداداً Reverberation (دوَراناً Circulation) بحلقات أو بنظم عصبية مغلقة. هذه النظم قادرة - حسب رأيه - على التنشيط الذاتي، وعلى تدعيم هذا النشاط. وقد سمى هيب Hebb هذه النظم المفترضة «جُملاً خلوية»، وسماها لاشلي «نظماً أثرية».

يحدث في الجمل الخلوية عند التعلم نوعان من التبدلات، حيث تنشأ آثار وظيفية، وأخرى بنيوية. التبدلات الأولى قصيرة الأمد، تنشأ في هيئة تفريغات Discharges خلوية كهربائية فعالة، وهي غير مرتبطة بالتبدلات البنيوية، في حين أن التبدلات الكهربائية الثانية تبقى لمدة أطول، وهي مشروطة بتغير بنية العصبونات. وقد لاقت فرضية ارتداد الدفقات العصبية بعض التأييد، كما ظهرت محاولات لتفسير الآلية الداخلية للرابطة المؤقتة على اعتبارها

ارتـداداً للتهيج الشرطي. ويسلم كثير من الباحثين بأن الذاكرة قصيرة الأمد (المرحلة الابتدائية لتشكل الروابط المؤقتة) مبنية على آلية الصدى هذه بالذات.

وفي صالح هذه النظرة أتت معطيات بحث فرتسيانو حول تكرار الدفق اللاحق من جانب ثلاث خلايا عصبية، حيث يمكن تفسير الدفق المذكور بالحركة الدائرية للدفقة العصبية في منظومة العصبونات. ورأى أكلس أن تكرار مرور الدفقات العصبية عبر نظام العصبونات يزيد من فعالية التشابكات ويوسع النظام المذكور. وأخذ بعين الاعتبار قابلية التمرير التشابكي للتدريب على تصنيع منعكس شرطي.

وقد أكد ماك إلفين أن النشاط العصبي الأعلى، المتنوع والمعقد إلى درجة مدهشة، يتحقق من خلال صرف كمية صغيرة نسبياً من الطاقة، بالمقارنة مع عمل الكلّية مثلاً، أو مع غدة الثدي. وقد افترض أن جزءاً كبيراً من الطاقة يذهب على تنظيم نشاط الدماغ، وعلى تدعيم بنيته وجاهزيته للعمل. ويرى ماك إلفين كذلك أن الجزء الأكبر من طاقة الخلايا العصبية يُصرف على تدعيم التوزيع التفريقي للصوديوم والبوتاسيوم اللذين يشرطان الجهد الكهربائي للفعل. ويُصرف الجزء المتبقي من الطاقة لصالح آليات النقل التشابكي للدفقات العصبية. ولهذا الصرف مكانة هامة، إذ يتعلق به استقلاب المواد داخل الخلايا. ويتأكد هذا بتحول المواد المركبة في نويات الخلايا إلى هيولى (فرونين، ١٩٧٩، ص ١٤٥-١٤٧).

ويرى فيتنكو وزملاؤه أن الجهاز العصبي يتصف باللدائنية Plasticity التي تسمح للعملية العصبية الدماغية بترك أثر خلفها. إن تشكل الروابط الشرطية هو أساس الاستذكار. لكن الاستذكار لا ينحصر في تشكل هذه الروابط فقط. إذ إن آثار الموضوع المدرَك تبقى في الذاكرة في هيئة سيل حلَقي من موجات التهيج يربط مجموعة معينة من العصبونات فيما بينها.

تتشكل المواد الوسيطة في التشابكات مع مرور موجات التهيج الكهربائية الأولى بصعوبة. إلا أن الموجات الأولى «تُعبِّد» الطريق للموجات التالية، ويحدث هذا التعبيد من خلال تشكل الروابط الانعكاسية الشرطية. وعند استذكار مادة ما فإن طائفة محددة من العصبونات ترتبط ببعضها البعض في حلقات، إذ تنشأ سيالةُ تهيج حلَقية تستطيع أن تدعم نفسها، وأن تبقى لبعض الوقت (حتى يوم واحد).

تُستخدم في عيادة الطب النفسي في العلاج أحياناً الصدمة الكهربائية. إن «العاصفة الكهربائية» التي تسببها الصدمة الكهربائية في الدماغ «تشطف» ما تم استذكاره في الساعات الأخيرة قبل الصدمة الكهربائية. وهذا ما يؤكد أن موجات التهيج الحلقية هي أساس الذاكرة قصيرة الأمد.

لكنّ لا يمكن لسيالة التهيج الحلقية أن تبقى أشهراً أو سنوات. وقد تعبث بها حتى الانحرافات الصغيرة الطارئة. فمن الواضح أن للذاكرة طويلة الأمد أساس آخر. وتوجد لذلك فرضيات يمكن تبويبها في مجموعتين. ووفقاً لإحدى المجموعتين، يؤدي التحلق المديد للدفقات إلى تغيرات ثابتة في التشابكات، تبقى عملياً حتى نهاية العمر. «الباب المنفتح بسهولة متزايدة» يتحول إلى «باب مفتوح إلى الأبد». ولا يحدث تحلق الدفقات في طائفة العصبونات المترابطة بهذا الشكل طوال الوقت. لكن التهيج يبدأ بالتحلق في هذه الطائفة بالذات من العصبونات في بعض الحالات المماثلة لتلك التي كانت موجودة عند الاستذكار (فيتنكو وآخرون، ١٩٨٤، ص ٦٦).

أما زينْتشينْكو فيشير في هذا الصدد إلى أن الدفقة العصبية تترك وراءها في العصبونات أثراً فيزيائياً بالمعنى الحرفي للكلمة. يتبدى هذا في تغيرات كهربائية وميكانيكية تحصل في تشابكات الخلايا. تسهل هذه التغيرات المرور التالي للدفقة في المسلك المعروف.

ويفترض العلماء أن انعكاس الموضوع – «جَسُ» الشيء مثلاً بوساطة العين عبر محيطه في عملية إدراكه البصري – يترافق بحركة الدفقة عبر مجموعة مناسبة من الخلايا العصبية، وكأن الحركة تُنمذج الموضوع المدرَك في هيئة بنية عصبية مكانية زمانية.. إن عملية تشكيل النماذج العصبية وتنشيطها اللاحق تكوّنان آلية استذكار المدرَك، والاحتفاظ به، واسترجاعه.

وتتميز الأبحاث الفيزيولوجية العصبية المعاصرة بنفاذ أكبر عمقاً في آليات تثبيت الآثار وحفظها على المستويين العصبوني والجزيئي. فقد تم البرهان – على سبيل المثال – على أن المَحاور Axons المبتعدة عن الخلايا العصبية إما أن تتلامس مع تغصّنات Dendrites الخلايا الأخرى، وإما أن تعود أدراجها إلى جرم خليتها. وبفضل بنية الاتصالات العصبية هذه تنشأ إمكانية دوران الحلقات الارتدادية للتهيج المختلف التعقيد. ويحدث بنتيجة ذلك شحن

ذاتي للخلية، حيث إن التفريغ الذي كان قد نشأ فيها إما أن يعود إلى الخلية المعنية مباشرة، معزِّزاً التهيج الحاصل فيها، وإما أن يعود إليها عبر سلسلة من العصبونات. هذه الحلقة الثابتة للتهيج الارتدادي، التي لا تنحرف خارج حدود المنظومة المعنية، يعتبرها بعض الباحثين أساساً فيزيولوجياً لعملية حفظ الآثار. وهنا يحدث انتقال الآثار مما يسمى الذاكرة قصيرة الأمد إلى الذاكرة طويلة الأمد.

بهذا الشكل يقترب المستوى الفيزيولوجي العصبي لدراسة آليات الذاكرة في المرحلة المعاصرة أكثر فأكثر من المستوى الكيميائي الحيوي، وكثيراً ما يتطابق معه مباشرة. تؤكد هذا أبحاث عديدة أجريت في ملتقى المستويين المشار إليهما. ونشأت، بناء على هذه الأبحاث بالذات، فرضية حول الطابع الثنائي التدرج لعملية الاستذكار. يقوم فحوى هذه الفرضية على ما سيلي. في الطور الأول (بعد تأثير المنبه مباشرة)، تحدث في الدماغ استجابة كهرو-كيميائية قصيرة الأمد، تسبب تغيرات فيزيولوجية ارتدادية في الخلايا. وينشأ الطور الثاني بناء على الطور الأول، إنه الاستجابة الكيميائية الحيوية، ويرتبط بتشكل مواد زلالية جديدة (بروتينات). يدوم الطور الأول ثوان أو دقائق، ويعتبر آلية فيزيولوجية للاستذكار قصير الأمد. أما الطور الثاني الذي يؤدي إلى تغيرات كيميائية غير عكوسة في الخلايا فإنه يعتبر آلية الذاكرة طويلة الأمد (علم النفس العام، ١٩٧٦، ص ٢٨٨-٢٨٩).

الأسس الفيزيولوجية للذاكرة

وأما الآليات الفيزيولوجية للذاكرة وعملياتها فقد أصبح من الممكن تشكيل تصور عام عنها بعد أن كشف إيفان بافلوف I. P. Pavlov عن ظواهر النشاط العصبي الأعلى، وصاغ القواعد التي يتشكل المنعكس الشَرطي على أساسها. لقد أصبح من البين تماماً أن استذكار أية صورة وتثبيتها يعني الاحتفاظ في الدماغ بالروابط العصبية المؤقتة. وبهذا تكتسب الروابط المؤقتة أهمية بالغة على اعتبارها آلية عامة للمنعكسات الشرطية. ولا تقتصر أهمية الروابط المؤقتة على تشكلها من خلال التأثير المباشر لمنبهات من الوسطين الخارجي والداخلي، والذي بنتيجته تنشأ الظواهر النفسية الأولية البسيطة، بل تَكبر أهميتها لتشكلها بفضل توسّط الكلمات (إشارات الإشارات المباشرة)، ولظهور المستوى الثاني منها، ألا وهو روابط الروابط، والذي بنتيجته تنشأ

الظواهر النفسية والعقلية المعقدة والراقية (ألتنجي، ١٩٨٩، ص ٩٠-٩١).

يمكن لبعض الروابط المؤقتة البقاء لفترة طويلة حتى لو لم يَجْرِ التدريب عليها. والحوادث من هذا النوع معروفة، كالرجل العجوز الذي يذكر كلمات من لغة تَعلمها في طفولته، رغم أنه كان يتكلم طوال حياته بلغة أخرى. ويحتفظ الإنسان بالمهارات المهنية لفترة طويلة، وإذا ضعفت مع الزمن بعض الشيء لا يَلزمه لإحيائها سوى جهد بسيط. وتُذكر عادة أمثلة عن الكلاب والقرود التي احتفظت بمنعكسات شرطية غذائية حركية لفترة قد تصل إلى ثمانية أعوام بدون تدريب.

ويشير فَرونين إلى أنه لا يتسنى لنا دائماً تقصي آثار التهيج المحفوظة. وقد درس في مخبره مدة دوام العمليات الأثرية، فتبين له أن المدة المذكورة - التي يُستدل عليها بالمقاييس الفيزيولوجية الكهربائية (المنعكس الغلفاني الجلدي، تخطيط كهربائية الدماغ، تخطيط كهربائية القلب وغيرها) - وحجم الذاكرة قصيرة الأمد يرتبطان بالعمر. وتوصل إلى نتيجة مفادها أنه كلما كان المفحوص أصغر عمراً كان جهازه العصبي أكثر خمولاً، فتتأخر (تبقى) فيه آثار التنبيه فترة أطول (فرونين، ١٩٧٩، ص ٢٦٥).

ويتحقق استخراج المعلومات من الذاكرة بمساعدة العمليات العصبية العامة والتي تعمل بشكل انتقائي: إذا نشّط التهيج الرابطةَ المؤقتة اللازمة، فإن الكبح يُخمد تلك الروابط المؤقتة التي تعتبر عائقاً في عملية الاسترجاع. وفي بعض الحالات المعروفة يعزز الكبحُ التهيجَ حسب قانون الحث المتبادل (ألتنجي، ١٩٨٩، ص ٨٨)، وبهذا فإنه يساعد على تشكيل الرابطة المؤقتة. وإذا انقضَت الحاجة إلى المنعكس الشرطي، فإنه يَخمد بوساطة عملية الكبح الداخلي، أما آليته المركزية - الرابطة المؤقتة - فإنها تُحفظ في الذاكرة. وتنشأ، فضلاً عما سبق، ظاهرة انطفاء المنعكس الشرطي، وهو آلية فيزيولوجية للنسيان. فالنسيان عموماً كبح، والتذكر هو إيقاف للكبح. والنسيان يمكن أن يكون جزئياً أو كلياً. لكنْ يمكن في الحالتين إحياء الروابط المؤقتة المحفوظة في الذاكرة، وذلك بتأثير ظروف مختلفة تسبب تهيجاً قوياً في الدماغ. ويتحقق هذا لأن النسيان ليس زوالاً للروابط المؤقتة، بل هو كبح لها. وإذا زادت العملية المعاكسة، أي التهيج، فإن كبح الروابط يمكن أن يُلغى.

وإذا تم إحياء رابطة مؤقتة تحت تأثير

شـيء منسي أو ظاهـرة منسية، فيمكن القول إنه حدث تَعرّف على هذا الشيء أو هذه الظاهرة. وإذا اكتُشفت رابطة مؤقتة ضرورية في اللحظة الراهنة وذلك بنتيجة إحياء الروابط المؤقتة أثناء النشاط التحليلي التركيبي للدماغ، وكانت تلك الرابطة آلية لمهارة ما حركية أو كلامية، فيمكن القول إنه تحققت ظاهرة الاسترجاع. وقد أصبح من قبيل المعروف تماماً شكلا الذاكرة وتَعاقبهما، وهما الذاكرة قصيرة الأمد والذاكرة طويلة الأمد. كما أن فترة تَحوّل الذاكرة قصيرة الأمد إلى ذاكرة طويلة الأمد، وهي تسمى الاندماج Consolidation، تعتبر ظاهرة واقعية. ويترجم عزت سيد إسماعيل (١٩٨٢، ص ٧٦٠) المصطلح إلى «توثيق»، لكننا فضّلنا الاندماج. ويحدث اندماج الذاكرة خلال ١٥ دقيقة حسب المعطيات العيادية، لأن المرضى ينسون كل الأحداث التي جرت في هذه الفترة قبيل الإصابة الدماغية. ويتعلق طول فترة الاندماج بعمر المريض.

إن الكلمة أو الرقم...، التي ترد إلى الذاكرة للمرة الأولى تتثبت لفترة بسيطة جداً، ليس فقط لتشكل رابطة مؤقتة غير متينة، لم تخضع بعدُ لتحليل عميق، بل لأنه لم يَقم لها بعدُ اتصال واسع بالنظم الأخرى للروابط الكلامية وغيرها. كذلك تُحفظ الكلمة الأجنبية – المستظهرة صمّاً مع التكرار لعدة مرات – لفترة قصيرة. أما الكلمة الأجنبية المنطوقة مرتين أو ثلاث فقط في عبارة أو جملة مفيدة، أي في بنية كلامية محددة، فإنها تدخل ذخيرتنا اللغوية بكل ثبات. إذن لا يُكتفى بالتدريب فقط للاحتفاظ الطويل بالرابطة الكلامية، بل يتطلب ذلك اتساع الاتصالات مع النظم الأخرى للروابط الكلامية، أي بتشكل الروابط الدلالية (المعنوية) المؤقتة.

إن وجود الروابط الأخيرة لدى الإنسان يفسر سبب شَغل الذاكرة المنطقية اللفظية موقعاً متقدماً بين مختلف أنواع الذاكرة. كما أن دور العامل الانفعالي كبير جداً. ولتوضيح ذلك يَذكر فرونوف المثال التالي: يصعب في صفوف المدرسة الابتدائية الدنيا تحديد تغير المنعكس الغلفاني الجلدي لمعرفة الكلمة التي استذكرها التلاميذ دون أن يعرف الفاحص عنها شيئاً (خلافاً للراشدين). لكن هذا يصبح ممكناً إذا قيل للمفحوص: «حينما تحزر الآلة الكلمة التي استذكرتها فإنها ستخز إصبعك وخزاً خفيفاً». ولن يرفض المفحوصون، في هذه الحال، المشاركة في التجربة، لكنّ سينشأ لديهم انفعال سلبي

يساعد على إصابة الكلمة المستذكَرة في ٩٥٪ من الحالات، أي بالنسبة نفسها كما لدى الراشدين الذين لا يريدون عادة أن يحزر الفاحص ما استذكروه. إن عدم رغبة المفحوصين هو بالذات الذي يجعل التهيج الانفعالي المنتشر يستدعي استجابات إنباتية وكهربائية يمكن بفضلها تحديد الكلمة أو الصورة المضمرة من قبل المفحوص (فرونين، ١٩٧٩، ص ٢٦٨).

وإذا كان الأساس الفيزيولوجي لعمليات الذاكرة هو تشكل الروابط المؤقتة، وتثبيتها في قشرة الدماغ، وإحياؤها اللاحق، فإن كوزين يعتبر أن الروابط العصبية هي انعكاس للعلاقات الواقعية بين أشياء الواقع وظواهره.

ويميز كوزين نوعين من الروابط: بسيطة، ومعقدة. وتقسم الروابط البسيطة إلى ثلاثة أنواع بحسب التجاور، والتماثل، والتباين. وعلى اعتبار أن الروابط المعقدة تقيم علاقات عِلّية معلولية، فإنها تعكس بذلك العلاقات الأكثر شأناً وأهمية بين أشياء الواقع وظواهره. ويرتبط تشكل الروابط العلية المعلولية بالمشاركة الفعالة للنظام الإشاري الثاني في النشاط الذهني لدى الإنسان. إن «النظام الإشاري الثاني» يشغل المكانة القيادية في عمليات ذاكرة الإنسان، وهو ما يعتبر خاصية مميزة للذاكرة البشرية (كوزين، ١٩٨٢، ص ١٣٥).

وبقي التذكير أخيراً بأنه لا يوجد في الدماغ جزء متخصص، حيث يمكن لآثار الذاكرة أن تُحفظ. بل تشارك في عملية الاحتفاظ بهذه الآثار قشرة المخ بأكملها، وكذلك أقسام ماتحت القشرة التي يتوجب أن نميز منها ما يسمى «القشرة القديمة Paleocortex». أما استرجاع المعلومات المخزنة فيعود الدور الرئيسي فيه إلى الفصين الصدغيين لنصفي كرة الدماغ.

خاتمة

وهكذا نرى أنه لابد من الاستعانة بعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس الفيزيولوجي للكشف العميق عن الأسس الحيوية لظاهرة الذاكرة، وهذا يحقق الفرضية الأولى لبحثنا الراهن.

إن الذاكرة ظاهرة معقدة لا يمكن تفسيرها بمستوى واحد من الفعاليات الفيزيولوجية، بل لابد من استقصاء كل من:

أ- الأسس الكيميائية الحيوية للذاكرة؛

ب- الأسس الفيزيائية الحيوية للذاكرة؛

ج- الأسس الفيزيولوجية للذاكرة.

وإن تعدد مستويات الفعالية لا يعني الفصل بينها، بل إنها تعمل متفاعلة مع بعضها لتنتج ظاهرة الذاكرة المعقدة. وهذا يحقق الفرضية الثانية لبحثنا الراهن.

إن الكشف العلمي الدقيق عن الأسس الحيوية للذاكرة لا يعني إلحاق علم النفس بعلم وظائف الأعضاء أو الإقلال من أهميته، بل على العكس، إنه يغني علم النفس الفيزيولوجي (أحد فروع علم النفس) ويساعد علم النفس بشكل عام على بناء نظريته على أسس أكثر ثباتاً، وعلى جعل هذه النظرية أكثر علمية وموضوعية.

المراجع:

العربية:

١- ألتنجي عمر، ١٩٨٩ – النشاط العصبي العُلوي. مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد المزدوج ٦٤/٦٥، ص: ٨٢-٩١، مركز الإنماء القومي، بيروت/باريس.

٢- سيد إسماعيل عزت، ١٩٨٢ – علم النفس الفسيولوجي. وكالة المطبوعات، الكويت، /٨٤٧/ صفحة.

الأجنبية:

٣- علم النفس العام، ١٩٧٦ – تحرير: أ.ف. بتروفْسكي. ط ٢، دار التنوير، موسكو، روسيا، /٤٧٩/ صفحة.

٤- فَرونين ل.غ، ١٩٧٩ – فيزيولوجيا النشاط العصبي الأعلى. دار التعليم العالي، موسكو، روسيا، /٣١٢/ صفحة.

٥- فيتنْكو ي.س، بيسكون ف.م، تيلْيفيتش إ.م، تشيريدْنيتشينْكو أ.ت، ١٩٨٤ – أسس علم النفس العام والطبي. دار التعليم العالي، كييف، اوكرانيا /١٧٦/ صفحة.

٦- كتاب التطبيقات في علم النفس العام، ١٩٧٩ – تحرير: أ.إ. شِرباكوف. دار التنوير، موسكو، روسيا /٣٠٢/صفحة.

٧- كوزين ف.س، ١٩٨٢ – علم النفس. ط ٢، دار التعليم العالي، موسكو، روسيا /٢٥٦/ صفحة.

٨- كوسْتيوك ب.ك، ١٩٧١ – فيزيولوجيا الجهاز العصبي المركزي. دار التعليم العالي، كييف، اوكرانيا، /٢٥٦/ صفحة.

٩- موسوعة البيولوجي الفتي، ١٩٨٦ – إعداد: م.ي. أسبيز. دار التربية، موسكو، روسيا، /٣٥٢/ صفحة.

١٠- هاموري يوسف، ١٩٨٥ – الطريق الطويلة إلى دماغ الإنسان. دار مير، موسكو، روسيا، /١٢٨/ صفحة.

الدراسات والبحوث



لســان العــرب

د. محمد يحيى خراط *

يعتـبر كتـابُ «لسانِ العرب» لابـنِ منظورٍ كتابٌ هامٌ مـن كتبِ مفرداتِ اللغـةِ العربيةِ إن لم يكنْ أهمَّها ، وأهميةُ هذا الكتابِ ترجعُ إلى المراجعِ التي أخذَ عنها ككتابِ «تهذيـبِ اللغة» لأبي منصورٍ محمدِ بن أحمدَ الأزهريَّ[1]، و«المحكـمِ» لأبي الحسنِ عليَّ بنِ اسماعيـلَ الأندلسيِّ[2] وغيرِهما، فكانَ له الفضـلُ في أن قدمَ لنا كتابـاً سهلَ التناولِ يسيرَ الفهـمِ، جامعاً لما تضمنتْهُ كتبُ اللغةِ التي اطلعَ عليها –وهي كثيرةٌ– من مفرداتِ اللغةِ العربيةِ في كتابٍ واحد.

* باحث في التراث العربي ووزير سابق (سورية)

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

ولكنْ مَنْ هوَ ابنُ منظور؟؟

يعرّفــهُ ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ(٣) في كتابهِ «الــدررُ الكامنةُ في أعيــانِ المئة الثامنةِ» في حرفِ الميمِ بما نصُّهُ:

«هو محمدُ بنُ مكــرمٍ بنُ عليٍّ بنِ أحمدَ الأنصاريِّ الإفريقيِّ ثم المصريّ جمالُ الدينِ أبــو الفضــلِ، ويُنسبُ إلى رويفــع بنِ ثابتٍ الأنصــاريِّ. وُلِــدَ في سنة ستّمئــةٍ وثلاثين للهجــرة في المحرمِ وسمعَ مــن ابنِ المقيرِ(٤) ومرتضــى بنِ حــاتمٍ(٥) وعبــد الرحيم بنِ الطفيلِ ويوسفَ بنِ المخيليِّ وغيرِهم. وعمّرَ وكَبِرَ وحدَّثَ فأكــثروا عنهُ. اختصرَ الأغانيَ والعقــدَ الفريدَ والذخيرةَ ونشوانَ المحاضرةِ ومفرداتِ ابن البيطــار(٦) والتواريخَ الكبارَ وكان لا يمــلُّ مــن ذلكَ. قــال الصفديُّ(٧): لا أعــرفُ في الأدبِ وغــيرهِ كتاباً مطولاً إلا وقد اختصــرَهُ، قال: وأخبرني ولــدُهُ قطبُ الدينِ أنهُ تركَ خمسمئــةِ مجلدةٍ، ويُقالُ إن الكتبَ التــي علقَها بخطهِ مــن مختصراتهِ خمسمئةِ مجلدةٍ، قلت: وجمع في اللغةِ كتاباً سمَّاهُ «لسانَ العربِ» جمعَ فيه بينَ التهذيبِ والمحكــمِ والصحــاحِ والجمهــرةِ والنهايةِ وحاشيةِ الصحاحِ، جَوَّدهُ ما شاءَ ورتبهُ ترتيبَ الصحاحِ، وهوَ كبيرٌ. وخدمَ في ديوانِ الإنشاءِ طوالَ عمرِهِ ووليَ قضاءَ طرابلس».

وقــال عنهُ الحافظُ جلالُ الدينَ بنُ أبي بكرٍ السيوطيُّ(٨) في «بغيةِ الوعاةِ في طبقاتِ اللغويينَ والنحاةِ» فيمَنْ اسمُه محمدٌ:

«محمــدُ بنُ مكرمٍ بن عليٍّ، وقيل رضوانُ ابنُ أحمــدَ بنِ أبــي القاسمِ بــنِ حبقةَ بنِ منظورٍ الأنصــاريِّ الإفريقيِّ المصريِّ جمالِ الدين أبو الفضــل صاحبِ لسانِ العربِ في اللغةِ الذي جمــعَ فيهِ بينَ التهذيبِ والمحكمِ والصحاحِ وحواشيهِ والجمهرةِ والنهايةِ، وُلِدَ في المحرمِ سنــةَ ٦٣٠هـ وسمعَ من ابنِ المقيرِ وغيرهِ وجمعَ وعمَّرَ وحــدَّثَ واختصرَ كثيراً من كتــبِ الأدبِ المطولةِ كالأغــاني والعقدِ والذخيرةِ ومفرداتِ ابــنِ البيطارِ، ونُقِلَ أن مختصراتــه خمسمئــةِ مجلــدٍ، وكانَ صدراً رئيســاً فاضلاً في الأدبِ مليحَ الإنشاءِ، روى عنهُ السبكــيُّ (٩) والذهبــيُّ(١٠) وقال تفردَ بالعوالي وكانَ عارفاً بالنحوِ واللغةِ والتاريخِ والكتابــةِ، واختصــرَ تاريخَ دمشــقَ في نحوِ ربعهِ، ماتَ في شعبانَ سنة ٧١١هـ ».

واشتهرَ بنسبهِ إلى جــدهِ السابعِ منظور حيثُ يقفُ عندَهُ أكثرُ مَنْ ترجمُوا له.

يُجمعُ مَنْ ترجَم له على أن ولادَتُه كانَتْ سنة ٦٣٠هــ، وهذا ما ذكــره السيوطيُّ في

كتابــهِ «البغيةِ» وابــنُ شاكرٍ في «فواتِ الوفيــاتِ» وابنُ حجرٍ في «الدررِ الكامنــةِ» والصفديُّ في «أعيــانِ العصــرِ» وابــنُ تغردي بردي[11] في «المنهلِ الصافي».

إلا أنَّ الدكتورَ عبدَ اللهِ درويش يذكرُ في كتابهِ «المعاجمِ العربيةِ» أنَّ ولادَتُــه كانــتْ سنــةَ ٦٨٠ هـ في حــينِ يذكرُ أحمــد فارس في مقدمتــهِ على لســانِ العربِ من منشوراتِ دارِ صــادرٍ في بيروتَ أن ولادتهَ كانَتْ سنةَ ٦٩٠ هـ. أما وفاتُهُ فيذكرُ الصفديُّ أنها كانَتْ في شعبانَ سنة ٧١١ هـ.



وكمــا اختُلِــفَ في سنــةِ ولادتــهِ فقد اختُلِــفَ في مكانِها فالزركلــيُّ[12] في «الأعــلامِ» يقولُ «ولدَ في مصرَ وقيلَ بطرابلسَ الغربِ» لكن الدكتورَ درويش يقول «وُلدَ في تونسَ حيث نشأَ فيها». وما هذا الاختلافُ إلاّ لأنَّ الأوائلَ لم يذكروا شيئاً عن مــكانِ ولادتِهِ. لكنهمْ أجمعوا على أنَّ ابنَ منظورٍ «خدمَ بديوانِ الإنشاءِ بمصرَ، ووليَ قضاءَ طرابلسَ». وأغلبُ الظنِّ أنَّه ولد بمصــرَ، والذينَ يقولونَ أنَّــهُ ولدَ بطرابلسَ ذكــروا ذلكَ لتردُّدِ أبيــهِ إليها إبَّــانَ ولايتهِ لقضائِها، ولربما وُلِدَ فيها..

وأمَّا عــن طفولَتِهِ فلا نعلــمُ عنها شيئاً سوى ما ذكرهُ هوَ عــن نفسهِ في كتابِ «نثارِ الأزهارِ» الــذي اختصرَ فيه كتــابَ «فصلِ الخطــابِ في مــداركِ الحواســِ الخمســِ لأولي الألبــابِ» للتيفاشي[13] – حيث نجدُهُ يقــول: «بأنَّها كانَتْ طفولــةً مشغولةً بالعلمِ والتحصيلِ، جذبَتْهُ الحركةُ العلميةُ والأدبيةُ

التـــي كانتْ ملءَ بيتِ أبيهِ منــذُ أنْ بدأ يعي الحياةَ وما فيهـــا». ومن قولِه أيضاً: «وكنتُ أيــامَ الوالدِ رحِمَــهُ اللّهُ أرى تردُّدَ الفضلاءِ إليهِ وتهافُتَ العلماءِ عليه..»».

ومــن شيوخــه الذيــنَ أخذَ عنهــمْ ابنُ المقــيرِ، ومرتضى بنُ حــاتمٍ، وعبدُ الرحمنِ ابنُ الطفيلِ، ويوسفُ بنُ المخيلي. ولكنَّ ابنَ منظورٍ لم يذكرْ أحــداً منهُمْ في كتابِهِ «لسانِ العرب». ولعل إهمالَهُ لذكرِهِمْ رُبما يشيرُ إلى أنَّهُ أخذَ عنهُــمْ ولكنَّهُ لم يجلسْ في مجالسِهِمْ جلوساً منتظماً على عادةِ طلبةِ العلمِ. ولربما كان ذلكَ الإهمالُ متعمــداً مبعثُه الاعتزازُ بالنفسِ وتصغيرُ عملِ غيرِهِ وهذا ما وجدناهُ من نيلٍ أو شبهِ نيلٍ مِنْ أصحابِ الكتبِ التي اختصرَها. فهــوَ حينَ يذكــرُ السببُ الذي حملهُ على اختصــارِ كتابِ التيفاشي يقول: ورأيتُهُ قد جمعَ فيهِ أشياءَ لم يقصدْ بها سوى تكبيرِ حجــمِ الكتابِ، ولم يُــراعِ فيهِ التكرارَ ولا ما تمجُّهُ أسمــاعُ ذوي الألبابِ. «إلى أن يقــولَ: فأخذتُ زُبْدَهُ، ورميتُ زَبَدَهُ، وأوردتُ مكرَّرهُ – أي صافيَهُ – وتركتُ مكررهُ – من التكرارِ».

وهو حــينَ يقدمُ لكتابــه «لسانِ العرب» ويذكــرُ الكتبَ التي نقلَ عنهــا فهوَ لا يكادُ يعطي أصحابَها حتــى يسلبَهم ما أعطاهمُ، وكانَ فيمــا أعطــى أقلَّ مما سلــبَ فنجدهُ يقــول: «ولم أجــدْ في كتبِ اللغــةِ أجملَ من تهذيبِ اللغةِ لأبــي منصورٍ محمدِ بنِ أحمدَ الأزهــريِّ ولا أكملَ من المحكمِ لأبي الحسنِ عليِّ بنِ إسماعيــلَ الأندلسيِّ رحمهما اللّهُ، وهما من أمهاتِ كتــبِ اللغةِ على التحقيقِ، وما عداهما بالنسبةِ إليهما ثنياتٌ للطريق، غــيرَ أنَّ كلاً منهمــا مطلبٌ عســيرُ المهلكِ، ونهلٌ وعرُ المسلَكِ. وكأنَّ واضعَهُ شرعَ للناسِ مــورداً عذبــاً وحلأَهُــمْ عنْهُ، وارتــادَ لهم مرعــىً مريعاً ومنعَهُمْ منــهُ، قد أخَّرَ وقَدَّمَ، وقصدَ أنْ يعربَ فأعجــمَ، فرقَ الذهنَ بين الثنائــي والمضاعفِ والمقلــوبِ، وبددَ الفكرَ باللفيفِ والمعتلِ والرباعيِّ والخماسيِّ فضاعَ المطلوبُ، فأهمــل الناسُ أمرَهما وانصرفوا عنهمــا، وكادَتِ البلادُ لعدمِ الإقبالِ عليهما أن تَخْلُوَ منهمــا، وليس لذلكَ سببٌ إلاّ سوءُ الترتيبِ وتخليطُ التفصيلِ والتبويبِ.

ورأيــتُ أبا نصــرٍ إسماعيلَ بــنَ حمادٍ الجوهــريَّ(١٤) قد أحســنَ ترتيبَ مختصرِه، وشهــرَهُ بسهولةِ وضعِهِ، فخــفَّ على الناسِ أمرُهُ فتناولوهُ وقربَ عليهَمْ مأخذُهُ فتداولوهُ وتناقلوهُ. غــيرَ أنه في جوِّ اللغةِ كالذرةِ، وفي

بحرِها كالقطرةِ، وإنْ كان في نحرِها كالدرةِ، وهو مـــعَ ذلكَ قد صحفَ وحـــرفَ، وجزفَ فيما صرّفَ، فأُتيـــح له الشيخُ أبو محمدِ بن بري[١٥] فتتبـــعَ ما فيه وأملى عليـــهِ أماليهِ مخرجاً لسقطاتِهِ مؤرخاً لغلطاتِه».

بمثلِ هذا الأسلوبِ تناولَ ابنُ منظورٍ مَنْ أفـــادَ منهمْ فلم يعطِهم إلا وهوَ يمهدُ للأخذِ منهمْ. وابنُ منظور الـــذي أهملَ شيوخَهُ، لم يهملْهُ تلاميذُهُ، ومـــن أشهرِ هؤلاءِ التلاميذِ تقـــيُّ الدينِ السبكيُّ وشمسُ الدينِ الذهبيُّ. ويكادُ يكـــونُ أكثرَ ما كُتب عـــن ابنِ منظورٍ مرجعُـــهُ إلى الذهبي الذي يقولُ عن أستاذِهِ «تفردَ في العوالي.. وكان عارفاً بالنحوِ واللغةِ والكتابةِ».

ومن الغريـــبِ أنَّ ابنَ تغري بردي لم يشرْ إلى ابنِ منظورٍ في كتابـــهِ «النجومِ الزاهرةِ» عند ذكرِ وفياتِ سنـــةِ ٧١١هـ في حينَ أفردَ لهُ ترجمـــةً في كتابِه «المنهـــلِ الصافي». أما المقريـــزيُّ[١٦] فـــكلُّ ما كتبهُ عنـــهُ: «وماتَ جمـــالُ الدينِ أبو الفضل محمـــدُ بنُ الشيخِ جـــلالِ الدينِ المكرمِ بنِ عليٍّ في الثالثَ عشرَ مـــن المحرمِ عـــن بضعٍ وثمانـــينَ سنةً ودفنَ بالقرافةِ، وكانَ منْ أعيانِ الفقهاءِ الشافعيةِ ورؤساءِ القاهرةِ وأوائـــلِ كتابِ الإنشاءِ ومن رواةِ الحديـــثِ». والمقريزي يجعـــلُ من ابنِ منظـــورٍ «مـــن أعيـــانِ الفقهـــاءِ الشافعيةِ» ولكنَّنا لم نجدْ ذكراً لابنِ منظورٍ في «طبقات الشافعيةِ» لتاجِ الديـــنِ السبكيِّ، ونعتقدُ أنَّهُ لم يكنْ منهم.

مؤلفات ابن منظور ومختصراته:

يقـــول الصفـــديُّ في «أعيـــانِ العصرِ»: «واختصـــرَ كتبـــاً وكانَ كثيرَ النســـخ ذا خطٍّ حسنٍ، وله أدبٌ ونظمٌ ونثرٌ».

ويقـــولُ في مكانٍ آخرَ: «خـــدمَ في ديوانِ الإنشاءِ في القاهـــرةِ وأتى بعملهِ بما يُخْجِلُ النجـــومَ الزاهـــرة، ولـــهُ شعرٌ غاصَـــ على معانيـــهِ وأبهجَ بـــهِ نفسَ مَـــنْ يعانيهِ. وكان قـــادراً علـــى الكتابةِ لا يملُّ مـــن مواصلتِها ولا يـــولي عن مناضلتِها. لا أعرفُ في الأدبِ وغـــيرِهِ كتاباً بطولِهِ إلاّ وقـــد اختصرَهُ وروّقَ عنقـــودَهُ واعتصـــرَهُ، تفردَ بهـــذهِ الخاصةِ البديعـــةِ، وكانتْ همتُهُ بذلكَ في بدرِ الزمانِ وشيعة».(❖)

ويقول ابنُ حجرٍ: «وكان مفرداً باختصارِ كتـــبِ الأدبِ المطولةِ والتواريخِ، وكانَ لا يملُّ من ذلكَ».

من أشهرِ الكتبِ التي اختصرَها:

١- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[١٧]

(٣٥٦هـ)(**)، اختصرهُ ابنُ منظورٍ بعنوان «مختــارِ الأغاني في الأخبــار والتهاني» وقد رتبهُ علــى حروفِ الهجاءِ، على حينِ لم يُراعِ مؤلفــهُ أبو الفــرجِ فيهِ ذلكَ بــل رتبهُ على حسبِ الأصواتِ.

٢- زهــرُ الآدابِ وثمــرُ الألبابِ لأبي اسحقَ إبراهيــمَ بن علي بنِ تميمٍ الحصري القيرواني[١٨] سنةَ (٤٥٣هـ) في أربعةِ أجزاءٍ، ولم يعــثرْ على مختصرِ هذا الكتابِ، ولم يُذكرْ أن أحداً قامَ باختصارهِ.

٣- يتيمةُ الدهرِ في شعراءِ أهل العصرِ للثعالبــي[١٩]، أبــي منصورٍ عبــدُ الملكِ بنُ محمدِ بنِ إسماعيــلَ النيسابوري (٤٢٩هـ). ولم يكــنِ ابنُ منظورٍ الوحيــدَ الذي اختصرَ هذا الكتابَ أو ذيّــلَ عليهِ فالباخرزيُّ وضعَ كتابَــهُ «دميةَ القصرِ وعصــرةَ أهل العصر» والأصفهانيُّ وضــعَ «خريدةَ القصرِ وجريدةَ أهلِ العصرِ»، ومن بعد ابنِ منظورٍ جاءَ تقيُّ الديــنِ بنُ عبدِ القــادر (١٠٠٥هـ) ليختصرَ «اليتيمةَ» إلى نصفِها.

٤- نشــوارُ(***) المحاضرة وأخبارُ المذاكرةِ (جامع التواريخ) للتنوخي[٢٠]، أبي عليٍّ المحسنِ بنِ عليٍّ (٣٤٨هـ).

٥- تاريخُ مدينةِ دمشقَ لابن عساكر[٢١]، أبــي القاسـم عليِّ بنِ محمــدٍ الحســنِ بنِ عبدِ الله (٥٧١هـ) والأصــلُ كتابٌ كبيرٌ يقعُ في نحوٍ من ٤٨ مجلداً. ومن الذينَ اختصروا هذا الكتــابَ إضافةً لابنِ منظورٍ بدرِ الدينِ محمودٍ (٨٥٥هـ) والسيوطــيِّ، جلالِ الدينِ عبدِ الرحمــن (٩١١هـ) الذي سمى مختصرَ الكتاب بـ «تحفةِ المذاكــرِ المنتقى من تاريخ ابنِ عساكرَ».

ولكنّ، وبكلِّ أسفٍ لم يُعثرْ على أصولِ هذهِ المختصراتِ وإنمــا وُجدتْ أسماؤُها متناثرةً في بطــونِ الكتبِ التي ذَكَرَتْها ووَصَفَتْها، ولا يوجدُ منهــا سوى كتابٍ وحيــدٍ حديثٍ هو «تهذيــبُ تاريخِ مدينةِ دمشــقَ» لابن بدران عبــدِ القادرِ بنِ أحمــدَ السوري، وهو كتابٌ غــيرُ تامٍ أنهى مؤلفُــهُ خمسَ مجلدات فقط تنتهي إلى حرفِ الزاي.

٦- تاريــخُ بغــدادَ للسمعــاني[٢٢] أبي سعــدٍ عبدِ الكــريمِ بن محمــدٍ (٥٦٢هـ)، وهذا الكتابُ بالأصلِ - أي كتابُ السمعاني - كانَ ذيلاً على كتابِ تاريخِ بغدادَ للخطيبِ البغدادي (٤٦٣هـ).

٧- صفوةُ الصفوةِ لابنِ الجوزي[٢٣] أبي الفرجِ عبدِ الرحمنِ بنِ علي (٥٩٧هـ) وهذا الكتــابُ مختصرٌ لحليةِ الأوليــاءِ لأبي نعيمٍ

الأصفهــانيِّ أحمدَ بنِ عبــدِ الله (٤٣٠هـ). ومن بعدِ ابن الجوزيِّ جاءَ مُخْتَصِرونَ آخرونَ لكتابِ الحليــةِ منهمْ أبو المعالي الوراقُ سعدُ ابــنُ عليٍّ (٥٢٨هـ) ثم ابــنُ مرزوقٍ المصريِّ (٥٦٤هـــ) ثــم ابنُ منظــورٍ. ومـــن المؤسفِ أيضــاً أنهُ ليسَ بينَ أيدينــا من هذه الكتبِ سوى الأصلِ أيْ كتابِ حليةِ الأولياءِ وصفوةِ الصفوةِ لابنِ الجوزيِّ.

٨- مفرداتُ ابنُ البيطارِ، ضياءُ الدينِ عبــدُ اللّهِ بنُ أحمدَ المالقــيّ (٦٤٦هـ) وهو كتابٌ في الطبِ والصيدلةِ والأغذيةِ.

٩- فصلُ الخطــابِ للتيفاشي شهابِ الدينِ أبو العباسِ أحمدَ بنِ يوسفَ (٦٥١هـ). اختصرَهُ ابــنُ منظورٍ في كتــابٍ كبيرٍ سماه «سُرورَ النفسِ بمــداركِ الحواسِ الخمسِ»، وجعلَ الجزءَ الأولَ منهُ في كتابٍ سماهُ «نثارَ الأزهــارِ في الليلِ والنهــار، وأطايبِ أوقاتِ الأصائلِ والأسحارِ وسائــرِ ما يشتملُ عليهِ من كواكبِ الفلكِ الدوارِ».

١٠- الذخيرةُ في محاسنِ أهلِ الجزيرة - أي جزيرةِ الأندلسِ - لابن بسامٍ أبي الحسنِ عليٍّ [٢٤] (٣٠٣هـ). وقد اختصرَ ابنُ منظورٍ هذا الكتابَ وسماهُ «لطائفَ الذخيرةِ».

١١- كتابُ الحيوانِ للجاحظ[٢٥]: يُقالُ إنَّ ابنَ منظورٍ اختصرَهُ ولكنْ ليسَ هناكَ ثمةَ إجمــاعٌ ممنْ ترجموا لابــنِ منظورٍ على أنه اختصرَ هذا الكتابَ. ومن المعروفِ أنَّ اثنيْنِ سبقــا ابنَ منظورٍ باختصارِ كتابِ الحيوانِ- إن كانَ قــد اختصرَهُ فعــلاً - هما هبةُ اللّهِ ابنُ القاضي الرشيدِ جعفرٍ الذي كانت وفاتُهُ سنــة ٦٠٨هـ والثــاني ابنُ اللبــادِ البغدادي موفقُ الدينِ عبــدُ اللطيفِ بنُ يوسفَ الذي كانَتْ وفاتهُ سنة ٦٢٩هـ.

لسان العرب:

إن ابــنَ منظــورٍ الذي اختصــرَ الكتبَ التي مــرَّ ذكرُها فعــل شيئاً أهــمَّ من تلكَ المختصراتِ بكثيرٍ وهوَ تأليفُهُ لكتابِ «لسانِ العــربِ». ولعلَّ الدافعَ الــذي دفعَهُ لتأليفِ هذا الكتابِ هو اطلاعُهُ على كتبِ اللغةِ لِمَنْ سبقَهُ من المؤلفــينَ. فلما وجدَها غيرَ قابلةً للاختصارِ جمعَ في كتــابٍ واحدٍ ما احتوتْهُ أهــمُّ خمسٍ من معاجمِ اللغةِ العربيةِ. وهذه الكتبُ الخمسةُ هي: تهذيبُ اللغةِ للأزهري والمحكمُ لابنِ سيــدَهْ، والصحاحُ للجوهريِّ، والحاشيةُ على الصحاحِ لابنِ بري، والنهايةُ لابنِ الأثيرِ[٢٦].

وما نرى ابنَ منظورٍ يدّعي غيرَ ذلك فهوَ يبــينُ في مقدمتهِ على الكتابِ الأسبابَ التي

دفعتْهُ لتأليفِ كتابِهِ والمراجعِ التي أخذَ عنها وأسلوبُه في تأليفِ الكتابِ فيقول:

«وإني لم أزلْ مشغوفاً بمطالعاتِ كتبِ اللغةِ والاطــلاعِ على تصانيفِها، وعللِ تصاريفِها، ورأيْتُ علماءَها بــينَ رجلينِ: إمّا مَنْ أحسن جمعَهُ فإنه لم يحســنْ وضعَهُ، وإمّا مَنْ أجادَ وضعَــهُ فإنَّهُ لم يُجِدْ جمعَــهُ، فلم يَفِدْ حسنَ الجمــعِ مع إساءةِ الوضــعِ، ولا نفعَتْ إجادةُ الوضعِ معَ رداءةِ الجمعِ..

فاستخرتُ اللّهَ سَبحانَهُ وتعالى في جمعِ هذا الكتابِ المباركِ، الذي لا يُساهمُ في سعةِ فضلهِ ولا يُشارَكُ، ولم أخرجْ فيهِ عما في هذهِ الأصولِ، ورتبتُهُ ترتيبَ الصحاحِ في الأبوابِ والفصولِ، وقصدتُ توشيحَهُ بجليلِ الأخبارِ، وجميلِ الآثــارِ، مضافاً إلى ما فيهِ من آياتِ القرآنِ الكريمِ، والكلامِ على معجزاتِ الذكرِ الحكيمِ، ليتحلَّى بترصيعِ دررِها عقدُهُ، ويكونَ على مدارِ الآياتِ والأخبارِ والآثارِ والأمثالِ والأشعــارِ حلُّهُ وعقدُهُ، فرأيْتُ أبا السعاداتِ المباركَ بنَ محمــدِ بنِ الأثيرِ الجزريَّ(٢٥) قد جــاء في ذلــكَ بالنهايةِ، وجــاوزَ في الجودةِ حــدَّ الغايةِ، غــيرَ أنهُ لَمْ يضــعِ الكلماتِ في محلِّها، ولا راعى زائــدَ حروفِها من أصلِها، فوضعْــتُ كلاً منها في مكانِــه، وأظهرتُهُ مع برهانِهِ، فجاءَ هذا الكتابُ بحمدِ اللهِ واضحَ المنهجِ سهلَ السلــوكِ، آمناً بمنةِ اللهِ منْ أنْ يصبحَ مثلَ غيرِهِ وَهُوَ مطروحٌ متروكٌ. عظمَ نفعُــهُ بما اشتملَ من العلومِ عليهِ، وغنيٌّ بما فيهِ مِنْ غــيرِهِ وافتقرَهُ غيرُهُ إليه، وجمعَ من اللغاتِ والشواهــدِ والأدلةِ، ما لَمْ يَجْمَعْ مثلُه مثلَه، لأنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاءِ العلماءِ انفردَ بروايةٍ رواهــا، وبكلمةٍ سمعَهــا من العربِ شفاهــاً، ولم يأتِ في كتابِــهِ بكلِّ ما في كتابِ أخيهِ، ولا أقــولُ تعاظمَ عن نقلِ ما نقلهُ بل أقولُ استغنــى بما فيه، فصارَتِ الفوائدُ في كتبِهــمْ مفرّقةً، وسارَتْ أنجــمُ الفضائلِ في أفلاكِهــا هذهِ مغرّبةً وهذهِ مشرّقةً، فجمعْتُ منها في هذا الكتابِ ما تفرّقَ، وقرنْتُ بينَ ما غرّبَ منها وبينَ ما شرّقَ، فانتظمَ شملُ تلكَ الأصولِ كلِّها في هــذا المجموعِ، وصار هذا بمنزلةِ الأصلِ وأولئكَ بمنزلةِ الفروعِ، فجاءَ بحمــدٍ للهِ وفــقَ البغيةِ وفوقَ المنيــةِ، بديعَ الإتقانِ، صحيــحَ الأركانِ، سليماً من لفظةِ لو كانَ. حللْتُ بوضعِهِ ذروةَ الحفاظِ، وحللْتُ بجمعِهِ عقدةَ الألفاظِ، وأنا مع ذلكَ لا أدّعي فيهِ دعوى فأقولُ شافهْتُ أو سمعْتُ، أو فعلْتُ أو صنعْتُ، أو شددْتُ أو رحلْتُ، أو نقلْتُ عنِ العربِ العرباءِ أو حملْتُ، فكلُّ هذهِ الدعاوى

لم يــترك فيهــا الأزهريُّ وابنُ سيــدهْ لقائلٍ مقــالاً، ولم يخليا فيهِ لأحدٍ مجــالاً، فإنهما عيَّنــا في كتابيهما عَمَّنْ رَوَيــا، وبرهنا عما حَوَيَا، ونشرا في خطيهما ما طَوَيا. ولَعَمْري لقد جمعا فأوعيا، وأتيا بالمقاصدِ ووفَيا.

وليسَ لي في هذا الكتــابِ فضيلة أمتُّ بهــا، ولا وسيلة أتمســكُ بسببِها، سوى أني جمعْــتُ فيهِ ما تفــرّقَ في تلــك الكتبِ من العلوم، وبسطتُ القولَ فيهِ ولم أشبعْ باليسيرِ، وطالــبُ العلمِ منهومٌ، فَمَــنْ وقفَ فيهِ على صــوابٍ أو زللٍ، أو صحــةٍ أو خللٍ، فعُهدتُهُ علــى المصنِّفِ الأولِ، وحمــدِهِ وذمِّهِ لأصلهِ الــذي عليهِ المعوَّلُ. لأنني نقلتُ منْ كلِّ أصلٍ مضمونَهُ، ولم أبدلْ منــه شيئاً، فيقالُ فإنما إثمُهُ على الذينَ يبدلونَهُ، بل أديْتُ الأمانةَ في نقلِ الأصولِ بالفصِّ، وما تصرفْتُ فيه بكلامٍ غيرِ ما فيهــا من النصِّ، فليعتــدَّ مَنْ ينقلُ عــنْ كتابي هذا أنهُ ينقــلُ عن هذهِ الأصولِ الخمسةِ، وليغنِ عن الاهتداءِ بنجومِها فقد غابَتْ لمّا أطْلَعْتُ شمسَهُ.

والناقــلُ عنهُ يمدُّ باعَهُ ويطلــقُ لسانَهُ، ويتنــوعُ في نقلِهِ عنهُ لأنــهُ ينقلُ عن خزانةٍ. واللّهُ تعــالى يشكرُ ما لَهُ بإلهــامِ جمعِهِ من منَّــة، ويجعلُ بينَــهُ وبينَ محــرِّفِ كلمِهِ عن مواضعِــهِ واقيةً وجُنَّــة. وهو المســؤولُ أن يعاملَنــي فيــه بالنيةِ التي جمعَتْــهُ لأجلها، فإنني لم أقصدْ سوى حفظِ أصولِ هذهِ اللغةِ النبويةِ وضبطِ فضلِها، إذْ عليها مدارُ أحكامِ الكتــابِ العزيزِ والسنةِ النبويــةِ، ولأنَّ العالمَ بغوامضِهــا يعلمُ ما تُوافقُ فيهِ النيةُ اللسانَ، ويخالفُ فيه اللسانُ النيةَ، وذلكَ لما رأيتُهُ قد غلبَ، في هــذا الأوانِ، من اختلافِ الألسنةِ والألــوانِ، حتى لقد أصبحَ اللحنُ في الكلامِ يُعدُّ لحناً مردوداً، وصارَ النطقُ بالعربيةِ من المعايبِ معدوداً، وتنافسَ الناسُ في تصانيفِ الترجماناتِ في اللغةِ الأعجميةِ، وتفاصحوا في غــيرِ اللغةِ العربيةِ، فجمعْتُ هذا الكتابَ في زمــنٍ أهلهُ بغيرِ لغتهِ يفخــرونَ، وصنعْتُهُ كما صنعَ نوحٌ الفلــكَ وقومُه منه يسخرونَ، وسميتُه لسانَ العــربِ، وأرجو من كرمِ اللّه تعالى أن يرفعَ قدْرَ هذا الكتابِ وينفعُ بعلومِهِ الزاخرةِ، ويصــلُ النفعَ به بتناقلِ العلماءِ لهُ في الدنيا وبنطــقِ أهلِ الجنةِ بهِ في الآخرة، وأن يكــون من الثلاثِ التي ينقطعُ عملُ ابنُ آدمَ إذا ماتَ إلا منها، وأنْ أنالَ بهِ الدرجاتِ بعــد الوفاةِ بانتفاعِ كلِّ مَــنْ عَملَ بعلومِهِ أو نقلَ عنهــا، وأن يجعلَ تأليفَهُ خالصاً لوجههِ الجليلِ، وحسبُنا اللّه ونعمَ الوكيل.

ويتابعُ ابــن منظورٍ فيقــول: «قالَ عبدُ اللهِ محمــدُ بــنُ المكــرَّمِ: شرطُنــا في هذا الكتابِ المباركِ أن نرتبَهُ كما رتبَ الجوهريُّ صحاحَهُ، وقد قُمنا، والمنَّةُ للهِ، بما شرطْناه فيهِ».

وَلَئِــنْ اقتبَسَ ابــنُ منظورٍ عــن هؤلاءِ الخمسةِ الذيــنَ أوردَ ذكرَهم فلا بد لنا من أن نقــولَ: إن الأزهريَّ وابنَ سيــدَه اللذَيْن نَقــلا عنهما قد تأثّرا تأثــراً كبيراً وواضحاً بالخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ[٢٧] (١٠٠هـ-١٧٥ هـ) وبكتابهِ «العينِ». وقد دعاهُ الخليلُ بــ «العينِ» لأنهُ رتــبَ حروفَهُ وفقَ مخارجِها مبتدئاً بالأبعدِ في الحلقِ ومنتهياً بما يخرجُ من الشفتينِ، فكانَ أولَ حرفٍ عندَهُ «العينُ» وبهِ سمى كتابَهُ.

والأزهريُّ أبو منصــورٍ محمدُ بنُ أحمدَ (٢٨٢ – ٣٧٠هـ) عندما وضعَ كتابَهُ «تهذيب اللغة» كان الأملُ يحدوهُ بتخليصِ اللغةِ مما دخلَها من شوائبَ وقعَتْ للخليلِ فحذا حذوَهُ فوضــعَ كتابَهُ على نهجِ «العينِ» معتمداً على السماعِ منَ العربِ والروايةِ عن الثقاةِ والنقلِ عن أئمةِ اللغةِ.

وأمــا ابنُ سيــدَه (أبو الحســن عليُّ بنَ إسماعيلَ الأندلسيِّ) فلا يبعدُ كتابَهُ «المحكمُ» عن كتابِ «العينِ» للخليل ولا عن «التهذيبِ» للأزهريِّ بعداً كبيراً، وإن كان قد ضمَّ أشياءَ وصححَ أشياءَ وحذفَ أشياءَ.

وقــد أخــذَ اللغويّــونَ علــى «العــينِ» و«المحكــمِ» صعوبةَ البَحْــثِ وعسرَ الاهتداءِ إلى المبتغى ممــا في الكتابــينِ، إلى أن جاءَ ابــنُ دريــدٍ[٢٨] (أبو بكرٍ محمــدُ بنُ الحسنِ ٢٢٣ – ٣٢١هـ)، فَعَدَلَ عن ترتيبِ الحروفِ على المخارجِ وعمد إلى ترتيبِها على حروفِ الهجاءِ (الألف فـ الباء..).

ومن بعــدِ ابنِ دريدٍ جاء مَــنْ سارَ على هديــه في التأليفِ وهو ابنُ فارسٍ أحمدُ[٢٩] (٣٩٥هـ).

وأمَّــا الجوهــريُّ (أبو نصــرٍ إسماعيلُ ابنُ حمــادٍ ٤٠٠هـ) مؤلفُ كتــابِ الصحاحِ فــكانَ صاحبَ منهجٍ جديدٍ أسسَ بهِ لمدرسةٍ جديــدةٍ، فقد أهملَ ترتيــبَ الحروفِ على المخارجِ وجــاءَ بنظامٍ جديدٍ متأثــراً بخالِهِ الفارابــي[٣٠] (اسحقِ بــنِ إبراهيمَ ٣٥٠هـ) صاحــبِ ديوانِ الأدبِ فاعتمــدَ على أواخرِ الكلماتِ في الترتيبِ جاعــلاً كل حرفٍ باباً ثم قســم كلَّ بابٍ فصولاً تبعاً للحرفِ الأول من الكلمةِ.

وأمــا ابنُ بَري فهوَ أبــو محمدٍ عبدُ اللهِ

ابـــنُ أبي الوحشِ برّيٌّ بـــنُ عبدِ الجبارِ ولد بمصـــرَ (٤٩٩ – ٥٨٧هـ) ولم يكنْ معجمياً بل كانَ كلُّ مـــا فعلَهُ هوَ تأليفُـــهُ لكتابهِ المعنونِ بـ «الحواشيِّ علـــى صحاحِ الجوهري» وكان قصدهُ منهُ هو تتبعُ سقطاتِ الجوهري، فما كانَ لهذا الكتابِ أن يرقى إلى مرتبةِ المعاجمِ اللغويةِ الأخرى.

وأمـــا ابنُ الأثـــيرِ فهو مجـــدُ الدين أبو السعـــاداتِ المبـــاركُ بـــنُ محمـــدٍ الجزريِّ (٦٠٦هـ) وكتابهُ «النهايةُ في غريبِ الحديثِ» رتَّبَهُ على حـــروفِ الهجاءِ. وهذا الترتيبُ لم تأخذْ بـــه المعاجمُ اللغويـــةُ إلاّ حينَ أخذَ به الزمشخـــريُّ (محمود بن عمـــر ٥٣٨هـ) في كتابِهِ «أساسِ البلاغةِ».

فلسانُ العربِ جاء مطابقاً ومشابهاً لعملِ الجوهريِّ، فرتبَ ابنُ منظـــورٍ كتابَهُ ترتيبَ الجوهريِّ «لصحاحِـــه»، وصدَّرهُ بفصلٍ فيهِ تفســـيرُ الحـــروفِ المقطعةِ التـــي وردَتْ في أوائـــلِ سورِ القرآنِ الكـــريمِ، في حينَ جعلها الأزهريُّ في فصلٍ في آخرِ كتابهِ «التهذيبِ». وبعَد هذا التصديرِ عقدَ ابنُ منظورٍ باباً في ألقابِ الحروفِ وطبائعِها وخواصِّها نقلاً عن الشيخِ أبي الحســـنِ عليِّ الحرالي (٦٣٧هـ) رأى فيهِ أنَّهُ يتممُ ما صدّرَ به الكتابَ، ولكنهُ لم يُفَصِّـــلْ فيه تفصيلاً شديـــداً قائلاً «إني أخذتُ اليسيرَ منْهُ».

وقد اقتبسَ ابنُ منظـــورٍ ألقابَ حروفِ الهجـــاءِ من ابـــنِ كيســـانَ والخليـــلِ ثمَّ ما عندَ الخليـــلِ وسيبوَيـــهِ حـــولَ ترتيبِها من حيثُ المخـــرج ثمَّ ما عندَ الخليـــلِ وسيبوَيْهِ وابـــنِ كيسانَ والأزهـــريِّ حـــولَ العلاقاتِ بينَ الحـــروفِ المتقاربةِ المخـــارجِ والمتباعدةِ من تناسقٍ وتنافرٍ، ثمَّ مـــا عندَ الحرالي[٣١] والبـــوني (أبـــي العباسِ أحمـــد) والبعلبكيِّ ومحيـــي الدينِ ابنُ عربـــيٍّ[٣٢] حولَ خواصِّ الحروفِ الطبيـــةِ والسحريةِ وما بينَها وبينَ الفلكِ والكونِ من اتفاقاتٍ.

وبعد هذا وذاكَ ســـاقَ ابنُ منظورٍ موادَّ كتابـــهِ (اللسانِ) مبتدئاً بحـــرفِ الهمزة، ثم عرضَ الأبـــوابَ والفصولَ عرضَ الجوهـريِّ للصحـــاحِ لا خلافَ بينهمـــا إلا في ضخامةِ أبوابِ اللسانِ عن أبوابِ الصحاحِ.

وقـــد أتمَّ ابنُ منظورٍ تأليـــفَ كتابِهِ هذا ليلـــةَ الاثنينِ الثـــاني والعشرين من شهرِ ذي الحجةِ سنةَ ٦٨١هـ كما أثبتَ ذاكَ بخطِّهِ في آخرِ الكتابِ.

ويذكــر صاحــبُ كشــفِ الظنــونِ أن الكتــابَ يقعُ في ستة مجلــداتٍ ضخمةٍ، غيرَ أنَّ مخطوطــاتِ الكتابِ تشــيرُ إلى أنهُ سبعةٌ وعشرونَ جزءاً. فقد وردَ في متنِ الكتابِ بعدَ حرفِ الكافِ فصلُ الواوِ والياءِ هذهِ العبارةُ: «تمَّ الجــزءُ التاسعَ عشرَ مــن تجزئةِ المؤلفِ كتابَــهُ سبعــةً وعشرينَ جــزءاً». وحينَ طُبِعَ الكتابُ بمطبعــةِ بولاقَ في مصرَ سنةَ ١٣٠٠ هــ وسنةَ ١٣٠٨ هـ خــرج في عشرين جزءاً، وكان الاعتمــادُ في طباعتِــهِ علــى النسخةِ الموقوفةِ في وقفِ السلطانِ الأشرفِ برسباي، وقــد أشارَ الزبيديُّ شارحُ القاموسِ إلى أنها بخــطِّ ابنِ منظورٍ، وقد اعتمدَ هو عليها في شرحهِ للقاموسِ، إلا أنَّها كانَتْ تنقصُ أوراقاً استُدرِكَــتْ منْ نسخةِ راغــب باشا صاحبِ السفينةِ عندَ تحقيقِ الكتابِ.

وقد ختــمَ المصححُ النسخــةَ المطبوعةَ ببيتٍ من الشعرِ يشيرُ عَجُزُه إلى تاريخِ الفراغ من الطبع. والبيتُ هوَ:

أذعــنَ النــاسُ لها إذْ أرخُــوا

همةً أحيَتْ لسانَ العرب(****)

٤٤٥ + ٤١٩ + ١٤١ + ٣٠٣ = ١٣٠٨

نماذج من مفردات «لسان العرب»:

نوردُ فيمــا يلي مفردتَــيْنِ شرحهما بنُ منظورٍ في كتابِهِ:

١- شغــل: يبــدأُ ابنُ منظــورٍ أخذَها عن المُحكمِ فيقول: «الشُّغْل والشَّغْل والشُّغُل والشَّغَل كُلُّه واحد والجمــع أشغَالٌ وشُغُول. قال ابن ميادة:

وما هَجْرُ ليلى أن تكونَ تَباعَدَتْ

عَلَيْكَ ولا أَنْ أَحْصَرَتْكَ شُغُولُ

وقد شَغَلَــه يَشْغَلُه شَغْلاً وشُغْلاً، الأخيرة عن سيبويه وأَشْغَلَه واشْتَغَلَ به وشُغِلَ بهِ وأنا شاغِــلٌ لهُ، وقيل: لا يقــالُ أَشْغَلْته لأنها لغةٌ رديئةٌ وقد شُغِلَ فلانٌ فَهُوَ مَشْغُولٌ».

ثم يعودُ ابنُ منظورٍ إلى «المحكمِ» فَيَصَلُ النقــلَ: «وقال ثعلبٌ شُغِــلَ من الأفعال التي غُلِّبَــت فيها صيغةُ ما لم يُسَــمَّ فاعلهُ. قال: وتَعَجَّبــوا مــن هــذه الصيغةِ فقالــوا: ما أَشْغَلَه. قالَ: وهذا شــاذٌ إنَّما يُحفَظ حِفْظاً يعني أنَّ التعجبَ موضــوعٌ على صيغةِ فَعَلَ الفاعلُ». ثم يعودُ ابنُ منظورٍ إلى «الصحاحِ» و«التهذيــبِ» فينقلُ معَ شــيءٍ مِنَ التصرُّفِ القليــلَ من تقديمٍ وتأخــيرٍ: «قال- ويقصد بالقائــلِ ثعلبَ، وما في الصحــاحِ والتهذيبِ لا يــدلُّ على ذلــكَ- ولا يُتَعَجَّبُ مما لم يُسَمَّ

فاعلُهُ. ويقــال: شُغِلْتُ عنكَ بِكَذا على ما لم يسمَّ فاعلُهُ واشْتَغَلْت. ورجلٌ شَغِلٌ: من الشُّغْلِ ومُشْتَغِلٌ ومُشْتَغَلٌ ومَشْغُولٌ».

ثم يعود ابنُ منظورٍ إلى «المحكم» فَيَصِلُ النقــلَ دونَ حذفٍ: «قال ابــنُ سيدَهْ: ورجُل شَغِــلٌ عن ابنِ الأعرابيِّ. قــال: وعندي أنَّهُ علــى النَّسَبِ لأنَّــه لا فِعْلَ له يجــيءُ عَلَيْهِ فَعِلٌ وكذلكَ رَجُــل مُشْتَغِلٌ ومُشْتَغَلٌ الأخيرة علــى لفظةِ المفعولِ وهِيَ نــادرةٌ حكاها ابن الأعرابي وأنشد:

إنَّ الــذي يَــأْمُـلُ الدُّنـيا لَمُتَّـلَـه

وكـلُّ ذي أمـلٍ عـنْـهُ سَيَشْتَغِـلُ

وشُغْلٌ شاغِلٌ على المبالغة

ثــم يُقحِمُ ابنُ منظورٍ على عبارةِ المحكمِ نقلاً عن الصحاحِ: «مثل لَيْل لائلٌ». ثمَّ يعودُ إلى النقــلِ عــن المُحْكَمِ: «قــال سيبَويْه هو بمنزلةِ قولِهِمْ هَمٌّ ناصِبٌ وعيشَةٌ راضيةٌ».

وإلى هنا ينتهي المحكمُ، ولكن ابنَ منظورٍ لا ينتهي ففي التهذيبِ والصحاحِ بقيةٌ، وفي ابن الأثــيرِ بقيةٌ، فيمضي ابنُ منظورٍ يشكِّلُ من هذا كلــه عبارَتَهُ التي يختِــمُ بها المادةَ وهي: «واشْتَغَل فلانٌ بأمرِهِ، فهو مُشْتَغِل. ابنُ الأعرابــيّ الشَّغْلة والعَرَمَةُ والبَيْدَر والكُدْسُ واحد. وجمع الشَّغْلة شَغْلٌ وهو البَيْدَرُ. قال ابنُ الأثيرِ: هي بفتحِ العينِ وكسرِها».

٢- غيث: الغيَثْ: المطرُ والكلأُ، وقيلَ: الأصــلُ المطرُ، ثم سمي ما ينبــتُ به غيثاً، أنشد ثعلبٌ:

وما زِلْتُ مثلَ الغَيْثِ ، يُرْكَبُ مَرَّةً

فيُعْلى ، ويُـولَى مَـرَّةً ، فيُثِيبُ

يقــولُ أنا كشجرٍ يُؤكَلُ، ثم يصيبُهُ الغيثُ فيرجِــعُ أيْ يذهبُ مالي ثم يعــودُ، والجمعُ: أغياث وغُيوث، قال المخبَّلُ السعدي:

لها لجبٌ حـول الحِياضِ، كأنَّه

تجـاوبُ أغـيـاثٍ ، لَـهُـنَّ هـزيم

وغاثَ الغَيثُ الأرضَــ: أصابَها، ويقالُ: غَاثَهم اللّهُ، وأصابَهُمْ غَيْثٌ، وغَاثَ اللّهُ البلادَ يَغِيثُها غَيْثاً إذا أنزلَ بها الغَيْثَ، منه الحديثُ: فــادعُ اللّهَ إذا يَغيثُــا، بفتح اليــاء. وغِيثَتِ الأرضُ، تُغاث غَيْثاً، فهــيَ مَغِيثَة، ومَغْيُوثَة: أصابها الغَيْثُ. وغِيْثَ القوم: أصابهم الغَيْثُ. قال الأصمعــي(٣٣): أخبرَني أبــو عمرو بنِ العلاءِ قال: سمعْتُ ذا الرُّمة يقولُ: قاتَلَ اللّه أَمَةَ بني فــلانٍ ما أفصحَها! قلتُ لها: كيفَ كانَ المطــرُ عندَكُمْ؟ فقالــت: غِثْنا ما شِئْنا، وفي حديثِ رُقيقة: ألا فَغِثْتم ما شِئْتُم! غِثتم، بكســر الغَيْنِ ، أي سُقِيتُم الغَيث، وهوَ المطرَ، والســؤالُ منه: غِثْنا، ومــن الإغاثة، بمعنى

الإعانة: أَغِثْنَــا، وإذا بَنَيتَ منه فعلاً ماضياً لم يُسَمَّ فاعلُــهُ، قلت: غِثْنا، بالكسر، والأصل غُيِثنــا، فحذفَتِ الياءُ، وكُسِرَتِ الغينُ، وربَّما سُمِّيَ السحابُ والنباتُ: غَيْثاً.

والغَيْثُ الكلأ ينبُتُ من ماءِ السماء. وفي حديث زكاةِ العسلِ: إنَّما هو ذبابُ غَيْثٍ، قالَ ابنُ الأثيرِ: يعني النحلَ، وأضافَهُ إلى الغَيْثِ، لأنه يطلُبُ النباتِ والأزهارَ، وهما من توابع الغَيْثِ، وغَيْثٌ مُغِيــثٌ: عامٌّ. وبئرٌ ذاتُ غَيِّثٍ أي ذاتُ مادةٍ، قال رؤبة:

نغرف من ذي غَيِّثٍ ونُؤْزِي

والغَيِّثُ: عيلــمُ الماءِ، وفرســ ذو غَيِّثٍ: علــى التشبيهِ، إذا جــاءَهُ عدوٌّ بعــدَ عدوٍّ، وغَيَّثَ الأعمى: طلبَ الشيءَ، عن كُراعٍ، وهو بالبعين أيضاً، وهو الصحيح، قال ابن سيدَهْ: وأُرى العينَ المهملــةَ تصحيفاً. وغَيِّثٌ: رجل مــن طَيءٍ. وبنو غَيْــثٍ، أو غَيِّثٍ: حي. وبينَ مَعْدِنِ النَّقْــرَةِ والرَّبَذةِ موضعٌ يعرَفُ بمُغيثِ ماوانَ، وماؤه مِلْح.

ومَغيثَة: رَكِيَّةٌ أخــرى، عذبةُ الماءِ، وهي إحــدى مَناهلِ الطريقِ مما يلــي القادِسيةَ، وأنشدَ أبو عمروٍ:

شَـرِبْـنَ مـن مــاوانَ مــاءً مُــرّاً،
وَمِــنْ مُـغِـيـثَ مِـثْـلَـه ، أو شَـرَّا

وكما نقلَ ابنُ منظــورٍ في المادةِ السابقةِ عن المحكمِ فأكثرَ نراهُ هنا ينقلُ عن الأصمعيِّ وشعراً للمُخَبَّلِ السعــديِّ وأبي عمرَ ليعمق معنى كلمةِ «غيث».

هذان مثالان من أمثلةِ ترتيبِ المادةِ عندَ ابنِ منظــورٍ، وهو يدلُّ ولا شــكَّ على جُهْدٍ كبيرٍ يقتضي النظرَ في المراجعِ الخمسةِ التي نقلَ عنْها، وتنسيقَ المنقولِ، وما هذا بالشيءِ اليسيرِ. من أجلِ ذلكَ لم يأمَنِ ابنُ منظورٍ من تكرارٍ يُلحظُ في يُسْرٍ ونحنُ نقرأُ هذهِ المادةَ. كما لَمْ يأمَنْ مِنْ إسناد قولٍ إلى غيرِ قائِلِهِ.

ولكنَّ هذه الهناتِ إذا قيسَتْ إلى الجهدِ الكبيرِ الذي اضطلعَ بهِ ابنُ منظورٍ في العملِ لا تعدُّ مما يشينُ في شيءٍ عمله.

وابنُ منظورٍ كما نرى كانَ همُّهُ الاستقصاءَ فيعتمدُ في ذلكَ على المرجعِ الأكثرِ استقصاء، وهو حــينَ يكثرُ الأخذُ في مــادةٍ عن مرجعٍ يغلِّبُ طابعَ هذا المرجعِ على المادةِ، فإذا نقلَ عــن المحكم فأكثرَ غلَّب طابــعَ المحكَمِ، وإذا نقل عن التهذيبِ فأكثر غلَّبَ طابعَ التهذيبِ، وما نظنُّ المراجعَ الثلاثةَ الباقيةَ كانَ فيها ما يربو على ما في المرجعينِ السابقينِ، فيكونُ لهــا هيَ الأخرى طابعٌ غالــبٌ. ولقد حركَ هذا العملُ رجالَ عصــرِهِ لتقريظِهِ. فيروي

لنا الصفديُّ في كتابه أعيانِ العصرِ فيقول: أنشدني شيخُنـا العلامةُ أثيرُ الدين تقريظاً لهذا الكتابِ ورأيتُهُ بخطِّهِ:

أجلْتُ لحاظي في الرياضِ الدمائثِ
ونزَّهْتُ فكري في فنونِ المباحثِ
وشاهدْتُ مجموعاً حوى العلمَ كلَّهُ
بـأولِ مكتـوبٍ وثـانٍ وثـالثٍ
فَيَا حسنَهُ من جامعٍ لفضائلٍ
جليلٍ على نيلِ المعارفِ باعث
فحازَ لسانُ العربِ أجمعَ فاغتدى
نهايةَ مرتـادٍ ومطلبٍ وباحثٍ
بـه أزهـرَتْ لـلأزهـريّ رياضُـهُ
فأنوارُها تجلو دياجي الحوادثِ
وصحَّتْ به للجوهريِّ صحاحُهُ
فلا كسرَ يعروها ولا نقدُ عابثِ
وسار بهِ بينض الأنام ابنُ سيدَهِ
فمُحْكَمُه ما فيه عَيْثٌ لعائثٍ
لهُ قدمٌ في ساحةِ الفضلِ راسخٌ
ومجدٌ قديمٌ ليسَ فيهِ بحادثِ

هذا عرض موجز لكتـابِ لسانِ العربِ ومؤلفهِ ابنِ منظورٍ.

ولكنْ يحقُّ لنا أن نتساءلَ لماذا أخذَ هذا الكتابُ كلَّ هذا الاهتمامِ من اللغويينَ؟

لقد ذكرْنا نبذةً عن ميزات الكتابِ ولكن يَجِبُ أن نؤكِّد على النقاطِ التاليةِ:

١- استطـاعَ ابنُ منظـورٍ أن يقدِّمَ في كتابـهِ «لسانِ العـربِ» كتاباً سهـلَ التناولِ واضـحَ المعالمِ وذلِكَ راجعٌ إلى طريقةِ تقسيمِ الكتاب إلى أبوابٍ وفصولٍ.

٢- أخذ بمبدأ ترتيب الكلمات حسب الأبجدية المستعملة حالياً أي: الألف فالباء فالتـاء.. وذلـك بإرجاع الكلمـةِ إلى الفعل الثلاثـي جاعـلاً (لامَ) الفعـل أي الحرفَ الأخـيرَ من الفعـل الثلاثي هـو المرجعُ في ترتيبِ الكلماتِ.

٣- جمعَ في كتـابٍ واحدٍ مـا ضمتْهُ خمسة كتبٍ من أمهاتِ المعاجمِ العربيةِ.

٤- قدَّمَ عرضاً شاملاً كافياً وافياً لكلِّ مفردةٍ منْ مفرداتِ اللغةِ.

٥- يُعتَـبَر الكتـابُ من أكـثر المعاجمِ العربيةِ شرحاً لأيِّ مفردةٍ من المفرداتِ.

٦- في كثـيرٍ منَ الأحيانِ ينسبُ تفسيرَ أيِّ كلمةٍ إلى المصدرِ الذي أخذَ عنهُ وفي هذا أمانةٌ علميةٌ وإخلاءٌ للمسؤوليةِ.

٧- استشهـدَ بكثيرٍ من آيـاتِ القرآنِ الكريمِ والأحاديثِ الشريفةِ والشعراءِ العربِ الأوائلِ، مما أعطـى تفسيرَهُ للمفرداتِ قوةً أكبر.

٨- يعتبرُ «اللسانُ» كتاباً غزيرَ الفائدةِ

إذا ما قُورِنَ بالمعاجمِ العربيةِ التي سبقتْهُ وبعضِ التي تلتْهُ.

ولا بدَّ لنا أن نقفَ عند الأسبابِ التي دعَتْ ابنَ منظورٍ لتأليفِ كتابهِ «اللسانِ». إنه يذكرُ لذَلكَ سببَيْنِ هاميْنِ، أولاهُما ما وجدَهُ من «أخطاءٍ» في بعضِ المراجعِ التي درسَها ثم أخذَ عنْها، فأرادَ أن يؤلِّفَ كتاباً بعيداً عن الخطأ والتصحيفِ. وفي اعتقادي أن ابنَ منظورٍ الذي اختصرَ كتباً كثيرةً أرادَ أنْ يختصرَ الكتبَ التي اعتمدَ عليها في وضعِ «اللسانِ» فوجدَهَا عصيةً على الاختصارِ، فعمدَ إلى جَمْعِها في كتابٍ واحدٍ يضمُّ أفضلَ ما فيها وأبعدَ ما تكون عن الأخطاءِ التي تضمَنَتْها حسبَ رأيِهِ.

والسببُ الآخرُ الذي يسوقُهُ ابنُ منظورٍ لتأليفِ كتابِهِ هو «ما شاهدَهُ في عصرِهِ من اختلافِ الألسنةِ والألوانِ، حيثُ صارَ النطقُ بالعربيَّةِ مِنَ المعايبِ معدوداً.. وتفاصحُوا في غيرِ اللغةِ العربيةِ» ثمَّ يمضي ليقولَ «فجمَعْتُ هذا الكتابَ في زمنٍ أهلُهُ بغيرِ لُغتِهِ يفتخرون».

ترى لو بُعِثَ ابنُ منظورٍ حياً في هذهِ الأيامِ وسمعَ اللغةَ التي تتكلمُ بها أمةُ العربِ، ماذا عساهُ كانَ فاعلاً؟؟ لا أعتقدُ أنه سيؤلفُ كتابَهُ الذي ألَّفَ وإنَّما سيموتُ غمّاً وهماً وكمداً مما سيسمعُ من رطنَ بالفرنسيةِ أو الانكليزيةِ أو العاميةِ الممزوجة بالتركيةِ أو البربريةِ وغيرِها.

وعلى كلِّ حالٍ.. فمن حظِّ ابن منظورٍ أنَّهُ عاشَ في زمانٍ غيرِ زمانِنا وسمعَ لغةً عربيةً غيرَ التي نتكلمُ بها الآنَ، وعمَّرَ حتى جاوزَ الثمانينَ، وكانَ في حياتِهِ كلِّها قارئاً وكاتباً. ولكنهُ قبلَ أن يخرُجَ منَ الدنيا خرَجَ عنْهُ بصرُهُ فعاشَ بقيةَ عُمْرِهِ لا يقرأُ ولا يكتبُ ولكن يَسْمَعُ ويُسْمَعُ عَنْهُ. ولا ندري كَمْ كانَ هذا العمرُ الذي عاشَهُ ضريراً ولكنّا نخالُهُ غير قليلٍ، فلقد عدهُ الصفديُّ مع العميانِ بعد أن ترجَمَ لهُ معَ الأعيانِ.

تراجم بعض الأعلام الوارد ذكرهم في البحث:

١- **الأزهري (٢٨٢ - ٣٧٠ هـ): هو أبو منصور محمد بن أحمد الهروي الأزهري الشافعي (نسبة إلى جده الأزهر). يعتبر أحد أئمة اللغة والأدب وعمدة الفقهاء في تفسير ما يصعب عليهم من الألفاظ اللغوية. ترك ثمانية عشر كتاباً في اللغة والغريب والقراءات منها كتاب «علل القراءات»**

«وتفسير شعر أبي تمام» وأشهر كتبه «تهذيب اللغة».

٢- ابــن سِيــدَه (٣٩٨-٤٥٨هـ): هو علي بــن اسماعيل الأندلسي. إمام في اللغــة العربية وآدابها. ولد في مرسية في شرق الأندلس ثم انتقل إلى دانية حيث توفي فيها. له مؤلفات هامة في اللغة ومفرداتها منها: «المخصص» وهو من أثمن كنوز العربية و«المحكم» و«المحيط الأعظم» و«الأنيق».

٣- العسقلاني: ابن حجر (٧٧٣-٨٥٢هـ): هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني المعروف بابن حجــر، أصلــه من عسقلان بفلسطــين ومولده ووفاته بالقاهــرة. من أئمة العلــم والتاريخ والأدب والشعــر عارفــاً بأيام المتقدمين وأخبــار المتأخرين. ولّي قضاء مصر عدة مــرات. من أهم مؤلفاته: «الــدرر الكامنــة في أعيــان المئــة الثامنة» و«المجمــع المؤسس بالمعجــم المفهرس» و«نزهــة الألباب في الألقاب».. وغيرها كثير.

٤- ابــن المقــير (٥٤٥هـ- ٦٤٣هـ): هو أبو الحسن علي بن أبــي عبيد الله الحسين بن علي بن منصور بن مقــير البغــدادي، نزيــل مصر. حدّث في بغــداد ودمشق وفي الحرم، روى عنــه أئمة وحفاظ كثيرون وكان كثير التلاوة.

٥- مرتضــى بــن حاتم (..-٦٣٤هــ): المعروف بابن العفيــف، فاضل مصري كتــب الكثير بخطه وجمع مجاميع. أصله من القدس، سكنه ووفاته بالقاهرة.

٦- ابن البيطار (٥٩٣-٦٤٦هـ): هو عبد الله بن أحمد المالقي ضياء الدين ابن البيطار. ولد في مالقة في الأندلس، ورحــل إلى بلاد الإغريق والــروم، واستقر في مصر وتوفي في دمشق. يعتبر ابن البيطار إمــام النباتيــين والعشابين، له من الكتب «المغني في الأدوية المفردة» و«ميزان الطبيب» ولكن أهمها وأشهرها «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية».

٧- الصفــدي صــلاح الديــن (٦٩٦-٧٦٤هــ): هو خليل بن أيبــك بن عبد الله الصفــدي. ولد في صفد بفلسطــين ثــم سافــر إلى مصر وحلب وتــولى وكالة بيت المال بدمشق. مــؤرخ وأديب، له زهاء مئتي مصنــف من أشهرها «الوافي بالوفيات» و«في التراجم» و«نكــت الهميان» و«ألحان السواجع» و«أعيان العصر»..وغيرها.

٨- السيوطــي (٨٤٩ – ٩١١ هـ):هــو أبــو الفضــل عبــد الرحمن بن أبــي بكر بن محمــد ، جلال الدين السيوطــي. ولــد بالقاهــرة ، واشتغل بطلب العلــم في وقت مبكر. وقيــل إن مصنفاته بلغت ستمئة مصنــف في علــوم متعددة كالتفسير والحديث والفقه والنحــو والبلاغة والتاريخ والأدب والأصول والتصــوف والمصطلــح وغيرها من العلوم، مــن أشهرها «الدُر المنثور في التفسير بالمأثور» و«الأشباه

والنظائر».. وغيرها.

٩- تاج الدين السبكي (١٣٢٧هـ-١٣٧٠هـ): فقيه شافعي ومؤرخ، ولد في سبك بقضاء المنوفية في مصر. رحل إلى دمشق ودرس على علمائها. له كثير من الكتب أشهرها «طبقات الشافعية الكبرى والوسطى والصغرى» و«الإبهاج في شرح المنهاج» و«جمع الجوامع».. توفي في دمشق.

١٠-الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ): هو محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي من أهالي ميافارقين. مولده ووفاته في دمشق. مؤرخ وعلامة محقق، مؤلفاته تقارب المئة منها «دول الإسلام» و«المشتبه في الأسماء والأنساب والكُنى والألقاب» و«تاريخ الإسلام الكبير» و«الإعلام بوفيات الأعلام» و«الطب النبوي».. وغيرها. كما اختصر كثيراً من الكتب.

١١-ابن تغري بردي (٨١٣-٨٧٤هـ): هو يوسف بن تغري بردي من أهل القاهرة مولداً ووفاة. مؤرخ وبحاثة، صنف كتباً نفيسة منها: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» و«نزهة الرائي» في التاريخ و«البحر والزاخر في علم الأوائل والأواخر».. وغيرها.

١٢-خير الدين الزركلي (١٣٠٩هـ-١٣٩٦هـ): هو خير الدين محمود بن محمد علي بن فارس الزركلي الدمشقي، والسعودي الجنسية والمصري الوفاة. أخذ العلم عن أئمة دمشق وبيروت، ألف كتاب «الأعلام» الذي يعتبر في طليعة موسوعات التراجم.

١٣-التيفاشي (٥٨٠هـ-٦٥١هـ): هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي، ولد في تيفاش في تونس وتوفي في القاهرة، وهو أديب وشاعر وعالم معادن.

١٤-الجوهري (.. - ٣٩٣هـ): هو اسماعيل بن حماد الجوهري من أئمة اللغويين. من أشهر كتبه «الصحاح» وله كتاب في «العروض» ومقدمة في «النحو». أصله من فاراب، سافر إلى الحجاز وخراسان وأقام في نيسابور. أول من حاول الطيران ومات في سبيل ذلك.

١٥-ابن بري (٤٩٩هـ-٥٨٢هـ): هو عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي ثم المصري، نحوي عصره. من مؤلفاته: «جواب المسائل العشر» و«حواشي على الصحاح» و«غلط الضعفاء من الفقهاء» و«شرح شواهد الإيضاح» و«حواشي على درة الغواص للحريري»..

١٦-المقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ): هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أصله من بعلبك في لبنان، عاش ومات في القاهرة.

يعتبر المقريزي مؤرخ الديار المصرية حيث ولي في مصر الحسبة والخطابة والإمامة.

يقال إن تصانيفه زادت على مئتين، من أشهرها «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف

بخطط المقريزي وله «السلوك في معرفة دول الملوك» و«تاريخ الحبش» و«الخبر عن البشر» و«درر العقود الفريدة».. وغيرها كثير.

١٧-أبو الفرج الأصبهاني «الأصفهاني» (٢٨٤ - ٣٥٦هـ): هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأموي القرشي. من أئمة الأدب والأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. ولد في أصبهان ونشأ وتوفي في بغداد.

أشهر كتبه «الأغاني» و«مقاتل الطالبيين» و«الإماء الشواعر» و«أيام العرب» و«جمهرة النسب»..

١٨-الحصري (.. ٤٥٣هـ): هو إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري أبو اسحق الحصري من أهل القيروان. أديب وناقد، له من الكتب «زهر الآداب وثمر الألباب» و«المصون في سر الهوى المكنون» و«جمع الجواهر في الملح والنوادر».. وله شعر.

١٩-الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩هـ): هو عبد الملك بن محمد بن منصور الثعالبي، من أئمة اللغة والأدب من أهل نيسابور. من كتبه«يتيمة الدهر» و«فقه اللغة» و«سحر البلاغة» و«طبقات الملوك» و«الإعجاز والإيجاز» و«سر الأدب» و«المتشابه»..

٢٠-القاضي التنوخي (٣٢٧ - ٣٨٤ هـ): هو المحسِّن بن علي بن محمد داوود التنوخي البصري، أبو علي. ولد ونشأ في البصرة ثم في بغداد وتوفي فيها. قاضي وعالم وأديب وشاعر من كتبه: «جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة»، و«الفرج بعد الشدة» و«ديوان شعر»..

٢١-ابن عساكر (٤٩٩هـ-٥٧١هـ): هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ثقة الدين بن عساكر الدمشقي المؤرخ الحافظ الرحالة، له تاريخ دمشق الكبير المعروف بتاريخ ابن عساكر وكتب أخرى منها «الإشراف على معرفة الأطراف» و«تبين كذب المفتري في ما نسب إلى أبي الحسن الأشعري». ولد وتوفي في دمشق، ودفن في مقبرة باب الصغير.

٢٢-السمعاني (٥٠٦ - ٥٦٢ هـ): هو عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد السمعاني المروزي الفقيه الشافعي المحدث سافر إلى العراق والجزيرة والشام وأخذ عن علمائها. من مؤلفاته الأنساب وتاريخ مرو وطراز الذهب في أدب الطلب، والأمالي.. توفي في مرو.

٢٣-ابن الجوزي (٥٠٨هـ-٥٩٧هـ): هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي يعود نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق، فقيه حنبلي ومحدث ومؤرخ ومتكلم. له نحو ثلاثمئة مؤلف في العلوم والفنون والتفسير والحديث والتاريخ واللغة والطب. توفي في بغداد.

٢٤-ابن بسام (٤٥٠-٥٤٢ هـ): هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني من أهل شنترين في البرتغال حالياً

انتقل إلى قرطبة بعد سقوط مدينته في أيدي الفرنجة. صنف كتابه «الذخيرة في معرفة أهل الجزيرة» الذي يعتبر من أهم المراجع الأدبية والحضارية لبلاد الأندلس.

٢٥-الجاحظ (١٥٩هـ-٢٥٥هـ): أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني أديب عربي من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. من كتبه: كتاب الحيوان، البخلاء، الأضداد والمتشابهات، البيان والتبين.

٢٦-ابن الأثير الجزري (٥٥٥هـ-٦٣٠هـ): هو عز الدين أبو الحسن علي الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري. مؤرخ عربي إسلامي كبير، عاصر صلاح الدين الأيوبي. كتب الكامل في التاريخ، وكتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية وأسد الغابة في معرفة الصحابة واللباب في تهذيب الأنساب.

٢٧-الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠هـ-١٧٣هـ): هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري وهو عربي من عُمان. وهو مؤسس علم العروض ومعلم سيبويه وواضع أول معجم في اللغة العربية وهو العين، وله من الكتب كتاب العروض وكتاب الشواهد وكتاب الإيقاع.

٢٨-ابن دريد (٢٣٣هـ-٣٢١هـ): هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري، عالم وشاعر وأديب، كان يقال عنه «ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء». من مؤلفاته: الأماني، الجمهرة في اللغة، أدب الكاتب، الأشربة، المقصور والممدود، تقويم اللسان..

٢٩-أحمد بن فارس (٣٢٩-٣٩٥هـ): ابن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين أصله من قزوين، رحل إلى همذان ثم إلى الري وتوفي فيها. من أئمة اللغة والأدب ومن أعيان البيان. من كتبه: «مقاييس اللغة» و«الفصيح» و«تمام الفصيح» و«متخير الألفاظ» و«فقه اللغة» و«الصاحبي» في علم اللغة العربية ألفه للصاحب بن عباد..

٣٠-البيروني (٣٦٢-٤٤٠هـ): محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، فيلسوف ورياضي ومؤرخ، اطلع على فلسفة اليونان والهنود وصنف كتباً كثيرة منها «الآثار الباقية عن القرون الخالية» و«الاستيعاب في معرفة الاصطرلاب» و«الجماهر في معرفة الجواهر» و«تاريخ الهند»..

٣١-الحرالي (.. ٦٣٨هـ): هو علي بن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي من علماء المغرب، أصله من حرالة من أعمال مرسيه. ولد ونشأ في مراكش وتوفي في حماه. من كتبه مفتاح المقفل لفهم القرآن المنّزل ، وتفهيم معاني الحروف وغيرها.

٣٢-ابن عربي (العربي ٥٦٠-٦٢٨هـ): هو محمد بن علي بن محمد العربي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر، فيلسوف ومن أئمة المتفكرين في كل علم. ولد في

مرسيــه في بــلاد الأندلس ثم انتقل إلى اشبيلية، ثــم رحل إلى بلاد الروم والعراق والحجاز واستقر أخــيراً في دمشــق وتوفي فيها. يعتبر قدوة القائلين بوحدة الوجود. مــن أهم تصانيفه: «الفتوحات المكية» و«خصوص الحكم» و«إنشاء الدوائر» و«منهاج التراجم».. وغيرها.

٣٣-الأصمعــي (١٢٢-٢١٦هــ): هو عبد الملك بن قُرَيْب بن علي بــن أصمع الباهلي المعروف بأبي سعيد الأصمعــي راويــة العرب وأحد أئمــة العلم باللغة والشعر والبلدان. مولــده ووفاته في البصرة. من تصانيفه: «الأضداد» و«المترادف» و«النبات والشجر».. وغيرها.

الهوامش

(❖) الوشيعة: كبة الغزل. والوشيع: عَلَم الثوب وسقف البيت وعريش يبنى للرئيس في المعسكر يشرف منه على عسكره. لسان العرب، مجلد ٨ ، ص٣٩٤ – ٣٩٥.دار صادر – بيروت.

(❖❖) التاريخ الهجري إذا كان مفرداً فهو يشير إلى تاريخ الوفاة.

(❖❖❖) النشــوار: مــا تبقيه الدابة من العلف. فارسي معرّب. لسان العرب. المجلد الخامس ص ٢١٠. دار صادر – بيروت.

(❖❖❖❖) المكافئات العددية للأبجدية العربية: أ=١، ب=٢، ج=٣، د=٤، هـ=٥، و=٦، ز=٧، ح=، ط=٩، ي=١٠، ك=٢٠، ل=٣٠، م=٤٠، ن=٥٠، س=٦٠، ع=٧٠، ف=٨٠، ص=٩٠، ق=١٠٠، ر=٢٠٠، ش=٣٠٠، ت=٤٠٠، ث=٥٠٠، خ=٦٠٠، ذ=٧٠٠، ض=٨٠٠، ظ=٩٠٠، غ=١٠٠٠

المراجع :

١- ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين بن أحمد بن محمد: وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر – بيروت.

٢- ابــن منظــور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر بيروت – دار الفكر دمشق – ١٥ مجلد.

٣- البغدادي، اسماعيل باشا: هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي- بيروت - لبنان.

٤- حاجــي خليفــة: كشــف الظنــون عن أسامي الكتــب والفنــون، دار إحياء التراث العربــي – بيروت - لبنان.

٥- الزركلي، خير الدين: الأعلام ، بيروت – لبنان ط٣- ١٩٦٩.

٦- الفاخوري، حنا: تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية – بيروت – لبنان – ط٨.

٧- فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي – دار العلم للملايين – بيروت - لبنان ١٩٦٩.

٨- النديم، أبو الفرج محمد بن يعقوب: كتاب الفهرست، تحقيق رضا تجدد.

الدراسات والبحوث

التناص القصصي في قصص زكريا تامر
استدعاء الشخصيات التاريخية والتراثية

مفيد نجم ❋

تنوعت أشكال التعبير الفني والسردي، في تجربة القاص زكريا تامر، وتنوعت معها طبيعة المنظور السردي، الذي يجري من خلاله تقديم الشخصيات والأحداث، والمواقف المختلفة لشخصيات القصة. وقد عبرّ هذا التنوع عن حيوية التجربة وهواجسها الإبداعية، في البحث والتجريب والتجديد، بهدف تأصيل وتطوير أشكال السرد الحكائي، وتعميق علاقته مع المرجعيات الثقافية والسردية، في التراث العربي، وتوظيفها للتعبير عن

❋ أديب وناقد سوري

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.

قضايا الواقع والحياة والإنسان، عبر إضفاء صفة المعاصرة عليها،

مما أعطى لتلك التجربة خصوصية البحث والتجريب، خارج حدود الوعي الجمالي والفكري السائد، وكشف عن ثراء التجربة، وتعدد أنماط التعبير الاستعاري والمجازي والرمزي، التي تقدمها للتعبير عن قضايا الواقع المفارق، وهزائمه ومظاهر العنف والتردي والضياع فيه.

لقد عبرت هذه التجربة، عن شواغلها الفنية والتعبيرية، لخلق فضاء سردي يلتقي فيه المؤلف والقارئ معاً، ويشكل جزءاً من الذاكرة الثقافية المشتركة والوعي الجمعي، مما يساهم في فهم دلالاتها، وبالتالي تحقيق التفاعل بين التجربة والمتلقي. وقد تجلى ذلك في التناص مع المرجعيات التاريخية والتراثية عبر استدعاء الشخصيات التاريخية والتراثية، التي تستدعي معها الفضاء الوجداني والتخييلي الخاص بها في الوجدان الجمعي. إن أهمية هذا التناص الذي ظهر مبكراً في تجربة القاص، لم يكن مرتبطاً بالوظيفة الدلالية التي يؤديها في السرد الحكائي، والتي استدعتها ضرورات التعبير، عن حالة الضعف والهزيمة والقمع المستشرية، في الواقع المفارق وحسب، بل ارتبط بالجانب الجمالي، وتقنيات توظيفه في بنية القصة، الأمر الذي يجعل علاقة التآلف، التي تجمع بين صفات تلك الشخصيات القديمة، والصفات المعاصرة التي يتم إضفاؤها عليها، هو السمة المميزة لتلك الشخصيات المستدعاة، وهذا يجعلها (لا تحمل دلالة ثابتة، تعدُّ مرادفاً لها في الوعي الجمعي، حيث يمكن أن تصبح شفرة حرة متفاعلة، قابلة لتعدد الدلالة عند توظيفها فنياً[1] ص٨.

إن الاستدعاء المكثف لتلك الشخصيات في السرد الحكائي، يرتبط بالموضوعات، والقضايا التي تحاول تجربة القص أن تعبر عنها، وقد عبر هذا الاستدعاء عن غنى التجربة، من خلال تعدد صيغ استدعاء تلك الشخصيات وآلياته، إذ شكلت تلك الشخصيات بؤرة السرد القصصي ومحوره، واستدعى وجودها وجودَ شخصيات أخرى تشكل محوراً مساعداً، على أن تكون العلاقة، بين الشخصية المحورية، والشخصيات الأخرى قائمة، إما على التوافق أو التخالف. ومن المعروف أن هذه الشخصيات التاريخية والتراثية، تندرج في إطار الشخصيات المرجعية الخارجية، التي (تعمل على تثبيت المرجعي بإحالتها على النص الكبير، الذي



تمثلــه الأيديولوجيــا، و ا لمستنسخــا ت والثقافة).(٢) ص٢١٧.

وإذا كان استدعاء هــذه الشخصيات يمتلك قيمته الدلالية والجمالية والفنية، مــن خــلال تفاعله واندماجه الكلي مع بنية السرد القصصي، فإن قراءته تستدعي تناوله في جماع وحدته، وفي دلالــة معناه في إطار التجربة كوحدة متكاملة، تقوم على التفاعل بين مستوياتها المختلفة. ومــن المهم قبل دراسة آليات ومستويات هذا الاستدعاء، أن نشير إلى أن هذا التناص مع تلك المرجعيات، لم يكن يعبر عن تمجيد للماضي، بقدر ما يهدف للتعبير عن التحول المفارق، الذي أصبح الواقع الراهن يكشف عنها، بصورة صارخة ومريعة، سواء على المستوى السياسي، أو الاجتماعي أو منظومة القيم السائدة في الواقع. ولما كانت وظيفة استدعاء تلك الشخصيات في أعمال تامر قد ارتبط بشكل خاص، بالقمع الذي تمارسه السلطة على الناس، لفرض سطوتها ورعبها عليهم، وبتخليها عن دورها في الدفاع عن مصالح الوطن العامة حفاظاً على مصالحها الخاصة، فإن ذلك قد كشف عن الهاجس الأساس، الذي يفرض نفسه لفضح حالة العجز والضعف التي يجري

التعويض عليها من خلال العنف الشديد، الذي تمارسه على تلك الشخصيات التي يتم استدعاءها، نظراً لكون ظهورها يفضح الواقع المتردي، من خلال المعاني الرمزية التي تمثلها في الوعي الجمعي.

من هنا فإن وجود هذه الشخصيات المحوري في القصص، استدعى على المستوى التعبيري وجود الشخصيات الأخرى التي تمثل رموز القمع وأدواته في الواقع، حيث تكون العلاقة بين الشخصية التاريخية المحورية، وتلك الشخصيات علاقة تعارض وصراع، تنبع من التعارض القائم بين الدلالة الرمزية للشخصية التاريخية أو التراثية في الوعي الثقافي الجمعي، ورمزية الدور الذي تمثله أدوات القمع في المجتمع، والتي تتحدد دوماً في شخصيات رجال الشرطة والأمن.

وفي ضوء هذا البعد الدرامي الناشئ من هذه العلاقة والذي يشكل العنصر المهيمن في تجربة السرد، تظهر الحوافز الدينامية، التي تنتقل بالحكاية من مستوى الدلالة القارة، إلى مستوى آخر مختلف، يرتبط بالتحول الذي يطرأ على مواقف تلك الشخصيات بفعل العنف الشديد، الذي يمارس ضدّها من قبل أدوات السلطة القمعية، لسلبها المعنى الرمزي الذي تمثله من خلال هزيمتها واستسلامها، وسحقها.

يقابل هذه الشخصيات المتحولة ثبات في الصفات التي تتميز بها، والأدوار التي تقوم بها الشخصيات المحورية المساعدة في السرد الحكائي، إذ تحمل ملامح شخصية خارجية واحدة توحي بحقيقتها، وتدل على وظيفتها التي تقوم بها كالجهامة والقسوة، والشوارب السوداء الكثة، بحيث يشي مظهرها الشخصي الخارجي بحقيقتها من الداخل. وتظهر هذه العلاقة بين الشخصيات التاريخية، والشخصيات المعاصرة في القصة العلاقة بين الماضي والحاضر، وما يمثله الحاضر ممثلاً بسلطة الاستبداد من عنف يسعى لاغتيال قيم الماضي الوطنية التي تفضح ضعفها وعجزها، وتهدد وجودها ومصالحها التي تفرضها على المجتمع بالقوة.

تنوعت الشخصيات التاريخية والتراثية التي يجري استدعاءها في قصص الكاتب، وتتنوع معها آليات هذا الاستدعاء، وتمثل مجموعته (ربيع في الرماد ١٩٦٣)، أول عمل يظهر فيه تناص التجربة مع التاريخ والتراث عبر استخدام مفهوم الاستدعاء والتحويل الذي يعد أعمق أشكال التناص. ويعكس هذا الاستدعاء في القصص الأولى

للشخصيـــات التاريخيـــة التي تحمل معاني رمزية كبيرة على المستوى الوطني في الوعي الجمعـــي والثقافة عن الخلفيـــة السياسية التي تجعـــل اختيارات القاص تتركز على هـــذه الشخصيات التي يشـــكل ظهورها في العـــالم القصصـــي علامة نافـــرة ومفارقة وغريبة تقابل بالسخرية، والجهل بحقيقتها وبالاعتقـــال والعنـــف الشديـــد مـــن أجل إخضاعها، وتدجينها بحجة أنها تعرض أمن الوطن للخطر.

تنتمـــي الشخصيـــات المستدعـــاة إلى أزمنة تاريخيـــة مختلفة، وإن كان أغلب تلك الشخصيات في الأعمـــال الأولى تنتمي إلى العصـــر الحديث، لأنها الأكـــثر حضوراً في وعـــي المتلقـــي، وتمثل قيمـــة رمزية وطنية هامة، يساهم استدعاءها في تحقيق تفاعل أكـــبر مـــن المتلقي يزيـــد من قوتـــه محاولة تحطيم تلـــك المعاني الرمزيـــة الكبيرة التي تمثلها من خلال العنف الشديد الذي تتعرض له. وتتمثـــل تلك الشخصيـــات في (يوسف العظمة- عمر المختار- سليمان الحلبي). و قد لعبت جميعها أدواراً بطولية في مقاومة المستعمر والدفاع عن شرف الوطن وسيادته، وهـــي تنتمي إلى العصـــر الحديث، في حين تنوعت تلك الشخصيـــات وتعددت الأزمنة التي تنتمي إليها في الأعمال التالية. ويمكن أن نوزع تلك الشخصيـــات على شخصيات الحكام والملوك العربيـــة والإسلامية أمثال (هـــارون الرشيـــد- كافـــور الأخشيـــدي- هولاكـــو- تيمورلنك- جنكيـــز خان- جعفر البرمكي) وهي تنتمـــي إلى عصور تاريخية مختلفـــة. وهنـــاك الشخصيـــات التي تمثل سلطة الاستعمار (الجنرال كليبر- نابليون)، وشخصيات أدبية (ابن المقفع- عمر الخيام- عنترة العبسي- الشنفـــرى- أبو نواس- أبو حيـــان التوحيـــدي)، وشخصيـــات حكائية (شهـــرزاد وشهريـــار – جحـــا- السندباد)، أما الشخصيات الدينيـــة فتمثلت فقط في شخصيـــة (نوح) والشخصيـــات العلمية في (عباســـ بن فرناســـ) الذي يعتـــبر أول من حاول الطيران، ومـــن شخصيات الفتوحات الإسلامية كانت شخصية (طارق بن زياد).

لقـــد أراد تامر من خـــلال التناص مع التاريخ أن يكشف عن حالة الهزيمة والضعف التي يمثلها الواقع، بعـــد أن تخلت السلطة عن دورها الوطني، وانشغلت بالحفاظ على وجودهـــا، فكان لابد أن تعمـــل على التنكر للماضي ورموزه الوطنية، والعمل على محو قيمته الرمزية والمعنوية من خلال سلب تلك الشخصيات معاني البطولة والتحدي، التي

تمثلها وسحقها وإخضاعها لمشيئتها بالعنف والقــوة، بهدف إحداث قطيعــة مع الثقافة والذاكــرة الوطنيتين في الوقت الذي يحاول فيــه أن يدلل على حالة القمع المستشرية في الواقــع والتي تطال الجميــع حتى الأموات في قبورهم. إن هذه الشخصيات التاريخية الوطنية التي تستدعيها قصص تامر تعمل علــى تثبيــت المرجعي من خــلال الحفاظ على صفاتهــا القديمــة، أو المرجعية، وهو ما تحاول الشخصيــات المستدعاة أن تؤكد عليه عند التعريف بنفسها، في حين تقابلها الشخصيات المعاصرة ممثلــة برموز القمع بالسخرية، أو الجهــل بحقيقتها ودلالاتها. ويكشــف تناصــ التآلف الــذي يجمع بين الصفات التاريخيــة القديمة للشخصيات، وصفات الواقع المعاصر، الذي يحاول القاص التعبــير عنه، عــن العلاقــة الاتصالية بين الماضي والحاضر، من جهة، ومن جهة أخرى عن هواجس التجربة وطبيعة الرؤية الفكرية التي يتم تقديم تلك الشخصيات التاريخية المحددة من خلالها، وتحديد علاقة الصراع التي تسم تلك العلاقة.

تنوعت آليــات استدعــاء الشخصيات التاريخيــة، وإن كانــت قــد هيمنــت على قصص أعماله الأولى آلية الاستدعاء باسم العلم، سواء كان بالاسم الصريح والكامل أو بالصفة، على أن اسم الشخصية التاريخية المستدعاة في هذه القصص يكون في الغالب ظاهراً في عنــوان القصة كما نلاحظ ذلك في مجموعة (ربيع في الرماد ١٩٦٣) [٣] التي ظهر فيها التناصــ الظاهر في قصتين من قصص المجموعة همــا (الجريمة وجنكيز خان). وكما هو واضح من العنوانين فإن اسم الشخصية المستدعاة في القصة الأولى، وهو سليمــان الحلبي الذي قــام بطعن الجنرال الانجليزي كليبر عندمــا كان ممثلاً لسلطة الانتداب في مصر، لا يظهر في عنوان القصة في حين يظهر اسم الشخصية التاريخية في القصــة الثانية. كذلك يظهــر التباين بين الشخصيتين على مستوى العصر التاريخي، الــذي تمثله كل منهمــا، إذ تنتمي شخصية الحلبــي إلى العصــر الحديــث، وشخصية جنكيز خــان إلى العصر القــديم. أما على المستوى الرمزي والدلالي فإن الشخصيتين تحمــلان دلالتــين متناقضتــين في الوعي الجمعــي، فالشخصية الأولى ترمز للبطولة ومقاومة المحتل، والثانيــة ترمز لواحد من رموز الهمجية والقتل والتدمير التي عرفها التاريخ. لكن استدعــاء هاتين الشخصيتين باسم العلم في القصة لا يعتمد على مدلول

الاســم المجــرد فقط (ولكن علــى وظيفته داخل السيــاق، أو بالأحرى علــى التفاعل الثنائــي بينهما وانعكاس هــذا التفاعل في ذهن المتلقي)[٤] ص٥٠.

يستخــدم القاص في هاتــين القصتين المزاوجــة بــين الشخصيــات التاريخيــة القديمــة، والشخصيــات الحديثة، للدلالة على التواصــل والاستمرارية بــين الماضي والحاضر. وتفصح هذه العلاقة في مدلولاتها عن الصراع والعنف، الذي طال كل شيء في الحيــاة، كما في القصة الأولى التي يفتتحها القاصــ بوصف شخصيــة البطل (سليمان الحلبي) وحركتها في المكان الذي يولّد عنده شعوراً بالفرح والسعادة، يقطعه ظهور رجال الشرطــة. ويظهــر البعــد الأيديولوجي في رسم الشخصيات من خلال صفات الثبات، التي تميز رجال الشرطــة والأمن التي هي شخصيــات معاصرة، في جميع حكاياته، في حين أن التحول والتبدل، يطال الشخصيات التاريخية. وفي هذه القصة كما في القصص الأخــرى، يستدعي وجــود شخصية البطل وجود شخصيات فرعيــة، يكتفي بتسميتها بأسماء المهنة التي توحي بدورها، أو يمنحها اسماً رمزياً (الرجل الأسود) يدل على طبيعة وظيفتها مــن خلال رمزية اللــون الأسود. وقد يسميها بصفتها التــي تشير إلى فعلها الإجرامي (الرجل الجــلاد) كما هو الحال في القصة السابقة.

ويــبرز التناص التاريخــي والثقافي، في مجموعة (الرعــد ١٩٧٠) [٥] بشكل أكبر، إذ يجري استدعــاء تلك الشخصيات المحورية في أربــع قصص، لا يحمــل عنوان أي منها ذكراً لاسم الشخصيــة المستدعاة، باستثناء قصة واحدة، حملت ذكر الواقعة التاريخية التي ارتبطت بالشخصيــة، وأصبحت تدل عليها، وهي (الــذي أحرق السفن)[٦]. ومن المعروف أن هــذه الحادثة، ارتبطت بالفاتح العربي طارق بن زياد بعد نزول جيشه على أرض الأندلس، في حين أن العناوين الأخرى التــي تألفت من كلمة واحدة فقط (اللحى- المتهم- النسيــان) حملت معنى دلالياً يحيل على موضوع الحكايــة، أو صفة للشخصية التاريخية من منظور السلطة، وليس الراوي في الحكاية. في القصة الأولى يلعب التقديم الســردي القائم على وصــف صورة المكان، والتبدل المفاجئ الــذي يطرأ على الطبيعة عنــد ظهور رجال الشرطــة وتجمعهم حول رجل، يمشي على الرصيف سيفاً هرماً، دوراً في خلــق أفق التوقع والتمهيــد للحدث، إذ تتحول إلى عنصر مشارك في الحدث، يزيد

من تأثير الدلالة في المتلقي، لكننا لا نتعرف على اسم الشخصيــة إلا من خلال الحوار الذي يدور بينه وبين رجال الشرطة، عندما يصرِّح باسمه الكامل (طارق بن زياد).

القصة الثانية (المتهم)(٧) يستدعي فيها القاصــ شخصيــة الشاعر(عمــر الخيام) بالاســم، ومنذ جملة الاستهلال نتعرف إليه من خــلال الشرطي، الذي يدخــل المقبرة، ويبدأ بالنداء عليه أما الشخصيات الفرعية الأخرى، التي يرتبط وجودها بتنامي أحداث القصة الدرامــي، فتبقى بلا أسماء، ويشار إليها بصفتها، أو مــن خلال عملها. ويعود تامر في قصة (اللحــى)(٨) إلى استراتيجية الكتابــة في القصــة الأولى، فيوظف عنصر الطبيعة، في العتبــة السردية لخلق الإيحاء المطلــوب، الذي يؤثر في أفق التوقع، وهو لا يصرح باسم الشخصية التاريخية المستدعاة (جنكيــز خــان)، إلا في وســط القصــة. وعلى غــرار القصصــ السابقة، لاتحضر الشخصيــات الأخرى باســم العلم. ويظهر التجريد واضحاً في قصة (النسيان)(٩) عندما يستدعــي شخصيتي القصة بألقابها (الملك والملكة) دون استخدام الاسم، واللقب لا يشير إلى شخصية بعينها وإنما يدل على السلطة. وهــذه الطريقــة في تقــديم الشخصيــات الحكائية، تتصل بالســرد الشفاهي العربي القديم، الذي كان يبتعد عن استخدام أسماء العلم عند ذكر شخصيات الحكاية.

ويتراجــع استخــدام آليــة الاستدعــاء باســم العلم، في مجموعــة (دمشق الحرائق ١٩٧٣)(١٠) قياساً مع عدد قصص المجموعة، إذ لا يظهــر إلا في ثــلاث قصصــ، اثنتان يستدعــي فيهما شخصيتــين وطنيتين من العصــر الحديث (عمر المختــار) الذي قاد المقاومــة الوطنيــة الليبية ضــد الاستعمار الإيطالي في بلاده، و(يوسف العظمة) الذي رفضــ الاستسلام وخــرج بقواته المحدودة لملاقاة القوات الفرنسية الغازية، واستشهد في المعركة. والقصــة الثالثة يستدعي فيها شخصيــة أدبيــة، من العصــر القديم، هي الشاعر (الشنفرى) أحد الشعراء الصعاليك المعروفــين. وإذا كان القاصــ يصرِّح باسم الشخصيــة الأولى منذ جملــة الاستهلال، التــي تصفه وهو يتدلى من حبــل المشنقة، فإن القصة الثانية تلجأ في التقديم السردي إلى تحديد المكان والزمان، وتحويل الطبيعة إلى عنصــر مشارك في الحــدث من خلال اللغة الاستعاريــة. ولا يظهر اسم شخصية البطل إلا عندما تستوقفه الشرطة، وتسأله عن اسمه. وفي كلتا القصتين كما في القصة

الثالثة يتم استدعاء الشخصيات باسم العلم، وتحمل شخصية الشنفرى صفات قديمة، وأخرى معاصرة تدل على تناص التآلف الذي يحاول من خلاله التعبير عن قضايا الواقع المعاصر، أما في القصتين السابقتين، فهناك الشخصيات المعاصرة التي يمثلها رجال الشرطة، ويكون وجودهم مرتبطاً بوجهة نظر المؤلف، وبالوظيفة التي تقوم بها على مستوى خلق البنية الدرامية للأحداث، وما ينشأ عنها من تحولات على شخصية البطل في القصة.

ويختفي استدعاء الشخصيات التاريخية بالاسم في مجموعة (النمور في اليوم العاشر ١٩٧٨)[11] ليحل محله الاستدعاء بالصفة، ويتقلص ظهور هذا التناص في قصص المجموعة، فلا يظهر إلا في قصتين، هما (الملك و ما حدث في المدينة التي كانت نائمة). ويكشف العنوان الأول (الملك) [12] الذي يتألف من كلمة واحدة عن ظهور صفة الشخصية في العنوان، على خلاف العنوان الثاني الذي لا يظهر فيه ما يدل على الشخصية المستدعاة. تتألف القصة الأولى من مجموعة من الحكايات القصيرة التي تمثل شخصية الملك محورها، وكذلك الأمر في القصة الثانية (ماحدث في المدينة التي كانت نائمة) [13] التي تستدعى فيها شخصية الملك والرجل العالم. و تقدم هاتين الشخصيتين والشخصيات التاريخية والأدبية في أعمال القاص من خلال الراوي الذي يتولى مهمة السرد وتقديم الشخصيات، فيكون السرد بالتالي حديثاً عن تلك الشخصيات.

مع مجموع (نداء نوح ١٩٩٤) [14] التي صدرت أكثر من عقد ونصف عن توقفه عن النشر، يظهر الاستخدام المكثف لتناص استدعاء الشخصيات التاريخية والأدبية، ويتميز هذا الاستدعاء بكون الحكايات التي يظهر فيها هي حديثاً عن الشخصيات المستدعاة، وبقدر ما يشكل ذلك علامة دالة، تحيل على داخل لغوي، هو الحكاية فإنه في نفس الوقت يحيل على خارج غير لغوي، هو العصر التاريخي الذي تنتمي إليه تلك الشخصية. على أن الاستدعاء يكون دائماً باسم العلم الذي يشمل الاستدعاء بالاسم أو اللقب أو الصفة أو الكنية. في القصة الأولى (عبد الله بن المقفع الثالث)[15] تستدعى شخصية (عبد الله ابن المقفع). يحمل العنوان اسم الشخصية التي تجمع بين الشخصية القديمة، والشخصية الحديثة التي تمثل استمراراً للشخصية القديمة من

خلال الصفة التـي تضاف إلى الاسم وهي الثالث. ونتعرف علـى اسم هذه الشخصية من خلال استجـواب الشخصية التاريخية التي يتم استدعاؤها أولاً في الحكاية بالاسم، وهي شخصية أبـي جعفر المنصور. ويتكرر استدعاء الشخصيات التاريخية باسم العلم في قصـة (عدام الموت)[١٦]. رغم تنوع مهنة تلك الشخصيـات إلا أنها تنتمي إلى عصر تاريخي واحـد، هو العصر العباسي، ويكون هذا التنوع في استدعاء الشخصيات مرتبطاً بالمنظور السـردي للكاتب، والطابع الساخر الـذي يهيمن على لغة الحكايـة، وأحداثها ومواقف تلك الشخصيات الغريبة فيها.

١ - الاستدعاء بالاسم:

إن الاستدعاء بالاسم سيظهر في قصص أخرى، هـي قصص (عنترة النفطي- نبوءة كافـور الإخشيدي- يحكى عـن عباس بن فرناسـ- شهريـار وشهـرزاد- يوم غضب جنكيز خان- حكايات جحا الدمشقي). في القصة يحمل العنوان / الاسم صفات قديمة، وأخرى حديثـة، تتجلى في المركب الوصفي للعنـوان، ومـا يحمله من دلالـة معاصرة. وسيكشـف الحوار بين عنـترة، والشخصية الأخرى التـي ارتبط باسمهـا في الحكاية التراثية، وهى عبلـة عن الصفات المعاصرة للواقـع الذي تتحـدث عنه، بلغـة شديدة السخريـة والمفارقة. وكما هـو واضح فإن القاص يستدعي مـع الشخصية التاريخية بطلـة القصـة، شخصية ثانيـة ارتبط بها اسمها، وينطبـق الأمر على القصة الثانية، التي تستدعي الحكاية فيها شخصية كافور الإخشيـدي حاكم مصر، مـن خلال قصته المعروفة مـع الشاعر المتنبي، حيث تحافظ هاتـان الشخصيتان على صفاتهما القديمة التي تعمل على تثبت المرجعي، لكنه في الآن ذاتـه، يحـاول أن يقدم رؤيـة جديدة لتلك الحكاية توحي بدلالات حول علاقة الحاكم بالمثقف، ورؤية الأول لإدارة تلك العلاقة.

ويشـير عنـوان (يحكى عـن عباس بن فرناسـ)[١٧] إلى الطابـع الحكائي للقصة التي تتوزع على عدد من الحكايات، والراوي يصرح باسـم الشخصية منـذ البداية، أما قصة شهريـار وشهـرزاد فالحكايات التي ارتبطـت باسميهمـا في الذاكـرة الثقافية للمتلقي، فتجعل الكاتب يستدعيهما معاً إلا أنه يعمد إلى تقديم اسم شهريار للدلالة على التغير الذي يطرأ على الحكاية، حيث يتبادل مع شهرزاد دور الراوي الذي كانت تقوم به، في حين تأخذ هي دور الحاكم. وتجمع هذه الشخصيات بين الصفات القديمة وصفات

الواقـع المعاصر، ففي الحكاية الأولى تحمل الشخصيتان صفة الملك والملكة، وفي الحكاية الثانية يتحـول شهريـار إلى ماسح أحذية، يعشق مباريات كرة القدم. ولا تختلف قصة (يوم غضـب جنكيز خـان)[١٨] التي يظهر فيها اسم الشخصيـة التاريخية في العنوان عـن القصص الأخـرى، إذ يستدعي مع تلـك الشخصية، شخصيـة أخرى تلازمه، يستحضرهـا بصفتهـا (الوزير). وفي قصة أخرى يستدعي شخصيتي القصة بصفتهما الملـك والوزير في مجموعة مـن الحكايات، يقدمهمـا الـراوي بلقبهمـا في افتتاحيـة السـرد. وتحمل شخصية جحـا المستدعاة معنى مكانيـاً يشير إليه العنـوان، والقصة تتألف من مجموعة من الحكايات، يستدعي فيها شخصية الملك بصفتها أيضاً.

٢- الاستدعاء بالصفة:

ولا تختلف استراتيجية استدعاء الأسماء التاريخيـة والتراثيـة في القصص التي لا يظهر فيها اسـم الشخصية في العنوان عن القصص، التـي يظهر فيها اسم الشخصية في العنوان، لأن استدعاء الشخصيات باسم العلم، لا يستلزم ظهور أسمائها في العنوان، وهي يمكن أن تستدعى باسمها، أو بصفتها، كمـا نجد ذلـك في قصـص (الكلب- آخر المرافئ- بيروت- الجالـس والواقف) التي يستدعـي في الأولى الشخصيـة بصفتهـا (الملك)، وفي الثانية والثالثة والأخيرة باسمها (السندباد- هولاكو- الشنفرى). وتنفرد تلك الشخصيات بكونهـا الشخصيات الوحيدة، التـي تظهر في تلك القصص. وعلى خلاف ذلك يستدعي وجـود الشخصية التاريخية أو التراثيـة في القصـة وجـود شخصيـة أخرى معها، إمـا لأن وجودها يرتبط معها في الواقعـة التاريخية، التـي تعيد الحكاية توظيفها للتعبير عن قضايا معاصرة، كما في قصة (من قتل الجنرال)[١٩]، التي يستدعي الشخصيتـين باسمهمـا (سليمـان الحلبي والجـنرال كليبر)، أو لأن السيرورة الحكائية في القصـة تستدعي وجودهمـا، وفي هذه القصص يستدعـي الشخصيات التاريخية بصفاتهـا (الملك والوزير) في قصة (جريمة الماء)[٢٠]، والسلطان ورئيس الوزراء في قصة (من الألف إلى الياء)[٢١].

وتتأكد استراتيجية استدعاء الشخصية التاريخيـة والتراثية باسم العلـم، بنوعيها الاستدعـاء بالاسم، والاستدعـاء بالصفة في مجموعـة (سنضحـك ١٩٩٨)[٢٢]. ويلعب العنـوان دوراً مهمـاً في تحديد نوع الاستدعاء هـذا. ففي القصـص التي تم

فيها استدعاء تلك الشخصيات بالاسم، نجد أن اسم الشخصية يظهر في العنوان في الوقت الذي يغيب هذا الاسم عن العنوان في القصص، التي يكون الاستدعاء فيها بالصفة.تتضمن القصص التي يجري فيها استدعاء الشخصيات بالاسم، تقديماً لتلك الشخصيات باسمها من قبل الراوي في بداية القصة،كما في قصة (حملة نابليون الدمشقي)(٢٣) التي يقدم الراوي فيها شخصية نابليون باسمها في التقديم السردي للحكاية. ولا يختلف الأمر في قصة (أحلام أبي نواس) (٢٤) التي يأخذ السرد فيها منحى آخر، إذ تتولى الشخصية نفسها مهمة السرد في الحكاية، ولعلَّ ما يميزها، هو تناص التآلف الذي يظهر في الصفات المعاصرة التي تظهر فيها شخصية أبي نواس، من خلال الصفات المعاصرة للواقع الذي تتحدث عنه وهو ما يسهم في خلق عنصر الغرابة والمفارقة عند القارئ الذي يحتفظ لتلك الشخصية بصفات مختلفة، ويؤدي إلى جعل الشخصية الحكائية، تحمل طابعاً ساخراً يعمِّق في دلالة الواقع القائم، وما يطرحه من غرابة وتناقض على مستوى التفكير والسلوك.

وتحمل شخصية نابليون (المستدعاة) صفاتاً قديمة، وأخرى تخييلية، استدعتها بنية الحكاية الساخرة، التي تتدرج دلالاتها، في إطار ما يعرف بتجنيس العلاقة بين الشرق والغرب، حيث يتحول الفعل الجنسي، إلى عنصر بارز في تلك العلاقة، يحاول القاص أن يسخر منه في هذه الحكاية. وتبرز شخصية الشيخ الذي يصنع المعجزات، واستعانة نابليون به كي يستعيد ثقته بقوة جيشه على احتلال العالم، لتدل على عنصر المفارقة الغريبة، التي يمثلها الواقع على قوة الفحولة.

وتنفرد قصة واحدة هي قصة (الوالي الأبدي)(٢٥) باستدعاء الشخصية التاريخية بالصفة، التي تحملها، وتحمل تلك الشخصية صفاتاً قديمة، إلى جانب الصفات المعاصرة للواقع، الذي تعبر عنه، وتحاول السخرية من بعض العادات الاجتماعية فيه، ومن النظام الاستبدادي القائم على التجويع من أجل الاستمرار في إخضاع الناس لسلطتها. بالمقابل لا تحمل عناوين القصص الأخرى أية إشارة إلى الشخصيات المستدعاة، لكونها تقوم في بنيتها على تشكيل دلالة محورية، تستغرق الحكاية، كما هي الحكاية تستغرقه. ولما كانت هذه الحكايات لاتتضمن استدعاء للشخصية باسمها، بل

بالصفــة التي هــي عليها كالملــك والوزير والخليفــة، فإنها تحمل دلالــة عامة، ترمز بها إلى السلطة، ويكون استدعاؤها بصفتها القديمة، في حين يحمــل الواقع الذي تعبر عنــه صفات حديثة، استمراراً لمفهوم تناص التآلــف الــذي يستخدمــه القاص في هذا النــوع من القصص التي تحــاول أن تسخر من الواقع، وتبرز عنصــر المفارقة والغرابة الذي يكشف عنه من خلال سلوك ومواقف تلــك الشخصيــات. ولا يشــترط استدعاء الشخصيــة القديمة باســم العلم أن يحمل عنــوان الحكاية اســم الشخصيــة. وتقدم قصــة (الهشيــم) [٢٦] الشخصية المستدعاة باسمهــا المركب علــى غرار أسمــاء بعض الخلفاء العباسيين (المستغيث بالله)، ويحمل هذا الاســم المركب للشخصية دلالة، توحي بالضعف والعجــز كما تكشف بنية الحكاية عن ذلك. وتقدم قصة (ليس لنا إلا الشكوى والصــبر)[٢٧] الشخصية المستدعاة بصفتها (أمير المؤمنين). ويأتــي هذا الاستدعاء في إطار تناص التآلــف الذي يظهر في صفات الشخصيــة القديمة، والصفــات المعاصرة للواقــع الــذي تطرحــه وتسخر منــه بلغة توظــف عنصــر المفارقة للإضحــاك منه، وتعريــة التناقضــ والغرابــة و الجهل، إذ يعلن الناس عن فرحهــم عندما يأمر الملك بقطــع رؤوسهم، لأنهم عندئــذ سوف يوفر عليهم أجور الحلاقة، التي كانوا يدفعونها، ويريحهم من وجع أسنانهم المنخورة.

وتأتي استراتيجية إغفال اسم الشخصية التاريخية والتراثيــة المستدعاة من العنوان، مرتبطة بقيام الكاتب بتقديم رؤية بانورامية مــن خلال عدد من الحكايــات التي تتألف منها القصة، حيث لا تظهر تلك الشخصية، إلا في حكاية واحدة من تلك الحكايات، يظهر في عنوانهــا الفرعي اســم العلم للشخصية التي تقدم بصفتهــا، كما في قصة (شموس المفتي)[٢٨] التــي يستدعي فيها الملك المفتي لكي يعضّــ الناس. وفيها يزاوج بين القديم والحديــث في مفهــوم السلطــة في الشرق، لتوظف الديــن لخدمة مصلحتهــا. وتأتي القصة الأخرى (لك ما شئت) التي تستدعى فيها الشخصية التاريخية بصفتها (الملك)، لتسخر من وظيفة الإعلام في الواقع المعاصر المحكــوم بسلطــة الاستبــداد، التي تحول الإعــلام إلى أداة تضليــل وتزييف للحقائق والمجتمع. وفي قصة (شجر الصحارى) [٢٩] لا يحمل العنوان اسم الشخصية المستدعاة، في حــين أن تصــرح الحكايــة الفرعية من حكايات القصة باسم الشخصية أبي حيان

التوحيدي في جملة الاستهلال، وهي تجمع في بنية الحكاية بين صفات الشخصية القديمة والدلالة الحديثة، التي تحملها في الحكاية الجديدة التي يصبح أبو حيان فيها قائداً لجيش يأمره باحتلال كل مدائن العالم.

يتراجع استخدام آليات استدعاء الشخصيات التاريخية في مجموعة (الحصرم ٢٠٠٠) [٣٠] إلى درجة أنها لا تظهر، إلا في حكاية صغيرة، تؤلف جزءاً من عدد من الحكايات التي تتألف منها القصة، كما في الحكاية التي حملت عنوان (الطائر الأخضر)[٣١]. يستدعي فيها القاص شخصية أبي حيان التوحيدي مرة أخرى، وتبدأ هذه الحكاية من الحدث الذي يدل على الصفات القديمة للشخصية، والمتمثل في قيامه بإحراق كلمات كتبه، لكن التحولات التي تطرأ على تلك الشخصية، بعد إحساسها بالجوع، تعبر عن صفات معاصرة للعالم، الغارق في صراعاته وحروبه، ولمعاناة الكاتب في الوقت الذي يفتك الجوع بالناس حتى نجد الحكاية في نهايتها، تقدم رؤية متشائمة لا تشير فيه إلى خلاص قريب، ينقذ العالم مما هو غارق فيه، فالحمامة التي يطلقها ركاب السفينة تعود حاملة غصنا أخضر يقطر دماً أحمر. هنا يظهر التناص الذي تقيمه هذه الحكاية مع حكاية الطوفان التوراتية أيضاً. ويبقى التناص التاريخي والديني في مجموعة (تكسير ركب ٢٠٠٣)[٣٢] في حدود حكاية واحدة، تحمل الرقم (٥٥)، لجأ في هذه المجموعة، إلى استبدال العنونة بالترقيم، مما شكل خرقاً لمبدأ العنونة. في هذه القصة.

يستدعي القاص الشخصية التاريخية، بالعبارة التي تشير إلى صفتها، وارتبطت بها(حفظه الله) بدلاً من اسمها. ويأتي هذا الاستدعاء في سياق دعاء يطلقه الراوي، المجهول الاسم في الحكاية، يعبر من خلاله عن تآلف الصفات القديمة لشخصية الحاكم في وعي الناس، مع الصفات المعاصرة للواقع، كما يتجلى في معاناة الناس الاجتماعية عبر دعاء الراوي الذي يتسم بالتقريرية ويخلو من الإيحاء.

المراجع :

١- أشكال التناص الشعري- أحمد مجاهد- الهيئة المصرية للكتاب- القاهرة ١٩٩٨.
٢- أشكال التناص الشعري- أحمد مجاهد- المرجع السابق.

٣- ربيع في الرماد- زكريا تامر- منشورات رياض الريس- ط ٣- بيروت ١٩٩٤.

٤- التناص الشعري- أحمد مجاهد- المرجع السابق.

٥- الرعد- زكريا تامر- رياض الريس للنشر-ط٣- بيروت ١٩٩٤.

٦- الرعد- زكريا تامر- المرجع السابق.

٧- الرعد- زكريا تامر- المرجع السابق.

٨- الرعد- زكريا تامر- المرجع السابق.

٩- الرعد- زكريا تامر- المرجع السابق.

١٠-دمشق الحرائق- زكريا تامر- منشورات مكتبة النوري- ط٢- دمشق ١٩٧٨.

١١-النمور في اليوم العاشر- زكريا تامر- دار الآداب- بيروت ١٩٧٨.

١٢-النمور في اليوم العاشر- زكريا تامر- المرجع السابق.

١٣-النمور في اليوم العاشر- زكريا تامر- المرجع السابق.

١٤-نداء نوح- زكريا تامر- رياض الريس للنشر -ط١- بيروت ١٩٩٤.

الدراسات والبحوث

صوت المعارضة في الشعر الأموي

حسن موسى النميري ❋

لِـكُلِّ دولةٍ في التَّاريـخِ ؛ قَديمِهِ وحديثِـهِ، أو المُستَمِرِّ مِنـهُ، مَنْ يُواليها ويُؤيِّدُهـا، ومَنْ يَقِفُ مِنْها في زاويةِ المُعارَضَةِ والمُناوءةِ. وهذا القانُونُ عامٌّ يَنْسَحِبُ على كُلِّ الدولِ والحُكوماتِ والسُّلطاتِ... والأمثلةُ على ذلكَ كثيرَةٌ مُتَعدِّدَةٌ لا حَصرَ لَها، يَقرأُ المُتَتَبِّعُ لَها أمثِلةً في جميعِ الأُمَمِ والشُّعُوبِ.

ويَزعُمُ بَعضُ أنْصارِ الثَّقافَةِ الأوروبيَّةِ الغَربيَّـةِ أنَّ الشُّعوبَ العربِيَّةَ –

❋ باحث في التراث العربي (فلسطين).

العمل الفني: الفنان دلدار فلمز

مُنْفَردةً عن كُلِّ شُعوبِ الأرضِ- غالبًا ما كانَ يَسُوقُها الحُكَّامُ والسَّلاطينُ الذينَ حَكموها – منْها ومِنْ غَيْرِها–يَسُوقونَها سَوقَ الرِّعاءِ لِقُطعانِها، وتَتَهافَتُ الشُّعُوبُ العربيَّةُ والإسلاميَّةُ مُنْدَفِعَةً خَلفَ حُكَّامِها، مُؤيِّدَةً مُواليَةً، انْدِفاعَ السَّيلِ الجارفِ في الوادي المُنْحدِرِ الفَسيح. وهذا واللهِ زَعمٌ كاذِبٌ فاجِرٌ، فَلا الشُّعوبُ العربيَّةُ مُختلفةٌ عن غيرِها من شُعوبِ الدُّنْيا، ولا للذينَ حَكَمُوها وَضعٌ خاصٌّ بِهِم، مُغايِرٌ لِمَنْ حَولَهُم مِنْ بَني البَشَرِ، وسنَرَى في الصَّفَحاتِ التَّالياتِ أمثِلَةً واضِحَةً بارِزَةً، وأشكالاً بَيِّنَةً مِنَ المَواقِفِ، يَقِفُ فيها أفرادٌ عاديُّونَ مِنْ أبناءِ الشَّعبِ العَربيِّ الإسْلاميِّ بِوَجْهِ حُكَّامِهِمْ، يُخالِفُونَهم في الرَّأيِ ويُقارِعونَهم في الحُجَجِ، في عَصْرِ بَني أميَّةَ الذي اتَّخَذناهُ مَيْدانًا لِدراسَتِنا، نالَ بَعضَهم الأذَى والعِقابُ، وسَلِمَ آخَرون.

نَقَلَ الأمويونَ حُكمَ الخِلافَةِ الذي كانَ مَبْنيًّا على التَّشاوُرِ والتَّوافُقِ والبَيعَةِ المَبْنِيَّةِ على اختيارِ الأفضَلِ والأقدَرِ، والأكثَرِ تَمَسُّكًا بِقَواعِدِ الدِّينِ الإسلاميِّ الحَنيفِ وقَوانينِه، والأشَدِّ حِرصًا على الاقْتِداءِ بِسيرَةِ النَّبيِّ صلى اللهُ عليْهِ وسلم، والحِفاظِ على تُراثِهِ، والاسْتِعانَةِ بِمَشاهيرِ صَحابَتِهِ... نَقلَ بَنو أميَّةَ هذا الأُسلوبَ في الحُكمِ الذي أرسَى قَواعِدَهُ أربَعَةٌ مِن الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ، نَقَلوهُ إلى حُكْمٍ وراثِيٍّ آليٍّ، ما عَرَفَهُ العربُ المُسلِمونَ إلاَّ في جاهِلِيَّتِهِم، في قُراهُم وبَوادِيهِم، حيثُ تَنْتَقِلُ زَعامَةُ القبيلةِ إلى أكبَرِ أولادِ زَعيمِها الذي هَلَك، انْتِقالاً هادِئًا سَلِسًا، لا يُعْتَرَضُ عليْهِ إلا في القَليلِ النَّادرِ.

ومِن أجلِ ذلكَ انْقَسَمَ المُجتَمَعُ في أوَّلِ العَهدِ الأمويّ إلى فِئَتَيْنِ بارِزَتَيْنِ ؛ فِئَة تُؤيِّدُ الحاكِمَ وتُواليهِ وتُسانِدُهُ، دِفاعًا عَن مَنافِعِها وفَوائِدِها ومَطامِعِها، وما تَجنيهِ مِنْ خَيْراتٍ لأنَّها تابَعَتِ الحاكِمَ، وعاوَنَتْهُ وسانَدَتْهُ، واصْطَفَّتْ خَلفَهُ، وأغراها الحاكِمُ وأعوانُهُ ومُساعِدُوهُ بِدنانيرِهِم ودَراهِمِهِم وهِباتِهِم حينًا، وبالمَناصِبِ والوَظائفِ والولاياتِ حينًا آخَرَ، وبالوُعُودِ المَطَّاطَةِ الفَضفاضَةِ التي تُطمِعُهُم بالغَدِ المُشرِقِ، والمُستَقبَلِ المُتَلألِىء. وفِئَةِ مُعارِضَةِ اسْتَيقَظَتْ على حِرمانِ

السُّلطانِ لَها مِن أيِّ شيءٍ مِن مَنافِعِ الدُّنيا، وما ذلــكَ إلاَّ لأنَّهــا تَكَلَّمَتْ بِمــا لا يُرضي الحاكِمَ، أو لأنَّ تَمَسُّكَها بِمَبادئِها وعَقيدَتِها، أبَــى عَلَيْهــا أنْ تُسايرَ الحاكِــمَ في سِياسَتِهِ الخاطِئةِ، وحَركاتِهِ غيرِ المُستَقيمةِ.

وقَعَــدَ مُعاويةُ على كُرسِــيِّ (الخِلافَةِ) لكنَّــهُ لم يَتَّبِعْ أُسلوبَ حُكْــمِ (الخُلَفاءِ) الذينَ سَبَقُوهُ. قَبلَ مُعاويــةَ كانَ التَّمَسُّكُ بأهدابِ الدِّينِ ،أكبَرَ المَقاييسِ لَدَى الخُلَفاءِ، لِتَقْريبِ الأعوانِ والمُساعِدينَ، وتَعيينِ الوُلاةِ والقادَةِ، وبِالمُقابِلِ كانَ البُعدُ عنِ الدِّينِ سَبَبًا في إبْعادِ الناسِ عنِ المَناصِــبِ والوَظائفِ والوِلاياتِ. فالبَعيــدُ عنِ الدِّيــنِ بَعيدٌ عــنِ اللهِ، وعنِ الخليفَةِ، وعنِ القِيادَةِ أو الوِلايَةِ أو الوَظيفَةِ، أو عن أيِّ شأنٍ مِن شُؤونِ الدولة.

ومَــعَ أنَّ مُعاويَةَ بَسَطَ كِلتــا يَدَيْهِ بالمالِ، لِمَــنْ يَستَحِقُّ ومَــنْ لا يَستَحِقُّ مِــنَ الأعوانِ الذيــنَ قَرَّبُــوا أنفسَهم مِن نِظامِــهِ، ومَدُّوا أيديَهم لِمُسانَدَتِهِ، فإنَّهُ لم يَقدِرْ على اسْتيعابِ كُلِّ فِئــاتِ المُجتَمَعِ. يَذكرُ التاريخُ أنَّ مُعاويَةَ أظهَــرَ لِلرَّعيَّةِ ،ضُرُوبًا مِــنَ اللِّينِ والتَّسامُحِ والعَفوِ عن بَعضِ الجُنــاةِ والمُذنِبينَ، إلاَّ أنَّهُ لاقَى مُعارَضَةً ومُناوأةً ومُعاداةً لم يَرَها أحَدٌ مِنَ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ الذينَ سَبقوهُ..فَأبدَى هوَ بالمُقابِلِ ضُروبًا من الصَّبْرِ، وسَعَةِ الصَّدْرِ مــا جَعلَ كثيرًا مِنَ المُؤَرِّخينَ يَصِفونَهُ بالحِلمِ والأنــاةِ وسَعَةِ الصَّدرِ،واللِّينِ مــعَ المُعانِدينَ والمُناوئــينَ والمُعارِضــينَ لِحُكْمِــهِ، إلاَّ مَــنِ اسْتَخدَمَ العُنْــفَ ورَفَعَ في وَجهِهِ ووَجهِ ذَويهِ وأعوانِهِ السِّلاحَ، فقد وُصِفَ مَعَهم بالتَّسَلُّطِ والقَهْرِ والشِّدَّة.

فَإذا ما ذهبتَ تَستَعرِضُ أشعارَ المُناوئِينَ المُعانِديــنَ، والواقِفِــينَ في الصَّفِّ المُعارِضِ لِسياسَةِ مُعاويةَ ومَنْ تَلاهُ مِنْ بَني أميَّةَ، وما يَفعَلُهُ عُمَّالُهُ ووُلاتُــهُ وقادتُهُ وجَدتَّ أشكالاً مِنَ العِنادِ والمُخالَفَةِ والمُعارَضَةِ لِهذا النِّظامِ، ولاقَيْتَ مَشاعِرَ رافِضَةً كارِهَةً لِتَوَجُّهاتِ رأسِ النِّظامِ، ومَنْ يَليهِ مِنَ الأعوانِ والأتباعِ.

هذا الشاعرُ أبو دَهبَل الجُمَحيّ[1] يَتَّهِمُ حُكَّامَ بَنــي أميَّةَ كُلَّهم بِمُخالَفَــةِ دينِ الأُمَّةِ الحَنيفِ، كمــا يَتَّهِمُهم بِالفَسادِ في أنفسِهِم، وبِإفســادِ ضَمائــرِ المُوالينَ لَهُــم، والمُؤَيِّدينَ

لِسِياسَتِهِم ؛ فَهُم فَسَقَةٌ ظَلَمَةٌ أشقِياءُ... قال أبو دَهبَل:

تَبيتُ سُكارَى مِنْ أُمَيَّـةَ نُوَّمًا

وبِالطَّفِّ قَتْلَى ما يَنامُ حَميمُها[٢]

وما أفسَدَ الإسلامَ إلاَّ عِصابَةٌ

تَـأَمَّرَ نَوكاها فَـدامَ نَعيمُها[٣]

فَصارَتْ قَناةُ الدِّينِ في كَفِّ ظالِمٍ

إذا اعْوَجَّ مِنْها جانِبٌ لا يُقيمُها[٤]

وكانَ عبدُ اللّهِ بـنُ هَمَّام السَّلولي[٥] مِنْ أكبَرِ مُؤَيِّدي الأُسرَةِ السُّفيانيَّةِ الأُمَويَّة، وكانَ مُقَرَّبًا مِـن قِبَلِ يَزيدَ بـن مُعاوِيَةَ ،كما كانَ يَدعو لِبَقـاءِ السُّلطَةِ والحُكـمِ بِأَيدي ذُرِّيَّةِ مُعاوِيَـةَ وذلكَ كَقَولِهِ يَدعـو مُعاوِيَةَ الثاني إلى وِراثَةِ أبيهِ (يَزيد بـن مُعاوية) والتَّشَبُّثِ بِكُرسيّ الحُكـمِ، وألاَّ يُتيـحَ آلُ أبي سُفيان لِلآخَرينَ الاقْـتِرابَ مِن كُرسيّ (الخِلافَةِ).. قال يذكرُ الخِلافَةَ (خِلافَةَ رَبِّهِم):

تَـلَقَّـفَـهـا يَـزيـدُ عَـنْ أبيـهِ

فَخُذْها يا مُعاوِيَ عَن يَزيدا

خِـلافَـةَ رَبِّـكُـمْ حـامُـوا علَيْها

ولا تَرْمُوا بِها الغَرَضَ البَعيدا[٦]



عبدُ اللّهِ بنُ هَمَّام، هذا المُؤَيِّدُ المُفْرِطُ في تَأييدِهِ، المُبالِـغُ في مُوالاتِهِ، المُصِرُّ على بَقاءِ (خِلافَـةِ رَبِّهِم) في أيديهِم، أي بِأيدي أحِبَّتِهِ مِن الأُسرَةِ السُّفيانيَّةِ، مِن ذُرِّيّةِ مُعاوية..غَيَّرَ مَعَ الأيَّامِ رأيَهُ في آلِ أبي سُفْيانَ، بَعدَما رأى مِن فَسادِهِم، وفَشَلِهِم في إدارَةِ شُؤونِ البِلادِ وإخْفاقِهِـم في إرضاءِ الصَّالِحينَ مِنَ العِبادِ، وسِيرَتِهِـم السَّيِّئَـةِ بالإضافَـةِ إلى تَعطيلِهِم لأحكامِ دِينِ اللّهِ الحَنيـفِ، وجَعلِهِم الحُكمَ وراثِيًّا بَغيضًـا... فقالَ عبدُ اللّهِ يَسْخَرُ مِنْ مَبدَأ تَوريـثِ الخِلافَةِ، ومِـنَ المُوَرِّثينَ لَها،

ويُشَبِّـهُ طَريقَتَهم في الحُكـم بِطَريقَةِ حُكم الأكاسِرَةِ... ويُعيبُ على يَزيدَ بنِ مُعاويَةَ لَهْوَهُ وعَبَثَـهُ وانْشِغالَهُ عن مُتابَعَـةِ حُقوقِ العِبادِ بِتَفَرُّغِهِ لِلصَّيْدِ والقَنْصِ والعَبَث.. قال عبدُ اللّهِ يَسْخَرُ :

فَـإنْ تَـأْتُوا بِـرَمْلَـةَ ،أو بِهِنْدٍ
نُبايِعْها أميرَةَ مُؤ مِنينا (7)
إذا ما ماتَ كِسْرَى قامَ كِسْرَى
نَـعُـدُّ ثَـلاثَـةً ، مُتَنـاسِقِينا
فَيَـا لَـهْفًا لَـوَ انَّ لَنـا أُنُـوفًا
ولـكِـنْ لا نَـعـودُ كمـا عُنِينا
إذًا لَضُرِبْـتُمْ حتـى تَعُـودُوا
بِمَكَّةَ تَلعَقونَ بِها السَّخِينا(8)
خَشِينا الغَيْظَ حتـى لو شَرِبْنا
دِمـاءَ بَنـي أُمَيّـةَ مـا رَوِينـا
لقد ضاعتْ رَعِيَّـتُكُمْ ،وأنتُـم
تَصيدونَ الأرانِـبَ غافِلينا(9)

أمَّـا عُقَيْبَةُ بنُ هُبَـيْرَةَ الأسَدي(10) فقد اتَّهَـمَ مُعاويَةَ بِـأَكلِ مالِ اللّهِ جِهـارًا نَهارًا، وبِتَبْذيرِ أموالِ المُسلمـينَ على شَكلِ رَشاوَى لأتباعِـهِ وأعوانِـهِ ومُريديهِ، فَهـوَ يُطالِبُ مُعاويةَ ووُلاتِهِ وقُوَّادِهِ ومَـن اصْطَفُّوا خَلفَهُ لِلدِّفاعِ عَنهُ وعـنْ سُلطَنِهِ ونِظامِهِ، يُطالِبُهُمْ بالاسْتِقامَةِ واتِّبـاعِ المَنْهَجِ القَويم، والابْتِعادِ عـن الجَورِ والظُّلمِ، وشِراءِ ضَمائِرِ السُّفَهاءِ، وتَأميرِ الأنذالِ والسَّاقِطينَ مِنْ بَني البَشَرِ... يَقُولُ عُقَيْبَةُ مُخاطِبًا مُعاويةَ:

مُـعـاويَ إنَّـنـا بَـشَـرٌ، فَأَسْـجِـحْ
فَلَسْنا بالجِبالِ،ولا الحَديدِ(11)
أكلـتُـمْ أرضَـنـا، فَجَـرَدتُّمُـوها
فَهَلْ مِنْ قائِمٍ أو مِنْ حَصيدِ ؟
فَهَبْـنـا أُمَّــةً هَـلَـكَـتْ ضَـيـاعًـا
يَـزيـدُ أميرُهـا وأبـو يَـزيـدِ(12)
أتَـطْـمَـعُ بِـالخُـلودِ إذا هَلَكنا
وليسَ لَنـا، ولا لَـكَ مِنْ خُـلـودِ
ذَرُوا جَـوْرَ الخِـلافَـةِ واسْتَقيُوا
وتَـأْميرَ الأراذِلِ والعَـبـيـدِ(13)

وهــذا إبراهيمُ بنُ المُهاجرِ البَجَلِيّ: يَرَى أنَّ تَسَلُّطَ بَنـي أميَّةَ على الحُكمِ من أعجَبِ العَجَبِ لِعَدَمِ صَلاحِيَّتِهِم لذلكَ. والأنكى من ذلـكَ أنَّهُم يُحاوِلونَ إقنـاعَ الأُمَّةِ أنَّهم أبناءُ

عُمومَــةِ النَّبيِّ، وأنَّهم أحَقُّ الناسِ بوراثَتِه، ويَتَّهِمُهُم بالكَذِبِ ومُخادَعَةِ أبناءِ الأُمَّةِ :

أيُّهـا النـاسُ اسْمَعوا أُخْبِرْكُـمُ
عَجَبًا زادَ علـى كُـلِّ عَجَبْ
عَجَبًا مِن عَبْدِ شَمْسٍ، إنَّهم
فَتَحُوا للنَّاسِ أبوابَ الكَذِبْ[١٤]
وَرِثُــوا أحمَـدَ فيمـا زَعَمُـوا
دونَ عَبَّـاسِ بنِ عبدِ المُطَّلب
كَـذَبُـوا واللهِ، مـا نَعلَمُـهُ
يُحْرِزُ الميراثَ إلاَّ مَنْ قَرُبْ[١٥]

أمَّـا الراعــي النمَيْري فقــد وقفَ هوَ وعشيرَتُــهُ ضِدَّ بَنــي أميّةَ، مُناوئــينَ لَهُم، ومُعارضــينَ لِسياسَتِهم، ولِكــي يُغيظُوا بَني أميَّةَ وَقَفُوا معَ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ، يُحارِبُونَ مَعَهُ بالسيفِ وبِالرأيِ، ومَعَهم مُعظَمُ القبائلِ القيْسيَّةِ، وفَضَّلوهُ على بَني أميّةَ...هاهُوَ ذا الراعي النُّمَيْري لا يَمَلُّ الدُّعاءَ على الأُمويينَ، سائلاً المَــولَى أنْ يَقهَرَهم ويَكبِتَهم ويُلحِقَهم بعُثمــانَ بنِ عَفَّــان الذي ظَلَمُــوهُ بادِّعائِهم الكاذبِ المُطالَبَةَ بِدَمِه، وبِرَفْعِهم شَعارَ الأخذِ بِثَــأرِه، وما ذلكَ إلاَّ لِيَخْدَعُوا بُسَطاءَ الناسِ، فَرَفَعُوا قَميصَــهُ، واسْتَغَلُّــوا قَتْلَهُ، وهُمْ في الحَقيقَةِ يَسْعَــوْنَ إلى الوُصُــولِ إلى كُرسِيّ الحُكْــمِ، والتَّشَبُّثِ بالسُّلطَــةِ لابْتِزازِ الناسِ مُلكَهُم والانْقِضاضِ على خِلافتِهم، وحِرْمانِ أصْحــابِ الرَّأي والمَشورَةِ مِــنَ الوُصُولِ إلى مَراكِزِ القِيادَةِ..قال الراعي :

بَني أُميّـةَ إنَّ اللهَ مُلحِقُكُمْ
عَمَّا قَريبٍ بِعثمانَ بنِ عَفَّانِ[١٦]

ولِيَقْهَرَ بَنُو أميَّةَ مُعارِضيهم سَلَّطُوا عليْهم السُّعاةَ (المُصَّدِّقينَ، وجامِعي الزَّكاةِ) الذينَ انْقَلَبُــوا في عَهدِ بَني أُميَّةَ، مِــن بَرَرَةٍ أتْقياءَ لانْتِسابِهِــم إلى فَريضَةٍ مِــنْ أعظَمِ فَرائضِ الإسلامِ، ألا وهيَ (الزَّكاةُ أو الصَّدَقَة) وهيَ عُنْوانٌ لكُلِّ خَيْرٍ، ورَمْزٌ لكُلِّ نَفعٍ. فَاختارَ بَنُو أميّــةَ ووُلاتُهُم هؤلاءِ (المُصَّدِّقينَ)كما يُختارُ الجَواسيسُ ورجالُ الأمْنِ السِّرّي ،وسَلَّطوهم على الفِئاتِ التي لا يُحسِنُونَ الظَّنَّ بوَلائِها، ويَشُكُّــونَ بِحُسْــنِ انْقيادِهــا لِسُلطانِهِــم، وتَبَعِيَّتِهــا لَهم..فَراحُوا يَبْحَثُونَ عنِ مُيُولِهِم، وعَمَّــا تُكِنُّ صُدورُهُــم مِنْ حُــبٍّ أو بُغْضٍ لِبَنــي أميّة ،قبلَ أنْ يَسْلبُــوا الناسَ أموالَهُم بِغَيْرِ حَقٍّ، خاصَّةً وأنَّهــم كانُوا يَتَعامَلونَ معَ

البُسطاءِ من جَهَلَةِ البَدْوِ، يَسْتَغِلُّونَ بَساطَتَهم وسَطحِيَّتَهم، فيَسرقُونَ مَواشيهِم، ويَبْتَزُّونَهم أموالَهم بِحُجَّةِ الصَّدَقَةِ والزَّكاةِ، فَشَوَّهوا شَرَفَ هذهِ الفَريضَةِ وطَهارَتَها بأَنْ جَعَلوها ضَريبَةً يَدفَعُها الإنسانُ مَقْهورًا مَغلولاً مَضْروبًا بالسِّياطِ.. ويَتَلاعَبُ (المُصَدِّقونَ) بالدَّفاترِ، وسِجِلاَّتِ الدَّولَةِ، فَيَأْخُذونَ البَعيرَ أو النَّاقَةَ، ويَكتُبُونَها في دَفاترِ الدولةِ أفيلاً أو فَصيلاً[17] ويأخذونَ الفَرقَ لِجُيُوبِهِم.. وهذا ما دَعا الراعي لِلقُدومِ إلى العاصمة (دمشقَ) ومُقابَلةِ الخليفةِ عبدِ المَلِك بن مروان، وتقديم شَكوى ضِدّ هؤلاءِ اللُّصُوص الذينَ يَلبَسُونَ لباسَ (المُصَدّقينَ). لكنَّ عبدَ المَلِكِ لم يَقتَنِعْ بِشَكواهُ، فَرَفَضَها لِما فيها من اتِّهامٍ لِمُوَظَّفيهِ وأتباعِهِ، وأَغْلَظَ في القَولِ لِلشَّاعِرِ. لكنَّ الراعي عادَ في العام التالي وكَرَّرَ شَكواهُ، وحَلَفَ لِلخليفَةِ مُتَبَرِّئًا من عَلاقتهِ بابنِ الزُّبَيْرِ، ثم اتَّصَلَ بِبَعضِ وُجَهاءِ بَني أميَّةَ كَبِشْرِ بنِ مَروان، ومَسلمةَ بن عبد الملك...وبعدَ جَهدٍ ومَشَقَّةٍ استجابَ عبدُ المَلِكِ اسْتِجابَةً جُزئِيَّةً، فَرَفَعَ عن الراعي وقومِهِ ما وقعَ عليْهِم مِنْ ظُلمٍ وقَهْرٍ...ولكي يُبَيِّضَ الراعي(١٨) صَحيفَتَهُ أمامَ الخَليفَةِ، ها هو ذا يَحلِفُ ألاَّ صِلَةَ بَينَهُ وبينَ الفِئَةِ الزُّبَيْرِيَّةِ، كما يُقْسِمُ على بَراءتِهِ مِنَ الخَوارجِ، فيَقول :

إنِّي حَلَفتُ على يَمينِ بَرَّةٍ
لا أكذِبُ اليَومَ الخليفَةَ قِيلا
ما زُرتُ آلَ أبي خُبَيْبٍ وافِدًا
يَومًا أُريدُ لِبَيْعتي تَبْديلا[19]
ولا أتَيْتُ نُجَيْدَةَ بنَ عُوَيْمِرٍ
أبْغي الهُدَى، فَيَزيدُني تَضْليلا[20]

ثمّ بَدَأَ هُجُومَهُ على السُّعاةِ (لُصُوص الزَّكاةِ) فَوَصفَهم بِأَنَّهُم أناسٌ غِلاظٌ قُساةُ القُلوبِ عُصاةٌ، أجلافٌ، سُرَّاقٌ، ظَلَمَةٌ، يَغْتَصِبونَ أموالَ الناسِ ويَقْهَرونَهم:

إنَّ السُّعاةَ عَصَوكَ حينَ بَعَثْتَهم
وأتَوا دَواهِيَ لو عَلِمْتَ وغُولا[21]
إنَّ الذينَ أمَرتَهُم أنْ يَعدِلُوا
لم يَفعلوا مِمَّا أمَرتَ فَتيلا
أخَذوا العَريفَ، فَقَطَّعُوا حَيْزومَهُ
بالأصْبَحِيَّةِ ،قائمًا مَغْلولا[22]

حتَّى إذا لم يَترُكُوا لعظامه
لَحْمًا، ولا لِفُؤادِهِ مَعْقُولا[٢٣]
أخذُوا حَمولَتَهُ ،فأصبحَ قاعدًا
مايَستَطيعُ عنِ الدِّيارِحَويلا[٢٤]
أخَذُواالمَخاضَ منَ الفَصيلِ غُلُبَّةً
ظُلمًا، ويُكتَبُ للأَميرِ أفيلا[٢٥]

ويَزيدُ بنُ مُفَرِّغ الحِمْيَري: اعتَرَضَ على مُعاويةَ، وسَفَّهَ رأيَــهُ ،حينَ أمَرَ بإلحاقِ زياد ابــن أبيه بنَسَبِه، وجَعْلِه يَزيدَ بنَ أبي سُفيان (وهــوَ بذلكَ يُخالــفُ قَولَ الرَّسُــولِ صلى اللّهُ عليْهِ وسلم حيــثُ يَقُولُ (الوَلَدُ لِلفراشِ ولِلعاهِرِ الحَجَر) ويَشْهَدُ علــى أبيهِ بالزِّنا. ولم يَكتَفِ مُعاويَةُ بذلــكَ، وإنَّما تَمادَى فَوَلَّى زيــادًا العِراقَ كُلَّهُ على الرَّغمِ مِنْ بُغْضِ أهلِ العِراقِ لَــهُ وسَلَّطَهُ على رِقابِ فِئَةٍ كبيرَةٍ مِنَ الأُمَّةِ؛ يَظلِمُ ويَتَجَــبَّرُ، ويَفعَلُ هوَ وأولادُهُ ما يَشاؤونَ، وما يَحلو لَهُم بِلا رَقيبٍ، ومِن غَيرِ حَسيبٍ.. فَعَدَّ مُعاوِيَةُ اعْتِراضَ الشاعرِ أمْرًا جَلَلاً عَظيمًا، وخَطْبًــا جَسيمًا، وخطيئَةً لا تُغتَفَــرُ... قال ابنُ مُفَــرِّغ يُخاطِبُ مُعاوية، ويُشَــكِّكُ في انْتِسابِ زيادٍ لأبي سُفيان (والِدِ مُعاويَــة) ويَسْخَرُ مِن عَمَليّــةِ إلْحاقِهِ بِنَسَبِ مُعاوية:

ألاَ أبلِغْ مُعاويَةَ بنَ حَربٍ
مُغَلغَلَةً منَ الرَّجُلِ اليَماني[٢٦]
أتَغْضَبُ أنْ يُقالَ أبوكَ عَفٌّ
وتَرْضَى أنْ يُقالَ أبوكَ زانِ
فَأشْهَدُ أنَّ رحِمَكَ مِنْ زيادٍ
كَرحِمِ الفيلِ مِن وَلَدِ الأتانِ[٢٧]
وأشْهَدُ أنَّها حَمَلتْ زِيادًا
وصَخْرٌ مِنْ سُمَيَّةَ غَيْرُ دانِ[٢٨]

وازدادَ غَضَبُ مُعاويَةَ على يَزيد بن مُفَرِّغ عِندَما تَمادَى في هِجاءِ زيادٍ، وشتم ابْنَهُ عَبَّادًا وجَــرَّدَ زيادًا من المَكارِمِ وخِصالِ الخَيْرِ، فَلم يُعرَفْ بينَ الناسِ إلاَّ بَعدَ أنْ أُمِّرَ وسُلِّطَ على رِقابِ العِبادِ، ويَتَعَجَّبُ مِنْ انْقِلابِ الأوضاعِ، فقد صارَ زيادٌ فَجْأةً وبِجَرَّةِ قَلَمٍ قُرَشِيًّا، بعدَ أنْ كانَ بالأمْسِ عَبْدًا... قال يُخاطِبُ زِيادًا:

فَكِّرْ فَفي ذاكَ إنْ فَكَّرتَ مُعتَبَرٌ
هَلْ نِلتَ مَكْرُمَةً، إلاَّ بِتَأميرِ
عاشَتْ سُمَيَّةُ ما عاشَتْ وما عَلِمَتْ
أنَّ ابْنَها مِنْ قُرَيْشٍ، في الجَماهِيرِ
سُبْحانَ مَنْ مُلكُ عَبَّادٍ بِقُدرَتِه
لا يَدفَعُ الناسُ أسبابَ المَقاديرِ[٢٩]

وأيمَنُ بنُ خُرَيْم: كانَ رجُلاً عابِدًا ناسِكًا

مُجتَهِـدًا، وكانَ قدِ اعْتَــزَلَ النَّاسَ في حَربِ صِفِّــين (بينَ علــي ومُعاويــة)... فأرسَلَ لَهُ مُعاويَةُ[٣٠] رسولاً يَعِــدُهُ بِولايَةِ فلسطين إذا هوَ تابَــعَ مُعاويةَ وشايَعَهُ وحــارَبَ عليًّا إلى جانِبِــهِ، فكتَبَ بهــذِهِ الأبيــاتِ وأرسَلَها إلى مُعاويَةَ :

ولَسْتُ مُقاتِـلاً رجُـلاً يُصَلِّي
على سُلطانِ آخَـرَ، مِنْ قُرَيْشِ
لَـهُ سُلطانُــهُ وعَلَــيَّ وِزْري
مَعــاذَ اللهِ مِـنْ سَفَـهٍ، وطَيْشِ
أأقـتُـلُ مُسْلِمًا في غَـيْرِ جُـرْمٍ
فَليسَ بِنافِعي ما عِشْتُ عَيْشي[٣١]

وكانَ سَهْــمُ بنُ حَنْظَلَــةَ الغَنَويّ[٣٢]: مِنَ العَساكِــرِ المُحاربينَ، الذيــنَ كانَ يُرسَلُ بِهِم إلى ثُغُــورِ البِلادِ، وأطــرافِ المَناطِقِ النائيَةِ لِيَكونُــوا بِوَجــهِ العَدُوِّ، يُرْسَلــونَ إلى هُناكَ ثم يُنْسَوْنَ، فيَنْقَطِعــونَ عن أهليهِم وذَويهِم، والحُــكَّامُ ساهونَ عَنْهم، لاهُونَ عَمَّا يُعانُونَ، كما يُعــاني أهلُهم وذَووهم.. قال سَهم يَحتَجُّ على سِياسَــةِ تَجْميرِ[٣٣] الجيشِ، ويُعاتِبُ رأسَ الهَرمِ (مُعاوية) بن أبــي سُفيان على إهمالِهِ لَهم:

مُعــاوِيَ، إمَّـا أنْ تُجَـهِّـزَ أهلَنـا
إلَيْنــا، وإمَّـا أنْ نَـزورَ الأهـاليـا
أجَمَّرْتَنا تَجْميرَ كِسْرى جُنُودَهُ
ومَنَّيْتَنا حتى نَسينا الأمانِيا[٣٤]

واجــتَرَأ عبدُ الرحمنِ بــن سَعد بن زيد ابــن نُفَيل: على يَزيدَ بنِ مُعاوية، فاتَّهَمَهُ في شَخْصِه ودينِه وأخلاقِه، وشَتَمَ أخوالَهُ، حتى أخرَجَهُ وإيَّاهم من المِلَّةِ، حيثُ قال يَهْجوهُ :

لَستَ مِنَّـا ولَيـسَ خـالُـكَ مِنَّـا
يا مُضيعَ الصَّلاةِ لِلشَّهَواتِ[٣٥]

والشاعرُ الأمــويُّ إبراهيمُ بــنُ هَرمةَ: يَصفُ بَني أُميّةَ بِالضَّلالِ والطُّغيانِ، ويَدعو عليْهِــم ألاَّ يَعفُوَ اللهُ عنهم، بادئًا بِمَروانَ بنِ الحَكَمِ.. ويُشَبِّهُهُــم بِالمُفسِدينَ الضَّالِّينَ مِنْ قَومِ عادٍ :

فَلا عَفا اللهُ عن مَروانَ مَظْلَمَةً
ولا أُميّةَ، بِئْسَ المَجْلِسُ النادي
كانُوا كَعادٍ فَأمْسَى اللهُ أهْلَكَهُمْ
بِمِثْلِ ما أهلَكَ الغاوينَ مِنْ عادِ
فَلَنْ يُكَذِّبَني من هاشِمٍ أحَدٌ
فيما أقولُ ولو أكثَرتُ تَعدادي

وجَوَّاسُ بنُ القَعطَــلِ الكَلبي[٣٦]: من بَني

كَلــبٍ (أخوالِ يَزيدَ بنِ مُعاويَــةَ) وكانَ جَوَّاسٌ وقبيلتُهُ ممَّنْ ثَبّتُــوا أركانَ دَولَةِ مُعاويةَ وابْنِهِ يَزيدَ، في الوقتِ الذي كانتْ قَبائلُ قَيسٍ تُوالي ابنَ الزُّبَــيْرِ، وتُناصِرُهُ ضِدَّ بَني أميّةَ، وتَمادتْ قَيسٌ فَأَبَتْ أنْ تُبايعَ يَزيدَ. ولَمَّا جاءتِ الدولةُ المَروانيَّــةُ، وزالَ حُكمُ آلِ أبــي سُفيان، صالَحَ مَروانُ بــنُ الحَكَمِ القَيْسيــينَ.. فقامَ جَوَّاس يُعاتِبُ عبدَ المَلــكِ على إنْكارِ فَضْلِ الكلبيينَ، وقَلبِ ظَهرِ المِجَنِّ لَهُم، وتَقريبِ القيسيينَ بَدَلاً منْهم، وهمُ الذينَ وَطَّــدُوا أركانَ مُلكِهِ ومُلكِ مَنْ سَبَقُوهُ من الأمويــينَ، ولولاهم لَزالَ مُلكُ بَني أميّةَ، واضْمَحَلَّ سُلطانُهم... قال جواس:

أعَبدَ المَليكِ ما شَكَرتَ بَلاءَنا
فَكُلْ في رَخاءِ الأمْنِ ما أنتَ آكِلُ
بجابِيَةِ الجَولانِ، لولا ابْنُ بَحْدَلٍ
هَلَكتَ، ولم يَنطِقْ لِقَومِكَ قائلُ(37)
فَلَمَّا عَلَوتَ الشامَ في رأسِ باذِخٍ
منَ العزِّ، لا يَسْطيعُهُ المُتَناوِلُ(38)
نَفَحْتَ لَنا سَجْلَ العَداوَةِ مُعْرِضًا
كأنَّكَ ممَّا يُحدِثُ الدَّهرُ جاهِلُ(39)
وكُنتَ إذا أشرَفتَ منْ رأسِ هَضبَةٍ
تَضاءلتَ إنَّ الخائفَ المُتَضائلُ
فَلو طاوَعوني يومَ بُطنانَ، أُسلِمَتْ
لِقَيْسٍ فُروجُ نساءٍ منكُمُ ومَقاتِلُ(40)

وقــال جواس أيضًا يَمُــنُّ على بَني أمَيَّةَ مَسانَدَةَ قومِهِ لَهم، ويَصِفُ بني أميّةَ بِالتَّنَكُّرِ لِفَضْــلِ قومِهِ، حتــى إذا أوصَلتْهــم سُيُوفُ كَلــبٍ ورِماحُها إلى سُدَّةِ الحُكْــمِ، قَبَضَ بَنُو أميــةَ مالَ اللهِ عَنْهــم، وحَرموهم حقَّهم في هذا المــالِ، واحتَكَرَ بَنُو أميَّــةَ المالَ والجاهَ والمَناصِبَ.. قال:

صَبَغَتْ أُمَيَّةُ بالدِّماءِ رماحَنا
وطَــوتْ أمَيَّــةُ دونَنــا دُنْياها
أأُمَــيَّ، رُبَّ كتيبَةٍ مجهولَةٍ
صِيدِ الكُماةِ عليْكُمُ دَعواها(41)
كُنَّا وُلاةَ طِعانِها، وضِرابِها
حتى تَجَلَّتْ عنكُمُ غُمَّاها(42)
فاللهُ يَجْزي، لا أميَّةُ سَعيَنا
وعُلاً شَدَدنا بالرِّماحِ عُراها
جِئتُمْ منَ الحَجَرِ البَعيدِ نِياطُهُ
والشامُ تُنْكرُ؛ كَهْلُها وفَتاها(43)
إذْ أقبَلَتْ قَيْسٌ، كَأنَّ عُيُونَها
حَدَقُ الكلابِ وأظهَرَتْ سيماها(44)

أمَّا عُبيدُ اللهِ بنُ قيس الرُّقيَّات(45) الذي كانَ مُلازِمًــا ومُلاصِقًا لِمُصعــب بن الزُّبَيْر، فإنَّــهُ يَتَعَجَّبُ من شِــدَّةِ احتِمــالِ المجتَمَعِ

لِمَساوئِ بنــي أُميَّةَ ومَخازيهِم، كمــا يَتَعَجَّبُ مِنْ قُدرَتِهِ علــى النَّوم، والشامُ تُسيطِرُ عليْهِ فِئةٌ مارِقَــةٌ، يبغضُها المُجتَمَــعُ بكافَّةِ فِئاتِه وأطيافِهِ، ويَتَمَنَّى ابــنُ قَيْسٍ لو يُقَيِّضُ اللهُ لِبَني أُميَّةَ غارَةً جارِفَةً تُوَجَّهُ إليْهِم، فَتَسلبُهُم مُلكَهــم، ويُذعرُ لِهذِهِ الغارةِ العشيرَةُ الأمويَّةُ بِكافَّــةِ مُكَوِّناتِها مِنْ شُيُــوخٍ وشَبابٍ ورجالٍ ونِساءٍ، حيثُ يَقولُ :

كيفَ نَومي على الفِراشِ، ولَمَّا
تَشْمَلِ الشَّامَ غارةٌ شَعْواءُ(٤٦)
تُذْهِلُ الشَّيخَ عنْ بَنِيهِ ،وتُبْدي
عَنْ بُراها العقيلةُ العَذراءُ(٤٧)

وأمَّــا الكُمَيْتُ بــنُ زَيد(٤٨): الــذي نَذَرَ نَفسَــهُ وحياتَهُ لِمَــدحِ الهاشميــين والدِّفاعِ عَنْهم، والوقوفِ إلى جانِبِهــم، وبَيانِ حَقِّهِم في الخِلافَــةِ والسُّلطــانِ وقِيــادَةِ الأُمَّــةِ، والحِفاظِ على كِيانِها وتُراثِها، وصَونِ شَرَفِها ومُقَدَّساتِها مِنَ الضَّياعِ، وفَضحِ مَعايِبِ بَني أُمَيَّــةَ، والوُقُوفِ ضِدَّ جَوْرِهم وطُغْيانِهِم، ولا يَكونُ ذلكَ بِرَأيِــهِ إلاَّ بِقِيامِ هاشِمِيٍّ مَرْضِيٍّ يَقُــودُ الأُمَّةَ، فيَكــونُ غَيْثًا لِلأنــامِ، وربيعًا لِلأَيَّامِ.

قالَ الكُمَيتُ يذكرُ بَني أمية :

فَقُلْ لِبَني أُمَيَّةَ حيثُ حَلُّوا
وإنْ خِفتَ المُهَنَّدَ والقطيعا(٤٩)
أجــاعَ اللهُ مَــنْ أشْبَعتُمُوهُ
وأشبَعَ مَنْ بِجَورِكُمُ أُجيعا
بِمَرْضِيِّ السِّياسَةِ هاشِمِيٍّ
يَكونُ حَيًا لأُمَّتِهِ رَبيعا(٥٠)

والفَضلُ بــنُ العبَّاس بــن عُتبة بن أبي لَهب(٥١): كانَ هــذا الفَتَى مُؤَيِّــدًا لِلإمامِ علــيٍّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ، وقَبلَها سايَرَ بَني أُميَّةَ وجامَلَهــم، فلم يَحظَ عِندَهــم بِخَيْرٍ..فَأدارَ ظَهرَهُ لَهُــم، وأعلَنَ صَراحَةً وبِمِــلْءِ شِدقَيْهِ أنَّهُ لا يُحِبُّ بَني أُميَّةَ، وبالمُقابِلِ فَإنَّهُ لا يَلومُ الأُمَويينَ علــى بُغضِ بَني هاشِــم، وكانَ لا يَتَمَنَّى لأُميَّةَ إلاَّ السُّوءَ والشَّرَّ، لكنَّهُ يَسْتَحْلِفُ خُصُومَــهُ بِصِلَــةِ القَرابَةِ أنْ يَكتُــمَ كُلٌّ مِنَ الفريقَــيْنِ مَشاعِرَ البُغْضِ والكُرهِ لِلطَّرَفِ الآخَرِ ؛ فَإنَّ إظْهارَ المَكتُومِ وفَضْحَ المَخزونِ، لا يَأتي بِخَيْرٍ لأيٍّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، حيثُ يقول:

مَهْلاً بَني عَمِّنا، مَهْلاً مَوالينا
لا تَنْبشُوا بَيْنَنا ما كانَ مَدْفُونا(٥٢)
لا تَطْمَعُوا أنْ تُهينُونا، ونُكرِمَكُمْ

وانْ نَكُفَّ الاذَى عَنْكم وتُؤذونا

مَهلاً بَني عَمِّنا عَنْ نَحْتِ اثْلَتِنا
سيرُوا رُوَيداً كَماكُنتُم تَسيرُونا(٥٣)

اللّهُ يَعلَمُ أنَّا لا نُحبُّكُمُ
ولا نَلومُكُمُ ألاَّ تُحِبُّونا

كُلٌّ لَهُ نِيَّةٌ في بُغْض صاحبه
بِنعمَةِ اللّه، نَقليكُمْ وتَقلونا(٥٤)

وأبو الأسود الدُّؤلي(٥٥): الذي كانَ على صِلَةٍ طَيِّبَةٍ معَ أميرِ المُؤمنينَ عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنهُ، وقيلَ إنَّهُ أخَذَ عن عَليٍّ المَبادئَ الأساسيَّةَ لِقَواعدِ اللغةِ العربيّةِ ،بادِئًا بالعبارةِ الشَّهيرَةِ (الكَلامُ: اسْمٌ وفِعْلٌ وحَرفٌ)... ثمّ قال لَهُ عليٌّ: أُنْحُ هذا النَّحْوَ، ممَّا جَعَلَ الناسَ يُسَمُّونَ هذا العِلمَ (علمَ النَّحْوِ).. نَقُولُ إنَّ أبا الأسودِ كانَ يُبَجِّلُ الإمامَ عليًّا، ويُعِزُّ ذُرِّيّتَهُ ويُحِبُّهم، لِذلكَ أغضَبَهُ وأحفَظَهُ اعتِداءُ بَني زِيادٍ (زياد بن أبيهِ) على ابْنِ رَسُولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليْه وسلم...شَعَرَ أبو الأسودِ لمَّا جاءهُ الخَبَرُ بالحَنَقِ والقَهْرِ، وأزعَجَهُ تطاوُلُ الصِّغارِ على كُبَرائهِم، وتَمادَوا فَوَصَلُوا إلى فِلْذَةِ كَبِدِ النبيِّ صلى اللّه عليه وسلم فقال يَسُبُّ زيادًا وأولادَهُ، ودولتَهم، ومَنْ يَقِفُ وراءَهم ويُؤَيِّدُهُم ،ويَشُدُّ على أيديهِم، ويَتَّهِمُهم بالغَدرِ والخِيانَةِ، ويَدعو اللّهَ أنْ يَمحُوَهم ويُخلِّصَ الأُمَّةَ من شَرِّهِم:

أقولُ وذاكَ مِنْ جَزَعٍ ووَجْدِ
أزالَ اللّه مُلكَ بَني زِيادِ

وأبْعَدَهُم، بما غَدَرُوا وخانُوا
كما بَعِدَتْ ثَمودُ وقَومُ عادِ(٥٦)

وأمَّا مالِكُ بنُ الرَّيب التَّميمي(٥٧): الذي كانَ لِصًّا وقاطِعَ طَريقٍ ،يَعتاشُ مِنْ سَطوِهِ على قَوافِلِ التِّجارَةِ، فيأخُذُ مِنَ التُّجَّارِ أتاوَةً. اسْتَنْقَذَتْهُ رحمَةُ اللّهِ فَهَيَّأتْ لَهُ سعيدَ ابنَ عُثمان بنِ عَفَّانَ، فَضَمِنَ لَهُ مَردودًا مادِّيًّا أفضَلَ ممَّا يَكسِبُهُ، إنْ هوَ رافَقَهُ إلى خُراسانَ، فوافَقَ وحَظِيَ بالسَّعدِ والخَيْرِ والتَّوفيقِ معَ سَعيدٍ.. كانَ مالِكٌ أيامَ شَقاواتِهِ قد أغضَبَ الحَجَّاجَ، وامْتَلأَ هو بِالمُقابِلِ غَيْظًا وحِقْدًا ليسَ على الحَجَّاجِ فَحَسب، وإنَّما على النِّظامِ الذي أفرَزَ الحَجَّاجَ وأمثالَهُ ممَّن احْتَجَنُوا مالَ اللّهِ واحْتَكَروهُ لَهم ولِزَبانِيَتِهم ،الذينَ يَصْطَفُّونَ خَلفَهم يحْمُونَهم ويُدافِعُونَ عَنْهم، لأنَّهم شُرَكاءُ لَهم

في سَلبِ مالِ اللّهِ، وجَعلِهِ حِكْرًا عليْهم وعلى مُؤَيِّديهِم ومُناصِريهِم، وحَرَمُوا الآخَرينَ حُقُوقَهم في مالِ الدَّولَةِ الذي يَنْبَغي أنْ يَكونَ لِمَنْفَعَةِ جَميعِ عِبادِ اللّهِ، وليسَ لِلأتباعِ والأذنابِ والمُنافِقينَ مِن كِلابِ السُّلطانِ، قال مالك يَتَّهِمُ آلَ مَروانَ بنِ الحَكَمِ بِالجَورِ والظُّلمِ وإذلالِ الرَّعيَّةِ، وتَقريبِ الأذيالِ والأنْذالِ والسَّاقطينَ، وإبْعادِ الأبرارِ والأخيارِ وأصحابِ السُّمْعَةِ الطَّيِّبةِ.. :

قالَ مالك بن الريب يَسُبُّ آلَ مَروان بن الحكَم، ويَصِفُهم بِالجَورِ والظُّلمِ، وإذلالِ الأتقِياءِ الأنْقِياءِ مِنَ الرَّعيَّةِ، ويشتمُ الحجَّاجَ ابنَ يوسف الثقفي، واليَهم على العِراقِ وشَريكَهم في كبتِ الصَّالحينَ البَرَرَةَ من أبناءِ الأُمَّةِ، واحتِضانِ الطَّالحين الفَجَرة منَ المارقينَ، والمُتَسلِّطين على مَصالِحِ الناسِ، النَّاهبينَ لِخَيْراتِ البِلادِ:

فَإنْ تُنْصِفُونا يالَ مَروانَ نَقْتَرِبْ
إلَيْكم، وإلاّ فَأْذَنُوا بِبِعادِ
فَإنَّ لَنا عَنْكُمْ مَزاحًا، ومَزْحَلاً
بِعِيسٍ إلى ريحِ الفَلاةِ صَوادي[٥٨]
فَفِي الأرضِ عن دارِ المَذَلَّةِ مَذهَبٌ
وكُلُّ بِلادٍ أُوطِنَتْ كَبِلادي
فَماذا عَسى الحَجَّاجُ يَبلُغُ جَهْدَهُ
إذا نَحنُ جاوَزْنا حَفيرَ زِيادِ
فَلَولا بَنُو مَروانَ كانَ ابْنُ يُوسُفٍ
كما كانَ عَبْدًا مِن عَبيدِ إيادِ
زَمانَ هوَ العبْدُ المُقِرُّ بِذِلَّةٍ
يُراوِحُ صِبْيانَ القُرَى ويُغادي[٥٩]
فَباسْتِ أبي الحَجَّاجِ واسْتِ عَجُوزِهِ
عُتَيِّدُ بَهْمٍ تَرْتَعي بِوِهادِ[٦٠]

وبعدَ سُقُوطِ دولةِ بَني أُميَّة عام ١٣٢ هـ ولَّى أبو العَبَّاس السَّفَّاح عَمَّهُ عبدَ الصَّمَدِ بن عليّ على الحِجازِ.. فانتَقَمَ مِنَ الأمويينَ شَرَّ انتِقامٍ، فبَداً يَسْتَلُّهم واحِدًا بعدَ الآخَرِ، من هُنا وهُناكَ، ويَقتُلُهم ثَأرًا.. وكانَ يُنْشِد :

ولَقد شَفَى نَفسي وأبْرَأَ سُقْمَها
أخذي بِثَأري مِن بَني مَروانِ
وَمِنَ آلِ حَرْبٍ، ليتَ شَيْخي شاهِدٌ
سَفْكي دِماءَ بَني أبي سُفيانِ[٦١]

وبعدُ، فَهلْ يُصَدِّقُ قارئنا العزيزُ، بعدَ هذهِ الرِّحلةِ القَصيرَةِ، التي عَرَضْنا فيها أمثِلَةً مِن شِعرِ المُعارَضَةِ، في عَهدِ بَني أميّةَ، أقولُ: هل يُصَدِّقُ قارئنا ما يُشيعُهُ

المَبْهُورونَ بالثَّقافَـةِ الأوروبيّةِ الوافِدَةِ، التي يدُسُّ دُعاتُها وشَياطِينُهـا السُّمَّ في الدَّسَم، ويَمْلؤونَ أدمِغَةَ شَبابِنـا والبُسَطاءَ مِنْ أبناءِ شَعبِنا بأكاذيبِهِم، يَدَّعُونَ أنَّ الشُّعُوبَ العرَبيَّةَ تُســاقُ بالعَصـا، فَتُظلَمُ وتُمْتَهَـنُ، فَتَخْضَعُ وتَذِلُّ وتَنساقُ، وقد طَأطَأتْ رأسَها، وخَرِسَتْ ألسِنَـةُ شُعَرائها ومُتَكَلِّميهـا، وتَظَلُّ طويلاً طَويــلاً مَخْفُوضًا رأسُهــا، مَقْطوعًا مِقْوَلُها. يَسُومُهــا حُكَّامُها أبشَعَ أنواعِ القَهْرِ والإذْلالِ والكَبْــتِ ؛ فيُحَطِّمونَ ما ارتَفَعَ في وُجوهِهِم مِنَ الرؤوسِ، ويُسْكِتُــونَ ما عَلا أمامَهم مِنْ أصواتٍ، ويَقْتَلِعُونَ ما نَبَس بينَ أيديهم –ولو كانَ خَفيضًا رَفيقًا– مِن ألسِنةٍ.

الهوامش :

١– أبـو دَهبَـل الجُمَحــي (...– ٦٣ هـ =. ..– ٦٨٢ م) اسمُـهُ وَهب بن زمعة بن أسَد، من أشرافِ بَني جُمَح، مــن قُرَيشٍ :أحد الشعراء العُشَّـاق المَشهورين، في شعرِه رِقَّةٌ وجَزالَةٌ، ولهُ ديوانُ شعرٍ مَطبوع / انظر أعلام الزركلي ١٢٥/٨.

٢– الطَّـفُّ (كمـا قال ياقوت): ما أشرَفَ مِنْ أرضِ العربِ على ريـفِ العراقِ، وإنَّما سُمِّيَ طَفًّا لأنَّهُ قريبٌ مــن الريـفِ، والطَّـفُّ هُنـا: أرضٌ من ضاحيَـةِ الكُوفَةِ كانَ فيهـا مَقتَلُ الحُسَيْنِ بــن عليّ رضي الله عَنهما/ انظر معجم البلدان ٣٦/٤. الحَميمُ: قَريبُكَ الذي يَوَدُّكَ.

٣– العصابَةُ: الجَماعَةُ خَيِّرَةً كانتْ أمْ شرّيرةً. النَّوكَى: الحَمْقَى، جَمعُ أنوك وهوَ الأحمقُ الجاهِلُ.

٤– معجم ياقوت ٣٦/٤.

٥– عبـد الله بــن همــام السلولي(. ..– نحو ١٠٠هـ– =. ..– نحو ٧١٨ م) شاعر إسلامــي من بَني مُرَّةَ بن صَعصَعــة، كانَ مُواليًـا للآلِ أبي سُفيان وهوَ الذي أقنَعَ يَزيد بن مُعاوية على البَيْعة لابْنِه مُعاوِيَة، كانَ يُقالُ لَهُ العَطَّار لحُسْنِ شعْرِه / الأعلام ١٤٣/٤.

٦– ديوان الحماسة بِشَرح التبريزي ٨٤/٣ وانظر مُروج الذهب ٦٦/٣.

٧– رَمْلَةُ وهِنْد: اسْمُ ابْنَتَيْ مُعاوية بن أبي سُفيان.

٨– السَّخينَةُ: أكلَةٌ كانتْ قُرَيْش تُعَيَّرُ بها، لِكَثرَةِ أكلِهم لَها. تَلعَقون: تَلحَسُون.

٩– مُروج الذهب ٥٣/٣. وهوَ في هذا البيت يَسْخَرُ مِمَّنْ كانَ صَديقًا لَهُ بالأمسِ ؛ وهوَ يَزيدُ بنُ مُعاوية، وهو الذي كانَ يَلهو بِصَيْدِ الأرانِبِ وتَربِيَةِ القُرُود.

١٠– عُقَيبَـة بــن هُبَـيرة (...– نحو ٥٠ هـ =. ..– نحو ٦٧٠ م) شاعر مُخضرم، عاش في الجاهلية والإسلام، ظلَّ حيًا حتى أيام مُعاوية / الأعلام ٢٤١/٤.

١١- أَسْجِحْ: تَرَفَّقْ وتَكَرَّمْ. بالجبالِ: الباءُ حَرفُ جَرٍّ زائد. الجِبالِ: اسْمٌ مَجرورٌ بالباءِ لَفْظًا، مَنْصوبٌ مَحَلاًّ على أنَّهُ خبَر ليس (أيْ لَسْنا جِبالاً).

١٢- أبو يَزيد: يَعني مُعاويَةَ نفسَهُ.

١٣- العقد الفريد ٢٨٢/٥ وانظر ديوان الحَماسة ٥٤/٣.

١٤- عَبدُ شَمْس: هوَ ابنُ عبدِ مَناف، وهوَ أبو أُمَيَّةَ وجَدُّ الأُمويينَ جَميعًا.

١٥- مُروج الذهب ٤١/٣-٤٢.

١٦- البيان والتبيين للجاحظ ٧٥/٤.

١٧- الأفيلُ والفَصيلُ كلاهما الصَّغيرُ من أبناءِ الإبل.

١٨- هذا الرجُلُ كانَ سَيِّدَ قومِه، ولم يَكنْ راعيًا، وإنَّما قيل لَهُ الراعي لإكثارِهِ وإتْقانِه لوَصْفِ الإبل.

١٩- أبو خُبَيْب: كُنْيَةُ عبدِ اللهِ بن الزُّبَيْر.

٢٠- انْظر ديوان الراعي ٢٤٩ / ط. دار صادر، ونُجَيْدة ابن عُوَيْمِر: تَصغير نَجدة بن عامر، وهو زَعيمٌ من زُعماء الأزارقة (فئة من الخَوارج).

٢١- دواهي: جمع داهية ؛ وهو الأمرُ العظيم المُنْكَر. الغُول :كُلُّ ما يَفتِكُ بالإنسانِ ويَغتالُ عَقْلَه.

٢٢- العَريف: رئيس القَوم وزَعيمُهم. حَيْزومَهُ: صَدْرَهُ. الأصْبَحيّة: السِّياط (وقد نَسَبَها لذي أصبَح وهو أَحَدُ مُلوكِ اليَمَنْ، وهوَ أوَّلُ مَن أمَرَ بصُنْعِ السِّياطِ أو باسْتِخْدامِها. مَغلول: مُقَيَّد.

٢٣- المَعقول: العقل.

٢٤- الحَمُولة: الدَّابَّةُ التي يُحمَلُ عليْها (وأرادَ الناقةَ أو الجَمَل). حويلاً: تَحَوُّلاً أو تَحَرُّكًا.

٢٥- ديوانه ٢٥٤/٢٥ والمَخاض: النُّوق الحَوامل، والمَخاضُ: اسمُ جَمْعٍ لا مُفرَدَ لَهُ منْ لَفظه، ومُفرَدُهُ منْ مَعناهُ (خَلِفَة والجَمْعُ خَلِفات) غُلُبَّةً: غَصْبًا وقَهْرًا. الأفيل: الصَّغيرُ منَ الإبل.

٢٦- حَرب: أرادَ أبا سُفيان (واسْمُهُ: صَخْرُ بنُ حَرب بن أميّة) مُغَلغَلة: رسالة. الرجُل اليَماني: هو الشاعرُ يَزيدُ بنُ مُفَرِّغ (قائل الأبيات) لانْتِسابِه إلى قَبيلةِ حِمْيَرَ اليَمانيَّة.

٢٧- رحمك: قُرباكَ. الأتان: أنثى الحِمارِ ووَلَدُها الجَحْشُ.

٢٨- نَهج البلاغة ٤٦٣/٤ وانظر أغاني دار صادر ١٩٤/١٨ وسُمَيَّة: هوَ اسمُ أُمِّ زياد.

٢٩- العقد الفريد جـ٥ ص٧.

٣٠- وقيل إنَّ الذي أرسَلَ إليْهِ هوَ عبدُ المَلِكِ بن مروان، عَرَضَ عليْه مالاً، وطَلَبَ أنْ يُقاتِلَ مَعَهُ ابْنَ الزُّبَيْر.

٣١- نهج البلاغة ٢٦٠/١.

٣٢- سهم بن حنظلة من بَني غَنيّ بن أعصُر، شاعرٌ فارسٌ من أهل الشام، أدركَ الجاهليَّةَ، وعاشَ إلى عصر بني أميَّةَ.

٣٣- تَجْمير الجيش: حَبْسُ عَناصرِه في ثُغُور(حُدود)البِلاد مُدَّةً طَويلةً، وقَطْعُهم عن أهليهم.

٣٤- معجم أساس البلاغة للزمخشري (جمر).

٣٥- البداية والنهاية ١/١٦٩٨.

٣٦- جواس بنُ القَعطَلِ شاعر إسلامي، كانَ معَ قبيلته (كلب) من أكبَر مُؤَيِّدي بَني أميّة (والقَعطَلُ في اللُّغَة: الكثيرُ الكلام).

٣٧- جابية الجولان: بلدةٌ انْدَثَرتْ، كانتْ تَقَعُ جَنوبي دمشق، وشمالي قرية الصَّنَمَيْن. ابنُ بَحدَل: اسْمُهُ حسان بن مالك الكلبي، كانَ أمير بادية الشام على عهد بَني أميّة، وكانَ أوَّل من أعانَ مروان بن الحَكَم على الحُصُول على مُلك الشام ،بعدَ سُقُوط الدولة السفيانية، وقد سُلِّمَ عليْه بالخلافَة أربعينَ يَومًا، قبلَ الاتِّفاق على مَروانَ واسْتخْلافه.

٣٨- الباذخ: الشامخ العالي.

٣٩- نَفحتَ: دَفعتَ. السَّجْل: الدَّلو العظيمة.

٤٠- بُطنان: موضع بقِنَّسرين قُربَ حَلب في شمالي سورية.

٤١- الصِّيد: جمع أصيَد: وهو المُتَكَبِّرُ ذو القُوَّة. الكُماةُ: جمعُ كَميّ ؛ وهو الشجاع المقدام والجريء.

٤٢- الطِّعانُ: القِتالُ بالرِّماح والضِّرابُ يكونُ بالسيوف. تَجَلَّتْ الغُمَّى: انْكَشَفت الشِّدَّةُ.

٤٣- الحَجَر البعيد: يُريد المكان البَعيد، وفي روايةٍ: الحَجز (أيْ الحجاز). النِّياطُ: ما يُعَلَّقُ عليْه الشيءُ (كأنَّهُ يُريدُ أنْ يَقُول: والشامُ تَنْكرُكم لأنَّكم غُرَباءُ عنْها.

٤٤- ذَكَرَ قيسًا لأنَّها كانتْ تُؤَيِّدُ عبدَ الله بنَ الزُّبَيْر، وضدَّ بَني أميّة.

٤٥- عُبَيدُ الله بنُ قَيس الرقيات (...- نحو ٨٥ هـ =...- نحو ٧٠٤م) شاعرُ قُرَيْش في عَصْره، ثارَ على بَني أميَّةَ معَ ابن الزُّبَيْر، وكانَ صَديقًا لمُصعَب، لُقِّبَ بالرُّقَيَّات لأنَّهُ تَغَزَّلَ بثَلاث نسْوَة ؛ كُلُّ واحدَة منْهُنَّ اسْمُها رُقَيَّة / انظر الأعلام ٤/١٩٦.

٤٦- شَعواءُ: مُنْتَشرَةُ فاشيَةُ (لَها فُروعٌ وذُيُولٌ).

٤٧- ديوان الرقيَّات ص١٧. تُذهل الشيخ: تُنْسيه. العَقيلة: المَرأةُ الكريمَةُ المُخَدَّرة. البُرى: جمعُ بُرَة، وهي الخَلخالُ (وهو حَلقةٌ كانتْ تَلبَسُها النِّساءُ في أرجُلهنَّ للزِّينَة) وتُظْهرُ النِّساءُ خَلاخيلَهُنَّ عندَ الخَوف والهَزيمَة.

٤٨- الكميت بن زيد الأسدي شاعرُ الهاشميين، وهو من أهل الكوفة ،كانَ شاعرًا وخَطيبًا وفقيهًا وفارسًا

شُجاعًا / انظر الأعلام ٢٣٣/٥.

٤٩- المُهنَّد: السيف. القَطيع: السَّوط.

٥٠- أغاني دار صادر ١٤/١٧ وانْظُر البيان والتبيين للجاحظ ٦٣/٤. والحَيَا: المَطر.

٥١- هذا الرجل من أحفادِ أبي لَهب، وهو شاعرٌ من فُصَحاء بَني هاشم، مالأ بَني أميَّةَ فَترَةً، ثمّ هَجاهُم ،مات سنة ٩٥هـ.

٥٢- مَوالينا: هُنا بمَعنَى أقاربنا وأبناء عُمُومَتنا.

٥٣- نَحَتَ أثلتَهُ: قَرَّعَهُ وعابَهُ، والأثْلُ في الأصْلِ شَجَرٌ كانتْ تُصنَعُ من خَشَبِهِ القِصاعُ، ونَحتُهُ: قَشْرُهُ وبَرْيُهُ.

٥٤- ديوان الحَماسة ١٢١/١. نَقليكم: نَكرَهُكم؛ منَ القِلَى: وهو البُغْضُ والكُرْهُ.

٥٥- اسمُهُ ظالِم بن عَمْرو الدؤلي الكناني، وهو الذي وضَعَ علمَ النَّحو، ولِيَ إمارة الكوفة في عهد عليّ، ولمّا استُخلفَ مُعاوية سايَرَهُ، فَأكرَمَهُ وبالَغَ في إكرامِهِ، مات سنة ٦٩ هـ.

٥٦- انظر مروج الذهب ٨٣/٣.

٥٧- مالك بن الريب المازني التميمي (...-نحو ٦٠ هـ=. ..- نحو ٦٨٠ م) شاعر من الفُتّاك الظرفاء، اشتُهِرَ في أول عصر بني أمية، رافَقَ سعيد بن عثمان بن عفان فَجعَلَهُ مُجاهِدًا من أتباعِهِ، عُرِفَ برِثائِهِ لِنَفسِهِ في قصيدتِهِ الشَّهيرَةِ التي مَطلَعُها :

ألا ليتَ شعري هل أبيتَنَّ ليلةً

بوادي الغَضا أُزْجي القِلاصَ النَّواجيا

٥٨- مَزاح: مُنْتَأى ومُتَنَحَّى (أيْ مَكان نَبْتعدُ فيه عَنْكم). والمَزْحَلُ مِثْلُهُ. العيس: الكرامُ منَ الإبل جمع أعيَس وعَيْساء. صَوادي: عَطْشَى (يُريدُ إبِلاً مُشتاقةً لِلصَّحراءِ والبُعد عن الحُكّام الظالمين).

٥٩- يُراوِحُ: يَتَعامَلُ مَعَهم في المَساءِ، يُغادي: يتَعامَلُ مَعَهم في الصَّباح.

٦٠- الكامل للمُبَرّد ٣٠١/١ وانظر ديوان الحماسة ١٠٩/٢ والأبياتُ في ديوان الحَماسة مَنسوبةٌ للفرزدق. الاسْتُ: حَلقَةُ الدُّبُر. عُتَيِّد: مُصَغَّرُ عَتُود: وهو الصَّغيرُ منَ المَعْزِ (الجَدْي) والبَهْمُ: القَطيعُ منَ صِغارِ الغَنَم. الوِهاد: جمع وَهْدَة؛ وهي الأرض الخَفيضة.

٦١- مروج الذهب ٤٠٢/٣.

الدراسات والبحوث



اللــون.. والشــعر

غسّان قنديل ❁

يجب أن لا نفترض أن اللون لاستعمال الرسامين فقط.. فقد لعب دوراً هاماً في كلّ مجالات الحياة.. ومن الصعب جداً التخيل، أن الحياة تخلو من اللون أو لم تكن لدينا القدرة على رؤية الحياة دون اللون.. ففي التصوير والرسم بديهي استعمال الألوان «في إطار الرمز.. سعياً وراء دلالات جديدة تزيد من الآفاق.. وتجعل شكله هو معناه وتمامه. ولا معنى هنا مطابقاً في أن نسأل أو نفتش عن معنى هذه اللوحة. لأن اللون هو ماهيتهُ. فإلى هذه الماهية أو هذا الشكل اللوني، يعود الجمال الفني وتعود المتعة الفنية»[1]

❁ ناقد وباحث سوري

العمل الفني: الفنان محمد غنوم

أمـا استعماله في الشعر فله نكهته الخاصة وأهميته، وسيتضح ذلك تباعاً.

أولاً: توطئة:

عرف الإنسان الأول منذ القدم تأثير الألوان على حياته، فالطبيعة تحيط الإنسان بـالألـوان. «الـذي أسـاسـه ضـوء.. وتلعب الفيزياء دوراً لتحليله، وقياس موجاته».

وللألوان دور حيوي في حياته.. ومكنت الإنسـان من التعامل مع عناصر الكون.. وبها يميز المساحات والكتل، ويفرق بين التشابهات، من الموجودات الطبيعية، وبها يُعبّر عن عواطفه ومشاعره، في كل مجالٍ إبداعي.. ونتيجة لابتكار الأجهزة الدقيقة، والوسائل الحديثة.

استطاع الباحث أن يُسجل جميع الانعكاسات، التي تصدر عن الإنسان «نفسياً أو جسمانياً» على سعادتنا وحزننا، إقدامنا وإحجامنا.. وقد سجل كذلك التأثيرات المباشرة التي يمكنها أن تُظهر تكويناً عاماً بمظهر الفرح أو الحزن، الخفة أو الثقل مثلما تُثير الإحساس بالبرودة أو السخونة.

والتأثيرات غير المباشرة وهي التأثيرات التي تتغير تبعاً للأشخاص، ويرجع مصدرها إلى الترابطات العاطفية والانطباعات الموضوعية أو غير الموضوعية المتولدة تلقائياً من تأثير اللون، الذي يسبب:

١- سرعة دقات القلب.

٢- تعدد حركات الجفون فتحاً وإغماضاً.

٣- ازديـاد قابلية الكف لتوصيل الحرارة والكهرباء وازدياد رطوبتها وإفرازها للعرق.

٤- اختلاف في الرسوم البيانية التي تسجل للمخ.

لأن الكائن البشري «فعل، فكر، هندسة حواس وبـؤرة فعل وانفعال» ولكن كيف سيتضح ذلك في استعمال اللون كمفردة في الأدب بكل أنواعه. وهنا يمكن التركيز على الشعر مع تنويه بسيط للمجالات الأخرى.

ثانياً: اللون في قراءة النفس(٢)

- **اللون البرتقالي:** يوحي بالدفء والإثارة والتوهج تأثيره لطيف على البعض في حين يراه البعض الآخر مثيراً للتوتر، «مزيج من اللون الأحمر + الأصفر».

- **اللون الأصفر:** لون الشمس.. لون المزاج المعتدل والسرور حيث استخدم في علاج بعض الأمراض العصبية.

- **اللون الأخضر:** لون الطبيعة يوحي بالراحة إذ يضفي السكينة على النفس ويساعد الإنسان على الصبر.

- **اللون الأزرق:** يبعث على الشعور

بالاسترخاء، ويخفف من حدة الانفعال.

- **اللون الأحمر**: يزود أجسامنا بالطاقة والحيوية.

- **الـلـون الـبـنـفـسـجـي**: تقوية القدرة الروحية والنفسية.

- النيلي: له تأثير كبير على الجسم والنفس.

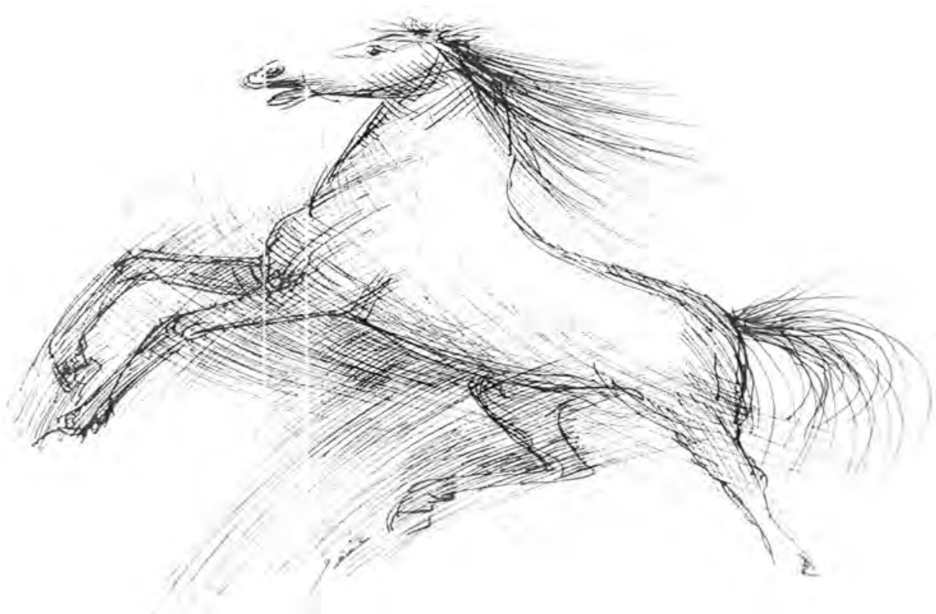
باختصار الألوان كيان نحبه.. ونتعامل معه.. ومؤشر لتجسيد الإنسان من خلاله.. ما يراه.. والألوان تدخل في تكوين كل شيء حولنا. وقد يأتي اللون خليطاً من لونين.. فيأخذ المعنى الكلي لهذين اللونين البنفسجي مثلاً.. مزيج الحمر والأزرق.. إلخ.

فلذلك قد نطرح السؤال فيما نبحث عنه، أو نستعيد من خلال جملة نثرية أو قصيدة شعرية ما يكون في المستقبل مصدراً لسعادتنا، ومصدراً للتذوق أو الفهم الحقيقي للدلالة اللفظية في الجملة أو البيت الشعري. وكان اللون يطرح أسئلته.. من خلال النور الذي يتسرب بين الكلمات والألفاظ.. ومن خلال المعاني الذي يُقدمها أصلاً للقصيدة.

ومن خلال القدرة على التوضيح المبكر للمعنى، الـذي يُعوضـنـا عـن الـعـودة إلى المعاجم والمصادر اللغوية الأخرى في الفهم والتوضيح. ويقدم لنا المشاعر الصادقة التي تزهر في كل الفصول، ويقدم لنا الزمن الذي يحسبه المرء بالدقائق والساعات بلون أو كلمة عن اللون. فعندئذ تأتي الإجابة على كل الأسئلة بفهمنا اللون والمدلول النفسي له.

ثالثـاً: استخـدام اللـون في القصيـدة الشعرية

«يحضر اللون في الشعر كمفردة وكمكوّن أساسي لبناء الصورة، مما يجعله يشكل عنصراً أساسياً في التأثير الشعري، ومن ثم التفضيل الجمالي للشعر.» ويُشير اللون إلى المصدر الأساسي -مكاناً وزماناً أو نفسياً- مما يتوافق مع المضمون عندئذ، يتشكّل المعنى الذي يشمل النشاط والحياة الفاعلة التي تعني النفس /كما ورد/ ومدلولاتها النفسية التي تشير أحياناً إلى أن الحقيقة باللون ترتبط بالمكان وهذا المكان في اللوحة «السطح» الذي يفرض قوانينه وألوانه بينما يخرج من المكان المؤطر إلى شاشة «أو مَدّاً» فيصبح كالضباب تتشكل عليه الصور أو اللوحات، كل هذا يبقى في بؤرة المكان.. الذي يتصف بالغموض وصعوبة التمييز والرؤية.. في الضباب تكمن لوحة تحمل طيفها اللوني وخاصة عندما يخترقها الضوء الذي هو بحد



ذاته لون -كما ذكرت- فتتشكل الصور، ثم تستوي في اللوحة موضوعها.. فنشاهد توقيع الفنان عليها.. ثم لا تمضي أيام فيقدم لنا مشهداً تشكيلياً آخر مهياً لاستقبال الصورة والمشاعر وإمكانية التقديم على سطح يختاره لنفسه.

«ويتم تمييز الأشياء بوضوح عن محيطها وعن الفضاء الممتد حولها فعاد اللون والضوء والدرجة والخط لتصف الإحساس بهذه الأشياء وليس الأشياء كما نحسها. غدا اللون لغة للتعبير في حد ذاته، وغدت درجات اللون عنصراً إيقاعياً حراً في بناء فضاء الصورة»(٣).

وأخذت الكلمات والجمل «مكونات القصيدة» تلعب دوراً في تنظيم الصورة التي يراها القارئ.. وإن الحشد من الأفكار التي تصف الموقف أو المكان أو الزمان.. أو أي شيء آخر.. يأتي اللون ليصفه بكلمة أو اثنتين -ويُشكل طرقاً للتفكير بشكل سليم. وقد يشتمل نمطاً شخصياً في التفكير والفهم. ويمكن توجيه النقد لما أطرحه، ولكن أثبتت التجربة(٤) في نهاية الأمر أن القصيدة التي تحتوي على اللون، أسرع للفهم، والتشكل الذهني، ويميلون إلى التفكير والمحاكمة وتشكيل ذلك الفضاء الحسي في الصورة، وتقديم فكرة متطورة في شرح القصيدة

بيتاً.. بيتاً، ثم الفهم العام لها.. مما قدم ذلك تمايزاً في الثقافة ومستويات الطلاب. وفهمهم للون من الناحية النفسية.

وهنا تدخل القراءة الوصفية ليستقصي البنية والوحدة الفنية وبعض الأحيان الشكل الذي يسعى إليه ليثبت المكان بحركات ومفردات مسقوفة المعنى بينما اللون في الشعر يستجيب للصورة تشكيلياً.. يقدم المعنى النفسي في العمق للدلالة على المعنى «يذهب الشاعر بول شاؤول إلى فرض طاقة تشكيل هائلة على المكان، وضغط مساحة الورقة بكثافة من التشكيلات المكانية المتنوعة الأشكال والمهام.

الصحراء المطلية بالفضة تنفتح عليها عيون مقروحة
ترن على حجارتها أوراق المعدن
الصحراء المبهورة الشمس سوداء كادت
أن تنتظر
هذا السكون الشمعي على الرؤوس
هذه الجدران البلورية في الحلم

إذ يحرّض القرّاء على معاينة الحشد اللافت من المفردات التشكيلية -الممكنة- شعرياً، والمعبأة بصلاحية فعل تشكيلي يوحي بسطح اللوحة أكثر من إيحائها بسطح الورقة.

فالتشكيلات المتنوعة «الصحراء المطلية /الفضة/.. عيون مقروحة /حجارتها/ أوراق المعدن/ الصحراء المبهورة /شمس سوداء/ السكون الشمعي /الرؤوس/ الجدران البلورية/ الحلم تتشابك تشابكاً لفظياً ودلالياً، وينزع كونها السيميائي المشترك إلى استدراج سطح اللوحة، نحو استقبال هذه التشكيلات ذوات القابليات التدليلية المتمركزة حول لغة سينمائية، تعرض حالات النكوص والإحباط والتشيؤ وتصور إشارتها الخاطفة من الداخل».(٥)

إن هذه الاتصالية والتضمين المتدرجتين قدمت لنا عملاً تشكيلياً تشتمل الخيال والمنطق، والمفاهيم النفسية، عندما يقول شاعرنا «شمس سوداء» وهي ذات الألوان السبع كما ذكرت. فهنا يشير إلى المدلول النفسي، لنقرأ بعدئذ ما وراء هذا المدلول.. فنكون أوجدنا علاقة متتابعة ومتصلة، ومتكررة لنصل إلى المفهوم العام للقصيدة دون أن يُغرقها الشاعر بالحشو أو الكلمات الزائدة ليوضح لنا ما يقصده بعدئذ. فاللون هنا وفرّ علينا قراءات عدة امتدت عبر مفهوم اللون التشكيلي والنفسي. إلى المفهوم اللغوي الشعري إلى جانب الشعور بالدفء -أو البرودة كون الألوان تمتع بهاتين الميّزتين.

الألوان الباردة، والألوان الحارة.. التي تنطلق أصلاً من الشعور والإحساس النفسي بذلك. ما يدفع المرء القارئ بالانفعال، وتجسيد الخيال لديه، كما يُخلقُ حالات انفعالية للنفس والعين.. النفس المتمتعة، والعين القارئة، والشفافية والجمال ومنهم من وظّف اللون الأبيض، اللون الذي يقدمه التشكيليون مركباً من ألوان الطيف «قرص نيوتن» وعاكساً للضوء بكل موجات الألوان المركب منها- إنه النور حيث وظف الشاعر محمد عمران اللون الأبيض «بدلالته المختلفة توظيفاً ملائماً لطبيعة السياق، في قصيدته:

للصباح الذي يتفتح قلبٌ من الثلج
يهطل فوق سياج الحديقة
غرف في بياض المدى
ومقاصير غيم،
وفوق المدى يغسل الثلج وجه السماء العتيقة
باردٌ قلب بيتي
سأوقد هذه الجذور
وأفتح أبواب روحي.
وأدعو إلى دفئها الرحب.. روح الخليقة

وما الثلج هنا إلا رمز للطهر والنقاء والشفافية والجمال وهذا يدل على أن الشاعر يعشق الحيوية والشفافية والصفاء، بمعنى أدق: إن الشاعر متصوف في الجمال وحب الخير والنقاء.

إن ظهور اللون الأبيض يرمز دائماً إلى انتصار الخير، إنه النور الذي يسحق الظلام ويبشر بالأمل.(٦)

- وقد يُقدم لنا الشاعر الزمان والمكان بشكل واضح من خلال اللون.. الصباح. الظهر. المساء. الليل. بالنسبة لليوم الواحد.. ولكل الفصول بالنسبة للسنة حيث لكل فصل لونه.. الذي يتصف به.. ويقدم اللون الطبيعة «السهل- الجبل- البحر- إلخ..» بمفردة أو أكثر من اللون، فتلبي الرغبة في الكتابة «شعراً كان -أو نثراً» بأقل كلمات.. وأجمل تعبير.. ولاسيما أن الألوان تحتاج إلى الفكر التأملي الذي يحتاجه القارئ، حتى لا يسقط في حب التنظير، وكذلك لن يصل إلى معرفة القصيدة ويعيش عندئذ داخل القصيدة، التي هي بالأصل أصبحت لوحة تشكيلية مع الفارق بينهما من الناحية الشمولية، حيث اللوحة تطرح أدق التفاصيل بينهما الشعر يوصلك إلى هذه التفاصيل، ويجعلك في أحضان الطبيعة أو الجو الكائن في روح الشاعر التي تحرسها عاطفته الصادقة وقدرته على إيصالنا إلى لوحة تناغمية تقدم لنا من خيال الإبداع

الذي نلحظه في اللوحة والشعر، فيقدمان دورة المكان، والزمان كما أكد الدكتور علي أسعد وطفة «الأحداث رهينة بدائرتي وجود تتمثل في الزمان والمكان. وإذا كانت لحظات الزمن تتجسد في إيقاعات الماضي والحاضر والمستقبل، فإن اللحظات المكان تتجسد في إيقاعات القداسة والوضعية وهذا يتطلب موقفاً إنسانياً يتمثل في علاقة خضوع للطبيعة ومعطياتها أو علاقات سيطرة عليها.[٧]

- استطاع الفنان أن يُقدم اللون في السياسة كما قال الشاعر كمال فوزي الشرابي:

«يا حرية!
وجه العرب أمامك أسود
وجهي أسودْ
وطني أسود
خبزي أسود
حرفي أسود
حتى الدمع بعيني أسود»

وهذه الصورة الظلامية تعكس رغبة الشاعر في التعبير عنها وما كان إلا اللون الأسود وحتى تشكيلياً ظلامياً.. فلا يبقى آنذاك من أمل سوى اعتماد الحرية الحقيقية فالمفردات اللونية التي تتوزع بين المحسوس والمرمز، تقدم لنا الدور الذي يقوم به اللون، في إيضاح إحداهما الرمز -المحسوس.

- أما محمد عمران فقدم لنا «اللون الأزرق مع اللون الأخضر للدلالة على الخصوبة والجمال والخير والعطاء وهذا ما يعكسه قوله:

لكن الريح مواتيةٌ
والبحر أزرق
البحر أزرق أو أخضر
افتحوا الأشرعة
افتحوا أشرعة الأطفال والغنيات
أعلنوا الفرح

إن اللون الأزرق يتضافر في هذا النص مع الأخضر للدلالة على الحيوية والجمال والفرح على هذا النحو، استطاعت الصور اللونية أن تؤدي دوراً فاعلاً في إثراء التجربة الشعرية -عند الشاعر محمد عمران- نظراً لارتباطها بالدلالات النفسية والمجازية والخروج بها من الإطار المحدود إلى اللامحدود، كما أكدت وعي الشاعر بما يمثله عالم الألوان من أهمية في الصياغة الشعرية».[٨]

«استخدام اللون لضرورة القافية كما هو الأمر لدى الشاعر عبد الكريم الناعم

العشب الأخضر

عيناك خضراوان

الوقت حارس سور

بالماء والرهان

العشب أخضر

عيناك خضراوان

الوقت غابة الأقداح والدنان

والقلب مقمر

العشب أخضر..إلخ».(٩)

ويأخذ اللون في الاستخدام المدلول الديني الذي يستند إلى الأبعاد النفسية والاعتقادية التي تكسب القصيدة مستويين جمالي ودلالي واعتقادي لما يعكسه اللون بحساسيته التشكيلية والشعرية، إلى تقديم اللون بما يناسب الحالة الدينية والاجتماعية فيصبح بالأخير تقليداً اجتماعياً يظهر في حياتنا اليومية «الزي الديني» «استخدام الألوان نعوتاً متعددة كما هو عند الشاعر محمد علاء الدين عبد المولى في قصيدته:

من جدل القلب:

هذا أنا: صياد أشواق وصيد للصدى

فخذي جميع أفراسي الزرقاء والخضراء والحمراء

والتحفي بأجفاني نامي».(١٠)

والشاعر فؤاد كحل بقصيدته «الحب» وظف التباين بين الأسود والأبيض كدلالة نفسية من شأنها رفع شأن الإنسانية. حيث قال:

«في اشتعال الجسد

يتداخل دفء السواد

بدفء البياض

في انتصار الأمد

تتماهى الفوارق

مبدعة كوكباً

لانبجاس الرياض».(١١)

كما عبر الفن عن الحركة عن طريق اللون، عن طريق تنظيم تدريجي للألوان وفق تسلسلها في تحليل الضوء، ووفق تدرج من لون إلى آخر.. أو تكرار اللون، وتقديمه بدرجات متتالية، تشعر العين عندئذ بالحركة، وهذا ما يخدم الشعر، ويقدم لنا الصورة الشعرية المتحركة كما سيتضح معنا لاحقاً، وسيتضح لنا البعد الثالث الذي نطلق عليه الحجم في مخيلتنا خلال قراءة القصيدة.صحيح أن الشعراء قدموا اللون كمفردة لغوية، خدمت النص فهذا بالأصل لم يقتصر على الشعر، وإنما أخذ النثر النصيب الأكبر في اعتماد اللون كدلالة نفسية وجمالية منذ القدم.. وخاصة الروايات الحديثة وقد ورد اللون في قصائد الأقدمين كثيراً وهنا التأكيد على الدور الذي يلعبه اللون في

القصيدة الذي يتم بعملية معقدة- بالآخر تعتمد على الفكر التأملي، الذي يخلق لدى الفنان الحركة الدائمة والقائمة في داخل الفنان نفسه.

رابعاً: قراءة نفسية وحسية للون في القصيدة «مقاربة»

انتشرت الأفكار الجمالية منذ عصور، وأخذت المفاهيم أو المصطلحات تتبلور في الثقافة المعاصرة فأصبح لعلم الجمال الفروع المختلفة.

علم الجمال البنيوي، وعلم الجمال الاجتماعي، وعلم النفس الجمالي، وعلم الجمال البيئي وأسمح لنفسي طرح علم الجمال الحسي والنفسي لإدراك نظامه في الأدب، وخاصة الشعر. فعلم الجمال قدم لنا طرقاً كثيرة للكشف عن العلاقات الجمالية، في الأشياء الإبداعية، وفي طبيعة الأشياء الجمالية التي أنتجته.

على اختلاف وجهات النظر في المفهوم، وفي الأسباب الكامنة في مجموع الظروف الطبيعة والاجتماعية، والزمن.. قدم علم الجمال النفسي النظر إلى العمل الفني من حيث جوهره وأهدافه وتطوره التي ترتبط ببعض الخصائص النفسية والاجتماعية.. وأنه علم الأثر الفني بما هو رمز.. وهذا الرمز يكشف لنا العلاقات الجمالية في مباني النص ومعانيه. وهنا الرمز اللون.. والشعر مجموع الرموز التي يتكون منها.. فتزوّد القارئ بفرصة جمالية حسية، وإدراك وشعور باللذة أكثر.

«بيد أن غالبية الفنانين لا يكتفون بالإنتاج بلا تبصر متبعين إرشادات استعداداتهم الكامنة بل يتخذون لأنفسهم مثلاً أعلى، مقلّداً أو أصيلاً محاولين قدر المستطاع تقريب إنتاجهم منه، أو صورة مركبة لأثر فني، أو خاصية أثر فني تخيلوا أنها زُوِّدت جميع الصفات التي يعجب الفنان بها ويحاول تحقيقها. إنها هنا صورة مصحوبة بالرغبة، صورة انفعالية وهي بهذه الصفة قادرة على إثارة أعمال.ولكننا نعلم أن الرغبة في نظر علم النفس تعبيرٌ واعٍ عن استعدادٍ تامٍ يبغي الظهور، وقوة عضوية مقموعة ذات أهلية أو استعداد للقيام بدورها».(١٢)

ولقد ارتبط الشعر بلحظة من اللحظات بالشيطان الشعري كما ارتبط الفن التشكيلي بالسحر. وذلك للتعبير عن ربطه بالقوى الخفية والأثر الانفعالي..

- هنا يجتمع «السحر -الشيطان» في صورة الإنسان الإبداعية وفي نشاطه

الاجتماعي في جميع مجالات الحياة.

وانتشر هذا في أوقات عديدة وكثيرة.. وحتى أصبح كمعتقدٍ، بدأ المبدعون دراسته وتحليله.. فمهما اختلفنا يبقى المفهوم يُبحَث من الجمالية في بنية النص ومعانيه وخاصة إذا كان اللون هو الرمز والكلمة التي تُبنى عليها القصيدة.

- الصورة: الشيء المادي الذي يخلقه الفرد من خلال استخدام الآلة أحياناً والإبداع بالفرشاة أحياناً أخرى «اللوحة».

أما التصوّر: طريقة نشغل فيها خيالنا لخلق صور في عقلنا.. ومن ثم تصبح فناً بكل المجالات «ويبقى الفن التشكيلي الحاضن الأساسي للألوان من خلال الإبداع في اللوحة..

ولعلَّ بعض المؤثرات الطفيفة التي قد تساعد على فك رموز اللون ومعناها الذي بفكرةٍ مضمرة، قد تكون مستبقة لفتح الحوار.. والاتفاق بين اليد، والبصر، الرؤى، المصدر الأساسي للعقل والروح.. ومن بعدهما الإبداع.

فالتجربة الحسية: مصطلح من علم النفس تأخذ النهايات القصوى والعليا للوعي.. فتصبح الذات.. هي الفراغ الحقيقي الممتلئ بالأحاسيس التي لا ترى، وإنما توجد بالمصدر الذي أساسه اللون في الشعر، أو مفهومه الناتج عن المصدر، فيتكون من خلاله الوعي المتألق بإشراقه الذي يتجاوز الأجسام والعقول والنفوس، وتتكون أيضاً الروح المتجاوزة لكل شيء، والشاملة لكل مفهوم، وممارسة لحريتها عبر المساحة التي تقدمها القصيدة هذا ما عناه راسكين في قوله: «إن كل الناس من ذوي التدريب الكامل والمزاج المعتدل يتمتعون باللون، واللون يقصد من أجل الراحة الدائمة للقلب الإنساني وبهجته، كما أن أسمى أعمال الخلق قد منحت اللون بثراء وكرم، وكأن اللون هو الإشارة والدليل العظيم على كمال هذه الأعمال» فالدور في الخلق، والشاعر يأخذ الثلاثية –الإبداعية- التصور- الصورة أو اللوحة فكيف –يتجلى ذلك الخلق؟

فمن خلال قصيدة للشاعر موفق نادر «أخذت عنوان حديقة!»(١٣)

«المقطع الثاني- والثالث – والرابع»

جاء المساء

غضت قليلاً سوسنات حلوة

لكأنما

حتى أزاهير الحدائق حين تعشق

لا يجافيها الحياء

وكأنما الأزهار كالعشاق
والغيد الأوانس
تغتلي كيداً إذا مرت بها النسمات
تعبث مرة بالشعر
أو نغفو على بتلات نهد قرنفلة
الآن تبدو المشكلة
حين الحديقة أصبحت
مرجاً من الدحنون
حنته الدماء

❁ ❁ ❁

هذي الحديقة في المساء
راحت تخبئ نفسها
في ظل عابق بالذكريات
وتسابقت أحلامنا البيضاء
كي تغفو على أهدابها
مثل الصلاة

❁ ❁ ❁

لم يبق إلا عاشقان
غزاهما صمت الكلام
شبكا اليدين
وقبل هذا
شابكا القلبين
والدنيا غرام

النص الشعري: جاء المساء

اللون: أزرق رمادي أو ترك لنا معرفة اللون في زمن معين ولحظة معينة.

النص الشعري: سوسنات

اللون: لم يحدد لونها بالضبط

النص الشعري: أزاهير وأزهار

اللون: لم يحدد لونها بالضبط

النص الشعري: بتلات نهد قرنفلة

اللون: الأحمر بدرجاته المختلفة.

النص الشعري: مرجاً من الدحنون حنته الدماء

اللون: يتبع للزمن في تحديد لونه.. وزمن خروجه من الجسم

النص الشعري: وتسابقت أحلامنا البيضاء

اللون: الأبيض

المعنى أو المدلول النفسي: الفنان من وجهة نظري هو صاحب موقف جمالي من الحياة. وقد نكتشف في هذا النص نصاً رائعاً مألوفاً.. ولكن عند لحظة التمعن، تجد نفسك أمام الحلم في الحديقة، تختار ألوان أزهارها وتخضع نفسك إلى شخصية مفتوحة على التأويل والتحليل، وتخضع لدراسات وتحليل وتفسير متعدد..أي هنالك تغير على المستوى الدلالي.. هذه حركة زمنية نفسية، متغيرة إيقاعياً. من الأخضر إلى الأحمر «بارد وحار» إذا افترضنا أن الشاعر اختار هذين اللونين.. مهما يكن تبقى الروح

تؤلف إيقاعات تنسجم مع مضمونه، لتأكيد دلالات الخصب والتجدد وتحقيق مناخات روحية تدخلك إلى قلب القصيدة، وقد تختار بنفسك من هذه الحديقة اللون.. والتصور الذهني.

ومفهوم التصور الذهني كما قال: نصر حامد أبو زيد «بأنه خليط من المشاعر والأحاسيس و التجارب والمفاهيم التي تختلف من شخص إلى شخص ومن بيئة إلى أخرى».

إذاً نحن أمام لوحة تشكيلية «متقنة الشكل، ومبدعة الموضوع، ومُنشئة للمكان الحديقة، وحاملة أسرار الحديقة، ومدخله القارئ في البناء» التي تحتاج منا التأمل في اكتشاف اللون، وكأنك تساهم معه في رسم الحديقة وكما تحتاج إلى عملية عقلية معقدة للدراسة، وأظن أن اختيار الألوان في هذه الحديقة، قد تتبع نفسية القارئ وفهمه للسياق العام في بناء القصيدة(١٤) بشقه المعنوي الذي أتاح الإمكانية لتجزئة الصورة اللوحة إلى صور أو مشاهد منفصلة متحركة أحياناً.. وساكنة أحياناً أخرى دون الحاجة إلى عرض الموضوع بكامله ولكنه اكتفى بتقديم الإنسان مع الحديقة بعمل من الأعمال الإنسانية، دون الحاجة التي يمكن اكتسابها بملاحظة حسية للطبيعة.. ولكنه أسهم بعد ذلك في تصوير الأشياء بطريقة أكثر عمقاً من الطبيعة نفسها.. الأزهار دون اللون.. للفهم.. ولكن القارئ المبدع يتماهى مع الأسلوب راسماً الصور أقل واقعية وأكثر عمقاً في الخيال والنفس.. وأخيراً يضعنا في محطة العشق المليء بالألوان

لم يبق إلا عاشقان
غزاهما صمت الكلام
شبكا اليدين
وقبل هذا
شابكا القلبين
والدنيا غرام

وعلينا هنا أن نختار لوناً لعشقنا، ليكون ظاهرة للحواس بتجسدها لمعناها النفسي والدلالي. من حيث إن الإنسان روح ونفس وجسد وعقل يلزمه لممارسة الحكمة في الوعي التأويلي في التعبير عن مفردات دلالية، تحقق دراما في التعابير، قد يكون في المشهد الواحد وقد يتجاوز ذلك الوعي المعرفي للكلمة ومعناها، إلى الوعي الجمالي الذي تأخذه العين المحددة للقيم الجمالية والمكونة للوجود المحسوس.. والحديقة تأخذ هذا الوجود.. ويأخذ القارئ عندئذ التأمل والبحث عن القيم الجمالية، وإن الاهتمام في

تأصيل الفكرة عن طريق اللون الذي يتجلى في سمو الوعي واهتمامه بكل الظواهر الإنسانية والكونية. وإن انتشار الأقوال المستمدة من الطبيعة أو من محاكاتها، تقدم تفسيراً للظواهر الجمالية، بتعاملنا معها.. ووصفها.. وانتشار التوازن في ساحة الروح – فيقدم رُقياً ضمن الطقوس السحرية للإبداع. الذي يعيشه في لحظة التأمل والإبداع بعيداً عن السطحية، وولوجاً في العمق، ليقدم لنا الصورة الشعرية النهائية بعدئذ على شكل قصيدة. تصبح في آخر المطاف ملكاً لقارئ مبدع.. أو عادي.

«ولهذا فنحن نمدح من يمتع بكلماته الأذن، ومن يمتع بصوره البصر، ولكن تقديرنا للكلمات يقل كثيراً، لأنها تخضع لشروط اللحظة ولأنها مخلوقة من خالق أدنى إذا ما قورنت بأعمال الطبيعة التي يحاكيها المصور، تلك الأعمال التي تتبدى طبيعتها داخل أشكال أسطحها»..[١٥] فإن التعاطف مع القصيدة عندئذ يكمن في الصور التي تشكلها على هذا السطح وهو في آخر المطاف «اللوحة».. واللوحة ألوان.. واللون نشكله نحن بما رسم لنا عبر كلمات القصيدة، فتخطفنا عندئذ إلى الحلم.. والخيال.. والإبداع.

النص الشعري: «أُدِّون النسيان نسّياناً ليسَ أبيضَ نسياناً ليس قرطاً بل كطفلة تحتضن دمية تتأمل شبحاً لا يُبصرُهُ سواها»[١٦].

اللون: الأبيض

المعنى أو المدلول النفسي: يعكس الضوء ويوسع المساحات ويعكس النظافة والطهارة والصفاء تتضح الصورة أكثر بمعرفتنا لمفهوم هذا اللون النفسي.

النص الشعري: في مياهٍ من الزخارف الأحمرُ هو المُسيطرُ

اللون: الأحمر

النص الشعري: إلتواءات الأبيض والأسود تحاول الالتفاف حَوْلَهُ[١٧].

اللون: الأبيض – الأسود

المدلول النفسي: يزود أجسامنا بالطاقة والحيوية– لون الحب والشهادة يوسع المساحات ويعكس الطهارة والنظافة والصفاء هنا استخدامه جائز لأنه يصف الزخرفة وأحد أسسها التضاد اللوني.

عكس الأبيض.. ولكن الاستخدام هنا قدم لنا رمزاً زخرفياً واضحاً.

ويقول ممدوح عدوان في قصيدة (لعبة الشارات الضوئية)

النص الشعري: النور **الأخضر** سر وتلكأ

بعضهم وهله فانتهز الشرطي بصفارته المتردد والأبله فتحرك حتى حجر الشارع وتحرك كل السابلة، وخلتهم طاروا نبتت لهم من **صفرته** أجنحة وزعانف حتى النور ارتجف وتغير أصبح، **أحمر، أزرق، أخضر، أصفر**، وأنا واقف أرقب من ركني هذا الجمع الخائف أرقب كيف تصير المدن متاحف وإذا غضب الشرطي جاء لينهرني لن أتردد، لن تخنقني الرهبة وسألقي تحت حذائيه اللمّاعين قلبي

قف، سر

أحمر، أخضر

لا تتعب نفسك

ولننه اللعبة

إني واقف

اللون: أخضر -(صفرته)- أحمر - أزرق- أخضر- أصفر- أحمر- أخضر.

المعنى أو المدلول النفسي: يساعد المشاهد على الارتياح، راجع الفقرة الثالثة مضيفاً لوناً آخر على الشارة الضوئية دليل على الارتباك وعدم ضبط العين اللون نتيجة للخوف (قمّرت العين)

ما توضحه القصيدة: توضح القصيدة المكان، وهي المدينة التي من رموزها الآن الاكتظاظ السكاني، سلوك الشرطي غير اللائق، والأشياء الاصطناعية التي باتت عنوانها الأساسي.

الإضافة إلى المستطيلات المتوازية والشاهقة (وهي البيوت) الفوضى والضجة والمناظر التي تؤذي العين، فاختار الشاعر هذا المشهد من آلاف المشاهد في المدينة (شارات المرور والشرطي والناس العابرون) هذا الرمز الانسياقي وراء الأوامر، رفض الشاعر المشي وهذه الحركة توضح المكان المدينة، والإيقاع السريع في كل شيء، حتى أصبحت غير قادرة على تحديد اللون بحد ذاته، حيث امتزجت كل الألوان أمامه كرد فعل من مبدعٍ حقيقي بقي واقفاً وقتئذٍ.

وقصيدة نزيه أبو عفش (واسمحي لي أذن بقليل)

من خلال المقطع التالي:

النص الشعري: «يا لبلاد الجميلة كم هي فاتكة وتعذب..

كم يتشابه في أرضها الماء والدم

تمتد حمراء شاسعة

تمتد حمراء شاسعة

ثم تسقط حمراء مشعلة من جميع الجهات

آه يا للبلاد الدميمة

كيف تنتشر الآن حمراء

حمراء

حمراء

يختلط الوحل فيها بريش العصافير

يختلط الدم فيها بأذرعه القمح

يختلط الصمت فيها بمئذنة الله»(١٨)

اللون: الأحمر

المعنى أو المدلول النفسي: راجع الفقرة الثالثة ولكن هنا خصّ لون الدم وكرره ليوضح الصورة المأساوية وليخدم القصيدة وقدم فكرة التكرار بالمفردة اللونية ليضفي على الصورة الجمالية جمالاً آخر.

ما توضحه القصيدة: القصيدة تحتوي فسحاً زمنية ومساحات مكانية وتحويل الطبيعة من أشكالها الجميلة المتنوعة الملّونة.. إلى شكل واحد.. هو شكل الدم على الرغم من ذلك منح الصورة جمالية كبيرة، وعبّرت هذه الصورة عن الدماء التي امتزجت بكل شيء..

وهذه الصورة تشكيلية صرفة أعطت الإنسان قيمة عظيمة وهي الشهادة. ولم يفرق بين دم الحياة وماء الحياة، وكلاهما ضرورياً للإنسان من أجل حياته.

سأكتفي بهذه الأمثلة: ولكن نلاحظ أن استخدام اللون يزيد من الصورة الشعرية متانة ومعنى وتخيّل لدى القارئ.. وكأنه يرسمه.. في لوحة تشكيلية تأخذ كل أبعادها.

- الأمثلة كثيرة.. ولكن أردت هنا أن أؤكد بأن استخدام مفردة اللون يجب أن يعرف مستخدمها.. معناها.. ومدلولها النفسي. ليقدم لنا صورة شعرية رائعة الجمال وفنية المعنى.. والدلائل. فالأديب الذي يمتلك وعياً جمالياً، لا يستطيع أن يلتصق بالواقع ولكنه يسمو فوقه، ويعلي الروح، والإبداع ويُملئ ذلك الفراغ باشتقاقات، وتكوينات لا متناهية، محكمة البناء، أساسها اللون هو أصلاً في الوعي الجمالي.فجماليات اللون عند نزار قباني(١٩) أخذت دلالة عامة تارة، وخاصة بمعنى اللون تارة أخرى.

منها ما يقضي إلى الجمال عموماً، انطلاقاً من أن الألوان وسيلة من وسائل الجمال.

كان لبنان لكم مروحة

تنشر الألوان والظل الظليلا

وبعضها يأخذ دلالات «اللون» الإيحائية كما أوضحت من المقاربة

لمن الأحمر المراق بسيناء

يُحاكي شقائق النعمان

فالأحمر هنا، والدم الأحمر..

العباءات كلها من حرير

والليالي رخيصة حمراء

اللون الأحمر: يدل ويحمل دلالة جنسية، ممزوجة بدلالة جمالية شفافة توحي بحب وجمال أكثر من إيحائها بالجنسي الفاضح أو المنبوذ اجتماعياً.. وهذا ما أكده الدكتور هايل محمد طالب المدرس في قسم اللغة العربية[٢٠].

خامساً: مساهمة اللون في إنتاج المذاهب الفنية (المدارس الفنية)

باعتقادي ساهم اللون من خلال سطح اللوحة المساحة المكانية، ومن خلال الزمن الذي يظهر جلياً في العمل الفني.. بظهور المدارس الفنية.. أو المذاهب الحديثة.. حيث يعتمد ذلك البصر والبصيرة والحركة والقدرة الإبداعية والجرأة في التشكيل اللوني. كل هذا يُشكل لوحة تعطي في النهاية فرصة لتوضيح المكان والزمان فيها بشكل إبداعي.. ومن ثم استطاع الناقد أو الباحث أن يستوعب السر الكامن وراء الأشكال الموجودة الإبداعية.. مما أدى إلى إطلاق أسماء على كل مرحلة فنية باسم المدرسة الفنية أو المذهب. في الرومانسية.. بعضهم أخذ الشعر تصويراً.. ومهما يكن من اختلاف فإن الشعر يتجه إلى التصوير «ويظهر أن الشعراء والأدب الرومانسي بوجه عام يحاول أن يضم إليه الألوان قد خضع خضوعاً طبيعياً إلى تأثير فن التصوير، ففي الوقت الذي أخذت فيه اللغة تتخلى شيئاً فشيئاً عن وظائفها المنطقية والدلالية في سبيل كسب قيم تصويرية كان التصوير الرومانسي يدعو إلى تفضيل اللون على الرسم ويعمل بهذا المبدأ، ومن ثم آثر الشعر الرومانسي الكلمات الساطعة والصور البراقة ولو أدى به الأمر إلى أن يطرح المفردات التي هي أدق تعبيراً لكنها أقل تألقاً.»[٢١]

فمثلاً التجريدية:

يقول الأستاذ ميخائيل عيد «في التجريدي عناصر قليلة تذّكر بالإنسان ومعاناته وبأشكال الحياة الحقيقية وبجمال الطبيعة. تحاول التجريدية أن تعبر عن أفكار المثالية الذاتية المعاصرة، التي ترفض الواقع الموضوعي للمادة، كما ترفض الحقيقة الموضوعية وإمكانية معرفتها. ترى التجريدية أن على الفن ألا تكون له أيّ صلة بالحياة المادية وبالأشكال الواقعية التي تجري فيها. ذلك لأن جوهر الحياة ليس في المادة. على الفن أن يُعبر عن الجواهر الروحية لا المادية».[٢٢] وبالأصل اللون تجريدياً إذا بقي دون تشكيل فلذلك استطاعت اللوحة أن تنتشر في الأمكنة العامة والخاصة منذ

القدم، واستطاعت تقديم المنجز الفني والنفسي والجمالي، خلال الزيارة التي نقوم بها إلى صالات العرض. ففكرة الانتشار قد تكون هي الأسبق، حيث الكتابة لم تنتشر إلا بعد اكتشاف الطباعة، ولم تستطع الطباعة أن تلعب دوراً هاماً في الانتشار وذلك يعود للاهتمام بالقراءة.. والأمية المتفشية في المجتمع.. وخاصة العربي.. وبالحقيقة كان الفن أسبق في هذا المجال حيث قدمت الآثار لنا الكثير من الفن على الجدران بدءاً من الكهف وانتهاء باللوحة الحالية المختلفة الأشكال والألوان والمذاهب..

ويضيف الأستاذ ميخائيل عيد «يرى الكتاب التجريديون أن على الأدب أن يتناول أموراً يتحرر فيها التشكيل ومكونات علم النفس من عناصر الظاهرة الواقعية، ومن العلاقات الموضوعية بينها»(٢٣).

ما ينطبق على التجريدية ينطبق على المذاهب الأخرى..ولو بعضها أخذت الواقع وكونته بشكل جمالي ونفسي خاص وتجلى بشكل ملموس عند الانطباعيين.

وكثيراً ما أقرأ.. من خلال المنشور «الصحف، المجلات، الكتب.. شعر، قصة ورواية» حسب الجهد المتوفر لدي والوقت أيضاً.

أجد البعد النظري يحكم بجملة الأفعال والأقوال وأساليب التنظير والتفكير عبر كل هذه المذاهب حتى الآن، وقد يكون اللون بحد ذاته هو المعبر الأساسي للعمليات العقلية والإبداعية التي تأخذ الجانب النفسي والجمالي، والمكاني والزماني، والدلالة الطبيعة أو الدلالة الفكرية والدينية والأمثلة قد لا تحصى ولابد من ذكر هذه الإحصائية في تجربة الشاعر محمد عمران(٢٤).

اللون الأبيض وظلاله: ٢١٢ مفردة

اللون الأسود وظلاله: ١٦٧ مفردة

اللون الأخضر: ١٠٣ مفردات

اللون الأصفر وظلاله: ٩٠ مفردة

اللون الأزرق: ٧٠ مفردة

اللون الأحمر: ٩٦ مفردة

اللون بأشكاله المتداخلة: ٣٠٠ مفردة

لقد أغرى اللون الشاعر محمد عمران لما فيه من مصدر فطري، وإبداعي وطاقة شعورية ومعنوية لتكرار اللون، وفهمه الدؤوب له، وفيه تكمن القدرة النفسية في توظيفه، وتقديم البيان الوافي للطبيعة من خلال الموقف وظلاله النفسية والجمالية، حيث امتلأت نفس المبدع الداخلية أحياناً «الباطنية» بمظهر سلوكي حركي هو التفاؤل، وبمظهر طبيعي عبّر عنه بمظهر

حسي. واكتفى بالتأكيد على الإحساس الذي موضعه القلب، وقدم المجانسة في السلوك وما وراءه من معاني وظلال نفسية جميلة.. وينطبق هذا على قصيدة موفق نادر الحديقة التي قدمها دون لون واضح وصريح.. ولكن محمد عمران.. قدم اللون بصراحة تامة أو كاملة والإحصائية المذكورة أكبر دليل على ذلك.

وهذه الصورة التي وصلتنا.. تُدرك إدراكاً حسياً عذباً له وقع جميل في العين والنفس، ولها إدراك روحي تقود المبدع إلى سحرٍ لفظي منقطع النظير، قد تجد نفسك أمام عدة لوحات تشكيلية في القصيدة الواحدة وما يميز استخدام اللون عند محمد عمران.. قوله الراقي، وفكره الهادئ، قد يفوق تصور الإنسان وقلمه المعبر. ونلمس أحياناً الفرق الدقيق باللون وأشكاله المتداخلة، وكأنه خيط ذهبي يتشكل مع اللونين الممتزجين بالتميز إيقاعاً مألوفاً.. وإن تباينت درجات اللون عنده.. وعند القراءة المتعمقة، والبحث في أغوار النفس تجد الفرق الدقيق والعميق في مفردة اللون التي تقدم الإيحاء الذي تطلقه كلمة اللون..أحمر، أخضر، ..إلخ بما تخلفه في النفس من اطمئنان.. أحياناً «الألوان الباردة» التي تعطينا طاقة شعورية غنية بالقيم المعنوية والنفسية العميقة الدلالة.. أو هيجان واندفاع.. إلخ.. الألوان الحارة.. نستوعب الألوان بكامل آثاره النفسية وفعاليته المعنوية.. كالموسيقا الهادئة، تؤنس النفس وتمتع الروح..وأن تكرار اللون بحد ذاته، يقدم لنا الشاعر السهولة في الفهم بشرط فهمنا اللون وانعكاساته الإيجابية والسلبية – وهذا ما يبعث فينا الرضا أننا استوعبنا الكلام بكامل آثاره النفسية وفعاليته المعنوية.

سادساً: خاتمة

١- استطاعت الصورة اللونية أن تُقدم لنا التعبير الأجمل عن المثل الإنسانية العليا ضمن سياق الإبداع الشعري لدى الشاعر.

والأمثلة كثيرة جداً وتحتاج منا كثيراً من التعمق في هذا الجانب.. ولكثير من المؤسسات المختصة لدراسة هذه الناحية وإبرازها.. لأنني أعتقد أنّ دراستها تقدم لنا الجمالية اللونية في الشعر، وتُقدم لنا المعنى الذي يحتاج الشرح أكثر من كلمة.. بينما تُقدم اللون فيعيض عن هذا الشرح، ويبقى في إطار المرئي وأحياناً الملموس، لتقدم الصورة الشعرية الرائعة والجمالية الحسية بنفس الوقت.

٢- المقاربة المذكورة آنفاً ما هي إلا

اتصال بين النفس.. والصورة الإبداعية وهناك صلة مباشرة بين المفردة اللونية وبين الجمال، وبين التعبير عن الجمال مما يجعلنا نستنتج أهمية اللون كمفردة في الصورة «كثير الفعالية والعذوبة» مع أهمية الصورة الشعرية التي سترد بعدها مباشرة.

٣- المفردة اللونية تُقدم الإيحائية.. وهذه ميزة الشاعر المبدع.. وعندها ينقلنا إلى عالم رحب، يدعونا إلى التأمل والدهشة..وهذا الإيحاء يشكل ركناً مهماً من أركان الشعر. متوجة بالدهشة.

٤- تُقدم المفردة اللونية الرؤيا -مع العلم صفة ملازمة للإنسان عامة- ولكن للمبدع تبقى أكثر عمقاً.. حيث يُقدم لنا الأشياء ضمن رؤياها الخاصة.

٥- تساعدنا المفردة اللونية على الرمز للتعبير عن كثير مما تضيق كلمة أخرى عنه- في التعبير.

٦- تقدم لنا أيضاً.. التكامل في النص.. مما يؤدي إلى التكامل في الصورة التشكيلية الناتجة.

٧- استخدام الرسم لصالح القصيدة.. حيث يَحضُر اللون بنفسه جانب القصيدة ليكمل التعبير وليس ليوضح القصيدة. والكثير منّا يُخطئ بتقديم الرسم للتوضيح وليس تكميلاً للمادة الأدبية كما في الرسوم الموجودة على الأغلفة أحياناً أو على صفحات الكتاب وخاصة «أدب الطفل» المليء بكثير من المغالطات بدلاً من زرع بذرة التأمل والإبداع لدى الطفل..

تُقدم له اللوحة واضحة وقد تكون لاتملك الحد الأدنى فنياً من حيث المستوى. نكون بذلك قتلنا التفكير والإبداع لديه.. واختار هو الأسهل وهذا السائد في عصرنا الحالي.. وفي النهاية نُبقي على الطفل متلقياً وحسب كما هي مناهجنا الدراسية. فيجب أن يكون الرسم لزرع عملية التفكير والاستنتاج وليس لتسهيل الفهم على الطفل.. صحيح الطفل يحب الألوان وتُدهشه ولكن استخدامها يجب أن يكون صحيحاً.

فهنا العملية عكسية لا يوجد مفردات لونية..نقدم نحن هذه المفردات ضمن اللوحة المرافقة. فبهذا نُحقق التربية الجمالية لدى الطفل بشكلها التربوي الصحيح. وهنا لا أطرح فكرة الرمزية بالرسم أبداً.. هنا أطرح الفكرة الإبداعية لأي مذهب إبداعي تنتمي هذا لا يهم.

وقد يختلف الكثيرون بطريقة طرح اللون.. ليصبح نافذة لكل قارئ، يستخدم أدواته وليس فرض أدواتنا عليه وإنما

طرحها بشكل إبداعي. والإبداع وسيلة مثلى للقضاء على الظلمة.. ومن بعد يستطيع أن يرى نفسه من خلال العمل الفني الإبداعي. ويكون عندئذ مؤهلاً لأن يحتل مكانة لائقة في الفهم والقراءة.

٨- يُتاح للشاعر أن يستوعب أسرار اللون، ولكنه لا يعرف مدى استيعاب القارئ ووعيه في بناء ثقافتنا وإن افتقاد الوعي لتوظيفات اللون قد تدخلنا في الرمزية غير المحببة لنا.. ونكون أمام قصيدة تعيش العزلة، وإذا وجد من يقرأها.. تكون قراءته شفاهياً لا يدخل في النسيج المعماري للقصيدة.. ويبقى على حواف السطح دون حركة، تكسب الموقف حيوية. لأن طبيعة العقل وطريقة اشتغاله تختلف من فرد إلى آخر.. في عصر مليء بالمعرفة والتكنولوجيا.

وقد يلجأ الشاعر إلى تبديل اللون إلى لون آخر.. فيعيش القارئ في تحليلٍ لهذا التبديل، مع العلم لن تقع القصيدة في خللٍ لغوي أو عروضي -وإنما أعادت لنا النظر في التحليل النفسي للون وما يقدمه من تغيرٍ في اللحظة ذاتها. ومن تجميع للمكان والزمان، والصور في اللحظة ذاتها كما تقول غالية خوجة. في قصيدتها «الأزلية الغائبة»[٢٥]

«لماذا يكتب الشوك أنين الدخان
أشباح قزحية تنفض النار على السهو
فيبدو الوقت أحمر
يبدو الأحمر أزرق
يبدو الأزرق أبيض
وتبدو اللجة راقصة غجرية»

إن مسألة التبديل هذه تقدم لنا المعاني المتعددة.. فالكلمات اللونية إذا تعددت، تتعدد المعاني، وتتعمق، وتحتاج للدراسة مع القصيدة ككل حتى لا نقع في التحليل الخاطئ لأن القصيدة آنفة الذكر كبيرة.. وتحمل في مقاطعها الصور الملونة، ولو لم تستخدم اللون في كل مقطع.. فهذا المقطع يكفي في تشكيل الصورة التي هي بالأصل حالة مطلقة غير متناهية لأنها تفصح عن الجوهر، وتُقر بأن اللغة «اللون كمفردة» تحدد الفكر، وتضبط وحدة النص الذي يأخذ بالجمالية والنفسية والمعرفية والأخلاقية كعناصر أساسية للنص.

ونرجع للمقاربة للنص نفسه سوف نجد تعدد المعاني وانتقالها من حالة إلى أخرى كما هو في الجدول الآتي:

المسلسل: ١ - ٢ - ٣ - ٤

النص الشعري: فيبدو الوقت **أحمر**. يبدو **الأحمر أزرق**. يبدو **الأزرق أبيض**

اللون: أحمر، أحمر أزرق، أزرق أبيض

المعنى أو المدلول النفسي: راجع معناه في النص المفصّل الثالث.

بارد أو ساخن أو حار: الأحمر- **لون حار**. أحمر أزرق- انتقال من لون حار إلى لون بارد من حالة إلى نقيضها. أزرق أبيض- اللونان باردان، الشعور في هذه الحالة بالبرودة، ومن لون غامق إلى لون فاتح مع العلم أن اللون الأبيض مركب من كل هذه الألوان كما ذكرت سابقاً.

يعكس هذا النص بعد المقاربة دلالة عميقة يدرك العقل فحواها، ويتلذذ القارئ في الواقع بهذه الصورة، قد تُدرك إدراكاً حسياً عذباً. لها واقع على العين والنفس والأذن، عند القراءة «أمسية مثلاً» ولها وقع خاص على الخيال المبدع. مما تشكل الصورة عندئذ الجسد المتكامل المتنامي المليء بالطاقة الشعورية الغنية بتعدد الصور وتنوع أشكالها اللونية كاللوحة تماماً.

٩- أخيراً: حري بهذه الدراسة أن تلفت نظر الدارسين والنقاد والأدباء، وأن يولوا العناية والاهتمام بهذا الجانب «لأنها كثيرة في الشعر والنثر».

الشاعر: يبحث عن اللون ومدلوله النفسي.. ومن ثم يبدع.

الكاتب: يقلب الصفحات اللونية ليدرك أهمية اللون وحسن استخدامه كمفردة لغوية وأدبية.

الناقد: يُفند الرموز والرؤى، واللغة ويجعل «للفهم بعداً دلالياً ندعوه بالبعد المعرفي المحكوم بشرطي الزمان والمكان، وبعداً دلالياً معرفياً لا زمانياً متحرراً من مشروطية المكان والزمان، وتتفرع عن هذا البعد المنفتح أبعاد تعتمد على مقولات تأويلية وافتراضية وتخيليه واحتمالية»(٢٦) ويأتي اللون ليعزز البعد الجمالي للغة، الذي يضمنها اللون عنصر الإثارة والتشويق فأهم شيء معرفته بالنسبة للناقد المعرفة اللونية «نفسياً -ودلالة» لتحقيق مستوى نقدي رائع، وتضيف إلى النص جمالاً، وتقدمه للقارئ بأسلوب حيوي تؤهله أمام الكم الهائل من الإنتاج أن يكون متميزاً.

ويحتفظ بالمقابل بأسلوبه ولغته.. ويصبح أكثر تميزاً إذا أدرك أهمية اللون كمفردة في السياق الشعري، وأكثر تقنية وإحساساً وتساؤلاً، حول النص الشعري المراد تقديمه للتواصل مع الآخر، إذا عرف المدلول النفسي للون عندئذ نضع القراء، أو نقدم لهم زمام المبادرة وجميعهم يخلقون لوحة تموج بالألوان والظلال، وتفيض رقة

وعذوبة «ألوان الطيف» حيث تشكل قوس قزح -وحيث الأدب والفن وتأطيرها.. لتنظم إلى الخلود في الأدب والفن، لأننا ما زلنا بحاجة إلى ما يُضيء خطواتنا في عملية البحث والكتابة، وبحاجة إلى النسغ الذي يغذي طموحنا..

عندئذ نستمتع.. بالإبداع.. والحرية

وهنا الحياة قد بدأت.

الهوامش:

١- تحولات الخط واللون حليم جرداق ص٦٧ بتصرف.

٢- إيجاز لعدد من الباحثين.. وأهمهم الدكتور «فاكس ليوشه» من خلال تجاربه المتعددة في قراءة النفس عن طريق الألوان.

٣- سوسيولوجيا الفن -طرق للرؤية ترجمة ليلى الموسوي مراجعة د.محمد الجوهري تحرير ديفيد إنغليز وجون هغسون- عالم المعرفة ٣٤١ يوليو٢٠٠٧ ص١٢٢- ١٢٣.

٤- أجريت التجربة على مئة وخمسين طالباً وطالبة (العمر ١٥-١٦) بإعطائهم قصائد تحتوي على مفردة لونية.

٥- الدكتور: محمد صابر عبيد -الأسبوع الأدبي العدد ٨٧٦ تاريخ ٢٠٠٣/٩/٢٧ بحث بعنوان المكان لغة تصوير وعرض.

٦- الأسبوع الأدبي العدد ٨٩٩ تاريخ ٢٠٠٤/٣/٢٠ «شعرية اللون في شعر محمد عمران وأشكاله التعبيرية» عصام شرتح.

٧- الجمود والتجديد في العقلية العربية -د.علي أسعد وطفه- الكتاب الشعري صادر عن وزارة الثقافة السورية عام ٢٠٠٧ ص٨٣.

٨- عصام شرتح: الأسبوع الأدبي العدد ٨٩٩ تاريخ ٢٠٠٤/٣/٢٠/ شعرية اللون في شعر محمد عمران.

٩- جريدة تشرين العدد (٩٧١٣) تشرين الثاني ٢٠٠٦م بحث لوليد العرفي (اللغة الرسموسيقية في الشعر السوري الحديث).

١٠-جريدة تشرين العدد (٩٧١٣) تشرين الثاني ٢٠٠٦م بحث لوليد العرفي (اللغة الرسموسيقية في الشعر السوري الحديث).

١١-من ديوان مجاز البجعات إصدار اتحاد الكتاب العرب للشاعر فؤاد كحل.

١٢-النقد الأدبي وأصوله العلمية -ترجمة وتعليق الدكتور إبراهيم الكيلاني- ص٤٣- إصدار وزارة الثقافة ٢٠٠٤ -ج٠٤.س.

١٣-الثورة الثقافي -العدد ٤٤٢ /٢٠٠٤/١٢/٢٨ حديقة! شعر موفق نادر.

١٤-هذا ما لاحظته في التجربة، حيث قصيدة الحديقة كانت في المقدمة من حيث الاهتمام والإبداع

وهـذا مـا يشـكل ناحية تربوية صحيحة وسليمـة، علمت الطالب الخيال والإبـداع، وساهم هو في صناعة التخيل في الاختيار والفهم.

١٥-نظريـة التصوير. تأليف ليوناردو دافنشي. ترجمـة وتقديم عادل السيوى «الهيئة المصرية العامة للكتاب».

١٦-للشاعرة فاطمة قنديل مواليد القاهرة ١٩٥٨ عن كتاب في جريدة العدد ١٠٦/ ٢٠٠٧/.

١٧-للشاعر كريم عبد السلام.. نفس المرجع السابق «تشرين.. كتاب في جريدة».

١٨-من ديوان نزيه أبو عفش «أيها الزمان الضيق، أيتها الأرض الواسعة».

١٩-سأعـود إليـه في بحـث آخر يكون لـه العنوان نفسـه جماليات اللـون في النص الشعـري عند نزار قباني.

٢٠-جماليـات اللـون في النص الشعري نزار قباني نموذجاً د.هايل محمد طالب مجلة المعرفة السورية العدد ٥١٧ ص٢٤ كما لي عودة بدراسة موسعة تتناول نزار قباني شاعر اللون والحب.

٢١-الشعر بين الفنون الجميلة –الدكتور نعيم اليافي- دار النجليل- دار الجيل- ط١ ١٩٨٣ دمشق.

٢٢-التجريدية: للأستاذ ميخائيل عيد الأسبوع الأدبي العدد ٨٦٨ تاريخ ٢٦/٧/٢٠٠٠.

٢٣-نفس المرجع السابق.

٢٤-شعريـة اللـون في شعر محمد عمران للكاتـب والأديب عصام شرتح العـدد ٨٩٩تاريخ ٢٠/٣/٢٠٠٤م مؤلفات محمد عمران «٤أجزاء طبعة وزارة الثقافة –جميع المفردات اللونية ١١١٠ مفردة.

٢٥-الملحق الثقافي للثورة السورية العدد ٥٨٩ /٤/٣/٢٠٠٨/.

٢٦-الوعي اللغوي –منير الحافظ –دار الفرقد- طبعة أولى ٢٠٠٥ –ص١١٠.

مراجع البحث:

١- تحولات الخط واللون حليم جرداق.

٢- إيجاز لعدد من الباحثين وأهمهم الدكتور «فاكس ليوشه» من خلال تجاربه المتعددة في قراءة النفس عن طريق اللون.

٣- سوسيولوجيـا الفـن –طـرق للرؤية- ترجمـة ليلى الموسـوي، مراجعة الدكتور محمـد الجوهري، تحرير ديفيد إنغليز وجون هغسون – عالم المعرفة ٣٤١ يوليو ٢٠٠٧.

٤- جريدة الأسبوع الأدبي صادرة عن اتحّاد الكتّاب العرب الأعداد ٨٩٩- ٨٦٨.

٥- جريدة تشرين العدد (٩٧١٣) والعدد ١٠٦ /٢٠٠٧/ كتاب في جريدة.

٦- النقـد الأدبـي وأصوله العلميـة –ترجمة وتعليق الدكتور إبراهيم الكيـلاني، إصدار وزارة الثقافة السورية.

٧- الثورة الثقافي العدد ٤٤٢- ٥٨٩ «ملحق أسبوعي»
٨- نظرية التصوير تاليف ليوناردو دافنشي ترجمة وتقديم عادل السيوي «الهيئة العامة للكتاب».
٩- مؤلفات محمد عمران ٤أجزاء طبعة وزارة الثقافة -جميع المفردات اللونية ١١١٠مفردة.
١٠-التجربة العلمية (حيث وزّعت عدة قصائد على (٥٠) طالباً وطالبة (المرحلة الجامعية) ولاحظت الفهـم السريـع لوجود المفردة اللونية، عام ٢٠٠٣. كما وزعت قصائد أخرى على ١٥٠طالباً وطالبة (المرحلة الثانوية) أعمارهم (١٥-١٦) سنة.
١١-الفن والشعور الإبداعي - تأليف غراهام كولبير- ترجمة منير صلاحي الأصبحي.
١٢-الوعي اللغوي -منير الحافظ- دار الفرقد -طبعة أولى عام٢٠٠٥م.
١٣-دواوين الشعراء.
١٤-الشعر بين الفنون الجميلة -الدكتور نعيم اليافي- دار الجليل- ط١ ١٩٨٣ دمشق.
مجلة المعرفة: تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية تشرين١/ ٢٠٠٦م العدد ٥١٧.



الدراسات والبحوث



الإنسان وقيمة العطاء

عبد الباقي يوسف*

يتميــز الناس عبر العصور على قدر ما يقدموا من عطاءات لمجتمعاتهم، والعطاء لا ينحصر في لون واحد، بل يشمل ألوان العطاء كافة، فهناك العطاء المعــرفي، العطاء الفكري، العطاء الفنــي، العطاء الطبي، العطاء الأخلاقي، العطاء المادي .

ودوما فإن الذي يعطي يكون صاحب فضل على الذي يأخذ، واليد العليا هي خير من اليد السفلى. على هذه القاعدة نرى الناس يكثفون جهودهم من

* أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان زهير حسيب.



أجل أن يكونــوا معطائين، ويكونوا أصحاب فضل. وردفي الحديث النبوي: (ما من عبدٍ أنعم الله عليه بنعمةٍ فأسبغها، ثم جعل إليهِ شيئاً من حوائج الناســ فتبرم، فقد عرض تلك النعمة للزوال).

يمكن لشخص أن يتميز بالعطاء والكرم إلى أن يُعــرف بذلك، وقد كان حاتم الطائي مشهورا بالكرم، وعندما كانت زوجته / نوار / تعاتبه علــى كرمه الشديــد كان يجيبها قائلاً:

مهلاً نـوار أقـلي اللـوم والعـذلا
ولا تقولي لشيء فات ما فعلا
ولا تقولي لمالٍ كنتُ مُهلكهُ مهلاً
وإن كنتُ أعطي الجن والخبلا
يرى البخيلُ سبيل المالِ واحدة
إن الجـوادَ يـرى في مالـهِ سُبُلا

❀ ❀ ❀

خصلة العطاء عند الإنسان البدوي

يتمتع الإنسان البــدوي بخصلة العطاء ذلك لأنه يعيش في شبه فراق عن الناس من أجــل العناية بمصادر رزقه في البادية، وهو عندما يلمح شخصا غريبا يشعر بأنه ضيفه، فيستعد للقائه والترحاب بــه واستضافته، وقد كان البدو في القدم يشعلون النيران في الليــل من أجل أن يهتــدي إليهم الضيوف، وفي ذلك العديد من الأمثال منها:

- الضيف إن أقبل أمير، وإن قعد أسير، وإن قام شاعر

- الضيف أسير المحِلّي
- الضيف شاعر
- الضيف ضيف الله
- أعزم، وأكرم، وأكل العيش نصيب
- الضيف محَلِّل
- يا ضيف ما كنت محِلي
- سكوت الضيف من بخت المحلي
- من عفّ عن شيء كأنه مأكله
- الضيف كاره الضيف، والمحِلي كاره الكلي
- أعزم وأكرم وأكل العيش نصيب
- الجود جهود
- الجود من الموجود

العطاء والجينات الوراثية

توقف العلماء عند قيمة العطاء وعلاقتها بالوراثة، ومنذ مدة اطلعت على بعض هذه النتائج ومنها:

أكدت نتائج دراسة علمية حديثة أن هناك صلة وثيقة بين صفة العطاء وجينات الإنسان الوراثية.

وقد أجريت الدراسة التي نشرتها صحيفة «ليبراسيون» الفرنسية على موقعها على شبكة الإنترنت على ٢٠٣ أشخاص من الجنسين، مُنح كل واحد منهم ١٢ دولارا، حيث تبين أن ٦٠ بالمئة ممن أعربوا عن استعدادهم للتنازل عن هذا المبلغ أو جزء منه لأشخاص بحاجة إليه هم أشخاص يحملون جين «إيه في بي آر١» أو أحد مكونات هذا الجين.

وقال اريل كنافو رئيس فريق الباحثين: إن هذه الدراسة تثبت للمرة الأولى وجود صلة مباشرة بين العطاء الإنساني وتكوين حامضه النووي.

وأوضح أن جين «إيه في بي آر١» ينشط في تكوين هرمون يسمى علميا «ارجينين فاسوبريسين»، ويؤثر على خلايا المخ، ما يدفع الإنسان إلى السخاء والعطف على الآخرين.

وأضاف الدكتور كنافو إن الجينات التي تحمل الصفات الوراثية وصفات سلوكية مثل نكرات الذات،والتعاضد الاجتماعي هو أمر يمكن قبوله من وجهة النظر التطورية، كما أن استراتيجية نكرات الذات كانت ناجحة بسبب اعتمادها على فكرة أن العمل الحسن سيكافئ صاحبه.

هذا لا يعني البتة ترك الأمور على سجيتها خاصة بالنسبة للأطفال، وهم على الأغلب يحتاجون إلى مساعدة الأهل لتعزيز

شعور المسؤولية تجـاه الآخرين لديهم. ثمة دراسـات تربوية هامة بهذا الصدد[1] توجه إلى ضـرورة تنمية الشعـور بالمسؤولية لدى الطفل منذ السنوات الأولى، المسؤولية تجاه آبائهـم بالطاعـة، تجاه المجتمـع بمشاعر الانتماء، تجاه أنفسهم بالحذر والنظافة.

تبادلية العطاء

الإنسان الذي يعطي عادة لا ينتظر ثمن عطائه، ولكـن بشكل تلقائي فـإن المجتمع يجعل منه بطلا، ويجازيه على عطائه.

أذكر هنا حكاية وقعت مع امرأة تحولت إلى بطلـة من خلال موقـف قامت به تجاه امـرأة حامل. تقـول الحكاية علـى لسان طفل:

انتفضـتْ أمي من نومهـا العميق بفزع شديـد وأطلقت صرخة مذعـورة أنفضتني من استغراقي في لفائف النوم.

جلسـت على السرير خائفـاً وأنا أحدق في ملامـح وجه أمي الشاحبة وسط الضوء الخافت.

راودتني مشاعر وجلـة خاصة وأن أبي خارج البيت هـذه الليلة بسبب سفره خارج المدينـة لضرورات عملـه ، ولا أحد غيرها وغيري، وأخي الصغـير ذِكر الذي يرقد في الهزازة جوار السرير الذي ننام عليه.

رميـتُ نفسي في حضن أمـي، بيد أنها وعلى غـير عادتها وبدل أن تضمني وتهدئ مـن روعي، راحت تمد كفهـا المرتعشة تنير الضوء بسرعة شديـدة وتمد يدها الأخرى بهلع إلى الهزازة الصامتـة التي يرقد فيها ذِكر الذي يبلغ ستة أشهر.

رفعتْ الغطاء عن فمه وأخذته بسرعة إلى حضنهـا وهي تتفحصه متمتمة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم،كاد الولد يختنق.

ثـم وكأنها انتشلته مـن قاع بئر أخذت تتملاه وتردف محدثة نفسها: أخذتني غفوة و نسيت أن أرفع الغطاء عن وجهه.

وبعد بريهـات التفتت إلي وكأنها تتفاجأ بوجودي للتو ثم قالت: لولا ستر الله، وبركة أم الأطفال كان الطفل يذهب كشربة ماء.

ومن جديد صـرتُ أنظر معها إلى وجه أخي الذي أكبره بخمس سنوات، كان يتنفس بصعوبـة بالغة، ويبلع ريقه، فهرعتْ به أمي نحو النافذة المحكمة رغم برودة الطقس.

فتحتها وهـي تهـزه في حضنها وتدنو بوجهه من الهواء إلى أن عادت إليه أنفاسه، أعـادت غلـق النافذة، ثم عـادت وجلست على السريـر، أخرجت ثديها، قذفت خيطا مـن الحليب على منديل، وبعد ذلك وضعت

حلمة الثدي في فمــه، أخذ يمتص الحليب وبــين حين وحــين يسحب فمــه، ينظر إلي ويبتســم قليلا، ثم يعــود إلى مصدر طعامه الوحيد في هذا العالم.

بعــد نحو عشر دقائق مــن هذه العملية غفــا على ذراعيها وفمــه ما يزال في حلمة الثدي.

عند ذاك عــادت الطمأنينة إلى ملامح أمي وهي تعيــده إلى الهزازة وتغطيه برفق تاركة وجهه دون غطاء.

نظرت إلي نظرة لمستُ فيها بعض العذر على عدم مبالاتها بي، وبعد لحظات طلبت مني أن أذهب معها إلى المطبخ لتصنع إبريقا من الشــاي، عندئذ أدركت ولأول مرة بأنني أشكّل سندا لها، ولن أنس بأنها المرة الأولى التي انتابني فيها شعور بشيء من المسؤولية تجاه أمي، وأخي ذِكر عندما يكون أبي غائبا عن البيت.

جلبنــا الإبريــق إلى حيث كنــا وصرنا نحتسي الشاي وكأن الصباح قد طلع.

ومن جديد أخذتنــي في حضنها وكأنها تعتــذر بشكل مباشر عــن إهمالها لي وهي تتمتم بخفوت: رحمــك الله يا أم الأطفال، غدا سأُخرج دجاجتها.

قلت: من هي أم الأطفال يا أمي؟

قالت وهي ما تزال جالسة تهز أخي بيد وتربت على كتفي في حضنها بيد: أم الأطفال يا زاهي تــزور الأمهــات في الليالي عندما يتعرض أطفالهن لخطر.. صمتت أمي قليلا ثم أردفــت وقد بدأت دموع تنزلق إلى أرنبة أنفهــا: كنتُ نائمة وفجــأة رأيتها تدخل من الباب، تربت على كتفي بقوة وتقول:انهضي بسرعة يا جودي، ابنك يختنق.

انتفضــت كمــا رأيت يا بنــي، وتذكرت بأنني تركــت البطانية على وجهه، قامت أم الأطفال المباركة بواجبها وانصرفت.

شعرتُ برغبة في أن تروي لي أمي قصة أم الأطفال هذه، فقلت لها وأنا أقاوم النوم: لماذا أم الأطفال تفعل ذلك يا أمي؟

صمتــت أمي، ثم ألقت نظــرة إلى وجه ذِكر الذي بدا عليه مستغرقا في نوم عميق.. مدت يدها تطفئ الضوء ، ثم جاءني صوتها ناعســا كترنيمة نــوم: سمعــتُ قصتها من جدتك، أم الأطفال يا بني كانت في الخمسين من عمرهــا ترعى الأغنام مثل الرجال بعد أن عنست وفقدت الأمل بالزواج والإنجاب.

وانطفأ صوت أمــي، نظرت إلى عينيها ورأيتهما مغلقتين، فمددت الإبهام والسبابة وفتحت بهما عينها اليمنى.

ابتسمت أمي قليلاً ثــم أردفت بنبراتها المستسلمة لهبوب نوم ثقيل، وأنا أدرك بأنها طوال النهار بذلــت جهدا هائلا حتى جلت الأواني، غسلــت الثيــاب، صنعــت الطعام، شطفت البيت:

كانــت / مشكاة / التي غدت تُعرف بأم الأطفال ترعى أغنــام أهل القرية، تأخذها إلى البيادر، وتعيدها مع الغرب إلى أصحابها، وكانــت تحصل عند رأســ كل سنة وفي بدء الربيع من كل بيت بغنمة مع وليدها.

كان هــذا العمل هو مصــدر رزقها مع أبويها العجوزين.

وعــاد صوت أمــي ينوســ قليلا فقلت وأنا أشعر عكسهــا بحالة تامة من اليقظة: وبعد.. وبعد؟

- ذات يوم وقبل هبوط الظلام بقليل وهي تستعــد لتعيد الرعيــة إلى أصحابها،تناهى إلى مسمعهــا صراخ امرأة مــن بيت مجاور للبيادر!

تركتِ الرعية واستهدت بسماع الصوت متجهــة نحو القريــة إلى أن دنت من البيت الــذي ينبعث منــه الصراخ حتــى ترى ما الأمر.

عندئذ يا زاهي رأت امرأة حامل تحمل سكينا و تطارد قطة قائلة لها:

سآكلــك أيتها القطــة، سأشوي لحمك وأطفــئ هذه الشهيــة التي تأكلنــي وتأكل طفلي في بطني.

ويبــدو أنها لم تعد تجســر على مقاومة النــوم فانسدلت رموشها، ومنعا من انقطاع صــوت أمي مددتُ يدي أداعب وجهها حتى تشعر بأنني في حالة سماع.

استأنفت بعينــين مغمضتين: بعد قليل أمسكــت المــرأة بالقطة وغــدت تحدق بها بشهيــة. .يا بنــي والله لم أعد قادرة، غلبني النوم.

أخفضتُ رأســي وأنا ما أزال جالسا في السريــر. بعد لحظات فتحــتْ أمي عينيها لتراني في وضعيتي، نهضت بتثاقل وهي تتمتم : لا تزعل يا زاهي، سأكمل لك القصة. ومرة أخرى طلبت مني أن أصطحبها إلى المطبخ، عندئذ صنعت فنجانا مــن القهوة لنفسها، وناولتني قطعة كاتو مــن البراد، وعدنا إلى موقعنا وقد استعادت بعض يقظتها مع أخذ رشفتين من القهوة :

فهمت /مشكاة/ بأن هذه المرأة الحامل من شدة الفقر تريد أن تأكل لحم القطة.

دخلت عليها قائلة: ماذا تفعلين بالقطة المسكينة يا امرأة ؟

قالت المرأة الحامل: إنه الوحام يا عمة، منذ ثلاثة أيام أكلتنــي شهيتي لقطعة لحم

حتى فقدتُ الأمل، لم يبــق لي أمل في إنقاذ حياة جنيني سوى أن أشوي لحم هذه القطة لعلَّ وحامي ينطفئ قليلاً ويريحني.

تساقطــت الدموع من عينَي أم الأطفال وهي تــرى منظر المرأة المروع والقطة تقاوم بين يديها.

دنــت إليها بخطــوات واثقــة، أخذت القطة مــن يديها وأطلقــت سراحها طالبة منها الانتظار لبعضــ الوقت ريثما تعود،ثم خرجــت إلى القطيع، أمسكــت خروفا من خرافها وأتت به إلى المرأة الحامل.

بدأت تعمل في إعــداد اللحم بمساعدة المرأة الحامــل حتى اطمأنــت بأنها شبعت لحما مشويا، عند ذاك راودها إحساس بأنها أنقذت حياة شخصين.

تركتْ ما تبقى من لحم الخروف عندها وانصرفت.

عندها فوجئت بأن الظلام الحالك قد أسدل جنحه على أزقة القرية، تذكرت للتو أنها نسيت أن تعيد الأغنام إلى أصحابها.

أصابها ذعر وهي تهرول صوب البيادر حيث ترعى الأغنام ، لكنها لم تجد شيئا!

ترددت بالعــودة إلى القرية لتروي على أسماع أصحاب الأغنام ما وقع معها ، وهل سيصدقها الأهــالي، ثم بعد ذلك لن يأمنها أحد علــى شــيء لأنها لم تحفــظ الأمانة، فأقسمت ألا تعود إلى القرية خائبة، وراحت تمد الخطا تحت جنح الليل لعلها تعثر على دليل يرشدها إلى الأغنام التائهة.

فرغت أمي من تنــاول القهوة، وفرغت من تناول قطعة الكاتو، ألقت نظرة إلى ذِكر واطمأنت عليه، ثم تمــددت وغطتني معها بالبطانية وهــي تقول بنــبرات صعد إليها النعاس مرة أخرى، وتدعوني إلى النوم:

منــذ ذلك اليــوم يا ولــدي اختفت أم الأطفــال عن القريــة كلهــا دون أن يظهر لها أثر، لا أحد يعــرف ما الذي وقع معها، لكنهــا خلدت في ذاكرة أهــل القرية، وصار الناس يروون قصتها عبر الأجيال، لأنها مذ ذاك صارت تزور الأمهات في أعماق الليالي وتنبههــن لأي خطر يقــع لأطفالهن. فتقوم الأم في اليــوم التالي بطهــي دجاجة بلدية، تضعها على البرغــل وتنادي أطفال الجوار ليأكلوا في صدقة أم الأطفال(٢).

أنوار العطاء

الذي لا يقف على أصل تتقاذفه الأصول، الــذي لا يقف على عقيدة تتقاذفه العقائد، الــذي لا يقف على عمــل تتقاذفه الأعمال

،الذي لا يقف على موقف تتقاذفه المواقف، الذي لا يقف على كلمة تتقاذفه الكلمات.

عندمـــا تميل نفســـك إلى أمر غير سوي وتتمكـــن من عـــدم الاستجابة لهـــا، فإنك تحقق قوامتـــك عليها، وتكون بطلا أمامها، وتثبـــت لها بأنك قادر علـــى الجلد، والتأني والحكمة.

الـــذي يجري وفـــق أهوائه تقـــوده هذه الأهواء إلى منعرجات غير محمودة. في حين أن الذي يتحكم بأهوائه، ويقود نفسه شطر أبـــواب العطاء،يحقق المجد والتوازن لذاته. وهكذا يمكن له أن يـــدرب نفسه على أنوار العطاء السامية، فتبدأ من تلقاء ذاتها تميل إلى تلك القيم التي تعتادها، وتنفر من عدم العطاء.

النفس التي تستمر في العطاء تجعل من صاحبها معطاء ، والنفســـ التي تستمر في الشح تجعل من صاحبها شحيحاً.

لاشيء يجعل حالـــة النرجسية في ذاتك تخف قدر العطاء ، عندئذ سيكون بإمكانك أن الناس جميعاً يكملـــون بعضهم البعض، ويتسلسلون عبر بعضهم البعض، وتسري في عروقهم دماء بعضهم البعض.

تحب النـاســ جميعا، وتبتغي لهم النفع، وترى ما يمكن لك أن تفعله لخيرهم، عندما تحصل على شيء عليك أن تفكر كيف تقدم أيضـــا، حتى لو أمطت أذى عن طريق، حتى لـــو ابتسمـــت في وجه شخصـــ ألقى عليك الســـلام. كل شخص يمكن له أن يفعل شيئا مجديا للآخرين حتى لو كان قعيد الفراش.

درجات العطاء

يشرق نور العطاء في عمقك لينمّي فيك الإنســـاني، ويخلصك من تاريخك النرجسي ، إنه ينبهك ويبقظك علـــى حالة الإنسانية العامة لديـــك في جو من الصحوة والصفاء الذهني والروحي.

واعلم أن العطـــاء لا يعني الاعتكاف في موقـــع، والاعتزال عن الناســـ حتى لو كنت شخصـــا معطـــاء ، ولا يتحقق العطـــاء إذا لبثتَ في قطيعة عـــن واجباتك الاجتماعية واعتزلـــت الناســـ، لا يتحقـــق العطـــاء إلا بالنشاط الإنساني والحيوية الاجتماعية.

فاعلـــم أنك لن تبلغ درجات العطاء ما لم تحب الناســـ ، وأن الحب الأخوي الإنساني العظيـــم في الناس ينبثق مـــن إيمان عظيم في صدورهـــم ،كل خطـــوة تخطوها في نفع الناس، هي خطوة عطاء لا محدود لك.

كل مســـاء.. كل مســـاء، يغفـــو الكـــريم

ملتمساً موقــع العطاء من روحــه، ملتمساً موقع روحه مــن العطاء. يعاتبــه كرمه إن امتنــع عن ممارسة العطــاء، لا يدعه يغفو لحظة قبــل أن يعاتبه، وإن لم يرتدع، يصّعد لهجة العتاب له:

أين موقعك مني يا كريم وأنت لا تتقن مهنتك
أين موقعي منك وأنت تهرب من تربية ولدك
أين موقعك مني وأنت لا تحفظ أهلك
أين موقعي منك وأنت تحرجني بتقصيرك
أين موقعك مني وأنت تغل يدك
أين موقعي منك وأنت تبخل تكون سخياً.

كل مســاء.. كل مساء، يأبى التخلي عنه في نزوة ،في زلــة، في لحظة ضعف. ينهضُ كلُ يــوم عطاء من ركام السنوات، تنهض كل فكرة كــرم من ذاكــرة الماضــي.. تتضافر مواقف العطــاء مجتمعه لتسانده في محنته، مانعــة إيــاه الغور في هوة الشــح. ذلك هو العطاء المتأصل في الذات المعطاءة، ذلك هو العطاء الذي يصبر على أذى صاحبه ويأبى التخلي عنــه، يلبث ممسكاً بيــدَي صاحبه منيراً أمام خطوته ظلمات الدرب.

وهــذا بذاتــه يحرّك طاقــات وقدرات ونزعات الإنسان ويقــي مشاعر الجمود أو النوم الأبــدي. فأنت تعيش لذة تقديم شيء نافع للآخرين، ولم يكن هذا الشعور ليتحقق لــولا وجود شخصــ آخر يعبــث فساداً في الأرضــ، وهذا ليس علــواً من شأنه، بل هو انحدار وانحطاط له على قدر ما هو ارتقاء وسمو لك، لأن الإنسان بطبيعته لا يرتقي بما يقدّمه من سوء، بل ينحدر و هو ذاته يُدرك هــذا الانحدار، وكما أن مقــدّم الخير يشم رائحــة طيبة من عمله الطيــب، فإن مقدّم السوء يشم رائحة خبيثة من عمله الخبيث.

لا شــيء يسمو بالإنسان غير العطاء، ومحبة الناس ، وكلما آمن الإنسان وتفقّه في إيمانه بهذه الحقائق، كلمــا سمى وارتقى. والخير هنا تقــديم المنفعة للناســ، والسوء تقديم الســوء لهم إلى درجة أنهــم يتقوا سوء هذا السيئ.مثــل هــذه التفاصيل قــد لا تلتفت إليها، ولكن في حقيقــة الأمر فإنك تستمد انضباطك وترتيب حياتك من تفاصيل هذه الوسطية، فهي تعلّمك كيف تتدخل في شؤون حياتك وتضبطها وتقدّرها تقديرا. وكذلك فإنها تُكسبك قــوة الشخصية وتحميك من نزعة الانفلات. ليلة سقــوط غرناطة وأبو عبــد الله الصغــير[٣] يجهّز نفســه ليخرج مطروداً من ملك لم يستطع أن يحافظ عليه هتفتْ به أمه قائلة: «ابكِ مثل النساء مُلكاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

إن مَــنْ يقتصد في أمــور صغيرة أو أنه يراها صغــيرة، لا يستطيــع أن يقتصد في الأمور الكبيرة لأن الصغائر مجتمعة تتحول إلى كبائر.

الكلمــة التــي تتحدث بها مقــدّرة لك، فلا تلق الــكلام على عواهنه، قد تحتاج في موقف إلى كلمة حق تقولها، ولكنك تكون قد أسرفــت في الكلام فلا تقدر على قولها، إن الصوت ذاته يعاقبــك فلا يعينك على قول كلمة واحدة وأنت في كامل وعيك.

فانظر كــم مررتَ بمراحل حتى تعلمتَ لغة،وأجدت استخدام الصوت بشكل هادف، كان ذلــك لتتمكن مــن التواصل في مجتمع يستخدم اللغة وسيلة للعيش والتواصل فيما بينه، وليس لتقذف الكلام كما لو أنك تريد نفاذه.

والنظر ذاته عليك أن تحافظ عليه فلا تستخدمــه إلاّ في الأمور الهادفة التي تنتفع بهــا، يمكنك أن تستخدمه للقــراءة، للنظر في جمــال خلق الله في الإنســان والطبيعة، للأعمــال التي تقــوم بها. وكذلــك السمع فاحرصــ على ألاّ تسمع إلاّ الطيب والخير، وتجنّب اختلاســ السمــع والتجسس، فإن سمعك يريــد منك أن تستخدمه في مواضع الطيــب، وفي كل هذا عليك أن تهتم بصحة أذنيــك وعينيــك وفمك وتهتــم بصحة كل حاسة من الحواس التي أُتيتها بقدر. فكم من شخص انفلت يقهقه في مجلس دون ضابط حتــى سقط مغشياً عليــه، وكم من شخص أُسعف من مائدةٍ لأنــه تناول طعاماً وشراباً بإفــراط، وكم من شخص تحدّث بصراخ في مجلس حتى فقــد صوته. وكم من رجل بذر في كل حرث حتى فقد البذر لحرثه.

إذا رفعــك الله في مرتبــة مــن مراتب الدنيا، فــلا تنس النظر إلى مَــنْ هو أدنى مرتبة منك وكن رفيقاً به.

إذا رزقــك الله بمركبــة، فــلا تنس أن تسير في الأسواق بقدميك حتى لا تُقتلَع من الأرض.

ولا تبطر بنعمة الله التي أنعمها عليك، فإن البطــر ينتهي بصاحبه ومن «سلّ سيفَ البغي، قُتل به».

كــن شفيقــاً رحيمــاً لطيفــاً بنفســك وبالآخرين.

لــن تستطيع أن تكون كريماً معطاءً ما لم يستقر العطاء في جنباتك، إن درجة العطاء هي ذاتها التي تحقق لديك درجة الاعتدال مع الذات ومع الآخر.

إذا رزقت بولد، فأكرمه إنه أمانة لديك، إذا عمــل عندك عامل، فأكرمه، جعلك الله أميناً علــى رزقه، فأعطه حقــه ، قد حان وعدها قبل أن يجف عرق العامل.

«إن الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه».

اليد العليا

دوماً فإن الإنسان يجنح ليكون هو الذي يعطي، وليس هو الذي يأخذ، ويبذل في ذلك الجهد، والوقت.

ثمة حكايــة قديمة تــروي أن رجلاً في مقتبل عمره أراد أن يذهب في تجارة ليأتي ببعض المال، وفي الطريق رأى ثعلباً مريضاً بالــكاد يتحرّك، فوقف سائــلاً نفسه: كيف يأكل هذا الحيوان الواهن ؟ وفي أثناء تأمله وشروده بأمر الثعلب، لاح له أسد قوي يحمل فريسة، فجلســ بالقرب مــن الثعلب وبدأ يلتهم فريسة حتى شبع وانصرف. بعد ذلك رأى الثعلب الواهن يزحف إلى بقايا الفريسة فيأكل هو الآخر حتــى الشبع وينصرف إلى مكانه. وقــف الشاب قائــلاً في نفسه: إذا كان الله يبعــث أرزاق مخلوقاته جميعاً فما لي أركض وأشقــى حتى أُطعم نفسي. وعاد إلى بيته يقول لأبيه قصة الثعلب الذي جعله يعود من نصف الطريق. فقال له الأب: أنت مخطئ يا بني تنظر إلى ظواهر الأمور، ليس المهــم أن تأكل، المهم من أين أتيت بطعامك. إني أريد لك أن تكون أسداً تأكل الثعالب من فضلاتــه، لا أن تكون ثعلباً واهناً تأكل بقايا السباع.

العطاء قوة.. اللا عطاء وهن
العطاء جمال.. اللا عطاء قبح
العطاء شروق.. اللا عطاء كسوف.
العطاء حياة.. اللا عطاء موت
العطاء نجاة.. اللا عطاء هلاك
العطاء استقرار.. اللا عطاء اضطرب
العطاء معرفة.. اللا عطاء جهل
العطاء مودة.. اللا عطاء كراهية.

يمكــن للإنســان أن يحقــق بطولة في مجتمعه من خلال العطــاء، البطولة ليست حلما من أحــلام البشر ولا أسطورة راسخة في الخيــال الجمعي للمجتمعــات، ولا هي مغامرة كبرى في أرض مجهولة. البطولة هي محاولــة الإنسان في سعيه المتواصل لتحقيق الانسجام مع ذاته كإنسان، والمسؤولية تجاه الآخريــن بكونــه أحدهــم. البطولة ليست معجــزة بشريــة استثنائيــة، ولكنهــا حالة طبيعية في مذهب إنسان طبيعي.

كل إنســان هــو بطــل في أعماقــه لأن كل إنســان يحمل لمســات إنسانية في جميع الأحــوال، ولكــن النماذج هــي التي تميل ميولات مختلفة ومتناقضة، وأحياناً خارجة عن الأطر الإنسانية، وفي هذا فإن البطولة هي حالــة من الصفــاء والعطــاء يعيشها البعض في مواجهة حالة الشح التي يعيشها أبناء الصــف المقابل. البطولة أن ترتقي في درجات سلّم الإنسانية.

العطــاء يتحقــق، ويستمر وهــو يقترن بمحبة الناس.

أسئلة المحبة تولد كل يوم، بالمحبة وحدها يمكن أن يعيش الإنسان لأنها الدافع الأقوى إلى الحياة، ومتى ما ماتت المحبة في أعماق الإنســان انطفأت شعلة الحيوية في حواسه. الذي لا يحب يفقد كل علاقة له بالحياة.

دومــاً كنــت أرى أن السكينــة لا تقترن بوجود المال، تتحقق في تجارب عديدة عشتها ورأيتها وسمعتها،بحالة النقاء الروحي التي يتمتع بها المــرء. مصالح الإنسان لا تتحقق لو لم تنطلق من أرضية خاصبة بمطر المحبة ومن فضاء مشرق بشمس العطاء.

لولا المحبة، كان الإنســان سيموت فظاً غليــظ القلــب في أرضــ جــرداء لا تآلف ولا تــوادد ولا توانس. هاهــو الإنسان يحن للإنسان، هاهو الشوق يزجيه لرؤية الإنسان، هاهي المحبة تجره جراً.

يقول نيتشة: /كل الأشياء الجميلة تحث على الحياة/[٤].

وكان المتنبي عندما يــرى نفسه مرغما على الراحة بسبب المرض يقول:

وملنـي الفـراش وكـان جنبي
يمــل لــقــاءه في كــل عــام

إن الأنانية هي غرسة في أعماق الإنسان وليس بوســع إنسان أن يولد بــدون أنانية، ولكن البطولة تكمن على قدر مواجهة هذه الأنانية وإرضاخها لعوامل الثقافة والنضج والتسامــح والأخوة والمحبة ، كما تكمن روح الهزيمــة في إرواء هذه الغرسة بمياه البخل والشح والانغلاقية.

ثمــة حكمة قديمة في الــتراث العربي تقول: / العفو عند المقدرة / أي أن تأتي إلى الذي أخطأ بحقك ســواء بالقول أو بالفعل فتقــول له بشمــوخ وأنــت في ذروة قدرتك عليه: لقد عفوت عنك.

الأخلاق والعطاء

لا يحتــاج الإنسان إلى شيء قدر حاجته إلى الارتقــاء في درجــات الأخلاق، والرجل

الذي يبلغ مبلغا متقدما في درجات الأخلاق، يبلغ مبلغا متقدما في درجات الحياة كافة.

الإنسان هو خلقه، وقد جاء الإنسان إلى الحياة ليمارس أكبر قدر من الأخلاق، وهو كلما ارتقى في سلم الأخلاق، كلما رقى في درجات إنسانيته وتمكن من ممارسة هذه الإنسانية بأبعادها. الأخلاق هي إحدى الثمرات السامية من ثمار المسؤولية تجاه الآخرين ، يزداد الإنسان رسوخاً في عطائه فتينع شجرة العطاء المباركة في تربة روحه نضيج ثمرة الأخلاق.

الأخلاق ليست نفوذاً، ولا جمالاً، ولا مادة. إنها سلوك ذاتي مع الذات بالدرجة الأولى، فتشع مواقف أخلاقية – من تلك العلاقة الذاتية – مع الآخرين، فمن عجز أن يكون خلوقا مع ذاته، يعجز أن يكون خلوقا مع الآخرين، و حتى لو أظهر الأخلاق فإنها لا تنبع إلاّ من ذات متأصلة في الخُلق.

قد يبدر موقف أخلاقي من عائل مسكين ما بدر من ثري ذو جاه.

يصعب على المرء أسر هذه الكلمة في دائرة تعريف، كل نظريات تعريف الأخلاق على مدى العصور السابقة لا تزيد هذه الكلمة إلاّ اتساعا في المعنى،فالأخلاق تتغذى بالعفة، تتغذى بالصبر، تتغذى بالحياء، تتغذى بالمعرفة، تتغذى بالعطاء ، بالكرم، بالسلم، بالعفو، بالشجاعة. الأخلاق هي فردوس الإنسان. مَنْ لم يكن بتلك المزايا لبث مطروداً من فردوسه يمضي أيامه في تيه من شقاء.

تسمو الأخلاق بإنسان مراتب عليا يستحي من أخلاقه إن راودته نزوة، وإن تغاضى الطرف استحى من أهليه، وإن تناسى استحى من الله.

تسعى شجرة الأخلاق الراسخة في عمق صاحبها أن تجنبه المهالك.

يمكن للأبوين أن ينمّيا بذور الأخلاق لدى الطفل فيتمتعان بنعمة تقديم كائن أخلاقي للحياة.إننا أحوج إلى دراسة مزايا الأخلاق في مختلف مراحل التربية، فالإنسان يمتاز بأنه كائن يتلقى دروس التربية حتى لحظاته الأخيرة.

نحتاج إلى قوة ملاحظة تمكننا من النظر في كلمات ومعاني الأخلاق. كل إنسان يحتاج لأن يكون عارفاً في مدرسة الأخلاق.

كل إنسان يأتي إلى هذا الكون يكتشف نعمة الأخلاق ويلبث يكتشفها إلى اللحظات الأخيرة من حياته لأن الإنسان سيكون حتى

تلك اللحظات الكونيــة الأخيرة متدرجاً في درجــة جديدة من درجــات الأخلاق لم يكن يخبرها.

هنا أريــد أن ألخصــ إلى أمر غاية في الحساسية وهو مقدار التعقيد الذي يحمّله بعضــ الناس على ذاته، وهذا البعض يمثل نسبة عالية من مختلــف شرائح المجتمعات البشريــة بصورة عامــة. فالإنسان هو كائن أبسط من حجم ذاك التعقيد المرعب الذي يضـــع ذاته في دائرتــه، وأي كائن بشري في العــالم جاء إلى هذه الحياة زائراً وهو يحمل بــراءة ذمة تجــاه الآخرين. ما يهــم أنه لا يوجد كائن بشري يولــد مُداناً وهذا يجعله دائم الانحياز إلى صفحــة البراءة التي ولد بها وفتح عينيه على العالم بها واستقبله العالم بهــا، وعلى هذه الأرضيــة الخصبة الطيبة يمكن لــه أن يلبث مشرقا للارتقاء ما أمكن في درجات الأخلاق.

نحــن لا نستطيع أن نفعــل شيئا بدون الآخرين ولا نستطيع أن نحقق شرط وجودنا الإنساني بدون احــترام الآخرين، وعلينا أن نعترف بأننا من صناعة الآخرين من صناعة أفكارهم ورعشاتهم وطاقاتهم وآلامهم. لقد صنعونــا فكيف نعيش في قطيعــة عنهم أو نتعالى عليهم وقد أطعمونا حليبهم وخبزهم وزيتونهم وبصلهم وعدسهم.

أي فــرد هو امتداد للغــير،وأي حادث يصيــب أي طفــل في أي قريــة مــن قرى العالم،فهو إصابة لسكان الأرض أجمعين.

نحن ننظر إلى أي شخص على أنه يعلم مــا لا نعلم، وندنو منــه ونتعلم منه حتى لو ظنن‍ــا للوهلة الأولى بأنه سفيــه، وما أدرانا أنه لا ينظر النظرة ذاتها إلينا،فلديه ما ليس لدينا وأوتي ما لم نؤت مثلما أوتينا ما لم يؤت إذا زعمنا هذا،فنحن نعيش بفضل الآخرين ولــكل شخص فضل على الآخــر سواء من الأموات أو الأحياء نحن ندين للعالم بتعلمنا اللغة واستماعنا الموسيقى وتعلمنا السباحة وقراءاتنــا للروايــات المذهلــة والقصائد الجميلة وسكنانا واستخدامنا للاختراعات البشرية وبقدر هذا الاعتراف علينا أن نصرّ على وضع لبنــة على عمارة الحياة الخالدة التي وضع أساسها أجدادنا أولئك القدامى. علينا أن نحترم حتى أشخاص الروايات، أن نحــترم «نبلييسيون» لــدى غريما لسهو من «وروكنتان لدى سارتر» و«ميرسو لدى كامو» «وعائلة تيبو لدى مارتان» و«قبيلة موهيكان لــدى كوبر» و«أهــل رانتزو لــدى أر كمان»

«والفلاح المنحــرف لدى نيكــولا» والأخوة كراما زوف.

نتعلم السماح والهبات ، نعطي للآخرين حتى ثيابنا، وما في جيوبنا لأننا من صنعهم أخذنــا منهم ما هو أهم وأرحب،نستطيع أن نمسح دمعة ما ونضع مكانها افترارة ثغر.

هنا أذكر حادثة وقعــت مع أبي الأنبياء عليه وعليهم السلام وذلك عندما جاءه رجل جائع يسأله طعاما، ولما علم إبراهيم أن هذا الرجــل لا يؤمن بالله الواحــد، قال له: لن أطعمــك إلا إذا آمنت بمــا أدعوك إليه من عبادة الواحد الأحد.

رفض الرجل وآثر جوعه على أن يؤمن بنفــاق وقال بأنــه مصر على عبــادة النار وانصرف جائعا.

فأوحــى الله إلى نبيــه: لِمَ لِمْ تطعمــه واشترطــت عليه تبديل دينــه ونحن نطعمه أربعين سنة على كفره.

انتبه إبراهيم أن ربه أعظم من أن يفرض الإيمان به على شخص يأبى هذا النور، وأن ربــه لا يهدد بالجوع والفقــر والمرض حتى يؤمَن به عنوة، فتعلّم درسا جديدا في مدرسة ربه، وما لبث أن ركض يلتحق بالرجل حتى يزيــل عنه سوء الفهم الذي أعطاه عن الله. عندمــا لحق به، عرض عليه الطعام ساحبا عرضه السابــق، فوقف عابــد النار ونظر لإبراهيــم قائلا له: لن أقبــل دعوتك حتى تخبرني ما الذي غيرك؟.

ولم يكن أمام النبـــي إلا أن يصارحه بما جرى بينه وبين ربه، الذي نظر من عليائه في تحاورهما وتدخــل دافعا نبيه هذا التوجه، فوقــف عابد النــار دهشــا: سبحان الله.. هكذا يعاملني ربــك وأنا أعبد سواه.فكانت خطواته الأولى نحو مملكة الإيمان.

شوكة الأنانية

تبقى الأنانيــة شوكة في الإنسان، تجعله لا يرى شيئا خارج نفعه الشخصي

هــذا الكائن الذي يحيا في الناس ببذرة محبــة ميتة هو في واقع الأمــر لا انتماء له لسلالــة البشــر إلا مظهره، أمــا الإنساني فيكــون ممسوخاً في باطنــه، إذ لا يرى أي قيمــة أو متعــة في الحياة برمتهــا خارجاً عن لحظــات اكتسابه للمــال الذهبية التي يمتلئ فيها شعــوراً بالرضى عن نفسه وعن جدارة العيشــ، ويبلغ مرحلة نرجسية غاية في الاشمئــزاز لا ينظر فيها نظــرة إلا إذا جــرت عليه نفعا، ولا يخطــو خطوة إذا ما لمــس خلفها مصلحــة، لا يمد كف سلام إلا

لطمــع في نفسه، لا يلفــظ كلمة حق إلا إذا رأى كسبــا، بل لا تتناهى لــه فكرة إلا وقد قلبها حتى أتت على وجهها المالي.

كل حركة تبدر منه تكون مرهونة مسبقا بالربح والخسارة في هيئة مادية خالصة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فلا تلمس في مذهبه خصلة حميدة، موقف تضحية، ذرة رحمــة، كلمة تسامح، إنه كائــن بشع فاسد أينما وطــأت قدماه، فإن ابتــاع سلعة نظر إلى قيمتهــا قبل أن ينظــر إلى جودتها، وإن أنتــج سلعة نظر إلى بدلهــا النقدي قبل أن ينظــر إلى مضمونها، فيرتمي آخر الليل في أحضان كيسه سعيداً وهو كله انتظار لصباح جديــد تحسبا لزيادة أخرى بينما عباد الله بوغتــوا بهشاشــة بضاعتــه وفسادها وهم يكيلــون اللعنة تلو الأخرى لمنتجها ومروجها وبائعها.

ويمكن لإنســان أن يتحول من الكرم إلى الشح كما في الحكاية التي أوردها:

تناهى نداء واثق إلى مسمعه يسبق جسداً يهبط الــدرج نحو باب القبــو، امتدت يده تطفئ موسيقــى أوشك أن يغفو على لحنها الهادئ، ثم تحرك بتكاســل فتلاحق النداء الواثق متداخلاً هذه المرة بطرقات على باب غرفته المغلق: أستاذ زياد.. هل أنت نائم؟

لا يدري كيف خرجت منه حروف متلعثمة رد بها بسخرية على السؤال الساذج: نائم.

عاد الصوت يهتف: افتح الباب رجاءً

للتو علم بأنه صوت الأستاذ عثمان الذي تخــرج هذه السنــة ويعمــل بصفة محامي متمــرن في مكتب أحــد المحامين القدامى. شخصــ بسيــط إلى درجــة السذاجة، من المريب حصوله على إجــازة الحقوق، أم أن في الأمر سراً. هذه الكلمــات دوماً يرددها بينــه وبين نفسه كلما زاره عثمان في البيت، وهذا يحــدث مرتــين في الأسبــوع بشكل متفــرق، أحياناً يأتي وقــت الغذاء، وأحياناً أول المساء،ويمكن لــه أن يهبط في التاسعة صباحــاً من يــوم العطلــة. وهو مــن نوع الضيوف الذين لا يطيلون كثيراً في الجلوس إلا إذا كانــت هناك مناسبــة أو حديث أثير في الأخلاق، ورغــم مظاهر السذاجة على شكله وطريقته في تناول المواضع فهو يفاجئ سامعــه بمعلومات هامة يبــدو بأنه الوحيد الذي يلم بها.

نجح الأستاذ زيــاد في ترك فرشته ومد كفاً يفتح الباب لهذا الزائر الذي أصر على إزعاجــه في وقت بدا له أكثر هدوءاً في هذه

الأيام المتوترة التــي يعيشها منذ أسبوعين. دخل عثمــان على عجل وهــو يرتجف من برد كانون الثاني القارس والكلمات ترتجف بين شفتيه: مساء الخير.. مررت في الشارع مصادفة، فقلــت لا بد أن أزورك رغم أنني وجدت الضوء مطفأً.

ولمــا رأى زيــاد ضيفــه مــا زال واقفاً يرتجف من برد منتصف الليل، أشعل المدفأة الكهربائيــة والكلمات تخرج كأنها نائمة من فيه: تفضل.. سنجلســ بعض الوقت، وإذا غالبني النعاســ سأنام ونحــن نتحدث، لا توجد مشكلة كبيرة.

بعد دقائق معدودة نهضــ عثمان وراح يملأ إبريق الشاي ماءً ويضعه على المدفأة: لن أزعجك برغبتي الشديدة في تناول كأس مــن الشاي، دعني أفعــل كل شيء بنفسي. ثم ما لبــث أن أحضر كأسين صغيرين وعاد يبرك في موضعه قائلاً: منذ مدة وأنا أحاول أن أخفي عنــك، لكن ما شاهدته اليوم بات أكبر مما أقــدر علي إخفائــه، وما دعاني لذلك هو مــروري الآن بالقــرب من بيتك عســى أن تخفف عني بعضــ الألم. أجل يا صديقــي، أنا أعتبر نفســي مسؤولاً عن كل ما حدث لغازي، كنتُ الشــرارة الأولى التي أوقدت النيران وأكلت صديقاً عزيزاً لي. مد كفــه إلى الإبريق الذي أخذ البخار يعلو منه وصــب كأسين من الشاي وأردف يقول: منذ سنة لاحظــت بأنه يمضي نحو تبذير يمكن أن يؤذيــه في وضعه المادي، ينفق ما يقع في يــده دون أن يدخر شيئاً لطارئ.. هل نمت، ألا تسمعني، اشرب الشاي قبل أن يبرد.

– لا، لا، أسمعــك جيداً، من هو غازي، هل أعرفه؟

– لا أظن، إنه رجل غاية في الجود.

مد زياد كفه إلى كأس الشاي الذي تفاجأ بــه أمامه وبدأ يرتشف ويقاوم حالة النعاس التي بدت مهيمنــة عليه، فقال عثمان: مرة بقيــت معه في المطعــم إلى أن أغلق وصرف عماله فمشينا وهو يقــود البسكليت بيديه إلى البيت علــى الأقدام. قلت له: يا غازي، ألا تفكر بالمستقبل، ما تزال عازباً تحتاج إلى بيــت وآثاث وزوجة، بيت أهلك لا يدوم لك، وأختك لن تخدمك إلى الأبد.

قــال: يــا أستاذ عثمان، كــن على يقين إن لم أصــرف ما في الجيب، لن يأتني ما في الغيب، أنت متعلم وفهمان وأنا أمّي لم أدخل مدرسة، لكن هذه هــي فلسفتي في الحياة، عدم انتظار كارثة، بل عدم انتظار يوم آخر

شيء جميل، هكذا أعيش بدون عقد، وأعيش متحرراً من خوف.

قلت: لكن لن تضمن حلول كارثة، ومجيء يوم جديد،.. هل نمت مرة أخرى، زياد.. زياد.. انهض أرجوك، اسمعني، زياد هل تسمعني، افتح عينيك أنا بحاجة لأن تسمعني.

استفاق زياد وتفاجأ بأنه ليس في فرشته، فنظر إلى الأستاذ عثمان، ثم عاد وأغلق عينيه قائلاً: ومن قال بأنني لا أسمعك، أكمل يا صديقي، إنني أسمعك جيداً وأنا مغمض العينين، صدقني فإن كلماتك كلها وصلتني، هل تريد أن أعيدها لك. فقال الأستاذ عثمان: لا، لا، أنا واثق بأنك تسمعني، أجل، لكنه قال: قلق اللا انتظار أهون على المرء من قلق الانتظار.

أقسمت بيني وبين نفسي ألا أتركه حتى أجعله يغير نظرته هذه فذهبت معه إلى البيت، سهرنا حتى طلوع الضوء وأنا لا أكف عن الإصرار إلى أن وجدته يلين بعض الشيء ويتفق معي. لكن بعد شهر من هذا الحديث الطويل رأيته ينقلب على عكس ما كان عليه، فعندما أزوره لا يتحدث إلا عن كيفية جمع المال، ولا يقدم لي حتى كأساً من الشاي، أما الأصدقاء الذين كانوا دائمي الحضور في ضيافته،فلم أعد أرى قدم واحد منهم في المطعم، غدت علامات شح لا يطاق تظهر في سلوكه. مرة صادفته في باص النقل الداخلي ورغم أنه كان يجلس في مقعد أمام مقعدي، انتظر إلى أن مددت يدي ودفعت الأجرة، عندما نزلنا فوجئت به يدخن من علبة سجائر رديئة، وكان في السابق يدخن أغلى دخان موجود في البلد فلم أتملك نفسي وقلت له: يا غازي هذا الدخان الرديء يسبب لك مرضاً.قال: لا تسأل يا أستاذ، كله يسبب مرضاً ويلحق بعضه ببعض.

وبدأت المشاكل المنزلية تحاصره لأنه يأكل ويعيش في البيت دون أن يقدم شيئاً. مرة أردت أن أنصحه ليعود إلى ما كان عليه من بسط يده كل البسط، فأخرج حزمة نقود من جيبه بيدين راجفتين وصار يقبلها بحرارة ويقول: هذه هي الحياة كلها.

احتقرته في تلك اللحظة وتركته مع حياته.. رغم ذلك لم أستطع التخلص من شعوري بالذنب تجاهه.. أجل أنا الذي دفعته إلى ذلك، كل مرة أتردد إليه في العمل وأحاول إصلاح خطيئتي فأفشل. خسر

جميــع رفاقه وأهله وأخوته وأقربائه وخسر صحته ونفسه،أنا المسؤول عن مرضه ويجب أن أشفيـــه: أرجوك يا غـــازي: الغني يموت والفقير يموت وأنت ستموت.

– لأمت غنياً أفضل من موتي فقيراً.

– وما الفائدة؟

– الفائدة لا أحد يعرفها بقدري.

– لكنك تنتحـــر هكذا.. لقد خسرت كل شيء!!

– بــل ربحت كل شيء.. غــداً سترى ما أفعله..جميعكم ستكونون بحاجتي.

– أنت مجنون.. هل تتصور بأنك ستتحول إلى وحش.

لم يخطــر ببالي أنـــه سيطالبنـــي بمبلغ كان قد دفعه بإلحـــاح نيابة عني في إحدى المقاهي منذ ثـــلاث سنوات.. لقد ذكرني به وطالبني وسمعت بأنـــه فعل ذلك مع الكثير من أقربائـــه وأصدقائه، لا أحد يستطيع أن يأخذ قرشاً واحداً منه.. يمشي تحت المطر ساعتين كي لا يصعـــد الباص.. لا يأكل إلا مرة واحـــدة في اليوم.. تصور ينام جائعاً. لم يسبـــق لي أن بكيت، ولكن اليوم فقط بكيت عندما رأيته...

أجل اليوم غلبتني الدموع وأنا أرى غازي في قلب المدينة، كان قد أعطى كل أمواله إلى رجل لقاء فائدة شهرية، ومنذ أيام سمع بأن هذا الرجل احتال عليه وهاجر إلى الخارج. لم يكن بوسعـــه أن يتقبل الأمر وينسجم معه ويفوض أمـــره لله. كان يهرول وسط المدينة بثياب ممزقة يحمل بيديه خرقة بالية أشعل فيها ناراً وينـــادي: نقود.. نقود. وقد تجمع إليه سوقيون ويلاحقه صبيان بالحصى.

المـراجع:

١ – مــن ذلــك كتــاب / كيف تعلمون أولادكم تعلــم المسؤولية / ليندا وريتشارد آيــر –ترجمة أحمد رمو –دار علاء الدين –دمشق.

٢ –طريقة للحياة – قصص –عبد الباقي يوسف –منشورات اتحاد الكتاب العرب –دمشق ٢٠٠٧

٣ –هو أبو عبد الله محمد / الحادي عشر /آخر ملوك غرناطة.

٤ – فريدريك نيتشة –إنسان مفرط في إنسانيته –ج٢ ترجمة محمد الناجي – أفريقيا الشرق – الدار البيضاء٢٠٠١.

الإبداع

شعر :

قصة :

الإبداع



- جمر الحنين -
(إلى زهرة المدائن.. القدس)

شعر

محمود علي السعيد *

- الليلُ كأسٌ والنديمُ هلالُ

والهمسُ في قلقِ السؤالِ

سؤالُ

- أعيتْ نصوصَ الوردِ

لفتةُ مغرمٍ وبكتْ مزاميرَ الجراحِ

نصالُ

* شاعر فلسطيني

العمل الفني: الفنان مطيع علي

– وغزا الصقيعُ الدفءَ في أعشاشهِ
ما عادَ في طبقِ الحرامِ
حلالُ
– وتقطعّتْ وَلَهاً مسالكُ غربةٍ
سمقتْ على غيماتها
الآمالُ
– القاربُ المشتاقُ عرشَّ حولهُ
من فرطِ ما اشتعلَ الهوى
شلاّلُ
– أججّتِ روحيَ يا ضفافَ مواجدي
وغفا على جمرِ الحنينِ
خيالُ
– وتطايرتْ فوقَ السطوحِ براعمٌ
لتضجَّ من ألَمِ الفراقِ
جبالُ
– هيهاتَ يا ألَقَ الديارِ يعودُ لي
أفقٌ ترقرقَ خلفهُ
الموّالُ
– نزفتْ على الماضي أراجيحُ الصبا
وأضاءَ مصباحَ النجومِ
غزالُ
– من بعدِ هجرِ الحلمِ أفرعةَ الندى
هل تثلجُ الصَيفَ الطعينَ
ظلالُ
– أخطو إلى المجهولِ خطوةَ مدنفٍ
فيها تتيّمَ بالجنوبِ
شمالُ
– الصمتُ أبلغُ صرخةٍ توّاقةٍ
لمسامعِ التوصيلِ حينَ تقالُ
– أطلقْ جناحَ القوسِ في تَسيارهِ
صوبَ الحدائقِ
فالربيعُ جمالُ
– ومحالُ أن يبقى القرنفلُ يشتكي
هجرَ النسائمِ في الصباحِ
محالَ
– إقبالكمْ من شرفتينِ على المدى
ياكَمْ يتوق إليهما الإقبالُ

– وطنَ الأصالةِ لو تجودُ بقبلةٍ
الصوتُ أورقَ
والصدى قتّالُ
– والضوءُ طيّرَ من عميقِ شعورهِ
عبقَ الهواجسِ
في الضحى

يختالُ

- أرشف رحيقَ العمرِ من عنقودهِ

واخلعْ أساكَ

إذا جفاكَ منالُ

- لا تعبأنَّ إذا الحرائقُ أُشعلتْ

وهفا إلى شدوِ الرصاصِ رجالُ

- واستصرخت قممَ النسورِ مآذنٌ

وسما بأولى القبلتينِ

بلالُ

- وتبرجتْ في المقلتينِ جنازةٌ

تزكو بزمزمِ طهرها

الأجيالُ

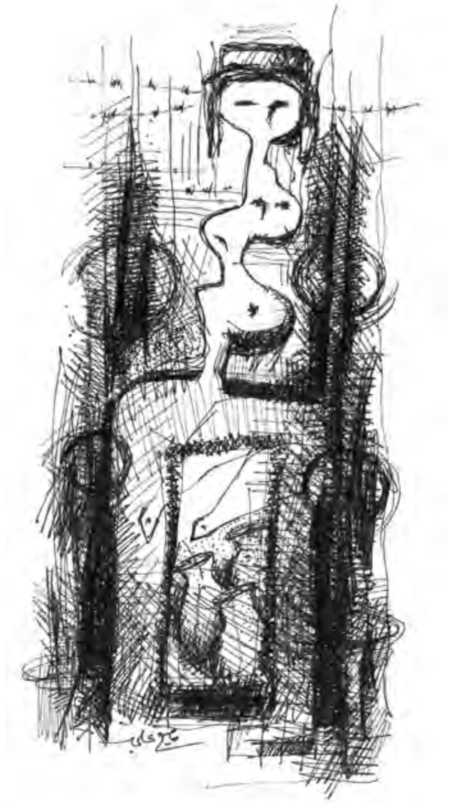
- من لم يذقْ وجعَ الصبابةِ مرّةً

ويدقُّ صدرَ فؤادهِ

التجوالُ

- يمسي صريعَ وشايةٍ مجنونةٍ

عصفت بلقمةِ عيشها



الأحوالُ

- القدسُ في نعشِ المساءِ منارةٌ

إلاّ إليها

لا تشدُّ رحالُ

الإبداع

لهفـة المـوج

شعر

محمد وحيد علي *

ماذا يقولُ البحرُ

حين الموجُ يصعدُ لهفةً

ويضمُّ أشجانَ السّرابِ؟..

ماذا يقولُ الماءُ

وهو يضيءُ في وهجِ الأنوثةِ

حالماً

* شاعر سوري

العمل الفني: الفنان غيث العبد الله.

ويمورُ مثلَ البذرةِ الخضراء
في حضن الترابْ؟..
هل قبّراتُ الأرضِ
تبدأ رحلةً في التيهِ،
في قمرٍ
يحلّق في فضاءِ الماءِ
حيثُ الرُّوحُ ولهى
والأنوثةُ طيَّرتْ أطيارَها
لتحطَّ في فرحٍ
على تلكَ الهضابْ؟..
هلْ موجةٌ تأتي
لتشعلَ ليلنا..
أم أنَّها،
حجرٌ ترمَّدَ
واسْتطالَ
إلى منافذِ روحنا
ليسدَّ أنهارَ السّحابْ؟..
هل شمسُ آبَ حقيقةٌ
أم أنّها.. ضوءٌ سيسطعُ
لحظةً
ويزوغ يلهفهُ الأسى
وينام يخطفهُ الغروبُ
إلى مواتٍ
أو خرابْ؟..
الموجُ موَّالٌ،
حنينٌ عارمٌ في القلبِ
أو زفراتُ عاشقةٍ
تَكسَّرُ عندَ مبتدئ الشطوطِ
ولا تعودُ إلى البحارِ الزرقِ
حتّى تستردَّ
منَ الشواطئِ شوقها
فتتوهُ ثانيةً
يصارعها العبابْ..
الموجُ نبضةُ مَنْ يُحبُّ
وجرحُهُ..
ونواحُ أمٍّ
ودَّعتْ أبناءَها
عند الصباحِ
ولم يعودوا..
إنَّه يأتي جياداً،
في مدى بريّةٍ
زرقاءَ
تصهلُ
والمدى جرحٌ

يغلّفهُ الضبابْ..

يا موجُ قلْ

قلْ: أينَ تبتدئُ القصائدُ

حينَ من رحلوا إليكَ

مقيَّدينَ بقهْرهمْ

ومنَّورين بصبحِ أفئدةٍ

تقاسمُهمْ جراحَ العيشِ

في أرضٍ تمزّقها الحرابْ؟؟..

قلْ: كيفَ تبدأ عرسكَ البحريَّ

حين الريحُ

تقتلعُ الأماكنَ

والأمانَ

وتحجبُ الأنوارَ

عنْ قلبٍ

ليُرمى كالسفينةِ

في عبابِ الماءِ

أو شبحِ الغيابْ؟..

يا موجُ!..

كمْ عبرتْ أغانيكَ الحبيسةُ

والقصائدُ غرّدتْ تشدو ربيعاً

في خضمّكَ؟

آهِ كم كبرَ انتظاركَ



وانتظاري؟

كلما نوّرْتُ صبحَ

حضورِها

نفرَ الغزالُ

وماسَ في دفء المياهِ

وشدَّني للعمقِ

لو تأتينَ بعدَ مويجتين

وتطلقينَ سراحَ أغنيتي

التي انطفأتْ على صدرِ اليبابْ!!..

❀ ❀ ❀

أنا كلما لامسْتُ وجهَكِ

ضاءَ في جسدي

ظلامٌ

وانتشى قمرٌ

وغرَّدَ عندليبٌ..

وأنامُ في شوقي

كأني غارقٌ في الصّحْوِ

أسألُ موجكِ الدوارَ

يرفعني على أفقِ

ويرميني اشتياقاً في المغيبْ..

أنا لم يعدْ وجهي غريباً

حينَ ألمحهُ حبيساً

في مرايا الحلمِ

أصرخُ ها هنا،

في قلبها البحريِّ

سوفَ تحطّ روحُكَ يا غريبْ..

الإبداع



قصص قصيرة جداً

قصة

نجيب كيالي ❁

فتاة وشمسية:

دون قصد صدمت شمسيةُ (سميح) شمسية فتاة على الرصيف!

اهتزتْ شمسية الفتاة، سقطتْ قطرةُ ماءٍ على رقبتها من الخلف، وتمتمت شفتاها:

- أحّ.. أحّ!

بعـد لحظة احمرَّ وجهها، وفي لونه ظهرتْ كلمةُ تأنيب. حاول سميح أن يعتذر، لكنه ارتبك متأثراً بخجله.. باحمرار الوجه.. بكلمة: (أح)!

❁ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

زفـرت الفتـاة، فرشقت وجهـه بدفقة هواء ساخن، وسارت بخطواتٍ نزقة، فتحرر من جموده، لحقهـا ليقول لها ما في نفسه، ولسرعتـه صـدم شمسيتهـا بشمسيته مرة ثانية!

التفتـت، ومع لقـاء الوجهـين ضحك بارتباك، ثم بمرح، فضحكتْ، وكأنها فهمت صفاء نيته أو استعذبت ما حدث.

قال لنفسه: فتاة رائعة.

قالت لنفسها: فتى رائع.

قال لنفسه: قبَّلتُها بشمسيتي.

قالت لنفسها: كأنني تلقيت قبلة.

قال لنفسه: سأقول لها غداً نلتقي.

قالـت لنفسهـا: ليتـه يقـول لي: غداً نلتقي.

لكنَّ المطر توقف فجأة، واكتشف سميح أنه في الغرفة ينظر بعينين حالمتين إلى صورة فتاة تحمل شمسية!

❁ ❁ ❁

سقف منخفض:

لا يصـدِّق عينيـه.. سقـفُ غرفتـه انخفض!

عاطلٌ عن العمل، في الثلاثين من العمر يأخذ (الخرجية) من أبيه!

خفّفَ مـن حاجاته الشخصية: الطعام، اللباس، التدخين، أبـوابُ الدوائر الرسمية والشـركات حفظـت وجهه، راحـت تصدُّه بوقاحة! المحـال التجارية صـارت تفضِّل تشغيل الآنسات، ليته كان آنسة!

مليونان من العاطلين، والأذكياء يعالجون الوضـع بقرارات ناعسة.. قرار لكل عاطل. أليس حلاً معقولاً؟!

السقف يزداد انخفاضاً!

اليوم أُحيل والده إلى التقاعد. هذا يعني أنَّ إجراءات المعاشـ ستستغرق عدة أشهر، ولابـد أن الأب سيستديـن لتوفير حاجات البيت. ربـاه.. هل يمكن أن يأخذ الخرجية من دين أبيه؟!

دخل إلى غرفته، أرعبه انخفاض سقفها! أراد أن يصـرخ: (ارفعوا السقف)، لكنَّ ثقلاً كبيراً هوى فوقـه، وسمع عظامه تطقطق.. تطقطق!

❁ ❁ ❁

قهوة من يد القصيدة:

بناتـه القصائـد يدللنـه كثـيراً في شيخوخته..

يُجهـزن له قهوة الصبـاح، يدرن حوله، ينادينـه: بابا، فينسى عقـوق الأبناء الذين رحلوا.

أحيانـاً يحاصـره الضجـر.. ضجـرُ

الشيخوخــة، فيشتمهــن، ويطردهــن، لكنــه مــن وراء الباب يسمع بكاءً ناعماً، يفتح لهن دامعَ العــين، فيقفزن إلى صدره، يقبِّلن يديــه، يثرثرن، يغنــين، فتمتلِئ سمــاء غرفته برفــوف العصافــير، ويطلــع القمر بدراً ولو في النهار!

سعيداً ينظر إليهن، يقول:

اللهــم زد هــذه الذريــة الصالحة.

❀ ❀ ❀

كُتب:

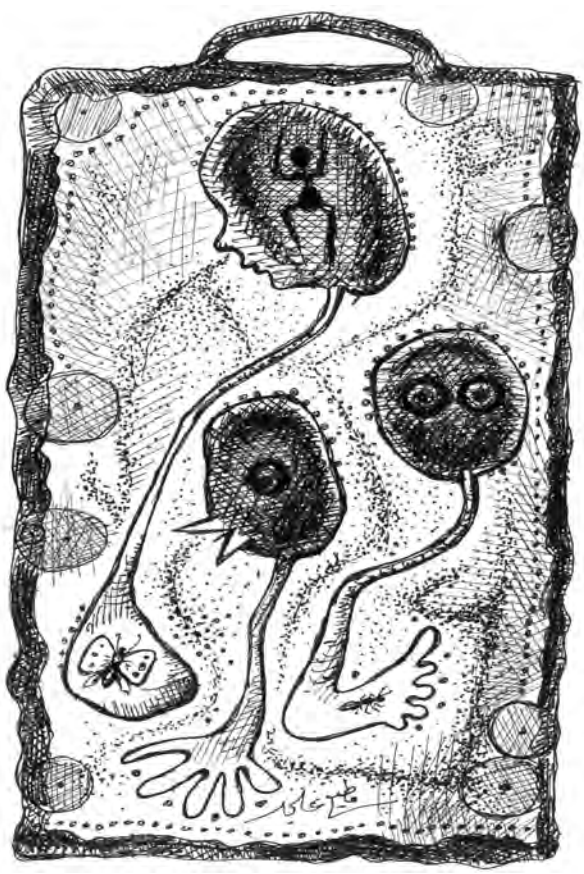
انزعــج السلطــان مــن الكتب!

وصفهــا بأقبــح الصفات، أرسل لهــا بصقةً سلطانية من نافــذة قصره، فهي تغــري الألسنة بكلمات غريبة: حق، عدالة، حرية!

ماذا يفعل؟

أصــدر فرماناً بمنع الكتب المترجمة، ثم المؤلَّفــة، ثم حظّرَ على الرعية أن تتثقف إلا بكتب النحو!

سارت الأمور كمــا شاء، وذات يوم دخل عليه كبيرُ البصاصــين لاهثاً، عيناه في قفا



رأسه، أخــبره أنَّ واحداً من رعيته كان يقرأ قول الزمخشري: (أموت وفي نفسي شيء من حتى) بكى، وقــال: (أموت وفي نفسي شيء من الشوق إلى.. إلى الحرية)!

بلــعَ كبيرُ البصاصــين ريقه، أضاف: في الحقيقــة لم يلفــظ الكلمة الملعونــة كلّها يا مــولاي، لكنه لفظ أحرفهــا الأولى، فعرفنا أنه يعنيها.

غضب السلطــان حتى إنَّ متعة الجارية

التي كان يلاعبها تبخرت من قلبه، صاح:

أدِّبو هذا الفاجر، واحذفوا بحث: (حتى) من كتب النحو.

❁ ❁ ❁

معركة:

بعد أن قضينا بـ (الشحاطات) المصفحة على العقــرب رقم عشرة شعرنــا بالنشوة، رقصنا، رقص بيتنــا الصحراوي، اعتقدنا أننا أجهزنا على جيش العقارب.

تحت رايــات النصر جلســت وصديقي إسماعيــل نحضّر دروس الغــد لتلاميذنا، تبادلنا النظرات، ابتسمنا، بعثنا برقية شكر إلى بســاط السعادة الذي حملنا، وحطَّنا في هذه القرية من بلاد الذهب الأسود.

تثاءب إسماعيل، استلقينا على سريرينا في أرض الدار هرباً من شدة الحر.

نزلت نجمةٌ من السماء إلى قلبي، أعادت لي صوتَ ابنتي (لينا) في المكالمة الأخيرة مع سورية:

– كيفك بابا؟

– أنا؟ عسل وبقلاوة، إميم.. إميم.

– طيب.. احــكِ لي عن تلاميذك.. هل هم أشطر منا؟

– آخ يــا روحــي يفهمون علــى الطاير، الجو أيضاً لطيــف، الخضرة كثيرة! والأكل يا سلام..! صار لي منــه خدانِ أحمران لن تشبعي من تقبيلهما!

انقطعــت المكالمة فجــأة!.. إنــه هناك يتحرك قرب الحائط! واحد؟ لا.. اثنان!

هتفتُ مازحاً محذِّراً:

– ألــو.. ألو. من نجيــب إلى إسماعيل: انتبه. العدو يتقدم عند الحائط.

جاءني صوته مختلطاً بالنعاس:

– ألــو.. مــن إسماعيــل إلى نجيب. أنا نعسان.. قم أنت بالواجب المقدس.

❁ ❁ ❁

مطاردة:

انسدَّت الطرق أمــام (مذبوح)، مدَّ يده إلى خزانة جــاره في لحظة ضعف، وعندما استقرت النقود في جيبــه انطلق رشيقاً في الشــارع، وكأن الأوراق المالية صارت أجنحة على جانبيه!

لكنه وجد نفســه مطارداً بكلمة: (لص) التي راحت تبرم كذبابة كريهة حول رأسه!

((لماذا تلحقينني؟! هل يعجبك أن أبقى ممصوصاً منتوفــاً إلى آخر عمري! أربعين سنة وأنــا جائع.. حتــى أحناكــي أصابها الضمور! أربعين سنة وأنا بلا امرأة بالحلال أو الحرام!))

دخــل إلى المطعم، طلب وجبــة دسمة،

فرآها تــبرم حول طعامه.. تقــوم بحركات بهلوانية كطائرة في مهرجان للطيران!

((بسيطــة.. إن كنــتِ ذبابــة ابنة ذبابة فاتبعيني إلى البيت)).

في البيت ملأ أزيزها فضاء الغرفة، ركض يبحث عن لطَّاشة الذباب، فلم يجدها!

(البف باف) لم يجده!

فتح النافذة صارخاً بجنون:

- اخرجي.

لكنَّ الذبابة تضخمــت فجأة كالكائنات الغريبة في أفلام الرعب، ثم ابتلعته!

❁ ❁ ❁

نباح في الحلق:

في مملكــة (تسعــةِ نجومٍ ونجــم) كان (عزيز) ينطُّ ولا يحط!

أحــد الأمــراء سلب ابنتــه بكارتها، ولم يكتف! إنه يريــد أن يجعلها كفنجان القهوة المرة يدور من يد إلى أخرى!

قالت له زوجته وهي تكاد تختنق:

- ليســ في يدنا شــيء، الأمر لصاحب الأمر.

زأر كنمر مصاب:

- ليســ في يدنا شيء! يــا ستي سأنبح، حتى الكلاب من حقها أن تنبح.

خرج صوته يرجُّ البيت، يخترق الحيطان، فــكادت الزوجة تقع من طولهــا، أسرعت، وضعت يدها على فمه، فتملَّص منها، عندئذ فتحــت النافــذة، فظهر في ساحــة المدينة المسماة: (ساحة التأديب) منظر رهيب:

رجل مشنوق بشريط كهرباء!

شاب مكتوف، مغروز لسانه بالدبابيس!

فتىً معلَّق من أصابع قدميه!

صار وجه عزيز مكفَّناً بالأصفر، أغلقت الزوجــة النافذة، حــاول أن يصــرخ إثباتاً لرجولته، فتحركت الحــروف في حنجرته، دارت في مكانهــا دائخــةً، سقطت، وقفت، تداخلــت كلفّــة صــوف أصابتهــا عشراتُ العُقد!

❁ ❁ ❁

مامونية:

صورتها على الحائط بــ (الشاشية)(❁) البيضاء، وجهها يقطر طيبة وأمومة.

وقــف أمامها مملوءاً بالعتب: أمي.. أين صحن المامونية؟!

منــذ عشرين سنــة اعتــاد أن تقدِّم له في صباحات الجمعة هــذا الصحن، تشدُّه الرائحة حتى قبل أن يغسل وجهه، يسرع إلى المطبخ، يجده فوق الطاولة مرشوشاً بالقرفة وحبة البركة.

قالوا له وعيونهم دامعة: إنها ذهبت إلى منزل لن تعود منه.

هتف بعينيه: مستحيل.

إنه متأكد أنها ما زالت في البيت، وعند الفجر يسمع حفيف خطواتها وهي تذهب للوضوء، تسقي في الشرفة (تنكات) الزرع، تفتح المذياع لتسمع أغاني عبد الوهاب.

إنها موجودة، لكنها نسيت صحن المامونية! سار إلى غرفتها ليسألها عنه، أوقفته رعشة على مقبض الباب، تراجع موبخاً نفسه:

(ألا تخجل؟ لعلها الآن تنفرد بنفسها تتذكر شيئاً من أيامها مع أبيك، لعلها تخيط بإبرتها قطعة من ملابسها الداخلية، لعلها متعبة تستعذب غفوة الصباح. أمِنْ أجل المامونية توقظ أمك يا ولد؟! دعها في فراشها لترتاح.. ترتاح في سلام).

الهوامش:

(❀) غطاء رأس من الشاش الأبيض.

الإبداع



حيــاة ملفّقــة

قصة

نيروز مالك*

التفــت إلي عبد الله يوسف وقال: في ليلة البارحة حاولت أن أكتب قصة قصيرة حول رجل يقارب الخمسين من العمر، عازب.. لم يتزوج أبداً. والسؤال الذي كان يُطرح عليه من قبل أصدقائه ومعارفه. «لماذا لم تتزوج؟» كان يرميه في اضطراب. لأنه، هو نفسه لم يكن يعرف السبب الذي منعه من الزواج.

لذا، تابع عبد الله يوسف: حاولت أن أجد له جواباً عن السؤال.. ولكني بعد تفكير طويل وجدت من الأفضل لي وللرجل أن يجيب بنفسه عن السؤال. لهــذا تصورت نفسي، تابع عبد الله يوســف: أخرج وراء الرجل الخمسيني،

* قاص وأديب سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وأســير قريباً منــه. أســير إلى جانبه حيناً، وأحيانــاً أخرى أسير متخلفــاً عنه بخطوة أو اثنتــين، أو أتقدمه بخطوة وهو يسير إلى يمينــي بعد أن قررت أن أتركه يحل مشاكله بنفســه.. ولكني ما إن خطوت معه خطوتي الأولى حتــى التفت إلي سائــلاً، وهو يبتسم بخبث: «إلى أين يا صاحبي أنت سائر؟».

شعرت بشيء مــن الارتباك على سؤاله المفاجئ الذي طرحه علي. قلت أجيبه: «ليس إلى مكان محدد!».

ابتسم والخبث يلتمــع في عينيه: «كيف ليس إلى مكان؟ فأنا أراك سائراً معي خطوة بخطوة؟ ثم تابع بعد صمت قصير: أنا سائر إلى الحديقة العامة.. هــل أنت سائر إليها أيضاً؟».

قلت متجاهلاً سؤاله: «أفي هذا الوقت؟ ألا تجد بأن الجو حار جداً؟».

أجابنــي: «بلى، ثم تابع: لهــذه الأجواء خلقــت الحدائــق العامــة حيــث الأشجار وظلالها، والــبرك المائية ورذاذهــا المتناثر حولها مرطبة الجو، ومخفضة حرارته».

في أثنــاء هذا الحوار الذي دار بيننا كنا قد وصلنا إلى باب الحديقة الضخم. فقلت له: «ولكني أعتقد بأن البيت لديك لا يشكو من الجو الــذي يسود الحديقــة من برودة وفيء وظلال ورذاذ ماء».

ابتسم وعلــق: «هذا صحيــح. لديّ في البيــت مكيف ومراوح وفوق هذا، أو إضافة إلى هذا يتمتع البيت لدي باتجاهات تساعد على تسلل أوهى نسمات الهواء إليه».

إذاً، قال عبــد الله يوسف: «ما حاجتك بالذهاب إلى الحديقة العامة؟».

تابــع الرجــل كأنــه لم يسمــع تعليقي: «أنــا أحتاج إلى الرفقــة، أقصد أن بيتي لا يدخله الرفاق والأصدقاء، أقصد يفتقر إلى الأصدقاء والأصحاب. أما هنا»، وأشار بيده إلى الحديقة، وكنــا قد أصبحنا في داخلها، بحيــث باتت ظــلال الأشجــار تلفنا «فكل الأصدقاء موجودون».

ابتسمت له بعد أن التزمت الصمت. ثم تخلفت عنــه خطوة وراء خطوة، وأنا أراقبه يتوجه إلى كرسي خشبي قديم بعينه.

لفت الكرســي بشكلــه الغريب نظري، كان طويــلاً وعريضاً بــلا مسند إنما وراءه مجموعة من جذوع الأشجــار لا أعرف لها اسمــاً، رغم أنها كانت تشبــه أشجار التوت الضخمة.

كان الكرسي الخشبــي القديم مدهوناً بلــون أحمر أشبه بلون الــدم القاتم، أي ما يسمــى بلــون دم العبد، هذا وقــد جاءت غرابة الكرسي في شكله. كان عريضاً بحيث يمكن للمــرء أن يتمدد فوقــه وينام براحة

تامــة، أمــا من حيــث طوله، فقــد رأيت بدايته، ولكني لم أر نهاية لــه.. كان طويلاً، بحيث لا تستطيــع أن ترى آخره.. أو أين ينتهــي من الحديقة، فقد خيّل إليّ كأنه ينتهي وراء طبقة من دخــان رمــادي أو ضباب يشبــه ذاك الــذي يغطي قمم الجبال العالية في أيام الصيف القائظة.

عندمــا وصــل الرجــل الخمسينــي إلى الكرســي الخشبي القديم كان قد ابتعد عنــي عشرات الأمتــار. جلس علــى طرف الكرســي بعد أن صافح محيياً بعض الجالسين وهو يضحك.



استمريــت في السير إليه، ولكــن في خط نصف دائــري بحيث عندما أصــل إليه سأكــون وراءه على اليمين.. أراه من دون أن يراني.. ومــع اقترابي منه، كان صوته يزداد وضوحاً في مسامعي. كان، هكذا شعرت، في حديثه أشبه بشخص يجيب عن سؤال طرح عليه.. ومن سياق كلامه، عرفت السؤال الــذي كان الأصدقــاء قد طرحوه عليه: لماذا لم يتزوج حتى الآن؟ رغم أنه بات يغادر سنّه الخمسين، ويخطو خطواته الأولى في الواحدة والخمسين..

كان يقــول، أو هذا ما بــدأ يصلني من جوابه.. كانوا تسعــة، أربعة صبيان وخمس بنــات. كنــت أكبرهــم. لقد مــات بصورة فجائية، أقصد أبي، كنت في الخامسة عشرة من العمر. أما أصغر إخوتي فكانت فاطمة في الثالثــة من العمــر. بعد انتهــاء أسبوع والــدي وانقطــاع الناس عن المجــيء إلينا

للتعزيــة.. وقفت أنا ووالدتــي وجهاً لوجه، كان كل واحد منا يســأل الآخر: والآن ماذا علينا أن نفعل؟

كنت أعرف ما تعرفه أمي، لم أكن غريباً عن الوضع المعاشي والحياتي لأسرتي، كنت أسير مع والدي خطوة بخطوة، لذا لم يغمض علــي الواقع المرير الــذي وجدت نفسي مع بقية أخوتي وفي مقدمتهم أمي، فيه.

كان لابد من حل.

كان والدي قبيــل وفاته المفاجئة عاملاً مياوماً، بالكاد يستطيع الحصول على قوته وقــوت أفراد أسرته. لذا لم يكن لديه القدرة على الادخار حتى لــو كان ليرة واحدة.. لا بل كان مديونــاً لأخيه، أي عمي. بمبلغ من المــال، إلا أن عمي لم يأخذ منا قرشاً واحداً، سامحنا به دنيا آخره.. كما يقال في مثل هذه الأوضاع.

قلت لوالدتي: «يجب على إخوتي التعلم، عليهم إتمام تعليمهم».

بكــت أمي وهــي تســأل: «ولكن كيف. أنــت تعرف أن والــدك لم يترك لنــا قرشاً واحداً؟».

أجبتهــا: «أعرف، ثم أضفــت: سأترك الدراســة، سأعمــل أنا من أجــل أن يكمل إخوتي وأخواتي تعليمهم».

ظلــت أمي تبكي وهي تقول: «ولكن هذا ظلم. ظلم».

أخــذت والدتــي في حضنــي وقلت لها مواسيــاً: «علــى أحدنــا أن يضحــي أمام العائلة يا أماه.. عليّ القيام بهذا الدور لأني البكر».

لقــد تنقلــت في أعمــال عــدة، لم يكن يهمني نــوع العمل، إنما مردوده المالي. كنت بحاجــة إلى كل قرش يمكــن لي أن أحصل عليــه بالحلال.. لا أذكر عمــلاً لم أقم به.. كل الأعمال، القذرة منها والنظيفة، القاسية منها والصعبة، الهينة والسهلة..

أذكر عندمــا أكملت مهمتــي. كنت قد بلغت الرابعة والأربعــين. لقد درس إخوتي الصبيان جميعاً، أحدهم الآن طبيب والآخر مهندســ والثالث مدرّس في ثانويات حلب.. أمــا أخواتي البنــات، فهن أيضــاً درسن، واحدة منهــن، وهي الصغرى، حصلت على شهادة جامعيــة واثنتــان أصبحتا معلمتين في مدارســ حلــب الابتدائيــة.. لم أكتــف بهذا الأمر، إنما زوجــت الجميع، الصبيان والبنات، لقــد تزوجت البنات أولاً.. ثم كان دور الصبيان..

عندما أكملت مهمتي شعرت بفرح صغير في قلبــي، شعرت بسعادة قويــة في نفسي، ورضا تام شمل ضمــيري. أما عندما بدأت أفكر في أمر نفسي، وأنا كما قلت في الرابعة والأربعين، تلقيت ضربة قاصمة.. لقد ماتت أمي. وهي دون الستين من العمر..

هذا المـوت المفاجئ لأمي، أجّل موضوع الاهتمـام بأمر نفسي ثـلاث سنوات أُخر.. ثلاث سنوات كانت بالنسبة لي أقسى سنوات حياتي كلها. لقد تخرب شيء ما في نفسي، شعرت كأن عمود حياتـي قد سقط منهاراً تحت عبء المفاجأة. كنت أفكر بأني سأجعل ما تبقى مـن حياة أمي مـن السنين هينة، سعيـدة، أجعل حياتها كلها راحة وهناء بعد عذاب وتعب وشقاء عاشته.. وكما يقال، أنت ترغب بشيء والله سبحانه وتعالى يرغب لك شيئاً آخر..

لقد انكسرت حياتي بعد موت أمي. وما زالـت مكسورة، فلم أستطـع أن أنهض من جديـد، رغم أن إخوتـي وأخواتي، رغم أن مصيبتهم بوالدتهم لا تقل عن مصيبتي، إلا أنهم كانوا يملكون حياتهم، لكل واحد منهم حياة، بيت وزوجـة وأولاد، ووظيفة يعتاش منها معزّزاً مكرّماً..

رغـم التفافهـم حولي وتقـديم الدعم المادي والمعنوي لي، إلا أني شعرت أنّ حياتي انتهـت، فأنا غير قادر بعـد الآن إلا العيش على الهامش، لهذا، تابع الرجل: لم أتزوج.

التفـت إلي عبد الله يوسف وقال: «هذا ما سمعتـه من الرجل، بطـل قصتي، التي وددت أن أكتبها في ليلة البارحة، وأنا واقف وراءه، أستمـع إلى مـا كان يقوله لأصحابه الذين كانوا يجلسون فوق الكرسي الخشبي القديم في الحديقة العامة».

هذا المشهد، تابع عبد الله يوسف: «ظل عالقاً بذهني. عن أسباب عدم زواجه؟ وهو يقـوم وينسحب من رفقائه، عائداً إلى بيته، من دون أن يودع أحداً منهم.

استغربـت هـذا الأمر منـه، وتعجبت لسلوكـه غير الحضـاري. عـاد إلى البيت بقدمين رخوتين، لن أضيف الجملة الشائعة واصفاً: وهو يجرّ نفسه جراً..

سأحاول الاختصار، أقصد اختصار زمن وصوله إلى البيـت، إلى لحظة خروجه منه ثانية إلى المقهـى، حيث تعوّد أن يجلس فيه مرتشفـاً قهوته على مهل، شارداً عن كل ما حولـه من الزبائن في المقهى. إلا أن الرفقاء الذيـن يجالسونه في المقهى، حـول طاولة واحـدة، كانـوا يجرونه في بعضـ الأحيان إلى النقاش والحوار، وإبداء الرأي في بعض أمور البلـد، خاصة السياسيـة منها. فيرد مجيباً عن أسئلتهم باقتضاب كأنه غير مهتم بما يجري حوله من أحداث..

ولكـن الرجـل كان في بعضـ الأحيان يشـارك بحماسة تصل إلى حـد التطرف، ليس في النقاش فقط، إنما في طرح الحلول لجميـع المشـاكل التـي يعاني منهـا البلد والشعب والحكام أيضاً.

المهم. قال عبد الله يوسف: «هذه القضية لا تشغلني حتى أطرح في القصة، أراء الرجل الخمسيني، إنما ما يهمني من أمره، هو أسباب عدم زواجه حتى اليوم، بعد أن تخطى الخمسين من العمر، ووضع قدمه، كما يصف «نجيب محفوظ» في الواحدة والخمسين.

هذا السؤال أجريته على ألسنة رفاقه الجالسين معه في المقهى.. أما الجواب فلم أسمع بدايته، إنما سمعته يقول: «إنه لأمر غريب، قد لا يصدق أي واحد منكم قصتي التي لم أسردها على أحد قبل اليوم، فأنا تعلقت بها منذ أن كنت في بطن أمي. كنت في الشهر الثالث من حمل أمي بي، كانت أمي في تلك الأيام، في الخامسة عشرة من العمر. أما والدة من أحببت فكانت جارة لنا منذ ثلاث سنوات. أصبحت عائلتينا خلالها، عائلة واحدة كما أخبرتني والدتي فيما بعد.

كانت أمي ووالدة من أحببت، أشبه بأختين. لهذا عندما حملت والدتي بي لم يمض إلا شهر حتى حملت والدة من أحببت بها. فكانتا تضحكان وهما تتحدثان عن حملهما، وأي جنس يحملان؟ قالت أمي: «إن كان ما ببطني ذكراً وما في بطنك أنثى لزوجتهما من بعض».

كانت والدة من أحببت تقول لأمي: «أنا أيضاً إن كان ما في بطني ذكراً، وما في بطنك أنثى لسعيت إلى تزويجهما لبعض».

كنت، تابع الرجل الخمسيني: «أضحك وأنا أستمع إلى حديثهما. أما الفتاة التي أحببت وكانت في شهرها الثاني في بطن والدتها، فكانت تضحك أيضاً وهي تستمع إلى حديث والدتها.

أذكر عندما التقينا لأول مرة، قمت أنا بزيارتها، ضحكنا كثيراً ونحن نتناقش حول موقف أمي الحامل بي منذ ثلاثة أشهر ووالدتها الحاملة بها منذ شهرين. كنا نضحك ونثرثر ونقهقه..

أذكر خلال وجودنا في بطني والدتينا، زرتها أنا ثلاث مرات، أما هي، أقصد من أحببت، فقد زارتني مرتين، ولكنا رغم هذا كنا على اتصال دائم فيما بيننا.

سكت الرجل الخمسيني قليلاً ثم تابع: «أرجو أن لا تسألوني، كيف كان يتم الاتصال بيننا، فهذا الأمر أعتبره سراً لا يجوز البوح به».

المهم، تابع الرجل: «قضينا ثمانية أشهر في منتهى السعادة، ثم جاءت المحنة تحبو إلينا على أربع.. في زيارتي الأخيرة لمن أحببت، قلت لها: لم يبق لي في بطن أمي إلا عدة أيام!».

هــزت رأسها وعلقــت: «أعــرف». ثم تابعت: «أما أنــا فما زال أمامي، على أقله، شهــر قبل أن ألحق بــك، لأكون معك تحت الشمس الساطعة».

قلــت لها: «سيكــون بالنسبــة لي شهراً حزيناً جداً، قد لا أحتمله؟».

أجابتني: «أما أنــا فسيكون بالنسبة لي شهراً أشبه بحالة السجين الذي فقد الأمل في الإفراج عنه».

قلت لها: «ليس أمامنا من حل، علينا أن نتحمل».

التــزم الرجل الخمسينــي الصمت مدة من الزمن، وهو يحدق أمامه في الساحة عبر زجاج المقهى العريض، ثم قال: «لن أحدثكم عن زمن ولادتنــا، وطفولتنا الأولى. لأني لو فعلت، لما صدقتموني، لقلتم، لقد اختل عقل صاحبنا! إنما سأختصر ذلك الزمن الجميل بمشهــد كنت شاهداً عليــه بين أمي ووالدة من أحببت.

رأيــت أمي تدفع بي خارج البيت عندما جاءت جارتنا إلى بيتنا وهي تمسك بيد من أحببت، ووقفت أمام الباب مستغلاً انشغال أمي بقــدوم الجــارة. كما أن مــن أحببت استغلت اللحظة التي تركت فيها أمها يدها عندمــا ضمت أمــي إلى صدرها، وهرعت إليّ.

رأت أمــي، كما رأت والــدة من أحببت، كيف أمسك كل واحد منا بيد الآخر، ونحن نهرع معاً خارجين إلى النهار.

قبــل أن نبتعد عن البيــت، تابع الرجل الخمسينــي: «سمعــت أمي تقــول: عجباً أمرهمــا، فهما لا يفترقــان. أضافت والدة من أحببت: ليس هــذا فقط إنما لا يملان السعي إلى بعضهما بعضاً!».

قالــت أمــي متسائلــة وهــي تضحك: «أتراهمــا سمعا ما قلناه يــوم كنا حاملتين بهما؟».

ضحكت والدة من أحببت وقالت مازحة: «ربما».

سكــت عبد الله يوسف، ثــم ما لبث أن سألني: قل لي: لو كتبت ما أخبرتك به الآن، أتعتقد سيكــون الأمر مستهجناً في القصة؟ أم سيكون كلاماً لا معنى له، لو أني حذفته، وبدأت بالحديث عن قصة الحب التي كانت بــين الرجــل الخمسيني وبين الفتــاة التي أحبها، تعطــي القصة كثافة وتلملم أطراف الحكاية بعيداً عن الاستطرادات؟

أجبتــه: ما دامت القصــة لم تكتب بعد، إنما هي مشروع في طور التكوين.. أعتقد لا يمكن لي الحكــم عليها، أو تقييمها.. برأيي عليك كتابتها أولاً، ثم عبر القراءة والتنقيح، يمكنــك أن تصــل بها إلى الصيغــة الأسلم والأفضل.

ضحك عبد الله يوسف وقال: «جواب دبلوماسي لتتنصل من المسؤولية في إبداء رأيك».

المهم، تابع عبد الله يوسف: «عاش الرجل الخمسيني، وهو طفل مع من أحب خمس عشرة سنة لم يفترقا فيها أبداً، أما عندما حاول والدّي الفتاة عزلهما عن بعض ففشلا في ذلك».

توقف الرجل الخمسيني، وبلع ريقه عدة مرات، وعلامات الحزن تعلو تقاطيع وجهه كأنه تذكر أمراً حزيناً لا يمكن له أن ينساه أبداً، رفع وجهه وتابع: «كل شيء يمكن للإنسان أن يتصوره،أما أن ينتحر إنسان في مقتبل العمر وفي أوج سعادته؟ فهذا لم أتوقعه أبداً منها.. أو بصورة أدق، أن تقوم به حباً!».

ذات صباح اقتحمت والدة من أحببت بيتنا والدموع تملأ عينيها وتغطي كامل وجهها، وهي تخبر أمي باكية أن تلحق بها إلى بيتها، لأن ابنتها أفاقت على شلل، وهي غير قادرة على الوقوف!

هرعت أمي وراء والدة من أحببت. أما أنا فابتسمت بسخرية.. ولكن مع شيء من الخوف، قائلاً لنفسي: «ما هذا المزاح الغليظ الذي تحاوله والدة من أحببت؟. ثم تساءلت مستغرباً: لماذا تقوم بهذا المزاح؟ ولأي غاية تمزح هذه المزحة الغليظة بحق ابنتها؟ لا يمكن لهذا الأمر إلا أن يكون له سبب؟ ولكني، رغم هذا وجدت نفسي خارج البيت، أركض إلى منزل من أحببت، أصل إليه مقتحماً بابه، لأقف بعد ذلك أمام الكارثة..

كانت أمامي، أراها بعيني، ذابلة، صفراء البشرة، تسند ظهرها إلى وسادةٍ كثيراً ما تقاذفناها ونحن غارقان في اللعب واللهو..

أذكر عندما وصلت إلى البيت، ووقفت أمام من أحب، كانت ملوية العنق باتجاه اليسار، تنظر بعيداً عن الباب، كأنها كانت تعرف أني قادم إليها، لذا لم تكن تريد أن تراني، وأن تجيء عيناها بعيني».

بعد صمت، تابع الرجل الخمسيني: «عندما جاءت، أقصد نظرتها في عيني، بكت ومدت يديها تجاهي، عاجزة عن التحرك والقيام..

هرعت إليها لأضمها إلى صدري..

المهم. بعد شهر من زيارات الأطباء، والأدوية لم تفد من علاجها كثيراً، فلم تعد تستطيع التحرك إلا بعكازين. قلت لنفسي، على أن أكون الأمل الذي يمكن أن يمنحها القدرة على الاستمرار في العيش. لذا حاولت كل ما استطيع فعله لذلك. إلا أنها لم تقبل مني هذا الدور. وذات مساء دست

في يـدي مغلفاً يحوي على رسالة. ثم طلبت مني ألا أفتحها، وأن لا أقرأ منها حرفاً قبل صباح الغد!.

وعدتها رغم الفضـول الذي اجتاحني، وأيضاً القلق الذي استقر في صدري، إلا أني قلـت لنفسي ما هي إلا ساعات حتى يجيء الصباح.. ولكني، في الصباح لم أستطع قراءة رسالتها، إنما ضجـت الحارة بأكملها بخبر الانتحـار الذي انتشر من بيـت من أحببت على لسان والدتها..

بعد أيام العزاء السبعة فضضت الغلاف وسحبـت أوراق رسالتهـا البالغـة عشرين صفحة..

مختصـر الرسالـة، أنها كمـا قالت، لم تنتحر إلا لأنها تحبني، ولا تستطيع أن تراني معذبـاً للمصيبة التي حلت بها، فهي لم تعد تتحمـل هذا الألم الذي كانت تراه في عيني. وفي ختام رسالتها تقول: لا أريد أن أقول لك وداعاً، إنما أقول إلى اللقاء.

ولكنها، تابـع الرجل الخمسيني: «ترسم هامشاً في ختام رسالتها تقول فيه: إياك ثم إيـاك أن تفكر بالأمر الـذي قمت به أنا.. عندما أقول لك: إلى اللقاء، أقصد أن تعيش حياتك بالكامل، حتى تصبح شيخاً، وعندما ألقـاك في الآخرة، أود أن تكون شيخاً، لأني سأكـون أنا أيضاً قد أصبحت عجوزاً.. وفي الآخـرة، في مكان ما منهـا سنعيش سوية، هـذه المرة إلى الأبـد. ثم تضيـف: أما إن جئتني وأنت شاب، كما تركتك يقيناً، وقسماً لن أستقبلك أبداً».

قطع عبد اللّه يوسف كلامه، ما لبث أن تابع: «لهـذا لم يتزوج الرجل الخمسيني كما أخبرنـا، أو كما أريد أن أكتب في قصتي، أو تلك القصة التي حاولت أن أكتبها في الليلة الماضية».

سألـت صاحبي عبـد اللّه يوسف: «ما الغاية من وراء كل هذا التلاعب بالقارئ؟».

ابتسم وهو يهز رأسه ويقول: ليس هناك تلاعب ولا غايـة. كل ما في الأمر، أريد أن أكتب قصة لا غير!».

لا بأسـ، قلـت: «ولكـن لمـاذا بهـذا الشكل؟».

ضحـك عبد اللّه وقـال: «لا أعرف. ثم أضاف: على مهلـك.. فالقصة لم تنته بعد. مـا زال لها تتمة، ومـا زال علينا أن نسمع الرجل الذي لم يتزوج حتـى اليوم، رغم أنه تخطى الخمسين من العمـر، ووضع قدمه في الواحـدة والخمسين كما قـال: «نجيب محفوظ» ذات يوم.

هـز الرجـل الخمسينـي رأسـه وقال ساخـراً: «كيف تريد منـي أن أتزوج وأنا لا أعرف مستقراً لي».

كيف؟ تساءل بعض الحاضرين. تابع الرجل الخمسيني: «كلكم تعرفون الهوس الذي أصابنا في الخمسينيات، من أجل تغيير العالم بقليل من الأفكار، وتشكيل تنظيم سري همه الوحيد العمل من أجل الاستيلاء على السلطة، وإقامة مجتمع عادل، لا يوجد فيه غني أو فقير، الناس فيه سواسية كأسنان المشط».

ابتسم الجميع وقالوا: «نعم. نذكر تلك الأيام». ثم أضاف بعضهم: «حتى إن بعضاً منا كان له مساهمة في ذاك المشروع قبل إفلاسه في العقد الأخير من القرن الماضي».

أنا واحد منهم. قال الرجل الخمسيني. ثم تابع: «لقد بدأت في سن مبكرة، في الخامسة عشرة على ما أذكر.. لا أريد أن أتحدث عن الأسباب الذاتية التي دفعتني إلى الالتحاق بذاك العالم السري، طبعاً أي سبب أذكره لكم سيكون مقنعاً بالنسبة لكم. الفقر، الشعور بالظلم، فقدان العدالة والعمل من أجل إحقاقها..إلخ».

وهنا، تابع الرجل الخمسيني: «ظللت أعمل أكثر من عشر سنوات في شتى الخلايا السرية، من طباعة الجرائد والوثائق والبيانات السياسية، وإقامة مهرجانات خطابية.. كان معظمها يجري في السر.. وفي بيوت تحت الأرض، وأحياناً فوق الأرض، ولكن بعيداً عن العمران، في البراري أو الغابات، وأشرفت على إقامة معسكرات تثقيفية، ثم سافرت إلى أقطار مجاورة في مهمات سرية محددة..

أما عندما عرفت أن وضعي لم يعد سرياً، وأن الأجهزة الأمنية كانت ترصد تحركاتي، ما لبثت أن بدأت في مطاردتي في أول حملة مضادة ضد تنظيمنا السري.. مما اضطرني ذلك إلى الاختفاء عن الأعين.. هذا، وقد ظللت أكثر من خمس سنوات استيقظ في الليل حيث عليّ أن أنشط في قيادة التنظيم الذي كنت مكلفاً به. أما في النهار فكان علي الركون إلى السكينة والنوم في البيوت السرية..

أذكر خلال هذه المدة، كنت قد عملت مع أكثر من امرأة في شتى الأعمال السرية، وقد هفت نفسي أكثر من مرة تجاه هذه أو تلك، إلا أن الظروف الصعبة والقاسية التي كنا نعيش ضمنها، لم تسنح لنا التفكير بالحب والزواج وتكوين أسرة، لأننا، وكنت واحداً منهم نقول: أي زواج يمكنك أن تقوم به وأنت مطارد في كل البلاد، لا تعرف الحياة سوى في الليل؟ لذا كنا، نؤجل الحب والزواج وتكوين أسرة إلى زمن يكون أكثر رحابة وعدالة وأكثر إنسانية..

وهكذا يـا أصحابي مرت السنوات وراء أخرى قبل أن نصل إلى ما كنا نعمل من أجله. ألا وهو تحقيق حلـم إنساني، فيه كل القيم الإنسانية التي ناضل الإنسان لتحقيقها.

أمـا عندما كانت، الخيبـة، قال الرجل الخمسيني: «وانهار كل مـا بدأناه، وعرفنا بعد سنوات طويلة أنا كنا نركض وراء وهم، فأصابنـي التصدع كما أصـاب الآخرين.. ظللت متصدعاً لعدة سنوات. ولما استطعت تخطـي الوضع الصعب الذي وجدت نفسي فيه، كنـت قد بلغت الخمسـين من العمر، بحيث أصبحـت الحياة خلفي، أما ما تبقى أمامـي، فلا أعتقد بأنهـا تكفي لبناء حياة يمكنني أن أتمتع بها كما لو كنت في الثلاثين من العمر!».

سكـت الرجل الخمسينـي طويلاً، وهو ينقل نظرة فيما بيننا، ثم تابع بصوت يشبه رنة حزينة: «هل مـا أخبرتكم به هو جواب كاف على سؤالكم؟».

لم ينطق أي واحد من الأصحاب بحرف. ظل الجميـع ملتزماً الصمـت كأنهم بذلك كانوا مقتنعـين بالسبب الـذي قدمه لنا.. توقف عبد الله يوسف عن الكلام. فسألته: «أهكذا ستنهي قصتك التي كنت ستكتبها في ليلة البارحة كما أخبرتني؟».

لا أعرف بعد. أجاب عبد الله يوسف ثم أضاف: «يمكن أن أضيف إليها فقرة أخرى. أو أن أكتفي بما أخبرتك به».

ابتسمـت له وقلـت ممازحـاً: «لماذا لا تضيف إليهـا فقرة أخرى، إن كنت تريد أن أقدمها لك؟».

ضحك عبد الله يوسف وقال: «ليس لدي أي مانع، إن وجـدت الفقرة مفيدة، ويمكن لها أن تغني القصة، سأضيفها وأكون ممتناً لك».

لا بأس. قلت لعبد الله يوسف ثم تابعت: «صاحبـك هـذا، الرجـل الخمسيني كما أحببت أن تسميه.. لنفترض أنه وجد امرأة وأراد الـزواج بها. وبعد أن يجهز كل الأمور الخاصة بزواجه ويرتب بيته، حيث سيقضي فيه ما تبقى له من الحياة، تسأله المرأة عن أسبـاب تأخره إلى سـن الخمسين من دون زواج؟

يبتسـم لها وهو ينظـر إليها بشغف ثم يجيب: «لقـد حاولت عدة مـرات الزواج، ولكنـي في آخر لحظة كنت أكتشف أن المرأة

التـــي سأتزوج منها ليست هـــي التي أريد.. وهكــذا مضى الزمن لأجــد نفسي في هذه السن، ولكني لـــو لم أجدك بعد هذا البحث الطويل والمضنـــي عن المرأة التـــي أريد لما تزوجت بك».

تسألـــه المرأة التـــي تريد الـــزواج منه: «أتقصــد بأننـــي المــرأة التـــي كانــت في أحلامك؟».

«نعم..».

ساد الصمت علينا، ما لبثتُ أن سألت عبد الله صاحبي: «ما رأيك بهذه الإضافة؟».

هز عبد الله رأسه وأجاب: «إنها إضافة ممتـــازة.. ولكنـــي لا أعرف عندمـــا أكتب القصة، إن كنت سأجد لها مكاناً فيها».

ابتسمت له وقلت: «حاول».

هز عبد الله يوسف رأسه بالإيجاب من دون أن ينطق بحرف.

آفاق المعرفة

آفاق المعرفة

دور منظومة الشبكات الذكية والرقمية في إدارة فعاليات المعرفة

د. نزار عوني ❋

شهـــد العالم في السنوات الماضية القليلة إعادة تشكيله وبنائه في الكيانات كافــة من خلال بناء منظومة الاقتصـــاد والإدارة القائمة على المعرفة، وقد بـــدأ يظهر في السنوات الأخيرة مفهـــوم إدارة المعرفة، والتي استدعت تغيراً أساسياً بل جوهرياً في الاستراتيجيات الإقليمية والدولية على إدارة المنظمات الاقتصاديـــة بفعل عوامل متعددة والتي منها علـــى سبيل المثال التوجه إلى العولمـــة والاستخدامـــات التكنولوجيـــة والاتصاليـــة المتقدمـــة وزيادة حدة المنافســـة، والمواجهة والتغيرات في متطلبات العملاء، وظروف الأسواق، مما

❋ أديب وناقد سوري

العمل الفني: الفنان دلدار فلمز

حدا بالمطالبة بأهميــة التكيف والاستجابة نحــو تحسين أساليب الأداء الكلي في إنجاز الأعمــال والمهام من خلال طــرح ما يطلق عليه إعادة هندسة المنظمات في السياسات والأساليــب، والآليــات والمــوارد البشرية، وثقافــة المنظمــة ورؤيتهــا المستقبلية حتى يمكن الوصــول إلى الجودة الكلية. لذا أخذ الفكر الإداري المعاصر خلال السنوات العشر الأخيرة ينحو نحــو الاستفادة من الخبرات والمعــارف والتجــارب والمشاهــدات التــي تراكمــت وحدثت على مــدار السنين داخل المنظمــة من خلال العاملين بها لذلك كانت المعضلــة التي تواجه هــذه المنظمات بكافة أشكالهــا وأنواعهــا هي البحــث في كيفية تحديد وتعريف إدارة المعرفة.

تحديد وتعريف إدارة المعرفة

من هــذه المقدمــة قد يكــون الأفضل محاولة تحديد وتعريــف إدارة المعرفة وفقاً للأدبيــات العلميــة في هذا الصــدد، فقد رأى الباحــث الدكتــور حسن العلــواني أن إدارة المعرفة هــي بمثابة حقل بيني متعدد الأصول، علاوة على مفهوم آخر هو أن إدارة المعرفة تمثــل الرأسمال الفكــري، والذكاء التنافسي، وتكنولوجيا المعلومات كما يوجد تعريف ثالــث هــو أن إدارة المعرفة توضح أساليب تحويل البيانات إلى معلومات، وذلك بعد سلسلــة من أساليب المعالجة التنظيمية والفنيــة لمواد المعلومات حتــى يمكن إعادة استخدامهــا في شكل معرفــة لسد حاجات المستفيديــن في إنجاز أعمالهــم كما يوجد تعريــف العالمين (Ernst & Yung)، وهو أبسط مفهــوم لإدارة المعرفة، ويتلخص في: هو ما يحتــاج الأفراد معرفتــه كي يقوموا بأعمالهم من خلال وظائفهم والمهام الموكلة إليهم داخل المنظمة وإذا كان يرى – الكاتب – من خلال الناحية العلمية والعملية أن نظام إدارة المعرفــة الكلية عبارة عن مجموعة من الأنظمــة المتكاملة في إدارة الوثائق، وتحليل البيانــات، وأنظمــة الاتصــالات في تنظيم وتخزين ومعالجــة وتحليل موارد المعلومات في المنظمة، مضافة إليها مجموعة الخبرات والمشاهدات والتجــارب السابقة والمهارات المكتبية وهي التي تراكمت في عقول العاملين في المنظمة والموجودة بداخلهم في حالة تسمح بإعــادة استخدامها في المستقبل لمجموعات بشرية أخرى، تستطيــع الاستخدام الفعلي لكنوز المعرفة، والتي يتم معالجتها من خلال الأنظمــة التكنولوجيــة الفائقــة لاختصار الوقــت وتوفــير الجهد في اتخــاذ قرارات صائبــة، ومعالجة لمشكلات من خلال حلول لتحســين الأداء، بما يحقق أهداف المنظمة بدقة متناهية، وهذا يؤكده عالم الإدارة بيتر

دراكــر (Drucker) حيث يشير إلى مجتمع المعرفــة، الذي لم يعد فيــه الفرد هو المورد الاقتصادي الأساس، بل المعرفة التي يمكن تحويلها إلى رأسمال، وهو يتكون من الأصول غير الملموسة التي لا توضح في بنود ميزانية المنظمة والتي يمكــن تحديدها على سبيل المثال في المهــارات والخبرات البشرية وقيم المعلومات المخزنة بها.

ويرى العالم روس (Ross) أن الرأسمال الفكــري هــو بمثابــة المظلــة التــي تضم تحتهــا إدارة المعرفــة باعتبارهــا المحرك والطاقــة الدافعة لها. قد تم تحديد مفهوم الرأسمــال الفكري أو البشــري بأنه حيازة المعرفة وتطبيق الخبرات والمهارات المخزنة والمكتسبــة خــلال فــترة حياة الفــرد مع المنظمة، علاوة على الاستفادة من الأنظمة والتكنولوجيــا والعلاقــات والأدوات داخل إطــار المنظمة لتحقيق استراتيجيتها. لذلك نجــد أن المكونــات الأساسية لنظــام إدارة المعرفــة الكلية في المنظمــات المعاصرة هي عبارة عن:

- المكــون الأول: تحديد مصادر المعرفة في إطار استراتيجية ونشاط المنظمة.

- المكون الثــاني: أساليب اقتناء المعرفة لتحديدها بدقة.

- المكــون الثالث: إجــراء عملية تطوير وتحديث المعرفــة بصفــة متواصلة لتأمين صلاحيتها.

- المكون الرابــع: عمليات توزيع وتبادل ونشر المعرفة على مجتمع المستفيدين.

- المكــون الخامس: إمكانيــة استخدام المعرفة لإحــداث القيمة المضافة في الواقع العملي عند التنفيذ.

- المكون السادس: أساليب حفظ وتأمين المعرفة واختزانهــا لإمكانية الاستفادة منها حالياً ومستقبلاً للأجيال المتعاقبة.

وأخــيراً إيجــاد الأسلوب الــذي يسمح بإجــراء عمليــة قياس المعرفــة أو تقييمها مــن خلال التغذيــة العكسية بعــد التنفيذ لإعــادة صياغتها من جديــد، وهذا يتطلب من المنظمات الاقتصادية القيام بالوظائف التالية للمساهمة في بنــاء إدارة المعرفة في ضــوء الأنشطــة والمجالات التــي تقوم بها والتي يمكن حصرها في:

١ - عملية جمع المعرفة.

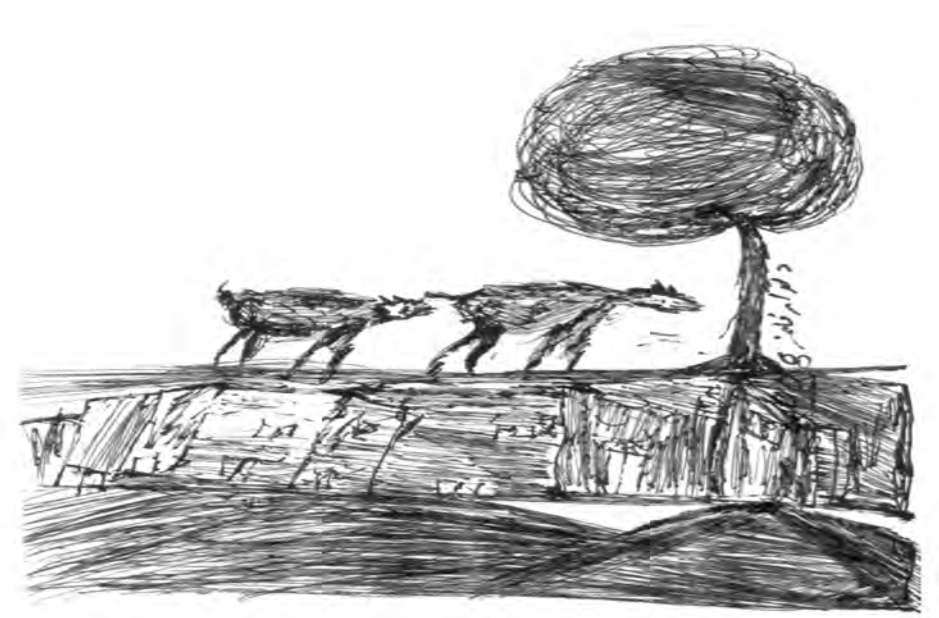
٢ - عملية تنظيم المعرفة.

٣- عملية توزيع المعرفة.

٤ - عملية تحويل المعرفة إلى.

٥ - عملية التدريب المتواصل.

وأخيراً عملية التطوير والتكرار الدائري، ولذلك يمكــن القــول إن إتاحــة بناء تلك الكيانــات للقيام بهــذه الوظائف تتمثل في



الفرصة المواتية لتطوير وتحديث إمكانيات وطاقة المنظمة نحو التقدم والازدهار بقوة ومصداقية، بما يحقق سمة التواصل الفعال بين المنظمة والعاملين والعملاء في المواجهة التنافسية مع الغير حتى تستطيع إنجاز الشيء في الوقت المناسب من خلال إرساء أنظمة التفكير المنظومي في إدارة أعمالها، وهذا بطبيعة الحال يتطلب توفير متطلبات محورية حتى يمكن التحول إلى نظام إدارة المعرفة. ويمكن حصر تلك المتطلبات في:

١- الثقافة التنظيمية المتمثلة في القيم التي يعتقد بها أعضاء المنظمة، وكذلك المبادئ أو المعايير أو المقاييس حول التعريفات السلوكية وأنماط العاملين في المواقف، وأخيراً الممارسات من إجراءات أو خطوات لاتخاذ المهام المطلوبة، وكلها تعمل من مكون رؤية المنظمة من فلسفة وأهداف واستراتيجيات.. إلخ.

٢- الهيكل التنظيمي: وهو يمثل مكوّناً أساساً في إدارة المعرفة في المنظمة من حيث الثقة والشفافية، والتي تدعم التدفق للمعرفة في مجتمع المستفيدين بشكل فعال، والذي يقود إلى نجاح المنظمة نظراً لخلق مفهوم المشاركة والتعاون، ويعتبر الهيكل الشبكي أفضل هيكل تنظيمي لضمان الاتصال والتواصل علاوة على السياسات ونظم الحوافز والتقدير لدعم نجاح إدارة المعرفة.

٣- تكنولوجيا المعلومات والاتصالات: حيث تعتبر من أهم المحددات لنجاح نظام إدارة المعرفة وذلك لضمان تحسين وتطوير الأنظمة المعلوماتية والاتصالية في التعامل مع جميع القائمين بالاتصال داخل المنظمة وخارجها.

٤- القيادة التنظيمية: وتمثل النموذج والقدوة من خلال قيام القائد بأسلوب التعليم والتدريب لتطوير القدرات والمهارات بشكل متواصل لزيادة قاعدة المعرفة للوصول إلى الفعالية التنظيمية لتحسين وجودة الأداء الكلي لكافة العاملين في المنظمة.

المدخل إلى بناء عملية نظام إدارة المعرفة في المنظمات الحديثة

يتضمن العديد من المراحل التي قد يختلف أو يتفق الكتاب والباحثون بشأنها وهي:

١ - تكوين المعرفة.
٢- تثبيت المعرفة.
٣- عرض المعرفة.
٤ - توزيع المعرفة.
٥ - تطبيق المعرفة.
٦ - تأمين المعرفة.

وهي تمثل دورة متتابعة ومتكاملة يمكن إجمالها في المراحل التالية:

١ - اكتساب المعرفة أو الحصول على المعرفة التي تسعى إليها المنظمة من مصادر متعددة مع القدرة على التطوير والإبداع والابتكار من خلال المزج بين المعرفة الصريحة والضمنية بعد معالجتها للاستفادة بها مستقبلاً.

٢ - تخزين واسترجاع المعرفة، وهي بمثابة الذاكرة التنظيمية للمنظمة من نظم متطورة لتخزين واسترجاع وإدارة موارد المعلومات المتاحة، مع الخبرات والمهارات والأحداث التي تمت في المنظمة والقائمة على أنظمة معلوماتية داعمة.

٣- نقل المعرفة، وذلك بهدف تقاسم المعرفة في أرجاء المنظمة من خلال قنوات وأنظمة اتصالية تبادلية وبأشكال وتقنيات متنوعة بفاعلية وكفاءة في الاستخدام لفئات مجتمع المعلومات داخل المنظمة.

٤ - تنفيذ أو تطبيق المعرفة، ويعني إمكانية الاستخدام الحقيقي والارتباط بتنفيذ المهام والأعمال بكفاءة وفعالية للاستفادة من المعرفة المتاحة عند إدارة الأحداث أو الأزمات أو المواقف التي حدثت في المنظمة والمتوقع حدوثها مستقبلاً. وهذا يعني التوجه إلى أساليب تطوير النظم المعرفية على المستوى الفردي أو الجماعي في منظمات المعرفة التالية من خلال المحددات التالي على سبيل المثال:

- الاتصال المباشـر والتفاعل الإيجابي بين العاملين داخل المنظمة.

- الشفافيـة وتقليـل الحواجـز بـين القائمين على العمل وقادة المنظمة.

- الاندماج والتكامل والتزاوج بين كافة الخبرات البشرية مـن خلال مفهوم تواصل الأجيال.

- تحسـين أداء نظـام المعلومات القائم باعتبـاره الدعامـة الأساسيـة في إدارة المعرفة.

- تطوير الأنظمـة الاتصالية التبادلية لنقل وتزويد وتوزيع المعرفة.

وهذا يتطلب:

× أولاً: تحديـد مـدى فاعليـة الوضع الحـالي لإدارة المعرفـة في المنظمـة بشكل حقيقي لتحديـد صورة المنظمة من المعرفة من خلال قياس مستوى تطبيق إدارة المعرفة باستخـدام الأدوات، مثـل قياس الفروق التأثيرية بعد وقبل التنفيذ.

× ثانياً: التوجه إلى صياغة استراتيجية ناجحـة لإدارة المعرفة ولذلك فـإن المهمة الأساسيـة تتطلـب كيفية تحويـل المعرفة الضمنيـة المتاحـة لدى البشـر إلى معرفة واضحة يمكن استخدامها والاستفادة منها.

× ثالثـاً: تشجيـع مـن قيـادة المنظمة لعمليات التعلـم والتدريب والتبادل المعرفي بـين أعضاء المنظمة لتوسيـع دائرة وشبكة المعرفة.

× رابعاً: تنميـة الوسائل الاتصالية بين أعضـاء المنظمة وتوطيـد إطار مجموعات العمل في إطـار مجموعة متكاملـة لتأمين نقل الخـبرات والتواصل بين الأجيال ودعم ثقافة المعرفة بين الجميع من خلال حلقات العمل التشاركية لضمـان تواصل الخبرات والمهارات.

لذلـك نجـد أن النتائـج أو المخرجات المتاحة عند إقامة نظام إدارة المعرفة الكلية هـو التحول تدريجيـاً إلى مفهوم الاقتصاد الرقمي، حيث صارت كافة الأنشطة ومجالات العمـل تتحـول بفضـل عصـر المعلومات والحاسبـات والاتصـالات إلى الرقمية أو عصـر الرقمنة. وعلـى مستـوى الفرد أو المجتمـع أو المنظمات والـدول في مجالات التعليم والصحة والتجارة والصناعة وإدارة الأعمال وغيرهـا، خاصة بعد تطور أنظمة الاتصالات وبدء إقامـة واستخدام الشبكة الدوليـة للمعلومـات، مما أحـدث تغيرات اقتصادية وسياسية وأيديولوجية بين شعوب العالم والتوجه إلى العولمة مع إلغاء الفواصل الجغرافيـة والزمنية وغيرها بمـا يؤكد أن الكرة الأرضية أصبحـت عالماً واحداً بدون حواجز وفواصل.

وقد حدد الأستاذ الدكتور محمد رؤوف حامد في سلسلة «كراسات وعروض» أن التحول أو الانتقال إلى التكنولوجيا الرقمية قد استغرق نقلات أساسية هي: التحول الرقمي من خلال الاعتماد على الحواسب الإلكترونية ثم التحول إلى أنظمة المعالج الدقيق ثم التوجه إلى استخدام الحواسيب الخادمة، وبعد ذلك سرعة الاتصال المعلوماتي من خلال تردد الشبكة المستخدمة والتفاعل المعلوماتي النشط والتنقل إلى الوسائط المتعددة وصولاً إلى الواقع الافتراضي أو الخائلية، والتي أدت إلى التحول من الأنظمة الخاصة إلى الأنظمة المفتوحة والتحول أيضاً إلى الشبكات الذكية وأخيراً صناعة البرمجيات المتقدمة وبذلك أصبح الاقتصاد رقمياً. بمعنى يقوم على الترابط أو التزاوج أو التشبيك بين عناصر ومفردات من خلال عمليات وإجراءات مقننة إلكترونياً لتقديم المخرجات والتي تعتمد بالدرجة الأولى على تطبيق المعرفة الإنسانية علاوة على البرمجيات والتقنيات الأخرى بما يحقق القمة المضافة وهذا يعني أنه عصر التشابك والتزاوج بين موارد المعلومات، وأنظمة المعالجة الإلكترونية، والحواسب وأنظمة الاتصالات في دائرة متكاملة وذلك بالاندماج مع خبرات ومهارات الذكاء الإنساني لتقديم الخدمات بين المنظمات والمجتمعات، مما أحدث تغييرات عظيمة في بيان الاقتصاد العالمي، وهذا أدى إلى ظهور منظمات اقتصادية مستحدثة في عالم اليوم أطلق عليها على سبيل المثال بعض المفردات مثل: منظمة الأنظمة المتشابكة، أو المنظومة الاتصالية أو المنظمة العنقودية أو الأنظمة الذكية أو منظومات المعرفة وأخيراً منظومات التعلم وبالتالي بدأت تشكل معالم النظام الاقتصادي المعاصر القائم على المعرفة والتي مفادها التحسين المستمر والمتواصل لفتح آفاق الابتكار والإبداع لتحسين أداء المنظمات وتعظيم عائدها.

وكان لابد للتحول الرقمي من اتّباع منهجية واستراتيجية وأساليب وآليات وأنظمة لها الكثير من المتطلبات، فهل نحن في المنطقة العربية قادرون على هذا التحدّي التكنولوجي المتواصل لتحديث المنظمات العربية قبل التوجه إلى إطلاق شعارات وإعلانات لقيام الحكومة الإلكترونية، في اعتقادي يمكن تحقيق الكثير في حالة توفير العزيمة والإخلاص مع اتّباع منهجية العلم في التخطيط والتنفيذ والمتابعة نحو الاستفادة المتكاملة من ثروة المعرفة لاستخدامها لزيادة الموارد الاقتصادية في المنظمات.

آفاق المعرفة



مفهوم المسرح وتاريخه

د. أحمد زياد محبك*

المســرح هو أبو الفنون، وقد سُمّي كذلك لأنه يجمع الآداب والفنون كلها، فهو يقوم على الأدب شعره ونــثره، كما يقوم على الموسيقا والرقص والغناء والحركة، ويعتمد على الإضاءة والهندسة والعمارة والنحت، من خلال اعتماده على الديكــور، ولذلك يحتاج المسرح إلى خــبرات وطاقات متعددة ومتنوعة ومختلفــة، كما يحتــاج إلى عناصر فنيــة كثيرة، ويحتاج إلى مــكان وتمويل، ولذلك لا بد للمسرح من جهة ترعاه، وعلى مرِّ التاريخ كانت ترعاه البلدية،

* ناقد وأستاذ جامعي

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وتقوم بتمويله، أو يرعاه الملوك والأمراء، أو الأغنياء، وفي الحالات كلها لابد من تضافر قوى وإمكانات متعددة لينهض المسرح.

والمسرح بعد ذلــك كله ليس نصاً يكتب، أو يترجــم، إنما هو نصــن يكتب لأجل فرقة تقوم بتمثيله، ولجهة تقوم بتمويله، وفي عهد الإغريــق كان سوفوكليســس يكتب المسرحية ويقوم بإخراجها بنفسه، وكان يكتبها لتمثل في عرض ضمن مسابقات مسرحية، وما كان يكتبهــا لتكون أدباً أو مجرد نص، وكان وليم شكسبير ممثلاً في فرقــة، وكان يكتب لهذه الفرقــة، أو لمخرج يطلب منــه أن يكتب له مسرحية، وما فكر في كتابة مسرحية لتكون نصــاً مطبوعاً يقرؤه قارئ، بــل كان يكتب نصاً وفي ذهنه ممثلون ومنصة ومخرج، وهو يتخيل كيف ستعرض مسرحيته.

❁ ❁ ❁

وأهــم ما يميــز المسرح هــو الفعل، أي الحدث، فالحوادث والأفعال هي التي تشد المتفرج، لا الأحاديــث والأقوال، والحوادث يقود بعضها إلى بعض وفق السبب والنتيجة، ولا بد لهذه الحوادث أن تتطور نحو التعقيد والتأزم، ثم يكون بعد ذلك الحل، والحوادث التي تجري على المسرح هي حوادث وأفعال غــير حقيقية، تقوم على الإيهــام، والمتفرج يعــرف أنها غير حقيقيــة، ولكنه يصدقها، وينفعل بهــا ويتأثر، بل يستمتــع لأنها غير حقيقية، لأنها لو كانت فعلاً حقيقية لأثارت اشمئزازه ونفوره، ولرفضها، فأفعال السرقة والقتل مقبولة على منصة المسرح، ويبتهج لها المتفرج، ويسر، لأنه يعرف أنها غير حقيقية، وهو يرفضهــا في الواقع ويدينها، ومن هذه المفارقــة تنبع متعة الفــن، فما يجري على خشبة المسرح هو فن، ومحاكاة للواقع، وليس الواقع نفسه، والمتفرج يدرك أن الممثل الذي قتل على خشبة المسرح لم يقتل، وأنه سينهض بعد قليل، ولكنه مع ذلك يستمتع بما يرى.

ويمكن أن يقاس على ذلك الحوار نفسه، فالمتفــرج يدرك أن الحــوار الذي ينطق به الممثل هو من تأليف الكاتب، وأن أي عاشق في الواقع لا يمكــن أن ينطق بكلمات الغزل التــي يلقيها الممثل، ويــدرك أنها فن، وهو يستمتع بها، كذلك كلمات العتاب أو الخصام أو التفاوض أو المؤامرة لا يمكن أن تكون في الواقع على نحو ما هي عليه في المسرح، فهي في المسرح مرتبة مدروســة معمقة وبعضها يقود إلى بعض، بخــلاف الحوار في الواقع الذي يقوم على الفوضى والتداخل والعفوية

والارتجـال، ولا يمكن أن يكون على نحو ما هو عليه في المسرح، إن أكثر الناس بلاغة لا يمكـن أن يتكلم في الواقـع اليومي بمثل ما يتكلم به الممثل على خشبة المسرح.

إن الحـوار في المسرح مركـز ومدروس ومكثـف بعنايـة ومترابط، ولا يجـوز فيه التكـرار أو التداخل، هو حوار فني، يترابط مع سائـر عناصر المسرحيـة، ولابد من أن يتفق والحدث والشخصية والموقف.

وهنا يتأكد أن مشكلة العامية والفصيحة مشكلـة مفتعلة، ولا يشبه حوار المثقف على خشبة المسـرح حوار أي مثقـف في الواقع اليومي مهما أوتي من الثقافة، كذلك حوار الأمي في المسرح لا يمكن أن يكون هو نفسه حوار الأمي في الواقع، والدعوة إلى مشابهة الحـوار في المسرح للحـوار في الواقع دعوة مغلوطـة، إن الحـوار في الواقـع على أي مستوى كان هـو كلام عادي، لا فن فيه ولا تركيز، وهو حوار مشوش مضطرب متقطع، سواء أكان بالعامية أو الفصيحة، أما الحوار في المسرح فهو حوار فني مركز مكثف، يخدم الحدث ويطور فيه، ويقود إلى أزمة أو حل.

إن الحوار علـى خشبة المسرح هو حوار فنـي، وضعـه كاتـب، وأعاد فيـه النظر، وصاغه بفنية، ليناسب الحدث والشخصية، وليناسـب الإلقـاء، وهو لا يشبـه في شيء الحـوار المرتجل في الشـارع أو السوق بين اثنـين مهما علت ثقافتهما، بـل إن الحوار الـذي يكتبـه الكاتب للمسـرح لا يتكلم هو بمثله في الحياة اليومية، هو حوار فني، ولو كتب المؤلف الحوار باللهجة العامية لما كانت هـذه اللهجة على المسرح هي نفسها اللهجة التـي يتكلم بها الناسـ، وتبقى على المسرح ليست كما هي عليه في الواقع، هي لغة فنية سواء أكانت عامية أو فصيحة.

ولـو أننا وضعنا جهاز تسجيل في السوق لتسجيـل خصام بـين رجلـين أو في قاعة المحكمـة لتسجيل مرافعـة أو تحت كرسي يقعد عليه عاشقان لما ظفرنا بحوار يناسب المسـرح، فالحـوار على المسرح حـوار فني مكثف مرتبط بالحدث والشخصية.

ولكـن لا بد أن يكـون الحوار معبراً عن الشخصيـة وممثلاً لهـا ومصـوراً لعالمها الداخلـي والخارجـي وأبعادهـا النفسية والاجتماعية، المهم في الحوار أن يكون كلام الطبيـب في المسرحية معـبراً عن شخصية الطبيـب، وحوار النجار معبراً عن شخصية النجار، سواء أكان الحوار بعد ذلك بالعامية



أو الفصيحــة أو كان شعراً أو نثراً.

إن الحــوار على خشبة المسرح مثله مثل الحوادث و ا لأ فعــا ل ، فالحــوادث على خشبــة المســرح حــوادث فنية في ترتيبها وتسلسلها، ولا يمكــن أن تجــري في الواقع كما تجري عليه في خشبة المسرح من الدقة والترتيــب والتنظيم والتلاحــق، وهي على خشبة المسرح لا تشبــه الحوادث في الواقع بمــا هي عليه في الواقع مــن فعل حقيقي، وكذلك شأن الحوار.

❀ ❀ ❀

والمســرح لا يقوم على الحوار، إنما يقوم على الصــراع، فالحوار فيه مجــرد وسيلة، أما الصراع فهو المحور الأساسي في المسرح، وهو عمــوده الفقري، وقــد ينهض المسرح مــن غير حوار، كمــا في المســرح الإيمائي، والحوار وحــده لا يصنع مسرحــاً، ولذلك ليســت المشكلة في المسرح هي مشكلة حوار، أي إن المشكلة ليست مشكلة لغة، وقد توهم كثير من الدارسين فأثــاروا مشكلة العامية والفصيحة في المسرح، وهي مشكلة مفتعلة، فالحــوار المسرحي يعتمد علــى لغة الحس والحركة والانفعال والموقف، وهي لغة فنية، تتجــاوز مشكلــة العاميــة والفصيحة، إلى مشكلة أهم، وهي مشكلة الأداء الفني الذي يؤثر في المتلقي، وليس من الضرورة أن يتكلم الممثــل على المسرح كما تتكلم الشخصية في الواقــع، وإنما من الضروري أن يلقي الممثل علــى المسرح إلقــاء فنياً يؤثــر في المتلقين،

ويقود إلى تطوير العمل الفني، وتوضيح ملامح الشخصية في مستواها الاجتماعي وثقافتها وخصوصيتها الشخصية.

ويبقى الصراع أساس المسرح، وهو صراع بين قوتين اثنتين، تكون إحداهما الطاغية والمسيطرة على قوة أخرى، ويمتد الصراع، ويقوى، حتى يظن المتلقي أن هذه القوة ستظل هي المسيطرة، ولكن ما يلبث التحول أن يأتي، فتنقلب الموازين، وتهزم القوة المسيطرة، وتنتصر القوة المغلوبة وتصبح هي الغالبة، ولا يعني هذا بالضرورة انتصار الخير، بل يمكن أن يهزم، وتبدو هزيمة الخير وانتصار الشر أقوى تأثيراً في النفس، ولذلك كانت الأعمال المأسوية على مر التاريخ هي من أعظم الأعمال المسرحية، من مثل تراجيديات شكسبير الرائعة: هاملت وماكبث والملك لير.

❁ ❁ ❁

ويخطئ من يظن أنه من الواجب أن تنتهي المسرحية نهاية سعيدة، حيث يكافأ الأخيار، ويعاقب الأشرار، أو تنتهي نهاية تقدم رؤية أو حلاً للمشكلة التي تطرحها، لأن مثل هذا النوع من المسرحيات هو مسرح دعاوي، يرضي العامة، ويمتص النقمة، ويفرغ الغضب، في حين أن غاية المسرح أن ينبه على المشكلة، لا أن يقدم لها حلاً، لأن الحلول تختلف وتتغير، في حين لا تتغير المشكلات، وغاية المسرح أن ينبه الحس، لا أن يخدره، وأن يزعجه، لا أن يرضيه، وأن يرفع درجة الوعي والتوتر، كي يدفع إلى التفكير، ويقود إلى الوعي، ويدفع إلى الفعل، ولقد حاول بعض المخرجين تغيير النهاية في مسرحية روميو وجولييت، فقد وصلت الرسالة إلى روميو، وحضر إلى جولييت في الوقت المناسب، وتزوجا، ولكن النهاية جاءت باهتة، وغير مقنعة.

ولكن هذا لا يعني نفي النهايات السعيدة، فقد انتهت مسرحية تاجر البندقية نهاية سعيدة، والمهم في النهاية، أياً كانت أن تكون ناتجة بالضرورة عن كل ما سبقها من مقدمات، وهنا تبرز قدرة الكاتب المسرحي، إذ لا بد للمسرحية من أن تكون شديدة الترابط، قوية التماسك، وهي لا تقبل أي شيء من الحشو أو الزيادة أو التفاصيل، مهما كانت جميلة، إذ لا بد لكل عنصر فيها أن يكون شديد التلاحم بكل الأجزاء، وأن تقوم العلاقة بين هذه الأجزاء على أساس من السبب أو النتيجة.

ويخطـئ أيضاً من يظن ضـرورة تقيد المســرح بالوحدات الثــلاث، الزمان والمكان والنوع، فما هي بقوانين، وإنما هي ظواهر، أشــار إلى اثنتــين منهما أرسطــو في كتابه فن الشعــر، وهما الحدث الزمــان والنوع، وقد استنتجهما مــن مسرحية أوديب الملك لسوفوكليس، ولكن الناقد الروماني هوراتس قــال بالوحدات الثلاث فيمــا بعد، وجعلها قوانــين، ولكــن الأدب لا يعــرف القواعد ولا القوانين، بل هو خــروج على كل ما هو مستقــر، ورفض لكل ما يمكــن أن يتحول إلى قانون، وأعظــم كاتب مسرحي هو وليم شكسبير لم يتقيد بأي من تلك القوانين، فقد جعل هاملت يهزل في وقت الجد، حيث نزل في قــبر كان يحفره اللحــاد لأوفيليا، وأخذ يقلب بين يده جمجمة، ويسأل إن كانت لغني أو لفقــير، وجعل الزمــن في الملك لير يمتد على أشهر، كما جعل المهرج يسخر من جنون الملك، ويلقي بين يديه مواعظ، وفي أنطونيو وكليوبــترا أدار الحوادث في الــبر والبحر، وبين الإسكندرية وروما.

❁ ❁ ❁

ومثــل الشخصيــات كمثــل الأفعــال والحــوار، فالشخصيــات علــى خشبــة المسرح يؤدي أدوارها ممثلــون، وهم ليسوا الشخصيات نفسها، وإنما يــؤدون أدوارها بفنية وتقانة عاليــة، فحركاتهم وإشاراتهم ونــبرات أصواتهم كلهــا مدروسة لتكون فناً يؤثــر في المتلقــي، وهي تشبــه مثيلاتها في الواقع، ولكنها تتفوق عليها بأنها أكثر نضجاً وأكثر تكاملاً، ولا يمكن للشخصية في الواقع اليومي أن تكون مثل الشخصية على خشبة المسرح، فالشخصية في المسرح تختزل نماذج بشرية وتمثلها.

والممثــل علــى خشبة المســرح ليس هو نفســه الشخصية، فقد تكون الشخصية في المسرح شريرة أو فاسدة، وليس الممثل كذلك بالضرورة، فالممثل يقوم بدور الشرير ويقوم بدور الخيّر، ويقوم بــدور القاضي في عمل وبدور اللص في عمل، بل قد يقوم بالدورين في عمل واحد.

وكثيراً مــا يوحــي الممثــل للمتفرجين بأنــه تقمصــ الشخصية، وأنــه اندمج في الدور، ويتوهم المتفــرج أن الممثل قد أصبح الشخصية نفسها، ولكن الأمر لا يعدو كونه موهبة وخبرة ودراســة، ومما لاشك فيه أن الممثــل يدرس الشخصيــة ويفهمها، ويؤدي دورهــا، وينفعل بها، ولكنه لا يتقمصها، ولا

يصل إلى حالة من الاتحاد بها، ولو أنه فعل ذلك لفشل، لأنه سينسى دوره، وسينسى الحوار الذي حفظه، والحركة التي أتقنها، ولخرج عن الدور الذي رسمه المخرج له، وهو في موقف ما يبكي، ولكن في موقف لاحق يضحك، ولو أنه تقمص الموقف الأول وعاشه فعلاً لما استطاع الخروج منه إلى موقف آخر مختلف. إن موهبة الممثل ودربته وثقافته ومرانه الطويل وتدربه كل ذلك يساعده على أن يبكي فعلاً، ويساعده على أن يخرج من البكاء إلى الضحك، ولكن هذا لا يعني أنه اتحد بالشخصية أو تقمصها بالمعنى الفعلي للكلمة.

إن كل ما هو على المسرح فني وليس حقيقياً، والمتفرج يعرف ذلك، ولكنه في لحظة ما ينسى ذلك أيضاً، ويحدث اندماج المتفرج في الواقع الفني على خشبة المسرح ويتوهمه واقعاً فعلياً، وما هو كذلك، وسرعان ما يخرج المتفرج نفسه من هذا الوهم، ويدرك ثانية أنه أمام فن، ومن هذا التوتر بين ما هو فعلي وفني، تحدث متعة الفرجة، أو متعة العرض المسرحي، سواء بالنسبة للمتلقي أو الممثل. إن متعة العرض المسرحي لا تعدلها متعة فنية أخرى، فالمتفرج يرى أمامه أشخاصاً حقيقيين مثله، ولكنهم أصحاب موهبة عالية، وهم يؤدون أمامه أداء فنياً راقياً، يجيدون الحركة والفعل والكلام والانفعال، ويمتلكون الفصاحة والبلاغة والقدرة على التأثير، وهو ينفعل بهم ويتأثر، ويحس أنه أمام بشر حقيقيين، وأنه عليهم ألا يخطئوا، وألا يتعثروا، وهو يدرك أن ما يراه هو عرض حي مباشر، وليس كالعرض في السينما أو التلفاز.

❁ ❁ ❁

وفي لحظة ما ينسى المتفرج نفسه، ويندمج مع العمل، ويظنه حقيقة، وفي لحظة ما أخرى يتوحد مجموع المتفرجين في المسرح، ويصبح كله جمهوراً، يتحد في الفكرة والانفعال، وهي لحظة يتخلص فيها المتفرج من ذاته الفردية، وينتابه شعور فني جماعي ممتع، ولعل أشد اللحظات متعة هي عندما يقف جمهور المتفرجين ليصفقوا طويلاً للممثلين وهم ينحنون أمامهم على خشبة المسرح عند الختام، هي لحظة شكر وتقدير، ولحظة بهجة وسرور، يتم فيها التوحد الكلي بين الجمهور والممثلين، وهذا كله في حالة من نشوة الفن، بعيداً عن قسوة الحياة، وشدة وطأتها، وسرعان ما يشعر

المتفرجون بهذه الحقيقــة، عندما يغادرون المسرح، ليتحدثوا ساعــات وربما أياماً عن المسرحيــة والعرض والممثلــين، وقد تزودوا بخبرة لن ينسوها، وهــم الذين قد اختاروا مــن قبل الذهــاب إلى المسرح عــن قصد، وحجزوا مقعداً لهم، وقدموا إلى المسرح قبل بعض الوقت، وأخــذوا ينتظرون متشوقين، وحضورهم إلى المسرح هو حضور مقصود، ومخطط له قبل أيــام، وليس مجرد حضور يومي أو عادي مكرور.

ولعــل في العرضــ السينمائي ما يحقق شيئاً من مثل تلك المتعة في العرض المسرحي، ولكن يظل المتفرج يدرك أنه أمام عمل ضوئي فيزيائي، وليس أمام عرض بشري حقيقي، وأن الشريــط السينمائــي خضــع لإعــادة التصوير عشرات المرات، كما خضع للقطع والمزج ودمج الصوت وإضافة المؤثرات، وقام على خدع سينمائية كثيرة.

وبالمقابل لا يكاد التلفاز يحقق شيئاً من متعة المســرح ولا متعة السينما، لأن المتفرج لا يستطيــع أن يخلص لــه الإخلاص الذي يخلصــه في رؤيــة العرضــ المسرحي، ولا يستطيع أن يمنحــه حواسه ومشاعره كلها، إذ يقعــد المتفــرج أمــام التلفــاز في غرفة مضاءة مفتوحــة، ويشاركه في رؤية العرض أشخاص كثــيرون، لا يندمجون في العرض، وكثيراً ما يرن جرس الهاتف أو يقرع الباب، أو يدخــل إلى الغرفة من يدخل ويخرج من يخرج، والمشاهد للتلفاز نادراً ما يمنح العرض اهتمامه كله، إذ غالباً ما ينتقل من قناة إلى قناة، ولا يكاد يستقر على قناة أكثر من بضع دقائق، إضافة إلا ما قد يشغل به نفسه من تنــاول الطعــام أو الشــراب أو التدخين في أثناء المشاهدة، والحضــور أمام التلفاز هو حضــور يومي مكــرور، لا قصدية فيه، ولا إرادة، إضافة إلى إدراكــه أيضاً أن العرض في التلفاز هو عرض ضوئي فيزيائي، خضع مــن قبل للتصوير والإعادة والإنتاج والقطع والقصــ والمــزج وقام على خــدع كثيرة في التصوير.

❀ ❀ ❀

ويرتبط المسرح في أذهان الناس بصورته المألوفة، وهو في غنى عن الوصف والتعريف، ويكتفى بالقول إنــه مكان مغلق، ينقسم إلى قسمــين، قســم للمتفرجين، فيــه مقاعد مصفوفــة، وقسم للممثلين، وهو غرفة ذات ثلاثة جدران، وتحل الستــارة محل الجدار الرابع، وحين تكشف يتم التمثيل داخل تلك

الحجــرة، المواجهة لجمهور المتفرجين، وقد ألــف الجمهور أن يكون علــى تلك الخشبة مــا يسمى الديكور، ولا بد أن يوحي بالواقع ويعبر عنه، وهذا المسرح الذي يعرفه معظم الناس هو مســرح العلبة المغلق، وهو المسرح الذي عرفته فرنسة في القرن السابع عشر، وقد نشأ عن تقديم العروض في قصر الملك، ولذلك جاء على تلــك الصورة، ولم يكن هو الشكل الوحيد الذي عرفه العالم للمسرح..

لقد كان المسرح الإغريقي أشبه ما يكون بملعب كــرة القدم في العصــر الحديث في مساحتــه وانكشافــه وسعتــه، إذ كان يتسع لنحو سبعــة عشر ألف متفــرج، أو عشرين ألفاً، وهو مبني علــى سفح رابية تطل على مكان التمثيــل، وعلى هذا السفح مدرجات متتابعة، على هيئــة نصف دائرة، تتسع من الأسفــل إلى الأعلى، وتطــل هذه المدرجات علــى دائرة قــد يبلغ قطرها ستــين قدماً، تدعــى الأوركســترا ORCHESTRA وفيها تقف الجوقة، لترقص وتنشد الشعر، وتحاور الممثل، وقد أصبحت كلمة أوركسترا تــدل في العصر الحاضر علــى الموسيقيين العازفــين، علــى حين كانت تــدل في عهد الإغريــق علــى المــكان. ووراء الأوركسترا مباشرة تنهض خشبــة التمثيل STAGE، وهي لا ترتفع عن الأوركسترا أكثر من درجة أو درجتــين، وعلى هذه المنصــة كان يقف الممثلــون، ويجري التمثيــل، ولكن في بعض الأحيان كان الممثلون ينزلون إلى الأوركسترا، كمــا كان أفراد الجوقة يصعدون إلى منصة التمثيل.وخلف منصــة التمثيل بناء مرتفع، يمثل واجهة قصر أو معبد، وكان هذا البناء يدعى SCENA، وهو يشكل خلفية للعرض المسرحــي، وفيه ثلاثة أبــواب، باب كبير في الوسط، يخــرج منه الملــوك والشخصيات الرئيسيــة، وعلى طرفيه، بابــان صغيران، يخرج منه الخــدم، والشخصيات الثانوية، وعلى هذه الأبواب كانت توضع ستائر رسمت عليها مناظر تلائم المشهد، وتدل على مكان حدوث الفعل، وهي ستائر تسقط من أعلى إلى أسفــل. وأمام واجهة ذلــك البناء صف مــن الأعمدة، فوقها سقــف يصلها بالبناء، وبذلــك تشــكل الأعمدة رواقــاً كان يدعى بروسينيــوم PROSCENIUM. ولا بد من أن يلاحــظ أن مدرجات المتفرجين غير متصلة في طرفيها ببناء المناظر، إذ إن هناك ممرين اثنين عن طرفي المدرجات، يفصلانها عن بناء المناظر، ومــن هذين الممرين كانت

تدخل إلى المسرح عربات القادة، ومجموعات الجنود العائدين من المعركة.

وتعد مسرحية أوديب الملك لسوفوكليس من أروع التراجيديات العالمية، وهي مبنية على أسطورة قديمة، وفي المسرحية يظهر أوديب ملك ثيبة والجوقة الممثلة لعلية القوم تطالبه أن يسأل الآلهة عن سبب الوباء الذي انتشر في المدينة، فيعلمهم أنه أرسل العراف الأعمى تريزياس إلى دلفي ليسأل العرافين، ويدخل تريزياس ليخبرهم أن السبب يرجع إلى صمت المدينة والملك على مقتل الملك السابق لايوس وعدم البحث عن القاتل وإقامة العدل، ويسأل أوديب إن كان له ولد، فيعلم أنه رزق بولد ولكن أمه أعطته إلى خادم كي يقتله، بسبب نبوءة تذكر أن زوجها الملك لايوس سيرزق بولد يقتل أباه ويتزوج أمه، ويستدعى الخادم، فيعترف بأنه لم يقتل الولد، وإنما أسلمه إلى راع، ويستدعى الراعي، فيعترف بأنه أهدى الولد إلى ملك كورنثة، وكان عاقراً، وفي هذه الأثناء يدخل رسول من كورنثة ليخبر القوم بموت ملك كورنثة، ويسأل أوديب عن الظروف التي قتل فيها الملك السابق، فيعلم أنه كان في عربته الملكية، مع بعض الحرس، وبينما هو في بعض الطريق، برز له شاب، أزاحه الحرس عن الطريق بغلظة، فأعمل سيفه في رقابهم، ولم ينج سوى حارس واحد، وكانت جوكاستا زوجة أوديب إلى جواره تسمع تلك الشهادات، فأدركت أن أوديب زوجها هو ابنها وهو قاتل أبيه، فتدخل إلى القصر، وما يلبث الخدم أن يعلنوا انتحارها شنقاً، ويدخل أوديب ليستطلع الأمر، ثم يخرج والدم يسيل من عينيه، فقد فقأ عينيه، لأنهما لم تساعداه على رؤية الحقيقة، ثم يوقع بنفسه عقاباً آخر وهو النفي من طيبة، المدينة التي كان قد دخلها بعد أن أجاب عن السؤال الذي طرحه عليه الوحش الرابض في بابها، وقد دخلها ليصبح ملكاً عليها، ويتزوج أرملة أبيه الملك السابق، وهو لا يعلم أنها أمه، وينجب منها ولدين وابنتين، ويكون بعد ذلك الوباء.

❁ ❁ ❁

ولقد تطور بناء المسرح في القرن السادس عشر في إنكلترة تطوراً كبيراً، واختلف، فقد كان بناء خشبياً يتألف من ثمانية أضلاع، ويعلو طابقين اثنين أو ثلاثة، ويطل على فناء مكشوف، وفي هذه الطوابق الثلاثة وفي سبعة أضلاع من الأضلاع الثمانية شرفات مسقوفة يقعد فيها الأمراء وعلية

القوم، ممن يقدرون علــى دفع ثمن بطاقة الدخــول إلى المسرح، ويبقى الفناء المكشوف للعامة ممن لا يقدرون على دفع ثمن بطاقة الدخول إلى المسرح، وهم يقعدون على الأرض الترابية متعرضــين لأنواء السماء، وفي هذا الفنــاء، وأمــام الضلع الثامن مــن أضلاع البناء تــبرز خشبــة المسرح، وهــي لا تعلو أكثر من نصــف المتر، وهي تمتد فيما يشبه اللســان إلى منتصف الفناء، وحولها يتجمع المتفرجون، وعليها يمثــل الممثلون، وخلفهم على الضلع الثامن تنزل ستارة تحمل رسوماً تمثل المشهد، وعلى مثــل هذا المسرح كانت مسرحيات شكسبير تمثل، وهو مسرح بسيط وغــير معقد، يتيح كثيراً مــن حرية الحركة وتغيير المشاهد وتعددها.

ولا تقل مسرحية هاملت لوليم شكسبير روعــة عن مسرحيــة أوديب، وهــي تصور ظهور شبــح هاملت الأب ملــك الدنمارك لولــده هاملــت، ليخــبره أنه لم يمــت ميتة طبيعيــة، وإنما مات غيلــة، وعليه أن يأخذ الثأر من عمه الذي تزوج أمه فور موت أبيه، ويسقــط في يد هاملت الشــاب، ويستدعي فرقة جوالة تقدم مسرحية إيمائية قصيرة، تصور زوجة أحبت شقيق زوجها، ثم وضعت الزئبــق في أذن زوجها وهو نائم، لتتزوج من بعده شقيقه، ويثور غضب الملك عم هاملت لــدى رؤيته العرضــ، لأنه يحكــي قصته، ويدخــل هاملت مخــدع أمــه، ويرجوها أن تهجر فراشــ عمه، ويغلظ لهــا في القول، فتصــرخ مستنجدة، ويجيبها صوت من وراء ستــارة، فيســرع هاملت إلى طعــن الرجل المختبــئ، وهو يظنه عمــه، وإذا هو الوزير بولونيوســ الذي كان يتجســس عليه وعلى أمه، وهو نفسه والد حبيبته أوفيليا، ويقرر الملك ترحيــل هاملت إلى إنكلــترة بصحبة اثنــين من أصدقائــه، وفي الباخرة يكتشف هاملت أن صديقيه مزودان برسالة إلى ملك إنكلترة تتضمن طلب قتله، فيغير مضمونها، ثــم يعترض الباخرة قطاع القراصنة، ويعود هاملت إلى شاطــئ الدانمارك، ليجد حفّار القبــور يعــدّ قــبراً لحبيبته أوفيليــا، وقد انتحــرت في غيابــه، بأن ألقــت نفسها في نهر، ويتحــداه أخوها لايرتــس وقد رجع من فرنسة، طالبــاً منه المبارزة بتشجيع من عمه الملــك، ويوافق هاملت، وتكون المبارزة، بحضــور عمه الملك وأمــه، ويجرح هاملت بسيــف لايرتس المسمم، ويحــدث أن يطير السيفان من أيديهما، فيتبادلانهما، ويجرح

هاملت خصمه، وسرعان ما يفعل فيه السم فعله، فيــدرك أنه جــرح بسيفــه المسمم، وتسقط أم هاملت ميتــة، فقد احتست من كأس مسممة كان قد أعدها الملك للمنتصر، فيعترف لا يرتس أمام هاملت بأن الملك هو وراء المؤامرة، وأنــه ميت بعده لا محالة، ثم يسقط ميتاً، ويســرع هاملت إلى عمه الملك ليطعنــه بسيفه، ثم يسقط هــو نفسه ميتاً، ويدخل رسول مــن إنكلترة ليخبر عن تنفيذ ملــك إنكلــترة نصــ الرسالة التــي حملها الرســولان صاحبا هاملت والتــي تتضمن طلــب قتلهما، ثــم يدخــل فورتنبراس أمير النمســا، البلد المجاور للدنمــارك، ليصبح ملكاً على البلدين.

وقد ثــار المسرح الحديــث على أعراف المسرح الأرسطي كلها، فلم يعد ثمة حبكة ولا حوادث ولا حتى شخصيات، بالمعنى المعروف للشخصيات، ولا أزمة ولا حل، ولا تطهير ولا تخليص من الشفقة والخوف، بل إن المسرح الحديــث يرفض إيهام المتفــرج بحقيقة ما يجــري، ويسعى إلى كســر الإيهام، وتحطيم الجدار الرابــع، فيجعل المتفرجين يشاركون في التمثيــل، ويصعد بعضهــم إلى الخشبة، كمــا لا يريد لهم الاستغــراق في العمل، بل يسعــى إلى تنبيه وعيهــم، وجعلهم يشعرون أنهم أمام عمل يراد منهم ألا ينفعلوا به، بل يــراد أن يدرسوه ويعــوه، ويتلقوا من خلاله درســاً، لذلك ظهر في المسرح الراوي والمعلق والسارد، الذي يســرد أحياناً الحدث، بدلاً من تمثيله، أو يشــرح الدرس من المسرحية، ويوضــح العبرة، كي يضمــن وصول الفكرة إلى الجمهــور، علــى نحو ما فعــل بريخت في مسرحه التعليمــي الملحمي، وكان يتوجه به إلى العمال، ويدعــو إلى الحرية، كما في مسرحيتــه: «الاستثنــاء والقاعــدة»، وفيها يصور تاجراً في طريق صحراوية، يشرب كل ما في مطرته من ماء، ثم يستبد به العطش، فيرفــع إليــه خادمه مطرتــه، فيطلق عليه النار، اعتقــاداً منه أنه يرفــع حجراً يريد قتله، لأن هذه هي القاعدة التي يعرفها عند العبد الخادم، ولا يتوقع منه الاستثناء، وهو أن يقدم له مطرتــه ليشرب، وفي مسرحيته دائرة الطباشير القوقازية تتنازع امرأتين في طفل، ويكون في النهاية للمربية، لا للوالدة، وهو يريــد أن يؤكد العلاقــات القائمة في المجتمــع على الفكر والتربية لا على النسب والقرابة.

بــل ظهر المســرح الــذي يرفض تقديم

حبكة، أو حدث له بدايــة وأزمة وحل، كما دعا أرسطو، بل يرفض تقديم فكرة واضحة، وليس ثمة ديكور، أو حــوار متماسك، على نحو ما ظهر في مســرح العبث، ومن دعاته صموئيل بيكيت، وقد أصبحت مسرحيته «في انتظار غــودو» مع قصيدة «الأرض اليباب» للشاعــر إليوت، من أبرز العناوين في القرن العشرين، وفيها يصور رجلين لا هدف لهما ولا عمــل، وهمــا على وشــك أن يشنق كل منهما نفســه في غصن شجرة عارية، ولكن يذكران أنهما علــى موعد غودو، فيؤجلان الانتحار، ويدخل عليهمــا غلام، بعد طول انتظار، ليخبرهمــا أن غودو لن يأتي اليوم، وفي اليوم التالي يعاودان الانتظار تحت تلك الشجرة العارية، ويدور بينهما حوار عابث، لامعنى فيــه ولا فكرة ولاهــدف، وهما ما يزالان ينتظران غودو، ومــرة أخرى يدخل عليهما غلام، ليخبرهمــا أن غودو لن يأتي اليوم، وتنتهــي المسرحية، من غير أن يسدل الستار، ولكن بإمكان المــرء أن يلمح برعماً صغــيراً على غصن الشجــرة العارية. وثمة اليوم فرق جوالة، تقدم عروضها فوق خشبة مســرح عار، لا ستارة فيه ولا ديكور، ولا أي قطعــة من قطع الأثاث، بــل ثمة فرق تقدم عروضها في الساحات والشوارع، وفي القرى والأرياف.

❁ ❁ ❁

وحين عــرف العرب المســرح في القرن التاسع عشر عرفوه في شكله المغلق، فتأثروا بــه، وقلّدوه، ولم يفكروا في ابتناء مسرح نابع من بيئتهم، ولم يدركوا أنه ليس من الضروري تقديم العرضــ في بناء مغلق، إذ من الممكن تقديم العرض المسرحي في ساحة المدينة، أو بيدر القريــة، أو فناء الدار المفتوحة، أو في أي مكان آخر، يتجمع فيه المتفرجون، ويمثل أمامهم الممثلون. وإمكان التطوير والتجديد والابتــكار في المســرح، بل في الفنــون كلها والآداب، ما يــزال مفتوحاً، بل هو مطلوب، ولذلك بالإمــكان البحث عن صيغة جديدة للمســرح، وإن كان هذا لا يلغي التواصل مع التراث العالمي، والإفادة من تجارب الشعوب، بــل إن هذه التواصل مطلوب أيضاً، والهوية القومية لا تنمو وتتطور ولا تتحقق إلا بمثل هذه الإفــادة وذاك التواصل، وهي تضعف بالانغلاق على الذات والانقطاع عن العالم.

وتعد مسرحية (البخيــل) أول مسرحية يقدمهــا العــرب أواخر سنــة ١٨٤٧، وقد قدمها الكاتب اللبناني مارون النقاش (١٨١٧.

١٨٥٥) في داره ببيروت، وهو تاجر لبناني، كان قد زار إيطاليا ورأى فيها الأوبرا، فأعجب بها، وأراد تقليدها، والمسرحية من تأليفه، وليست مترجمة عن البخيل لموليير، ولكن لا تخلو من بعض التأثر بها، وهي تصور تاجراً دمشقياً عجوزاً دميماً طاعناً في السن يدعى قراداً يسعى إلى الزواج من هند، ليكون الزواج صفقة يعقدها مع والدها الثعلبي، وهو مثله في الغنى والبخل، وهند صبية جميلة توفي عنها زوجها، ويسعى أخوها غالي إلى تزويجها من شاب دمشقي يدعى عيسى، وتلتقي هند خطيبها قراداً فتطلب منه بتوصية من أخيها ثياباً وأموالاً وهدايا كثيرة، فيغمى عليه، وعندما يستيقظ يبدأ بالصد عنها، ويؤكد لها أنه عجوز ودميم ولا يرغب في الزواج منها، ثم يلتقي غالي وعيسى الثعلبي والد هند، ويؤكدان له طمع قراد بماله، وعزمه على قتله ليرثه، وحجتهما في ذلك أنه يضع يده في جيبه دائماً، حيث يخفي سكيناً، ويصدق الثعلبي ذلك، والحقيقة هي أن قراداً يضع يده في جيبه دائماً خوفاً على ماله، ثم يلتقي غالي وعيسى قراداً وقد تنكرا في زي تاجر تركي وكاتب مصري، فيحدثهما عن هند ووالدها وهو يريد الانتقام منهما، فقد أضرا به، ويعدانه بذلك مقابل مبلغ من المال، ويعده غالي أن يضرب هنداً ضرباً مبرحاً، ويأخذ في ضربه ليريه كيف سيضربها، ويحصلان منه على المال، ثم يكشفان له عن حقيقتهما.

ثم قدم النقاش مسرحيته الثانية «أبو حسن المغفل أو هارون الرشيد»، ثم ابتنى مسرحاً صغيراً قرب داره في بيروت وقدم فيها عدة مسرحيات منها، آخرها مسرحيته «الحسود السليط»، وقد أوصى أواخر حياته أن يحول مسرحه إلى كنيسة.

❁ ❁ ❁

وفي دمشق ظهر عام ١٨٦٥ أحمد أبو خليل القباني ليقدم مسرحيته الأولى «ناكر الجميل»، وهو من أصل تركي وقد ولد سنة ١٨٣٣ في دمشق، ودرس على الشيخ أحمد عقيل الحلبي أصول الموسيقا ورقص السماح، وقد سمع بمسرح النقاش أو رأى عروض بعض الفرق القادمة من لبنان، فأنشأ مسرحه، وأخذ يدرب فرقته، ويكتب لها النصوص، بما فيها من أشعار يضع لها الألحان، ومسرحه مزيج من الرقص والغناء، وقد لقي مسرحه الإقبال، فقدم عدة مسرحيات منها: «وضاح»، و«عائدة»

و«الشـاه محمـود»، و«أبو الحسـن المغفل»، ولكن نقـم عليه بعض المتزمتين، لما فيه من رقص وغناء، فصدر قـرار كما يروى من البـاب العالي في الآستانـة بإغلاق مسرحه عام ١٨٨٤، فهاجـر إلى مصر ليتابع تقديم عروضـه، فأعجب بـه الخديـوي توفيق، وأقطعـه أرضاً شاد عليهـا مسرحه، ثم زار الآستانة عام ١٩٠٠، وغنـى أمام السلطان عبد الحميد، فعين لـه راتباً شهرياً، ورجع إلى دمشق، ليتوفى فيها سنة ١٩٠٢.

ومن مسرحياته مسرحيته «هارون الرشيد مع الأمير غانم بن أيوب وقوت القلوب»، وهي مستوحاة من إحدى حكايات ألف ليلة وليلة، وهي تصور التاجـر الدمشقي الشاب غانم بن أيوب وقد وصـل إلى بغداد متأخراً بعد أن أغلقت أبوابهـا، فارتقى شجرة ليختبئ فيها، فرأى بضعة رجـال يحملون صندوقاً يودعونه في مقبرة ويرجعون مسرعين تحت جنح الظلام، ويسرع إلى الصندوق فيفتحه، وإذا فيـه صبية، سرعان ما تصحو من تأثير مخدر، فيحملها إلى غرفته في الخان، ويعلم منهـا أنها قوت القلوب الجارية الأثيرة لدى هارون الرشيد، وقد وضعت لها زوجته زبيدة المخدر، وادّعت موتها، ويميل إليها غانم بن أيوب ولكنها تعرض عنه، ثم تميل هي إليه، فيعرض عنها، ويعلم هارون الرشيد بأمرها، فيرسل إليها الجند، فيهـرب غانم، ويأخذ الجنـد قوت القلـوب إلى هـارون الرشيد، ويهـم بقتلها، ولكنها تقسم لـه أن غانم بن أيـوب لم يمسها، فيعفو عنهـا ويأذن لها في العـودة إليه، لما لمس من تعلقهـا به، وتعود إليه وإذا هو في الخان يشرف على الموت من وجـده عليها، ثم تدخل عليهمـا أمه وأخته وقـد جاءتا من دمشق بعـد أن أخذ منهما القلـق عليـه كل مأخذ، ثم يدخـل عليهما هـارون الرشيد وجنده، فيذعر غانم، ولكن الخليفـة يبارك زواجه من قوت القلوب، ثم يطلب منه الزواج من أخته.

❀ ❀ ❀

ولا بد من الإقـرار بأن العرب لم يعرفوا المسـرح إلا في النصـف الثاني مـن القرن التاسع عشر، وأنهـم حين عرفوه قلدوا فيه الغرب، وقد حاولوا إدخال هذا الفن الجديد في حياتهم وأدبهم، وسرعان ما أقبلوا عليه، ولكن إقبالهـم كان أدبياً أكثر مما كان فنياً، فقـد برزت ترجمـات لنصوصـ مسرحية كثيرة، وأقبل الكتاب على التأليف المسرحي، وخاضـ غماره كبار الشعراء والكتاب، وبرز

في القــرن العشرين كتّــاب مسرحيون كبار يمكن أن يعدوا بالعشــرات، ومن الإجحاف ذكر بعضهم، وإغفال آخرين، وقد جربوا في المسرح اتجاهات ومذاهب متعددة.

وقد شهد فــن المسرح ازدهــاراً، ولكنه ازدهــار متقطــع، إذ مــا كان لينهضــن في مرحلة، حتــى يتعثر في مرحلــة تالية، وما إن يزدهــر في عهد، حتى يكبو في عهد، وما يــزال المسرح إلى اليــوم في تعثر، ولم يتحول إلى ظاهــرة في حياة المجتمــع، أو جزءاً من تقاليــد الحياة وأعرافهــا الفنية، على نحو ما هــو عليه في الغرب، ويبدو أن المسرح في حاجــة إلى رعاية الدولة، يؤكد ذلك أنه كان يزدهر عندما ترعــاه الدولة وتشجع عليه، لأنه بحاجة إلى خبرات متعددة، لا يمكن أن ينهض بها فرد.

ولا يضير العرب في شيء أنهم لم يعرفوا المسرح، فقد عرفوا فنونــاً في الأدب والفن لهم فيهــا العوضــ، لعل أهمهــا الخطابة والشعــر، ويرى بعض الباحثــين أن العرب لم يعرفــوا المسرح قبل الإســلام لأنهم كانوا يعيشــون قبائل متفرقــة في الصحراء وقد سيطــر عليهم التفكير الجزئــي التفكيكي، والمســرح يحتــاج إلى الاستقــرار والحيــاة المتحضرة وإلى التفكــير الكلي التركيبي، ولم يعرفوا المسرح بعد الإسلام ولم يترجموه على الرغم من ترجمتهــم الفلسفة والمنطق عن اليونان، لأن الإسلام يحرم ظهور المرأة على المسرح، ويرفض فكرة الصراع، كما لا يتفق مــع وجود الآلهة في المســرح اليوناني، ولأن العرب كانــوا معتدّين بما عندهم من شعر. وهــذه التأويلات كلها غــير دقيقة، وليست مطلوبــة، فحــين اتصل العــرب في العصر العباسي بالــروم وترجموا الفلسفة والمنطق كان هــذان العلمان هما المزدهــران، وكان المســرح غائبــاً، فقد انحســر المسرح طوال القرون الوسطى في أوروبــة، واقتصر على مشاهــد دينية مستوحاة من قصص التوراة تمثــل في الأعيــاد داخل الكنائســ، وباقي الحجج واهية، فلــم تكن المرأة عند اليونان ولا عنــد الرومــان ولا في عصــر شكسبير تمثل على المسرح، بل كان الغلمان هم الذين يقومون بأدوار النساء.

❋ ❋ ❋

والأمر لا يرجــع إلى عقلية، إنما يرجع إلى بنيــة المجتمع، ومهما يكــن فقد عرف العرب ظواهر تمثيلية، في إنشاد الشعر وفي المهرجانــات والمناسبات والأعياد وفي بعض

مظاهر الحياة، ثم عرفوا نوعاً من المسرح هو خيال الظل، وقد أتقنوه، وظلوا يستمتعون به طوال قرون مديــدة، إلى أن عرفوا السينما والمسرح. وخيال الظــل هو عرض مسرحي يستعــين بشخوص من جلــد أو ورق مقوى، ويقوم لاعب بتحريكهــا بوساطة أعواد من وراء شاشة بيضاء، ويكــون وراء الشخوص منبــع ضوئي، فيسقط ظلهــا على الشاشة، ويقعــد المتفرجون أمــام الشاشة ليروا ظل الخيال، وليستمعوا إلى اللاعب الذي يحرك الشخوص من وراء الشاشة وهو يلقي حواراً يلون فيه صوته وفق الشخصيات، وغالباً ما كانت هذه العروض تقدم في المقاهي، أو في دور الأغنياء، ويتضمــن العرض قصة ذات بدايــة وأزمة ونهاية، وتسمــى هذه القصة بابــة، ويرجح أن يكون هذا الفن قد نشأ في الصين أو الهنــد في عهود بعيدة، وقد نقله العرب في العصر العباسي، وازدهر في عصر المأمــون، ثم برع فيه الطبيــب الكحال ابن دانيال(١٢٣٨. ١٣١٠م)، ونقله إلى مصر التي هاجر إليها إثر الغــزو المغولي لبغداد، ومن مصــر انتقل إلى تركيــا في العهد العثماني، وفيها عــرف بفــن القراقوز، وقــد انتقل إلى سوريــة أيضاً، وانتشــر فيها، واستمرت عروضه إلى القــرن العشرين. وخيال الظل فــن مسرحي لا يرقى إليــه شك، فهو يقوم علــى قصة وتمثيــل وشخوصــ، مثله مثل المســرح، ولا يختلف عنه في غــير الممثلين، فهم فيه دمى ورقية مسطحة، ولخيال الظل نصوص معروفة تدعى بابــات، ومنها بابة «طيف الخيال» وهي لابن دانيال، وتتحدث عن الأمير وصال، وكان شاباً عبث ولها، إلى أن نفــد ماله، وعندئذ قــرر الزواج، فطلب من عجــوز أن تساعده، فخطبــت له فتاة، ثــم اكتشف ليلــة الزفاف قبحهــا، ومضى إلى العجــوز يريد قتلها، فوجدها قد ماتت، فندم على مــا كان من أمره، وتاب إلى الله، وارتحــل إلى الحجاز ليمضــي بقية عمره عابداً تائباً.

ومهمــا يكن مــن أمر، فــإن المسرح قد تطور عند العرب في القرن العشرين، وظهر كتّاب برعوا فيه، وتوافر لديهم نتاج مسرحي غزيــر، يعد تجديداً في الأدب والحياة، وهو جدير بالتقدير والدرس.

آفاق المعرفة



جدلية التواصل والتلاقح الثقافي بين العرب والأمم الأخرى

د. أحمد غنام ❁

نجد مــن الضروري ونحــن بصدد التأطـير لقضية التواصــل الثقافي الراهــن بين العرب والأمم الأخرى، والتــي أصبحت تخضع وترتبط بجملة مــن الاعتبارات والاستقطابــات والتحولات التي يشهدهــا عالمنا الجديد، والذي شهد وما يزال متغيرات هائلة تمس البنى التحتية والهيكلية لثقافات وحضــارات الشعوب، أن نؤكد حقائق نيرة وثوابت متجذرة تصل إلى مصاف المسلمــات والتي أهمهــا وأبرزها أن الأمة العربيــة في أمجد لحظات القوة

❁ أديب سوري

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

الحضاريــة لم تتوقــف قــط عــن التفاعل الخصب الخلاق مع الحضــارات والأفكار الأخرى،

هــذه حقيقة ولكــن التفاعل من موقف القــوة تختلف نتائجه جذريــاً عن التفاعل مــن موقف الضعف، حيــث لا يكون هناك تفاعل حقيقي بــل تصبح في حالة استقبال سلبي ومجرد صدى بلا صوت أصيل يتبادل الأخذ والــرد، وهذه هي القضية المطروحة أمامنا اليوم، والسؤال الآن هو إلى أي مدى نحن قادرون على خلــق مناخ يسمح بإعادة هذا التفاعل الحقيقــي بيننا وبين ثقافات الأمم الأخــرى، وبالذات مــع الثقافة التي أنتجتها حضارة الغــرب والتي أعطت هذا العصر طابعه والتي سوف نعتني بتناولها في سطورنا هذه، وهل في ظروفنا ما يسمح بأن نمد الجسور ونبني علاقات جديدة قوامها الاحــترام المتبــادل والمنفعــة المتبادلة ومن موقــع الفاعلين أخذ وعطــاء لا المستقبلين سلباً واستلاباً.

وإذا كان بالإمــكان خلــق ذلــك المنــاخ الصحي للتفاعل الثقافي، وإذا كان بالإمكان أيضــاً وبرغــم واقــع التجزئــة السياسي، أن نقــف كثقافة عربية ذلــك الموقف، وإذا اهتدينــا إلى العناصر التي لا تتناقض معها في ثقافــة الغرب التي يمكن لأن تنشئ معها حــواراً ونبني معها علاقــة تواصل وتعاون، فكيف السبيــل بعد ذلك على خلق الوسائل والأدوات التــي تصل بنــا على تحقيق هذه النتيجة وتوصيل هــذه الرسالة وخلق هذه العلاقــة الجديدة الكريمــة التي تقوم على أنقاض علاقة قديمة ظالمة، ثم لنبادر القول إن هــذا التواصل هو أصــلاً موجود، وهو شئنا أم أبينــا سيظل موجوداً، لأنه لا يمكن لشعــب من الشعوب أو وطن من الأوطان أن يستغني عن حاجته لبقية زملائه في الأسرة الدولية، فنحــن لا نطالب باستحداث شيء هو أصلاً موجود، وقائم ومتمثل في مختلف مظاهر الحياة مــن حولنا، وما نريده اليوم هو وضع قاعــدة لهذا الحوار بحيث نجعله قائمــاً على مبدأ التكافؤ، على مبدأ الأنداد وليس علاقة الأقــوى بالأضعف، ومن أجل تحقيق هــذه الغاية فإنه لابــد من البحث بجد ومثابرة عن كل عناصر القوة في ثقافتنا العربية القادرة على تحقيق هذا التوازن في حوارنا مع الثقافات الأخرى، لكي نأتي إلى هــذا التواصل ونحن مسلحون بأمجاد ما في تراثنــا الحضاري من قيــم، إن في الثقافة كمــا في الحياة عناصر تبقى وتنمو وعناصر تذوي وتموت، ونحن لابد أن نكون مسلحين بهذه العناصر المجيدة الباقية لتأكيد هويتنا الحضاريــة من جهة ومن جهة أخرى كي لا

يبقى دور هذه الثقافة معطلاً كما أرادت له قوى الغزو الامبريالي والصهيوني أن يكون، وإننا على ثقة من أن شيئاً من هذه الثقافة مازال مشعاً ومتوهجاً وقادراً على أن ينير دروباً جديدة أمام إنسان هذا العصر ويشارك في إنقاذه من المأزق الحضاري الذي أسهمت جوانب سلبية من الثقافة الغربية في أن تسوقه إلينا.

إن شيئاً من ثقافات الشعوب الأخرى التي تشاركنا الحياة فوق هذا الكوكب له حضوره في ثقافتنا، فبرغم أن لكل أمة خصائصها الثقافية التي صنعتها عوامل تاريخية وبيئية واقتصادية واجتماعية وجيوبولوتيكية، فإنها أيضاً جزء من هذا الهضم والتمثل لعناصر جاءتها من ثقافات أخرى، وإن شيئاً من ثقافتنا باعتبارنا أمة لها إسهامها في الحضارة الإنسانية له وجوده المستمر في ثقافات تلك الشعوب، وإن نظرة سريعة على تاريخ هذا التفاعل الثقافي بينها وبين الأمم الأخرى تجعلنا ندرك إلى أي مدى كان هذا التلقيح الثقافي صاحب الفضل الأول في التمهيد لحضارة العصر الحديث، فمن واقع القوة ذهبت الحضارة العربية باستقطاب واستيعاب عصارة الحضارة اليونانية السابقة لها، وباشر العرب فور تأسيس دولتهم إلى ترجمة الكتب الفكرية والفلسفية التي ألفها أفلاطون وأرسطو وكتب الطب وفروعه لأبي قراط وجالينوس وكتب الرياضيات والفلك والعلوم الأخرى لإقليدس وأرخميدس وأبولونيوس وبطليموس وغيرهم من علماء ومفكرين وفلاسفة، وبلغت حركة النقل والترجمة أوجها عندما تأسس في بغداد وتحت إشراف الخليفة المأمون بيت الحكمة (٨٣٠ ميلادي)، وتم اختيار العلماء والباحثين ممن لهم خبرة بالترجمة عن تلك اللغات وتمَّ جلب الكتب من مختلف أركان الأرض، وكان من آثار هذه الترجمة أن بدأ الفكر العربي الإسلامي يطرق موضوعات جديدة ويجوب ميادين لم يطفها من قبل.

ولم يقتصر النقل عن التراث اليوناني، وإنما نقل العرب جوانب من تراث الهند عن طريق اللغة السنسكريتية وترجمت كتب في الطب والفلك والرياضيات والتاريخ والأدب، كما أن لهم الفضل في نقل التراث من لغات اندثرت مثل اللغة النبطة التي تذكر المراجع أن أكثر من ١٥ كتاباً قد ترجمت عنها، وكان لحضارة الفرس وأدائها ممثلوها في الحضارة العربية الذين نقلوا كتباً لإثراء الثقافة العربية، وقد قام عبد الله بن المقفع بالدور الريادي في ترجمة أشهر ما في التراث الفارسي من أعمال مثل «كليلة ودمنة» وكتاب «الأدب الكبير وكتاب الأدب



المنير» وكتب أخرى عن تاريخ الفرس، وقد تم في مرحلة متأخرة عن تلك الفترة ترجمة كتاب الشهامنة التي نظمها الفردوسي على نسق إلياذة هوميروس، وتذكر المراجع استفادة العرب من النصوص اللاتينية والقبطية، وهكذا فقد نقل العرب إلى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والرياضيات والأدبيات عن سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد ولم يغادروا لساناً من ألسن الأمم المعروفة لذلك لم ينقلوا عنه شيئاً، فكأنهم ورثوا أهم علوم الآشوريين والبابليين والفرس والهنود واليونان، وقد مزجوا هذا كله وعجنوه واستخرجوا منه علومهم، إضافة إلى النقل والترجمة اختلاط العرب في حياتهم اليومية بهذا الخليط من الأمم والأجناس بمختلف عاداتهم وتقاليدهم وتنوع أساليب معيشتهم وأنماط سلوكهم، وكان طبيعياً أن تنصهر كل تلك العناصر في بوتقة الحضارة الجديدة وأن تصبح اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة والمعرفة، وبدأت عملية التمثيل والهضم والاستيعاب لكل تلك الموروثات الحضارية تأتي بنتائجها فظهرت فلسفة عربية لها خصوصيتها وتفردها وإضافتها الخاصة للتراث الفلسفي الإنساني وصار للعرب مدارسهم الفكرية الخاصة.

لقد كان تفاعل العرب مع الثقافات

الأخـرى من موقع القـوة ولذلك فقد سرى تأثيرهـم كالنسغ في أغصـان الشجرة التي كانت ثمارهـا للإنسانية إحدى أنبل وأرقى الحضارات التي أسدت أياديها البيضاء لكل شعوب الأرض، وعندما كان ظلام العصور الوسطـى يغمر بلدان الشمال كانت مشاعل الحضـارة العربية هي وحدهـا التي ترسل نورهـا وإشعاعهـا إلى الحد الـذي يجعل كاتباً فرنسياً ينتمـي إلى الحضارة الغربية الحديثة هو «أناتول فرانس» يقول: «إن أشأم يـوم في تاريخ الإنسانية هو اليوم الذي صد فيه شـارل مارتل الفتح العربي في فرنسا». وكان لابـد أن تمر سنوات طويلة حتى يأتي كاتب إسباني آخر مثل «بلاسكوا أبانيز» لكي يصف الفتح العربي في إسبانيا بأنه: «لم يكن في الواقـع فتحاً فرض علـى الناس برهبة السلاح بـل حضارة جديدة بسطت شعاعها على جميع مرافق الحياة، ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن حرية الضمير». ويقول: «ونمـت على هذا، مـا بين القـرن الثامن والقـرن الخامس عشر أجمـل الحضارات وأغناهـا في القرون الوسطـى، وفي الزمن الذي كانت فيـه أمم الشمال فريسة للفتنة الدينية والمعـارك الهمجية يعيشون القبائل المتوحشـة في بلادهم المتخلفـة، كان عدد سكان أسبانيـا يزداد فيزدادون على ثلاثين مليوناً تنسجم بينهم جميع العناصر البشرية والعقائـد الدينيـة، وخفـق قلـب الحياة الاجتماعيـة بأقـوى نبضاته التـي عرفها تاريخ الجماعات البشرية».

وبدأت دورة جديدة عندما انتهت شعوب الغرب الأوروبـي إلى عناصر القوة في هذه الحضارة التي أسسـت إحدى أكبر الممالك في التاريخ، وجاء ملوكهم يستجدون المعرفة، وأرسـل الملك فيليب البافـاري إلى الخليفة هشام الأول يسأله السماح بإيفاد هيئة على أحـوال الأندلس ودراسة نظمهـا وثقافتها حتى يتمكنوا مـن اقتباس ما يفيد بلادهم، وحذا حذوه ملك إنكلترا جورج الثاني، ثم تلت هذه البعثات وفود أخرى قدمت من فرنسا وإيطاليا والبـلاد المنخفضة ملأت معاهد غرناطة وإشبيليـة واقتبست من الحضارة الأندلسية كثيراً من العلوم والآداب والفنون، ولم تكتـف أوروبـة بإرسـال هـذه البعثات العلمية بـل قامت بعض الـدول الأوروبية في أواسط القرن التاسـع وما يليه تستأجر الأساتـذة والخبراء العرب لتأسيس المدارس والمعامل وإحياء الصناعـات العديدة ونشر لواء العمران والتنظيـم في بلدانهم. ويعتبر فريدريـك الثاني -الذي نصـب إمبراطوراً عام (١٢١٢م) وأعاد تنظم مملكة صقلية- أول من مهد لعصر النهضة في أوروبة وكان

شديد الإعجاب بالفلاسفة العرب وكان يجيد القراءة باللغة العربية وقام في العام ١٢٢٤م بتأسيس جامعة «نابل» التي جعل منها أكاديمية لإدخال العلوم العربية إلى العالم الغربي، وقد كان لأفكار ابن رشد أكبر تأثير على هذا القيصر الذي ساعد على نقلها وانتشارها، كما تذكر مصادر غربية وقد عرفت مدارس باريس تعاليم ابن رشد وتأثرت بالفلسفة العربية وطريقة البحث العلمي ومهدت بذلك لازدهار الثقافة العربية.

وتذكر المصادر التي تهتم ببداية حركة الترجمة أن اهتمام الأوروبيين بالمؤلفات العربية يعود إل القرن العاشر الميلادي، فجمعوا ما ألفه العرب من الطب والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والأدب واللغة وغيرها، وازداد اهتمامهم بالمؤلفات العربية إثر احتكاكهم بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية (١٠٩٦-١٢١٩م) فاقتنوا الكثير منها ونقلوها إلى بلادهم، وقد تأسست في طليطلة في تلك الفترة كلية لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية وقد كان لهذه المدرسة ولحركة النقل النشطة نفوذها على عقول وأفكار جيل من المفكرين لعلم أهمهم جميعاً هو «روجر بيكون» الذي يعتبر مؤسس المنهج العلمي الحديث في أوروبة، ويتحدث عن (كتاب الإنسانية) لبير يفولت قائلاً:

«ليس لروجر بيكون ولا لسيميه الذي جاء من بعده الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فهو لم يكن إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلامي في أوروبة، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحق».

ويقول روجر بيكون عن نفسه: «إن وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوروبي كان مستحيلاً لولا وجود المعرفة العربية، لقد دعيت أوروبة فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون، وهي مدينة بكل مقوماتها إلى العالم الإسلامي».

ولم يكن الكتاب وحده الذي تولى نقل الثقافة العربية إلى الغرب، فقد كانت أوروبة وكما يذكر العقاد في كتابه (أثر العرب في الحضارة الأوروبية): «تتلقى آثار الثقافة العربية في ثلاث جهات متلاحقة في القرون الوسطى، أولها جهة القوافل التجارية التي كانت تغدو وتروح بين آسيا وأوروبة الشرقية والشمالية عن طريق بحر الخزر وطريق القسطنطينية، وربما كانت هذه هي الطريق التي وصلت فيها أطراف الأخبار الإسلامية إلى بلاد اسكندناف، والجهة الثانية هي جهة

المواطن التي احتلها الصليبيون وعاشوا فيها زمناً طويــلاً في سائر البلــدان الإسلامية، والجهة الثالثة هي جهــة الأندلس وصقلية وغيرهــا من البــلاد التي قامــت فيها دول المسلمين وانتشر فيهــا المتكلمون بالعربية».

وحتى بعد أن جاءت عصــور الانكسار ظل ذلك الميراث الثقــافي العربي يمارس نفوذه وتأثــيره علــى الفكــر والأدب والفــن لدى تلك الشعوب، ونذكر مثــلا تأثير «ألف ليلة وليلة» التي لم تتــم ترجمتها الكاملة إلا عام ١٧٠١ حيث ترجمهــا إلى الفرنسية الكاتب الفرنسي «كالانــد» وترجمت عن الفرنسية إلى الإنكليزيــة في نفس الوقت، ويعتبر هذا العمــل الإبداعــي الخلاق الــذي هو نتاج العبقرية العربية في القص والخيال كان له تأثــير في الأدب القصصــي الأوروبي الذي لا يوازيــه كتاب قصص آخــر، بل إن تأثيره ليمتد حتى أيامنــا الحاضرة كما هو واضح في أشرطــة السينمــا ومسلســلات الرسوم الساحرة وقصص ومجلات الأطفال العالمية، وصــارت شخصيات ألف ليلة مثل السندباد وعلاء الديــن وحكايات علــي بابا وحلاق بغداد جزءاً من الوجدان لإنسان تلك البلاد، وقــد استمد الكثير من الأدباء والشعراء من ألف ليلة وليلــة في أعمالهم، بل إن بعضهم بنى على أساس هذه الليالي أعماله واستمد منها الطبيعة والروح وتعلم الكثير من الأداء، وللشاعر «تينيسون» قصيدة بعنوان ذكريات ألف ليلة وليلة، ويرى العقاد أن بوكاشيو في حكايــات الديكاميرون التي تعتــبر تأسيساً للقصة الأوروبية ما هي إلا أثر من آثار ألف ليلة وليلة، كما وكانت «حي بن يقظان» لابن طفيل تأسيساً للروايــة الفلسفية والنفسية في مراحلها الأولى، وقــد أرسلت هي أيضاً موجة من أدب الجزيرة التي لاشك أن قصة «روبنسون كروزو» إنها هي إحدى ثماره.

ونتساءل هنا لمــاذا لم يكن ما أخذته عنا أوروبــة استلابــاً ثقافياً؟.. لقــد نهلت من ينابيــع الثقافة العربية فكــراً وفناً وعلوماً تطبيقية وأروت ظماً امتد عدداً من القرون للمعرفــة التي كانت في حــوزة العرب دون أن يكــون ذلك مــن موقع القــوة الذي كان للعرب عندمــا اقتبسوا حضارات الآخرين، فلمــاذا إذا لم يكــن موقــف أوروبــة تبعية ثقافية؟.. الدارسون لتلــك الحقبة يوردون أمثلة لأصوات كانت ترتفع تبدي احتجاجها الشديد من هذا الاقتباســ وتنذر بالخطر الذي يتهــدد الحياة الثقافيــة لديهم، مثل آراء «ألفــارو» الإسباني الــذي أبدى أسفه لما رآه من ولــوع بالآداب العربية قائلاً: «إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقــروا اللاتينية وجعلوا يكتبون

لغـة قاهريهم دون غيرهـم». ومعاصر آخر لنفسـ الكاتب يقول «وا أسفـاه، إن الجيل الناشئ مـن الأوروبيين الأذكياء لا يحسنون أدباً ولغة غير الأدب العربي واللغة العربية، إنهم ليلتهمون كتب العـرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ويترنمون في كل مـكان بالثناء على الذخائر العربية، وفي حين يسمعون بالكتب الأوروبية فيأنفون من الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤنة الالتفات».

ولعل هذه الأصوات المنذرة والمحذرة من خطـر الثقافة العربية لـو وجدت في ذلك الوقـت آذاناً صاغيـة لضاعت على الغرب فرصتهم التاريخية في تحقيق عصر النهضة. إن اقتباسهم من العرب (تبعية ثقافية لأنهم لم يكتفوا بالنقل، وإنمـا اجتهدوا في تطوير ما نقلوه، إنهم -وبحسب آراء بعض الباحثين الغرب- لم يقنعوا بعد مرحلة التعرف بإدراك العلـوم المنقولة في الكتب، بـل أقدموا على انتقادها وتنقيحها وتوسيعها والزيادة عليها، وبذلك بدأ تطـور العلوم بالغرب. لقد أثمر هذا الاتصـال الغربي بالحضـارة العربية نتائجه سريعاً وتحقـق للغربيين الهدف من التلقيح الذي أرادوه لثقافتهم، ومن بعد بدأ الغـرب يوقد مصابيحـه ويخرج من كهوف القـرون الوسطـى التي كانـت عهد ظلام بالنسبة إليهم، وبدأت مشاعل العرب تنطفئ واحداً وراء الآخر وبدلاً من أن يحقق العرب إضافة إلى إنجازاتهم العلمية والفكرية بدؤوا يفقدون سيطرتهم، وبدأت مرحلة الانحسار الحضـاري وبدأ الركود الثقـافي يعم العالم العربـي، وبدلاً من الانشغال بتطوير الفنون والعلـوم انشغل الناسـ برد أفـواج الغزاة والمعتديـن ومع سقـوط الخلافة في بغداد، والتمزق الذي بدأ يطرأ على الحكم العربي في بلاد الأندلس ومع مجيء الغزوات التتارية بدأت تدريجياً موجـة التقهقر الحضاري، وبرغم العلامات التي كانت تضيء أثناء ذلك أو خروج عالم قادر على كشف أسباب انهيار الأمم وسقوطها مثل ابن خلدون، برغم ذلك فقد أخـذ التاريخ مساراً مختلفـاً بالنسبة للعرب لم يكن في صالح حضارتهم ووجودهم كأمـة واحدة، ومع نهايـة الحكم العربي في إسبانيـا ١٤٩٢م وبسط الهيمنـة العثمانية انتهت الدولة التي أقامها العرب، فقد أعلن السلطان سليم نفسـه خليفة على المسلمين وقام العرب بتسليمه مفاتيح الكعبة.

ومن جديد بدأت حركة الاتصال المباشر بالفكر العربي والغرب الأوروبي عندما أراد محمد علي بناء دولة عصرية في مصر، وكان ضمن البعثـات التي أرسلهـا لتلقي العلوم من الغرب الشيخ رفاعـة الطهطاوي الذي

سافــر إلى باريس عام ١٨٣٦ ليلتقي بالفكر الذي أسهم في الثــورة الفرنسية مثل العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، وقرأ مؤلفات فولتــير وراسين وترجــم لأدبــاء فرنسيين وتعرف إلى نظريــات التربية والعلوم هناك وعاد لتكــون دعوتــه الرائــدة إلى التعليم وإلحاحه على إلزاميته في المرحلة الابتدائية برغم مــا في نظريته من تأثير سلبي ببعض جوانب المجتمع الأوروبــي البرجوازي، مثل اقتصار التعليم في رأيه على أصحاب الثروة واليسر، وكان العصــر الجديد قد دخل إلى المنطقــة العربية بتحولاتــه الصناعية التي كانت المطبعة إحدى أهم إنجازاته، فصدرت في ذلك العصر بعض الصحف مثل الوقائع المصريــة عــام ١٨٢٨ وفي سوريــة صدرت حديقة الأخبار وفي تونس الرائد وفي لبنان جريــدة لبنان وفي ليبيا طرابلس الغرب وفي الجزائر المبشر.

وقــد انقسم الأعــلام والمفكرون العرب في تلك الفترة إلى تيارين، الأول كان منبهراً بثقافــة الغرب الأوروبي ودعــا إلى ضرورة الاحتــكاك بها، وأنهم بحاجــة إلى المعارف والعلــوم التي جاءت من ذلــك الغرب، وقد أنشــأ بعضهم علاقات مــع بعض المفكرين الغربيين المناصرين لقضاياهم وتعرفوا على تيارات إنسانية في الثقافة الغربية ذاتها، وأما التيار الآخر كان يرفضــ كل ألوان الثقافة الأوروبية ويطالب بالتقوقع والانكفاء ويقوم علــى تقديس التراث ويزهو أتباعه بالماضي ويريدون نقله إلى الحاضر، وإذا كان الموقف الأول استلابــاً وتبعيــة فــإن الموقف الآخر الذي تحركه عقدة الخــوف برغم ما يبدو في ظاهره من حرصــ على الانتماء للتراث الثقافي العربي، إلا أنه ينطوي على استهانة بإمكانيات الثقافات العربية وما تحتويه من قوة قادرة علــى استيعاب العناصر الجديدة وتمثلها وهضمها دون أن تصاب بالاختناق.

ولكن كلا التياريــن كان رد فعل طبيعي لظروف الهيمنة والاستــلاب والعدوان، ولم تكن الأمة في مناخ نفسي يسمح بأن تشارك تلك الطلائع من المفكرين آراءها وأفكارها، فقد كانت جموع الناس مشغولة بدفع الأذى عن نفسها وحمل السلاح لمقارعة الاستعمار، ونتيجة لتصعيد معــارك النضال والتحرير ضد قوى الاستعمــار في الوطن العربي وما قدمته الشعوب مــن تضحيات بدأت موجة الاستعمار تنحسر تدريجيــاً وبدأ المستعمر يعلــن تراجعه عن هــذه البلــدان ويعترف بهزيمتــه وينسحب بشكلــه العسكري، وإن حاول أن يبقي بنفوذه السياسي وهيمنته على مقدرات تلك البلاد الاقتصادية والثقافية، وبرغم المحاولات المستمــرة لعودته متنكراً

وبأقنعــة جديدة فإن آفاقــاً رحبة للمعركة الثقافية قــد فتحت فرصاً للحــوار نشأت على أســس جديدة وبشــروط جديدة لهذا التبادل الذي طرأ علــى العلاقة بيننا وبين دول الاستعمار القديم.

ولابد مــن الانتباه هنــا إلى أن الثقافة العربيــة ورغم الظروف التــي مرت بالعالم العربي فقــد حققت لنفسها انتصاراً كبيراً، وفي حين يقدم لنا التاريخ الكثير من الشواهد عن أمم خرجــت من كابوس الاستعمار بعد أن فقــدت شخصيتها المتميــزة ونسيت إلى الأبــد لغاتها، فإن اللغــة العربية ظلت هي لســان أبناء الأمة العربيــة تحتفظ بقرائها وزخمهــا وقدرتهــا على الحركــة والتجدد ومواكبــة للعصــر، وعندما تطــرح قضية التواصــل الثقافي اليوم بــلا شك تطرح في مناخ يختلف عن مناخ مــا قبل خمسينيات القرن الماضي، إنهــا تطرح وحركة النضال العربــي قد كسبت مواقــع جديدة وحققت انتصارات كبــيرة، وطوق الجهالة الذي كان مضروباً على أبنــاء الأمة العربية قد تكسر بعد أن اتسعت فرص التعليم وارتفع المستوى المعيشي لإنســان المنطقة. إن الواقع العربي وبرغــم سلبيــات التمزق الإقليمــي وتبعية بعض البلدان العربيــة لقوى الهيمنة ورغم أن الاستعمــار لايزال يحتفــظ بقاعدته في قلب الوطــن العربي (إسرائيــل)، فإن هذا الواقع حقــق تقدماً كبيراً في العقود الثلاثة الأخيرة مما نتج عنه خلق مناخ جديد لمسألة الاتصال الثقافي، وإن الثقافة العربية وهي تذهب إلى هذا الاتصال إنما تذهب محملة برسالة ترى أنها مؤهلة لكي تؤديها ولتأكيد مبــادئ ثابتة هــي أســاس وجودها، وهي عندمــا تنشئ هذا الحــوار إنما تعمل ذلك بهدى من قيم ثابتــة في ميراثها الحضاري والإنسان الذي كان محصلة لأفكار وثقافات وأجنــاس عديــدة انصهــرت في أتون هذه الثقافة إبان توهجها وإشعاعها دون تعصب أو عنصرية، بلا ضغائن أو أحقاد، إنما بروح العدل والمحبة والمساواة والعمل المشترك بين الناس.

آفاق المعرفة



التأصيل الثقافي للاغتصاب الصهيوني للقدس وسائر فلسطين

د. خير الدين عبد الرحمن ❋

لقد قام المشروع الصهيوني لاستعمار فلسطين على قاعدة تهجير أكبر عدد ممكن من يهود العالم الذين يتم تجميعهم من نحو تسعين دولة مختلفة إلى فلسطين، وتم استخدام عدة ركائز رئيسة لتنفيذ المشروع. من هذه الركائز إقناع اليهود الذين ينتمون إلى عشرات القوميات والمجتمعات والثقافات والجذور المختلفة في شتى القارات بأنهم يشكّلون شعباً واحداً، من الفلاشا في إثيوبيا إلى الخزر في القوقاز وحوض قزوين، ومن التاميل في

❋ باحث وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

جنوب الهند إلى السلاف والفايكنغ في شمال أوروبة، ومن اليهود اليمنيين في جنوب شبه الجزيرة العربية إلي يهود شمال أفريقيا الذين نزح معظمهم من إسبانيا هاربين من قمع التعصب المسيحي عقب سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس، على الرغم من اختلاف ألوانهم وانتماءاتهم الحضارية ولغاتهم وثقافاتهم. كان الزعم الذي محوره مقولة تشكيل يهود العالم شعباً واحداً يناقض الأفكار والأسس والمفاهيم التي قامت على أساسها الدولة القومية والانتماءات الوطنية في أوروبة، ثم انتقلت منها إلى سائر أنحاء العالم. لكن توافق المشروع الصهيوني مع مصالح الحركة الاستعمارية الأوروبية التي بلغت أوج قوتها وامتدادها فيما وراء البحار آنذاك قد سهل لسدنة الدول الاستعمارية تجاوز منطلقاتهم الفلسفية والنظرية في هذا الصدد. وفي المقابل عمل مشروع الغزو الصهيوني على تدمير البنية الثقافية والمجتمعية والاقتصادية للشعب الفلسطيني، ولأهل القدس وما حولها بشكل خاص، لاقتلاع أكبر عدد منهم وتشريدهم في المنافي من ناحية، وافتعال وتغذية حالة نكوص رسمي عربي حتى عن الالتزام اللفظي والعاطفي تجاه فلسطين، أرضاً وشعباً وقضية ومصيراً، بعد طول تأكيد منذ نحو قرن بأنها قضية العرب المركزية، وبعد أيمان مغلظة وعهود مكررة وأناشيد وخطابات وقرارات لا تحصى منذ اغتصاب أربعة أخماس أرضها سنة ١٩٤٨بأن تحريرها هدف لا يعلو عليه أي هدف آخر، من ناحية ثانية!

ركيزة رئيسة أخرى استند إليها المشروع الصهيوني لاستعمار فلسطين هي إقناع التجمعات اليهودية المختلفة في شتى الدول بارتباطهم بفلسطين. وقد استخدم المشروع الصهيوني لهذا الغرض وسائل مختلفة مثل تفسيرات مفتعلة لنصوص دينية وخرافات تلمودية وتحوير وتزييف عدة أساطير توراتية لاستثارة حماس يهود العالم البسطاء ودفعهم للهجرة إلى فلسطين، وتمت قولبة أكاذيب جرى تقديمها وكأنها تاريخ موثق، كما جرى نشر فرية أن فلسطين أرض بلا شعب يستحقها الشعب الذي بلا أرض، بما في هذه الكذبة من إلغاء لوجود مليون فلسطيني آنذاك،عاشوا على أرض فلسطين وعمروها منذ أقدم العصور. استخدم مشروع الاستيطان الاستعماري الصهيوني في فلسطين الغواية المادية أيضا وإثارة طمع اليهود بحياة رغيدة آمنة سهلة في فلسطين،

جنباً إلى جنب مع استخدامه الضغط وتضييق الخناق على تجمعات يهودية في دول عديدة لإقناعها بأن خلاصها من امتهان المجتمعات الأخرى لها كامن في هجرتها إلى فلسطين. وقد تمّ افتعال إثارة الذعر في المعازل اليهودية بترتيب عمليات إرهابية ضدها، مثلما حدث في تفجير كنيس يهودي في بغداد بأيدي عملاء أرسلتهم القيادة الصهيونية في فلسطين، لكي لا يبقى أمام يهود تلك التجمعات خيار آخر غير الهجرة إلى فلسطين والالتحاق بالمشروع الصهيوني الاستعماري فيها. كما ثبت تواطؤ قادة المشروع الصهيوني مع أشد السلطات عداء لليهود لتضييق الخناق عليهم واعتقال وقتل آلاف منهم ليفر الآخرون إلى فلسطين، فقد افتضح العديد من وقائع ووثائق التنسيق السري بين قيادات صهيونية والسلطات النازية في ألمانيا، وهذا ما أكدته اعترافات عدد من المسؤولين الصهاينة، حيث أن «الهجرة والاستيطان هما، كما هو معروف ركنان رئيسان في الفكر والممارسة الصهيونيين، وبدونهما لا تقوم قائمة للمشروع الصهيوني» (١).

كان تزايد أعداد يهود شرق أوروبة – وخاصة بولندا وروسيا – في أعقاب اعتناق ملك الخزر الديانة اليهودية وأمره شعبه الوثني بالدخول الجماعي في هذه الديانة قد أدى إلى عدة تحولات هامة متوالدة على الصعيد الأوروبي. كانت قبائل الخزر في عداء مرير طويل الأمد مع الروس قبل تحول الخزر من الوثنية إلى اليهودية لأسباب وظروف لا تزال غامضة. ربما لا أحد يعلم سوى بعض اليهود «لماذا أقدمت الطبقة الحاكمة للطائفة اليهودية على السماح لهذا الكم الهائل من القبائل الخزرية الوثنية بالدخول في اليهودية التلمودية منذ ثلاثة عشر قرناً، وهذه حادثة فريدة في التاريخ فعلا»، كما كتب الكاتب البريطاني دوغلاس ريد قبل نحو خمسين سنة (٢).

هل جاء هذا الإدخال الجماعي لقبائل وثنية متوحشة في اليهودية التلمودية رد فعل قرره حكماء صهيون لاستخدام تلك القبائل المحاربة صعبة المراس في مواجهة اتساع الدولة العربية الإسلامية التي امتد سلطانها إلى تخوم الصين شرقاً، وضواحي موسكو شمالاً آنذاك، إضافة إلى مواجهة الكنيسة الروسية، بجحافل الخزر الشرسة التي تتقن التخريب والإفساد؟

كانت الحكومة التلمودية الخفية تقود قبائل الخزر منذ سقوط دولة الخزر حوالي



العام ١٠٠٠ م، بحيث صار صراعها مع الروس صراع شريعة تلمودية ضد شريعة مسيحية. وقد نزح معظم الخزر تباعاً إلى روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء وليتوانيا وبولندا، ثم بدأ تدفقهم مهاجرين إلى غرب أوروبة، بعدما تضاعف عددهم خمسة أضعاف منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين، فبات الفائض البشري اليهودي الذي يرفض معظمه الاندماج في المجتمعات التي يلجأ للعيش بينها قضية أساسية تؤرق المجتمعات الأوروبية التي راحت دولها تسعى إلى تحويل مسار هجرة اليهود إلى خارج أوروبة. هكذا ظهرت مشاريع لتوطين اليهود في الأرجنتين وموزمبيق وأوغندا وسيلان. في هذه الظروف تم عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال السويسرية سنة ١٨٩٧، وأقر برنامجا لاستعمار فلسطين سمي برنامج بال، وقد قرر بوضوح أن «غاية الصهيونية هي خلق وطن للشعب اليهودي» وحدد وسائل تحقيق هذه الغاية:

١- العمل على استعمار فلسطين بوساطة العمال الزراعيين والصناعيين اليهود..

٢ - تنظيم اليهودية العالمية وربطها بوساطة منظمات محلية ودولية..

٣- تقوية الشعور والوعي القومي اليهودي وتغذيته..

٤- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق غاية الصهيونية..[٣].

أصدرت الحكومة البريطانية برئاسة اللورد بلفور قانون الغرباء Alien Act في العام١٩٠٥ لمنع دخول المهاجرين إلى بريطانيا، وكان واضحاً أن المهاجرين المقصودين هم اليهود. وعندما ارتأت مواقع رسم الاستراتيجيات البريطانية أن قناة السويس، التي تمّ افتتاحها قبل سنوات قليلة فأحدثت ثورة اقتصادية في أوروبة نتيجة اختصارها الهائل طرق وتكاليف النقل البحري، تحتاج إلى حماية عسكرية قوية دائمة في جوارها، وهي حاجة عززها بدء اكتشاف ثروات نفطية هائلة في العراق وإيران والجزيرة العربية، تم التوافق على تحويل الدفق البشري اليهودي القادم من شرق أوروبة إلى فلسطين ليمارس وظيفة عسكرية استراتيجية محورها حماية المصالح الأوروبية في قناة السويس والنفط. قال جورج كليمنصو، رئيس الحكومة الفرنسية، في تلك الفترة إن قطرة من النفط أثمن من قطرة دم، لأنه عصب الصناعة والحضارة الأوروبية. تبدو المفارقة صارخة هنا، إذ إن بلفور نفسه، الذي أصدرت حكومته قانون الغرباء لوقف تدفق اليهود إلى بريطانيا، أصدر يوم ٢/١١/ ١٩١٧ - وهو وزير خارجية بريطانيا آنذاك -تصريحاً اشتهر باسمه تعهد فيه نيابة عن بريطانيا بتمكين اليهود من إقامة «وطن قومي لهم في فلسطين»، بعد سنة من توقيع مارك سايكس وجورج بيكو، نيابة عن الحكومتين البريطانية والفرنسية، اتفاقية قضت بتمزيق الجزء العربي من الإمبراطورية العثمانية -وخاصة مشرقه- إلى دويلات مفتعلة تتقاسمها بريطانيا وفرنسا.

هناك ركيزة رئيسة أخرى للمشروع الصهيوني، تنبثق من افتعال وحدة يهود العالم شعبا، وتهجيرهم إلى فلسطين بالغواية أو الإرغام، هي استيعاب المهاجرين في مستوطنات يهودية صرف يتم بناؤها في مواقع استراتيجية مدروسة بعناية، ويراعى لدى تصميمها وبنائها أن تكون أشبه بالحصون التي يسهل الدفاع عنها عسكرياً، ويسهل الانطلاق منها لمهاجمة مناطق مجاورة والسيطرة عليها. كرر دافيد بن غوريون، أبرز قادة مشروع الاغتصاب الصهيوني فلسطين وتحويلها إلى دولة يهودية، الذي أعلن بنفسه قيام تلك الدولة ليلة ١٥/٥/١٩٤٥ وكان أول رئيس لحكومتها، أن عوامل نجاح المشروع الصهيوني هي الأمن والهجرة والاستقلال الاقتصادي. وقد جاء في مذكرة كتبها بن غوريون في العام ١٩١٥

قوله «إن الأرض ستكون أرضنا عندما يصبح عمالها ومحاربوها من صفوفنا.. إن الغزو الحقيقي للأرض بوساطة العمل هو الواجب السامي».(٤)

ولئن شدد بن غوريون على تزاوج المحراث والبندقية إبرازاً لعسكرة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، إذ اشتهر بقول كرره كثيراً: «تقف حدود إسرائيل حيث تصل أقدام جنودها ومحاريث مستوطنيها». على نفس النحو قالت غولدا مائير، تلميذته وخليفته في رئاسة الحكومة الإسرائيلية:

«تقف حدودنا حيث يعيش اليهود وليست حيث توجد خطوط على الخارطة»(٥).

لعب تطبيق السياسة الاستيطانية دوراً هاماً في استجلاب مزيد من المهاجرين اليهود، وفي زيادة تكريس السيطرة الصهيونية على فلسطين وتحكمها بالمفاصل الاستراتيجية والحياة الاقتصادية والتوزع الديموغرافي. ولئن بدأ الاستيطان الصهيوني في مناطق الجليل، أي الجزء الشمالي من فلسطين، حيث الأرض الزراعية الخصبة والتنوع المناخي في مساحة ضيقة بين غور دافئ عند منابع نهر الأردن وروافده ومساره عبر بحيرة طبريا إلى البحر الميت شرقاً، وسهول تحدها جبال شاهقة في الشمال، وساحل البحر الأبيض المتوسط حيث على امتداده موانئ عريقة هامة غرباً: عكا وحيفا ويافا، وصولاً إلى المجدل وغزة في جنوب الساحل الفلسطيني. ثم تركز الاستيطان في مثلث استراتيجي ضمّ تجمعاً صناعياً ضخماً تشكل الصناعات الحربية جزءاً هاماً منه، فيما بين حيفا ويافا وتخوم القدس، ثم قامت بؤر استيطانية متفرقة في بئر السبع وبعض مناطق النقب، حيث أقيم لاحقاً مفاعل ديمونا النووي. لكن التركيز الاستيطاني الأكبر في السنوات الأخيرة التي سبقت إقامة إسرائيل في العام ١٩٤٨على أربعة أخماس أرض فلسطين قد اتجه نحو القدس، استثماراً لجاذبيتها الدينية.

كانت سلطات الانتداب البريطاني على فلسطين على امتداد العقود الثلاثة التي سبقت إعلان إقامة إسرائيل تحمي هجرة اليهود وتسهل استيعابهم في مستوطنات أو مزارع جماعية يهودية. وقد تميز تعاملها الناعم والإيجابي مع المهاجرين اليهود القادمين من أوروبة عن تعاملها العدواني والقمعي مع أهل البلاد الأصليين، الفلسطينيين العرب. كما تمّ ترتيب استلام يهود بريطانيين المناصب الإدارية والأمنية والقضائية الحساسة في إدارة الانتداب

البريطاني على فلسطين، بدءاً من تعيين هربرت صموئيل أول مندوب سام بريطاني حكم فلسطين باسم التاج البريطاني وبتفويض من عصبة الأمم. قدم هؤلاء اليهود من أصحاب السلطة بفعل نفوذهم وصفتهم الشخصية مزيداً من الحماية والدعم والسلاح والتدريب للمستوطنين الذين راحوا ينتظمون في منظمات سرية، مما كان يصعب على سلطات الانتداب المجاهرة بتقديمه للاستيطان اليهودي المسلح جهراً ورسمياً». لقد ركزت كل الإجراءات البريطانية المجسدة للتوجه الرسمي خلال فترة الانتداب على دعم المشروع الاستيطاني الصهيوني على ثلاثة صعد: تسهيل الهجرة اليهودية، والتضييق على الفلاحين الفلسطينيين، ومنح الامتيازات الكبرى لليهود الصهاينة[٦].

في ظل صدمة العرب وذهولهم إزاء هزيمة الجيوش العربية الشكلية التي دخلت فلسطين يوم ١٩٤٨/٥/١٥ لمنع تكريس الاغتصاب الصهيوني لها بإقامة دولة يهودية على أرضها، في مقابل فرحة عارمة عمت الأوساط الصهيونية في العالم، عملت الحركة الصهيونية على تكثيف الهجرة اليهودية للاستيطان في فلسطين التي تم تهجير غالبية شعبها إلى المنافي آنذاك. لكن الاستجابة اليهودية كانت ضعيفة لنداء الهجرة، على الرغم من الانتصار الصهيوني العسكري على الدول العربية المجاورة، وتركزت الهجرة اليهودية آنذاك في صفوف يهود البلدان العربية الذين تدفقوا على فلسطين المحتلة، استجابة لدعوات القيادة الصهيونية الملحة من ناحية، وللنجاة من انتقام الشعوب العربية الغاضبة من ناحية أخرى. أما غالبية التجمعات اليهودية في أوروبة الغربية والولايات المتحدة الأمريكية فقد اكتفت بتقديم التبرعات المالية والخدمات الاستخبارية والدعم السياسي للدولة اليهودية الوليدة، دون المجازفة بالهجرة، تخوفاً من استئناف الحرب وانتصار العرب فيها.

مع الهزيمة العربية اللاحقة في ١٩٦٧/٦/٥، دخل الاستيطان الصهيوني في القدس وما حولها مرحلة حاسمة، حيث احتلت القوات الإسرائيلية في تلك الحرب بسهولة بالغة الجزء الشرقي من القدس الذي يضم المدينة التاريخية القديمة بمقدساتها الإسلامية والمسيحية: المسجد الأقصى، ومسجد عمر حيث قبة الصخرة، وكنيسة القيامة. وسرعان ما قررت إسرائيل

ضم القدس الشرقية إلى الحي الغربي من المدينة الذي كانت القوات الصهيونية قد احتلته في العام ١٩٤٨ ووسعته منذ ذلك الحين ليتحول الحي إلى مدينة بذاته.

سرعان ما بات الهدف سافرا من استقدام أكثر من مليون مهاجر من الاتحاد السوفييتي السابق، عندما أسفرت الضغوط الأمريكية الشديدة عن فتح الاتحاد السوفييتي أبواب الهجرة أمام اليهود، بينما منعت الولايات المتحدة دخولهم إلى أرضها كي ترغمهم على التوجه إلى فلسطين المحتلة. انضم اليهود السوفييت إلى نحو مليون يهودي آخرين جاؤوا من بلدان العالم المختلفة بأساليب شتى للاستيطان في الأراضي الفلسطينية التي احتلتها القوات الإسرائيلية في العالم ١٩٦٧، فاستكملت بهذا احتلال الوطن الفلسطيني كله. قال د. اليشا افرات، أستاذ الجغرافية في جامعة تل أبيب إن الهدف من ترتيب الهجمات الاستيطانية الصهيونية المتلاحقة هو الاستعمار ببساطة، أي «فرض مجتمع حكمه على مجتمع آخر في الحيز الجغرافي ذاته، بحيث يتمتع الأول باحتكار تام للسلطة السياسية والعسكرية وبنصيب من الموارد الاقتصادية يفوق، إلى حد بعيد، نسبته العددية» (٧).

لكن أحلام مخططي الاستيطان وطموحاتهم كثيراً ما اصطدمت بواقع أنهم يغتصبون أرض شعب آخر لن يكف عن مقاومتهم والسعي لتحرير وطنه. صرح سالاي ميريدور مثلا، رئيس الوكالة اليهودية- المؤسسة المكلفة تهجير اليهود من شتى أنحاء العالم إلى فلسطين، أنه بدأ يغيّر آراءه بخصوص فكرة إسرائيل الكبرى، لأن هناك تهديداً ديموغرافياً داخل إسرائيل (أي الجزء المغتصب من فلسطين سنة ١٩٤٨)، فتزايد عدد غير اليهود يهدد مقدرة إسرائيل على التحكم بالأراضي التي احتلتها سنة ١٩٦٧، «وهذا يؤثر دون شك على سياستنا بخصوص الحدود»(٨). قبل ذلك، أكدت دراسة إسرائيلية، شأن دراسات عديدة مماثلة، أن ٢٢ ٪ من الإسرائيليين في سن ١٨- ٣٥ يفكرون في الهجرة إلى بلدان أخرى، وخاصة إلى الولايات المتحدة (٩)، وهذه نسبة تضاعفت بعد تداعيات هزيمة الجيش الإسرائيلي في صيف ٢٠٠٦ وما تلاه من افتضاح خواء المؤسسة السياسية وخلل المؤسسة العسكرية وتفاقم الأمراض البنيوية في مجتمع الغزو الاغتصابي الصهيوني. يلحق الهاربون الصهاينة من فلسطين حالياً بما يقارب المليون الذين

نزحوا نهائياً واستقروا في بلدان أخرى، نتيجة صعوبة الاندماج بين مستوطنين يحملون «ثقافات وعادات وسمات قومية وحضارية متباينة إلى أقصى حد، بجانب انعدام المساواة وشيوع التفرقة بين الطوائف اليهودية، ومشاكل الجهل بالدين اليهودي التي تواجه المهاجرين.. إن ظاهرة النزوح المتفاقمة من إسرائيل تشكل على مستوى الممارسة – ضربة في الصميم لمقدرات المشروع الصهيوني العسكرية..».[10]

وقد شدد المفكر المصري المرحوم د.عبد الوهاب المسيري، مؤلف «الموسوعة الصهيونية» على أن المستوطنين في الضفة الغربية وغزة ليسوا هناك كما يتوهم البعض «دفاعاً عن الأيديولوجية الصهيونية والحلم اليهودي بالعودة إلى أرض الميعاد، وأنهم يقفون دفاعا عن الأرض التي استولوا عليها يمسكون السلاح بيد والمحراث بالأخرى، وهي الصورة التي يروجها الصهاينة عن أنفسهم ليبثوا الرعب في نفوسنا وحتى يبينوا للعالم مدى صلابتهم في دفاعهم عن أحلامهم وعن حقوقهم. لكن هذه الصورة لا علاقة لها بالواقع، فقد تآكلت الأيديولوجية الصهيونية، وحدثت تحولات عميقة في التجمع الصهيوني.. المستوطن الصهيوني هو إنسان مستهلك وأن ما يهمه هو الربح المادي.. وقد نشرت بعض الصحف الإسرائيلية أنه بعد الانسحاب من سيناء قام بعض الصهاينة بالاستيطان في غزة والضفة الغربية وهم يعرفون جيداً أن الحكومة ستقوم بإخلائهم يوما ما، وستكون ملزمة بدفع تعويضات لهم. أي أنهم استوطنوا كي يحصلوا على تعويضات الإخلاء في المستقبل النقدي الوردي»[11].كما كتب لاحقاً يؤكد أن الدافع الأيديولوجي (العقائدي) للاستيطان في فلسطين قد تراجع وتلاشى وحلت محله الرغبة في الحراك الاجتماعي. وهذا واضح في حالة أغلبية المهاجرين من الاتحاد السوفييتي السابق، الذين يشكلون أكبر مجموعة متجانسة من المستوطنين اليهود في فلسطين، حيث لا يؤمنون بالصهيونية أو بعقيدة أخرى، ولا توجد عندهم هوية يهودية واضحة، فهم جماعة بشرية فقدت الهوية والقيم بعد عشرات السنوات من الدعاية الإلحادية في الاتحاد السوفييتي السابق. وقد استشهد بقول الرئيس السابق لقسم الاستيعاب في الوكالة اليهودية، يوري جوردون، الذي كان مسؤولاً عن توطين اليهود السوفييت، قوله إن كثيراً من هؤلاء جاؤوا صاغرين إلى «أرض الميعاد»

لا يحملون في قلوبهم أي تطلع لصهيون أو أي حب لها، «فهم لا يريدون سماع أي شيء عنها». بل إن بعضهم ادعى اليهودية ليحصل على الدعم المالي. ونقل المسيري عن وزير الداخلية الإسرائيلي السابق أرييه درعي، الذي حكم عليه بالسجن بتهمة الفساد وابتزاز أموال حكومية لمصلحة حزبه الديني «شاس»، تصويره الدقيق لوضع هؤلاء «المستوطنين المرتزقة» إذ قال إنهم بعد وصولهم مباشرة ستجدهم جالسين على حقائب السفر انتظارا لتأشيرات تسمح لهم بالسفر إلى دول أخرى. كما نقل وصف كاتب إسرائيلي لهم بالهاربين من الاتحاد السوفييتي وليسوا مهاجرين إلى إسرائيل، ووصفهم آخر بالمهاجرين الاقتصاديين، ووصفتهم عالمة النفس في الجامعة العبرية جوليا ميرسيكي بأنهم لاجئين وليسوا مهاجرين، كما وصفهم الصحفي الإسرائيلي كارل شراج في صحيفة جيروزالم بوست بأنهم مستوطنون بالإكراه، رغم أنفهم. لا يقتصر الأمر على اليهود وغير اليهود الذين تدفقوا من الاتحاد السوفييتي السابق، وإنما ينطبق على عشرات الآلاف من اليهود الأمريكيين المسنين الذين يقررون الهجرة إلى إسرائيل والاستيطان فيها حينما يصلون إلى سن التقاعد لأنهم يمكن أن يعيشوا حياة مترفة على معاشاتهم الصغيرة، إذ تظل الأسعار أرخص منها في الولايات المتحدة (فكأن إسرائيل هي بيت المسنين). خلص المسيري إلى تشبيه موجات المستوطنين الصهاينة الجديد بالجنود المرتزقة الذين لا يؤمنون بمثاليات، بل يقاتلون بالنيابة عن الذين يجزلون لهم العطاء، وسأل: «أليس هذا هو دور الدولة الصهيونية أيضا، التي يصب فيها الدعم الغربي بلا حساب حتى تقوم بدورها كقاعدة للمصالح الغربية بوجه عام، والأمريكية على وجه الخصوص؟»(١٢).

لا يكتمل البحث في الهجمة الاستيطانية الصهيونية الراهنة في القدس وحولها، استكمالا للاغتصاب الصهيوني لفلسطين بأسرها، بغير نظرة سريعة إلى موقف القانون الدولي والشرعية الدولية منها، حتى بعدما اتضح أن مشروع الغزو الاستيطاني الصهيوني لفلسطين ينتهك القانون الدولي منذ بدايته وعلى امتداد تنفيذه. ولن نعود إلى الجذور في هذا المقام، على الرغم من أنه لا يجوز التغافل عنها، كما نتجاوز البحث مجدداً في (حق) مهاجرين من شتى أنحاء العالم في التحالف مع دول كبرى لاغتصاب وطن وارتكاب مجازر جماعية لأهله وتشريد

معظم شعبه وتدمير نحو خمسمئة بلدة وقرية فيه ومحوها تماماً من الوجود، لإقامة دولة عنصرية عدوانية توسعية لهؤلاء المهاجرين في ذلك الوطن. ونتجاوز كذلك البحث في (حق) بريطانيا في تمزيق الوطن العربي والأمة العربية بالاشتراك مع فرنسا إلى اثنتين وعشرين دولة وزرع بذور التنافر المفتعل بين هذه المزق ألغاماً موقوتة يفجرها زارعوها من واشنطن ولندن وباريس متى شاؤوا. نتجاوز أيضاً البحث في (حق) بريطانيا أيضاً في التبرع بفلسطين ليهود من عشرات الدول جرى تهجيرهم إليها بحماية عسكرية وسياسية بريطانية وبدعم أوروبي وأمريكي، وصولاً إلى تسليحهم بترسانة نووية ليهيمنوا على المنطقة ويخضعوها لمصلحة الدول التي تنهب ثرواتها، وليعزلوا عرب آسيا عن عرب أفريقيا. ونتجاوز البحث في (حق) الولايات المتحدة الأمريكية في انتهاج نفس هذا النهج الذي يستبيح أمتنا وأرضنا وقيمنا وثرواتنا ومصيرنا، ويدعم الغزو الصهيوني ويمنحه حصانة وحماية من المساءلة القانونية مهما ارتكب من جرائم، ويمنع الضحايا من ممارسة الحق الطبيعي في الدفاع عن النفس والوطن والمصير. نتجاوز البحث في ممارسة الولايات المتحدة الضغوط على وفود العديد من الدول في الأمم المتحدة لإرغامها على التصويت خلافا لقناعتها لصالح تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية في العام ١٩٤٨، ثم (حق) الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا في إصدار البيان الثلاثي -عقب إعلان إقامة دولة إسرائيل واستيلائها سريعاً بالقوة على أكثر من نصف ما أقرته الأمم المتحدة من أرض فلسطين للدولة العربية التي لم تقم حتى اليوم- بحيث ضمنت تلك الدول في ذلك البيان وجود إسرائيل وأمنها في الأراضي التي سيطرت عليها لدى إصدار ذلك البيان! ونتجاوز أيضاً البحث في (حق) الكونغرس الأمريكي في أن يقرر مدينة ما عاصمة لدولة ما، خلافا لقرارات عديدة من الأمم المتحدة وافقت عليها الولايات المتحدة نفسها تمنع تلك الدولة من التصرف بتلك المدينة وتعتبرها أرضا محتلة، فكيف عندما تكون تلك المدينة هي القدس بما تمثل لأكثر من مليار مسلم، ومثلهم من المسيحيين. نتجاوز البحث كذلك في (حق) الإدارة الأمريكية في أن تدعم – خلافاً للقانون الدولي ولقرارات الأمم المتحدة – ضم أراض محتلة إلى الدولة التي احتلتها بالقوة بذريعة احتياجات أمنية

أو اقتصادية لتلك الدولة المعتدية، و(حق) الإدارة الأمريكية في التنصل من أحكام القانون الدولي ومن قرارات للأمم المتحدة سبق للولايات المتحدة نفسها أن صاغتها وصوتت لصالحها، مثل القرار ١٩٤ الصادر عن مجلس الأمن الدولي يوم ١٩٤٨/١٢/١١، القاضي بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وممتلكاتهم في فلسطين والتعويض عنهم لقاء ما خسروه وعانوه بسبب تهجيرهم من بلادهم، والذي نصت مادته الثامنة على أنه: «تقرر نظراً لارتباط منطقة القدس مع ديانات عالمية ثلاث، فإن هذه المنطقة بما في ذلك بلدية القدس الحالية - بموجب القرار١٨١- يجب أن تتمتع بمعاملة خاصة منفصلة عن معاملة مناطق فلسطين الأخرى». وكذلك القرار رقم ٣٠٣ للعام ١٩٤٩ الصادر عن مجلس الأمن والقاضي بتأكيد الوضع الخاص المميز لمدينة القدس بجعلها كياناً منفصلاً تحت حكم دولي خاص تديره الأمم المتحدة، وقرارات لاحقة أخرى تؤكد ما سبق. ثم أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم ٢٣٥٣ يوم ١٩٦٧/٧/٤ الذي اعتبر جميع الإجراءات الإسرائيلية لتغيير وضع مدينة القدس عقب احتلالها في الشهر السابق باطلة. وعندما أمعنت الحكومة الإسرائيلية على الفور في اتخاذ إجراءات تناقض هذا القرار وتتحداه، اتخذت الجمعية العامة قرارها رقم ٢٣٥٤ بعد عشرة أيام فقط من إصدار القرار السابق تأكيداً لأحكامه ومضمونه. ثم صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ تاريخ ١٩٦٧/١١/٢٢ لمعالجة النتائج والآثار المترتبة على حرب حزيران من ذلك العام، أو فخ الحرب الذي نصبته إسرائيل بدعم من الولايات المتحدة لمصر وسورية والأردن، والتي أسفرت عن احتلال القوات الإسرائيلية لباقي أرض فلسطين وسيناء المصرية ومرتفعات الجولان السورية.

حرصت الولايات المتحدة بالذات على صياغة قرار مجلس الأمن ذاك بشكل يحقق أكبر قدر من المكاسب لإسرائيل. مع ذلك فقد نص القرار على تأكيد قاعدة القانون الدولي القائلة بعدم جواز الاستيلاء على الأراضي بالقوة، ودعا القرار بالتالي إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من (أراض) احتلتها في تلك الحرب - وفق صيغة النص الإنكليزي لذلك القرار التي كتبها مندوب بريطانيا في الأمم المتحدة آنذاك اللورد كارادون، والى انسحابها من (الأراضي) التي احتلتها وفقا للصيغة الفرنسية من القرار. وهكذا فالقدس

القديمة وسائر أراضي الضفة الغربية وغزة هي أراض محتلة لا يجوز لقوة الاحتلال أن تغير طبيعتها، فكيف باستيراد مهاجرين ليقطنوا مدنا وقرى بنيت لهم عليها تسمى مستوطنات؟

على الرغم من كل هذه القرارات الدولية وسواها تعهد الرئيس جورج بوش الابن خطيا لرئيس الحكومة الإسرائيلية - بعد سبع وخمسين سنة من استخدام الولايات المتحدة للأمم المتحدة مطية لمنح شرعية لإقامة إسرائيل على أرض فلسطين على أساس تعهد إسرائيلي بالانصياع لميثاق الأمم المتحدة وقراراتها - بأن تدعم الولايات المتحدة وتؤيد رفض إسرائيل عودة الفلسطينيين! تماما مثلما تعهد الرئيس الأمريكي بدعم ضم إسرائيل للكتل الاستيطانية التي أقامتها بشكل غير شرعي على الأراضي الفلسطينية المحتلة، والتي دعت الأمم المتحدة إلى إزالتها باعتبارها غير شرعية وتغير الواقع الجغرافي والسكاني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي لأراض تم احتلالها بقوة الغزو والعدوان. كما كررت الولايات المتحدة دعم القمع والاغتيالات والقتل الجماعي والعقوبات الاقتصادية والجسدية الجماعية والاعتقالات الجماعية العشوائية والهدم المبرمج لعشرات الآلاف من بيوت الفلسطينيين، بما فيها بيوتهم في القدس وحولها، واقتلاع مئات آلاف الأشجار من مزارعهم وتخريب غلال تلك المزارع، بذريعة أن هذه الجرائم الإسرائيلية «دفاع مشروع عن النفس»! ومثلما ضرب الرئيس والكونغرس الأمريكي معا عرض الحائط بالتزامات الولايات المتحدة السابقة المتمثلة في عدم الاعتراف بضم إسرائيل للقدس الشرقية واعتبارها أرضا محتلة تنطبق عليها قرارات الأمم المتحدة الداعية إلى إنهاء احتلالها والانسحاب الإسرائيلي منها، وإذ بالولايات المتحدة تدعم ضم القدس المحتلة إلى إسرائيل وتعترف بها عاصمة لإسرائيل خلافاً لعشرات القرارات الصادرة من الأمم المتحدة بشأن وضع القدس. كذلك هو الأمر بالنسبة إلى «حق» الرئيس الأمريكي الحالي في إلغاء الحقوق السياسية والدينية والقانونية لنحو مليون وربع المليون من الفلسطينيين أصحاب الوطن -الذين عاشت أجيالهم لآلاف السنين في فلسطين قبل بدء الغزو الصهيوني الاستيطاني، ونجوا من التشريد الصهيوني لمعظم شعبهم فظلوا يعيشون في وطنهم بعد اغتصابه في العام ١٩٤٨ - بتعهده نيابة عن الولايات

المتحدة المحافظة على إسرائيل دولة يهودية، متجاهلا أن أكثر من ربع سكانها، سواء الذين فرضت جنسيتها عليهم لسلخهم عن انتمائهم العربي الفلسطيني، أو المسيحيين وسواهم ممن جاؤوا من الاتحاد السوفييتي السابق ومن بلدان أفريقية وآسيوية للارتزاق مخفين ديانتهم الحقيقية..

نتجاوز البحث مفصلاً في كل ما سبق وسواه، دون رضوخ لثقافة (حق القوة والاغتصاب والإرغام) الذي تمثله قاعدة راسخة رئيسة في السلوك التقليدي والتكوين البنيوي والثقافي للمجتمع الأمريكي هي Might is Right (القوة هي الحق)، وهي ما تجسد إبادة جماعية لأمم بأسرها، كالمايا والانكا والازتيك وسواهم من السكان الأصليين للقارة التي أطلق عليها غزاتها الأوروبيون اسم أمريكا، ثم تكرر في مواقع كثيرة من عالمنا، وخاصة إحراق الطيران البريطاني مدينة هامبورغ بأكملها ليلة ١٩٤٥/١/٢٧، فيما عرف بعاصفة النار، وخنق عشرات الآلاف من سكان مدينة كاسل، وقتل ثلاثة وعشرين ألفاً من مدنيي مدينة سوينموينده خلال خمس وأربعين دقيقة فقط في غرة جوية أمريكية – بريطانية مشتركة، وإبادة مئة وثلاثين ألفا من المدنيين لدى تدمير الطائرات الأمريكية والبريطانية مدينة درسدن الألمانية تماماً ليلة ١٩٤٥/٢/١٣، على الرغم من خلوها تماماً من أي أهداف عسكرية وفقاً لاعترافات القيادتين الأمريكية والبريطانية. ثم كانت الذروة جريمة الإبادة النووية الشاملة في مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين التي لم يقف عدد ضحاياها عند نصف المليون من السكان الذين قضوا على الفور، بل تجاوز هذا العدد إلى الأجيال اللاحقة من مواليد المشوهين والمصابين بالإشعاع النووي الذين توارثوا التشوهات والأمراض. وثبت أنه قد تمّ إلقاء القنبلتين النوويتين الأمريكيتين في آب ١٩٤٥ على هاتين المدينتين رغم التأكد من خلوهما من أي أهداف عسكرية، ورغم تلقي الولايات المتحدة قبل ذلك عرضين من الحكومة اليابانية باستسلام اليابان وإنهاء الحرب! وتبين لاحقاً أن قرار تدمير المدينتين نووياً قد اتخذ بتصميم على أعلى مستوى في الولايات المتحدة لإرهاب دول العالم كافة وتقديم نموذجين كفيلين بنشر الرعب في سائر الأمم لكي تخضع للإرادة الأمريكية تحاشياً لضربة نووية مشابهة. لا ننسى في المقابل فظائع القوات الألمانية بحق المدنيين في بلدان عديدة، وخاصة ستالينغراد التي

صمدت في وجه التدمير والقتل الجماعي الألماني صموداً أسطورياً. توالت جرائم القتل الجماعي الأمريكية والبريطانية والفرنسية بعد ذلك في فلسطين وكوريا وفيتنام والجزائر وكمبوديا ولاوس، وصولاً إلى الجرائم الراهنة المصاحبة لاحتلال أفغانستان والعراق. إنها قاعدة سلوكية إجرامية ثبت أن جذرها الرئيس نابع من الثقافة التلمودية الدموية التي تجعل معيار الإيمان والتقوى مدى الإيغال في إبادة الأغيار إفرادياً وجمعياً بما يتجاوز قتل البشر إلى قتل مواشيهم وإحراق مزروعاتهم وتدمير مساكنهم، بل ومزج فطير الفصح ببعض دمائهم!

إنها تطبيق لما جاء في سفر التثنية - الإصحاح ٢(١٣) مثلاً: «فاضرب جميع ذكورها بحد السيف»، وكذلك في سفر يشوع - الإصحاح ٦(١٢١): «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف»، وفي سفر الملوك- الإصحاح٣ (١٩): «وتقطعون كل شجرة طيبة، وتطمرون جميع عيون الماء، وتفسدون كل حقل جيد»! إنها تعاليم أفرزها حقد أحبار لم يتورعوا عن تزوير التوراة كما زوّروا إلهاً أسموه (يهوه) وجعلوه يأمر بإبادة الكنعانيين في فلسطين عن آخرهم، دون استثناء طفل أو امرأة أو شيخ!

إنها ثقافة متصادمة بالضرورة تصادماً شاملاً مع ثقافة التسامح التي تشكل جوهر البناء المجتمعي والعقيدي والفكري والسلوكي والتراثي لأهل القدس، مسلمين ومسيحيين.

لم تبدأ المفاعيل المروعة للثقافة التلمودية الدموية مع الغزو الاقتلاعي الاستيطاني الصهيوني المعاصر الذي جاء بدعم وحماية التواطؤ الأورو - أمريكي، تنفيذا لمشروع اغتصاب فلسطين واقتلاع الناجين من مئات المجازر الجماعية في القدس وما حولها وفي شتى أنحاء فلسطين وتشريدهم في المنافي. وهل ننسى إزالة الغزاة الصهاينة خمسمئة وثلاثين من البلدات والقرى الفلسطينية تماماً من الوجود؟

لقد كان من أبرز التجسيدات المبكرة لثقافة الاستمتاع بالقتل الجماعي ما شهدته القدس بالذات عندما اجتاحها الغزاة الفرنجة يوم ١٠٩٩/٧/١٥ بعدما حاصروها لأربعين يوماً، فظلت قوائم خيولهم تغوص في دماء سبعين ألفاً من أبناء المدينة المقدسة الذين تمّ ذبحهم، فسالت دماؤهم في شوارعها

ودروبها. لقد اعترف أحد الغزاة أنه شارك في ذبح ثلاثة آلاف من المصلين في المسجد الأقصى عن آخرهم، فغاص في دمائهم إلى ركبتيه(١٣). سبقت وصول الغزاة إلى القدس أنباء مذابح أخرى ارتكبوها على امتداد الطريق إليها، لعل أقساها إبادة ما زاد على مئة ألف من سكان معرة النعمان، مدينة أبي العلاء المعري، ذبحا على مدى ثلاثة أيام مع غروب العام ١٠٩٨، والتهام أجساد أطفالهم بعد شيّها في سفافيد، وقضم لحوم أجساد كبارهم بعد سلقها، وفق شهادات عديد من جنود الغزاة الذين وثقوا تلك الواقعة وسواها، مثل المؤرخ ألبير دكس الذي كان من هؤلاء الجنود، والمؤرخ راؤول دي كين والمؤرخ رادلف، وسواهم من كتّاب وشعراء[١٤] لم يستطع جلّهم تفسير سلوك الزاعمين دفاعاً عن المسيح المتسامح سوى برده إلى تحريض الحاقدين على المسيح، ممن زعموا أنهم صلبوه وتباهوا بغدرهم به.

وهكذا بات المرء يتساءل كم أوغل بعض المهيمنيين على عالمنا في ممارسة التدمير الذاتي. ويشتد التساؤل إلحاحاً عند استعراض تعاليم ومحددات أخلاقية وسلوكية للحرب قبل أكثر من ألف وأربعمئة سنة، من قبيل الوصايا القرآنية وتعليمات النبي محمد (ص) وخلفائه الراشدين للجيوش التي شددت على تحاشي الاعتداء، وحصر القتال بصدّ المعتدين، عدم إلحاق الضرر بالأسرى أو النساء والأطفال والشيوخ وسائر المدنيين العزل، وتجنب قتل المواشي أو حرق الأشجار أو المزروعات أو الممتلكات. أما تعاليم المسيح المركزة على التسامح إلى حد إدارة الخد الأيسر لمن ضربك على الخد الأيسر فتئن تحت وطأة إجرام متسترين بالمسيح في الغرب.

مع ذلك، وضع المتحاربون الأوروبيون والأمريكيون فيما بين حروبهم البينية الكبرى وبعدها، وخاصة في النصف الأول من القرن العشرين قواعد وضوابط لتنظيم سلوك المتحاربين وأخلاقيات الحرب. قد جرى تقنين معظمها في اتفاقيات ومعاهدات دولية، وخاصة اتفاقيات جنيف. لكن أكثر الدول، وخاصة الكبرى لا تلتزم بهذه الأخلاقيات والتقاليد فترتكب جيوشها المحاربة جرائم وحشية، وخاصة ضد المدنيين غير المحاربين. وكثيراً ما تتفاعل تأثيرات هذه الجرائم وتنعكس سلباً أو إيجاباً على السلوك الجمعي لمجتمعات مرتكبيها.

أثارت الشعارات والرسائل التي كتبها الجنود الأمريكيون مثلاً على الصواريخ

والقنابل قبل أن يطلقوها على المدنيين في أفغانستان والعراق انتباه الكاتبين كريس هيدجز وتوم انجلهاردت، فحاولا استخدام هذه الكتابات في دراسة العوامل الثقافية، التي تدفع هؤلاء الجنود إلى القيام بارتكاب المذابح وجرائم الإبادة ضد المدنيين العزّل الذين ليس لديهم ما يدافعون به عن أنفسهم.

كتب كريس هيدجز وتوم انجلهاردت:«إن تاريخ كتابة الرسائل للأعداء على القنابل والصواريخ ليس جديداً، فقد كتب الجنود الأمريكيون على القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما الكثير من الكلمات منها كلمات إباحية، ومن بين تلك الكلمات: هذه القنبلة تحية إلى إمبراطور اليابان من رجال انديانابوليس».

لقد نقلت صحيفة واشنطن بوست نماذج مما كتبه الجنود على القنابل والصواريخ قبل إطلاقها لإبادة المدنيين العراقيين. كان من بينها رسالة موجهة إلى الحاج، اللقب الذي ينادي به المسلم المتدين. اعتاد الجنود الأمريكيون في العراق استعمال هذا اللقب للإشارة إلى كل عراقي أو عربي، مما يعني أن الصاروخ أو القنبلة موجه بشكل عام إلى كل العرب أو المسلمين بلا تمييز. وقد وصفت واشنطن بوست هذا بأنه نتيجة للعنصرية الأمريكية، وأنه يلخص دوافع الحرب الاستعمارية الجديدة التي تشنها أمريكا على العراق وأفغانستان.

لا ننسى مشاهد نقلتها تلفزة العدو الصهيوني في بداية حربه التدميرية الفاشلة ضد لبنان في تموز وآب ٢٠٠٦ لأطفال المدارس الذين جيء بهم إلى قاعدة عسكرية، وراحوا يكتبون عبارات عنصرية حاقدة على عشرات الصواريخ والقذائف قبل إطلاقها على الأحياء والقرى اللبنانية. هل نتوقع سلوكا مختلفا من أبناء وأحفاد مرتكبي مجازر القدس ودير ياسين والدوايمة وناصر الدين وكفر قاسم وغزة وخان يونس وصبرا وشاتيلا ومصانع أبي زعبل ومدرسة بحر البقر وحمام الشط وقانا الأولى وجنين ورفح والشجاعية وجباليا وقانا الثانية والبقاع وضاحية بيروت الجنوبية وسواها كثير؟ أليسوا هم الذين بات دورهم سافرا في اغتيال آلاف العلماء العراقيين وارتكاب المجازر الجماعية في شتى أنحاء العراق، مما أدى إلى مقتل مليون عراقي وجرح ضعف هذا العدد وتشريد أضعافه، كذلك دورهم في تمويل وتسليح وتحريض متمردي دارفور لاستغلالهم في تمزيق السودان. إن

دورهم في الإفساد حيثما استطاعوا متجذر ودائم.

لقد أصدر كريس هيدجز بالاشتراك مع ليلى ريان كتابا حول الحرب الأمريكية ضد المدنيين، تضمن مقابلات مع جنود أمريكيين ومدنيين عراقيين أوضحت أن الاحتلال قد تحول إلى كابوس للمدنيين العراقيين بشكل يفوق ما حدث خلال الحرب الأمريكية ضد فيتنام.

تساءل كريس هيدجز: هل يريد الأمريكيون أن يعرفوا لماذا يذهب جنودهم إلى العراق، وما الجرائم التي يرتكبونها ضد الحجاج؟! ثم قال: إن القوات الأمريكية عندما تخوض المعارك مع المقاومة يتم تهيئتها وتعبئتها لمواقف إنتاج المذابح.. وهذا ما حدث في فيتنام، ويحدث الآن في العراق وغزة حيث تتم إثارة مشاعر العداء والخوف ضد كل السكان، وبدون تمييز، ويتم تصوير المدنيين بأنهم يساندون رجال المقاومة، ولذلك يتم شحن الجنود، وإثارة عداءهم ضد المدنيين بحيث يقتلون الأبرياء دون أن يشعروا بأنهم ارتكبوا جريمة!! يتم تصوير كل السكان في العراق بأنهم أقل من البشر لذلك لا يشعر الجنود الأمريكيون تجاههم بأي تعاطف أو مشاعر إنسانية.. والأخطر من ذلك أن هؤلاء الجنود تمّ تدريبهم على أن يتعاملوا مع المدنيين العراقيين على أنهم بلا أسماء أو وجوه. هذا يعني أن الجيش الأمريكي قد قام بعملية إبادة رمزية للعراقيين قبل قيام جنوده بعملية الإبادة الفعلية ضدهم.. فالجندي يتعامل مع كل عراقي على أنه (حجي) كما ينطقونها.. فكل عراقي في نظر الجندي الأمريكي بلا وجه، وبلا اسم، وبلا قيمة إنسانية.

وهكذا، فإن الحرب (الثقافية) قد أدت إلى تشكيل نفسية الجنود الأمريكيين وتوجيه سلوكهم قبل أن تدور الحرب الفعلية، ولقد شمل الإعداد لهذه الحرب تعبئة صهيونية حاقدة وإعداداً نفسياً محكما للجندي الأمريكي كي يتصرف بقسوة ووحشية ضد المدنيين العرب والمسلمين، دون وازع من ضمير أو أخلاق، بل ويزعم له سدنة تلك التعبئة من الصهاينة أنه كلما قتل أكثر من العرب والمسلمين فإنه يؤدي رسالته الإنسانية /الحضارية/ الإيمانية على نحو أفضل!

لعل في هذا ما قد يفسر انتحار ١١٥ جندياً أمريكياً خلال عام ٢٠٠٧ بزيادة ١٣٪ عن العام السابق، ناهيك عن الأمراض النفسية والعقلية التي أصيب بها عشرات آلاف الجنود، وخاصة بعد عودتهم إلى

وطنهم، حيث يشعرون بثقل إثم الجرائم التي ارتكبوها وعارها، فهي بكل المقاييس جرائم إبادة عنصرية ضد الإنسانية، تضع مرتكبيها في مصاف الوحوش،لا البشر!

يظل التساؤل قائماً عن جدوى القانون الدولي إزاء جريمة العصر الكبرى التي يمثلها الغزو الصهيوني للقدس، ولسائر فلسطين، بحيث تعزز الانطباع بأن هذا القانون قد بات عملياً خدعة كبرى يستخدمه الأقوياء لتغطية استعبادهم للفقراء. نكتفي بإشارات عابرة إلى أبرز قرارات مجلس الأمن الدولي اللاحقة الأخرى الصادرة بعد تكريس احتلال القوات الإسرائيلية باقي الأراضي الفلسطينية في العام ١٩٦٧، والمتعلقة بموضوع بحثنا. حيث بات معروفاً على نطاق العالم كله أن إسرائيل تصّر على انتهاك تلك القرارات الأممية وامتهانها، متحصنة بحماية ودعم الولايات المتحدة وانحيازها الأعمى.

لقد اعتبر قرار مجلس الأمن الدولي ٢٥٢ المؤرخ ١٩٦٨/٥/٢١ جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية وجميع الأعمال التي قامت بها إسرائيل، بما فيها مصادرة الأراضي والأملاك التي من شأنها أن تؤدي إلى تغيير الوضع القانوني للقدس هي إجراءات باطلة، ودعا إسرائيل إلى إلغاء هذه الإجراءات والامتناع فورا عن القيام بأي عمل آخر من شأنه تغيير وضع القدس.

أكد قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٦٧ المؤرخ في ٧/٣/ ١٩٦٧ ما جاء بالقرار السابق ٢٥٢، واعتبر قرار مجلس الأمن٤٤٦ المؤرخ ١٩٧٩/٣/٢٢ الاستيطان الإسرائيلي معوقاً للسلام.

ودعا قرار مجلس الأمن ٤٥٢ الصادر في ١٩٧١/٧/١٢ إسرائيل إلى وقف النشاط الاستيطاني في الأراضي المحتلة، بما فيها القدس إذ ليس له سند قانوني، وهو يخرق اتفاقية جنيف الرابعة.

وكرر القراران ٤٦٥ و ٤٦٧ للعام ١٩٨٠ بطلان الإجراءات التي اتخذتها إسرائيل لتغيير طابع مدينة القدس. كذلك أكد القرار ٤٦٧ المؤرخ ٣٠/ ١٩٨٠/٦ والقرار ٤٧٨ المؤرخ ١٩٨٠/٨/٢٠ بطلان وعدم شرعية تغيير وضع القدس العربية وعدم اعتراف مجلس الأمن الدولي بقانون إسرائيلي قضى بضم القدس، واعتبر المجلس ذلك القانون انتهاكا للقانون الدولي. وتوالت قرارات مماثلة على امتداد السنوات التالية دون أن تعبأ إسرائيل بها أو تظهر أي احترام لها. بل كثيرا ما علّق مسؤولون إسرائيليون حتى في

اجتماعات الأمم المتحدة بأن تلك القرارات أتفه من أن تكترث بها إسرائيل، وأنها سوف تمزق تلك القرارات وترميها في القمامة!

وهنا يبرز الدور الرئيس للولايات المتحدة في تشجيع تمرد إسرائيل على الشرعية الدولية واستهتارها بقراراتها. من آخر فصول هذا الدور الأمريكي، نقيضاً لكل القرارات والقوانين الدولية الخاصة بالقضية الفلسطينية والصراع الذي نشأ عن الغزو الصهيوني الاستيطاني لفلسطين، وقع الرئيس جورج بوش يوم ٣٠/٩/ ٢٠٠٢ قانوناً يعترف بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل، وأطلق تعهداته الخطية والشفهية بدعم احتفاظ إسرائيل بالمستوطنات التي بنتها على الأراضي الفلسطينية المحتلة رغم عدم شرعيتها، ودعم ضم تلك المستوطنات إلى إسرائيل. وفوق كل هذا كرر الرئيس بوش مجددا تسويغ كل جرائم الحرب والاعتداءات التي ترتكبها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني بذريعة «حقها في الدفاع عن النفس»!

من ناحية أخرى، وشأن ما بات تقليداً مارسه كل الرؤساء الأمريكيين الذين سبقوه، تباهى الرئيس بوش بأنه قدم من الدعم الأمريكي العسكري والمالي والاقتصادي والسياسي لإسرائيل أثناء ولايته أكثر مما قدمت كل الإدارات السابقة، وبأنه لن يسمح لأي جهة بإدانتها أو محاسبتها أو انتقادها. بل مضى بعيدا بإصدار ما سمي قانون مكافحة اللاسامية، وبموجبه تمّ تكليف كافة البعثات الدبلوماسية والقنصلية الأمريكية والمؤسسات الأمنية والقضائية وسواها برصد ومتابعة أي مساس مباشر أو غير مباشر أو انتقاد لليهود أو للصهيونية أو الصهاينة أو لإسرائيل، سواء من خلال عمل أو قول أو مادة ثقافية أو إعلامية في أي مكان من العالم، ومعاقبة من يقدم على هذا، سواء كان دولة أو مؤسسة أو جماعة أو فردا، بموجب القوانين الأمريكية! يبدو الأمر أقرب إلى إقامة محاكم تفتيش عصرية على مستوى العالم بأسره لقمع أي جهد يسعى إلى إقامة العدالة واستعادة الحق في فلسطين من خلال تكريس حصانة مطلقة على امتداد العالم تحمي وجود وجرائم إسرائيل والصهيونية العالمية وشبكاتها!

في مثل هذا الوضع غير المسبوق في التاريخ، تبدو الحاجة شديدة إلى نهوض فاعل على امتداد الوطن العربي، دفاعاً عن الذات والمصير، يحمي ويغذي روح المقاومة وبنيتها الفكرية والتنظيمية والجماهيرية،

في مواجهة استشراء ثقافة الاستسلام والنكوص والتنصل من الواجب الإنساني والديني والقومي والوطني والأخلاقي تجاه فلسطين عموماً، وعاصمتها القدس خاصة. إنه نهوض يستند أساساً إلى ثقافة جماهيرية يومية وحيوية دائمة يجد كل فرد فيها وعيه المغيب ونفسه ومكانته. وأبرز مقومات هذه الثقافة ووجوهها إحياء الثقافة المقدسية ورعايتها والنهوض بها وتعميمها، حماية لتراث هذه المدينة المقدسة، وإبرازاً لمكانتها العقيدية والتاريخية والحضارية على نحو يربط الماضي الذي عمل الغزاة فيه طمساً وتزويراً وتشويهاً وتدميراً لمعالمه وأوابده وتراثه، بحاضر يعمل الغزاة والمتواطئون معهم والمتخاذلون إزاءهم على خنقه بوقائع جديدة تدمر ثوابته وجوهره لمصلحة تهويد يلغي كل ما خلا جريمة غزوهم واغتصابهم.

الهوامش:

١- صبري جريس، مخاطر التهجير اليهودي، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٢٠٤، مركز الأبحاث الفلسطيني، نيقوسيا، مارس ١٩٩٠، ص ٣.

٢- دوغلاس ريد، جدل حول صهيون، ترجمة غياث كنعو، ط٢، دار الحصاد، دمشق، ١٩٩٨، ص ١٢٥.

٣- عبد الوهاب الكيالي، الكيبوتز أو المزارع الجماعية في إسرائيل، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٦، ص ١١-١٢.

٤- دافيد بن غوريون، بعث إسرائيل ومصيرها، لندن، دار نشر توماس يوسيلوف، ١٩٥٩، ص٥ .

٥- د. أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، الغزو الصهيوني وحلقات الصراع السياسي الإجلائي الديموغرافي في فلسطين ١٨٨٢ – ١٩٩٠، الحلقة السادسة، الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠/٥/١٩٩٠، ص ١٥.

٦- سميح شبيب، الاستيطان والهجرة في الفكر الصهيوني، ندوة الصهيونية والنازية، دمشق، ٢٩ /٨/ ٢٠٠١،مجلة الكاتب العربي، دمشق، أيلول ٢٠٠١، ص ٢٣٦.

7- Efrat،Elisha، Geography and Politics in Israel since 1967، London:Frank Cass &C0.، 1988، P. 68

٨- صحيفة هآرتس، ٣/١٢/٢٠٠٣.

9- The Jerusalem Post، 13.9.2001.

١٠-د. عبد الوهاب المسيري، الهبوط من المستوطن الصهيوني، صحيفة الاتحاد، أبو ظبي، ٢٠٠١/١/١٦، ص ١١.

١١-د.عبد الوهاب المسيري، محترفو الاستيطان، الاتحاد، أبو ظبي، ٣٠/ ٧ /٢٠٠٥، ص٢٥.

١٢-د. عبد الوهاب المسيري، صهيونية المرتزقة، الاتحاد، أبو ظبي، ٦ /٨/ ٢٠٠٥، ص٢٥.

13-Terry Jones & Alan Ereira ، Crusades. B. B. C. ، London.

١٤-انظر: أمين المعلوف، الحروب الصليبية، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣، الفصل الثالث (أكلة لحوم البشر في المعرة) ص٦١-٨٣. وكذلك في: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص١٨٧.

آفاق المعرفة



نحن والثقافة الأوروبية

د. خليل عبد الرحمن*

الإنســـانُ هو الكائن الوحيد في العالم، الذي يصنع الثقافة ويخلقُ «طبيعة ثانيـــة». وينحصرُ كل نشاطه بين المكان والزمان، فهو يعيشُ في المكان ويبدعُ في الزمـــان، إنه مزيج مـــن عالمين: الأنا – العالم الخارجـــي، الجسد، المكان الموضوعـــي حيث تسيطر المادة، واللاأنـــا – القوانين الداخلية الذاتية، حيث تسيطر الروح والعواطف.

* أديب وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الإنسان خليقةٌ وخالقٌ. الإنسان الخليقةُ: ترابٌ، عظامٌ، دماءٌ.. إلخ، والإنسانُ الخالقُ: لوحاتٌ، شعرٌ، قوانينٌ.. إلخ. يبدأ الإنسان مسيرته الثقافية من الأنا إلى اللأنا، فيأخذ الحجر مثلاً من المكان وينظمه «ينحته» وفق قوانينه الداخلية، ونحصل بالنتيجة على عملٍ فني. ومن ثم تبدأ مسيرةٌ عكسية، من اللا أنا إلى الأنا، من الزمان إلى المكان من جديد. فالإنسان يبدع داخلياً، ولكن إن ظلَّ قابعاً في اللا أنا ولم يظهره لنا في المكان يموت ذلك الإبداع في داخله.

بدت لنا الثقافة على مرِّ التاريخ بأنها تخلق توازناً في العالم الإنساني (الجسد – الروح)، فخصَّصنا لها مكاناً مبجلاً وآمنا بتطورها، كما آمنا بالتقدم الذي يسود العالمَ، وبأن كمال الإنسانية المستمر، أخلاقيا وعقلياً، يرتبط بازدهار حياة الإنسان، مادياً وقانونياً.

ولأسباب عديدة يتعذر ذكرها هنا آمنا بأوروبة الثقافية وتأسفنا للوضع الثقافي في بلداننا. فرأينا في كل شيء أوروبي علاماتٍ للثقافة: المدارس الكثيرة، التعليم العام، وبأن كل فلاح وعاملٍ يقرأ الجرائد، يهتم بالسياسة ويؤمن بقوة النظام القانوني- الدستوري، النظام الذي يحترم حقوق كل مواطن، كما آمنا برفاهية الحياة الأوروبية، بطرق مواصلاتها الرائعة، بعلومها الدقيقة، بديمقراطيتها العريقة، بصناعاتها المتطورة، بضماناتها الاجتماعية وأشياء أخرى كثيرة. وطبعاً رأينا جوانبٍ مظلمة فيها أيضاً كالأنانية والأخلاق الشنيعة واضطهاد كل من يمس بسوء القوانين البرجوازية، والعنصرية الأعمى.. إلخ. إلا أننا اعتقدنا بأن هذه الجوانب المظلمة هي من بقايا الماضي وبأنها ستزول مع التطور اللاحق للثقافة، ولهذا تضامَنَّا مع الاشتراكيين الأوروبيين الذين ناضلوا ضد بقايا الإقطاعية وكافحوا لأجل إزالة الظلم وتقليم أظافر جشع البرجوازيين. في كل الأحوال، بدا لنا بأن أساس الثقافة والمجتمعات المدنية – القانونية قد ترسخ، وحلَمْنا بأن تدخل بلداننا في عالم أسرة الشعوب الأوروبية، المشبع بالثقافة الروحية والمادية.

عندما بدأت الحرب العالمية في أوروبة لم يصدق مثقفونا بأن حدث كهذا يمكن أن يحصل في أوروبة المحصنة بالثقافة الروحية والمادية، وبأنها حصلت بسبب إرادة إجرامية لمجموعة عسكرية تحكم ألمانيا، وبأنها مجرد سوء تفاهم رهيب وصدفة مؤسفة. لم يستطع أحد أن يؤمن باستمرارية وقسوة ودمار هذه الحرب التي بدت لا كنتيجة طبيعية وتعبير عن حالة أوروبة الروحية والثقافية

والاجتماعيــة، ولا كحــدثٍ تاريخي عظيم يرمــز إلى بــدء مرحلة جديــدة، بل حادثة عرضية مرضية، واستراحــة عادية للتطور الثقافي.

عندمــا طالت الحربُ لسنــوات عديدة وكشفــت عــن فراغهــا الهائــل، وفظاعة وسائلها، والعناد المميــت اليائس للأطراف المتحاربة، تغيرت عندئــذ علاقة الناس بها تدريجيــاً، واعتقــد كل طرف محــارب بأن السبيل الوحيد إلى طريق العودة نحو ثقافة الحياة العادية يكمنُ في القضاء نهائياً على العدو، وبالتالي على منبــع الحرب. أُعلنت الحــرب كحرب أخــيرة موجهــة لوقف كل الحروب، لإقــرار الديمقراطية والقوانين، وتنظيــم العلاقات بــين الشعــوب. إلا أن الحــرب أظهــرت، في الواقــع، بــأن الحق والعدالــة في العلاقــات الدوليــة كلمــات فارغة، وبأن الغضــب والخوف أمام العدو والكراهية المتبادلة واستغلال الناس الجشع، هي الحالــة الطبيعية للعلاقــات الأوروبية الدولية، كما أن الحرب أفلست جميع الدول وتركــت فراغاً روحياً فظيعاً، وتركت اليأس والتمزق.

ذلك الإنسان الذي مجّده فلاسفة أوروبة وأخلاقيوها وفنانوهــا على اعتباره «تتويج الخليقــة» و«القيمة الأسمى».. إلخ، تتدهور قيمته حتى ليصير مجرد قيمة تبادلية، كما وعــدوا بانتصار العقــل والحقيقة والخير والعدالــة والنظام، وهــي مفاهيم اعتبرت قيماً أسمى للوجود ومُثلاً عُليا أبدية للثقافة الأوروبيــة، إلا أن الحــرب برهنت بأن تلك المفاهيم مجرد غزل عاطفي وصيغ جوفاء.

أهــم نتيجــة أظهرتها لنا الحــرب بأن ثقافــة مُعلمينا لم تكن أبــداً كافية لاجتناب فظاعة الحرب، فمات الإيمان الحار بقوّاد الإنسانيــة الأخيــار، بــروّاد الديمقراطية والاشتراكيــة، برسل الحقيقــة الاجتماعية وبآبــاء البحبوحــة الاقتصاديــة. هكــذا تدريجياً فقدنــا الثقة بالثقافــة الأوروبية ومات شيءٌ ما في أرواحنا، وتبخَّر الحماس والإعجــاب الشديدين، وأصابنا برداً روحياً قارصــاً، ونظرنا إليها باستغــراب المهابيل، مثل عجــوز ينظر بحب إلى شبابه، ومفكراً: «كيــف سمحتُ لنفسي أن ألهو بهذا الشكل، وأعيشَ بهــذا الجنون؟ كيف لم ألاحظ فراغ وحماقــة وخاصية هذا الشاب الرائع؟ كيف استطعت أن أنفق كل روحي على هذا الكائن الإنسان الضعيف؟

ولم يستطع الاشتراكيون الأوروبيون تجميل وجه الثقافة الأوروبية عندما انتقدوا وحشية النظــام الرأسمالي، ولم يتمكنــوا من خداع النــاس لفترة طويلة بدفاعهــم عن العدالة



الاجتماعية والحرية والجنّة الأرضية، فهم ساهموا أيضاً وبفاعلية شديدة في فقدان إيماننا بتلك الثقافة. لقد فهمنا فحوى هذا الخطاب ومدى ديماغوجيتها وفراغها الروحي.مات الإيمان الاشتراكي روحياً، وأنهار الدماء في البلدان الاشتراكية،معسكرات الاعتقال، الشر المادي المتفشي، ضحالة النفوس الاشتراكية، كل هذه كانت دلال تؤكد على هذا الموت الوثني، وأن نهضة أوروبة الديمقراطية بعد سنوات من التطور الثقافي أوصلتها إلى الاشتراكيين المرعبين أمثال «لينين» و«ستالين» و«هتلر».

ولم يعد يسعدنا كثيراً تطور العلم والتطور التكنولوجي المرتبط به. يرحل طير العلم عبر الفضاء، وصار أسلوباً مألوفاً للتحرك. ما الفائدة من هذا الطير الذي لا يعرف إلى أين ولماذا يطير إذا كان يسود على الأرض الملُّ والضعفُ والسطحية والمرض الروحي المستعصي على العلاج؟ وعندما نفكر بأن النتيجة الواقعية الوحيدة لتطور طرق المواصلات الجوية هي إمكانية جعل الحرب أكثر سرعة وقسوة لقتل البشر، وإبادة الأوروبيين بنيران تسقط من السماء، عندئذ يكون الاهتمام الروحي بنجاحاته صعباً.

التطور الصناعي العام، تراكم الأموال، العمل على كمال الظروف الخارجية، كل هذه الأمور ليست سيئة، وطبعاً ضرورية، ولكن ألا تشبه صخرة سيزيف وجهده

الميؤوس منه عندما أدى التطور الصناعي التجاري العظيم من خلال الحرب إلى البؤس والإفلاس؟. هل من الممكن الآن أن نؤمن ببراءة تراكم الأموال وتطور الإنتاج وبأنهما سيؤديان بنا إلى السعادة؟. هل الإنسان الآلي وطرق المواصلات والآلات والوسائل الميتة الأخرى ضرورية لأجل سعادة الإنسانية؟. لا توجد عندنا أجوبة جاهزة، ولكننا الآن نملك عدم الثقة والشك اتجاهها، اللذان لم نعرفهما سابقاً.

تحطم صنمُ الثورة والثوّار وصنمُ السياسة تحت انطباع الثورة الروسية، وتحطّم صنم الثقافة تحت تأثير المنتجات الأوروبية: الحربان العالميتان، الإيديولوجيات الشيوعية والنازية والبرجوازية، تلك المنتجات - الأسباب التي أثرت على الوضع الروحي في العالم. وننظر الآن برؤية شكّية إلى القيم الروحية للثقافة الأوروبية وإلى خيرات فنها وحياتها الأخلاقية.

نستخلص مما سبق: أولاً، نحن فقدنا الثقة بالتقدم كونه مفهومٌ كاذب وغامض. لا تذهب ولاتكتمل الإنسانية بشكل عام وإنسانية أوروبة بشكلٍ خاص بطرق مستقيمة وواضحة نحو تحقيق الخير والحقيقة، بالعكس، تضلُّ بدون طرق واضحة، ترتفع نحو الأعالي وتهبطُ من جديد نحو القاع، وتعيشُ كل مرحلة بإيمانٍ ما، بكذبٍ ما، تضيعُ ومن جديد تجد نفسها. يتميز عصرنا الحديث بأنه أوصل الإنسان إل مأزقٍ محيرٍ وطريقٍ شبه مسدودة، وخلقَ في روحه الفراغَ والقسوة، كما أن تطور ثقافته الأوروبية التي ادّعت بالحرية والديمقراطية والتعليم والحقوق أوصل هذا التقدم أمام أعيننا إلى وضع البربرية الجديدة.

لا يوجد تقدم، ولا توجد طرق واضحة وموضوعية التي ينبغي على الإنسانية السير عليها لتجد هدفها ومعنى حياتها الخاصة بها. لكي نعرف معنى الحياة وإلى أين نذهب ينبغي على كل فردٍ منا أن يجد سنداً مطلقاً في روحه، والبحث عن علامات لطريقه، ليس على الأرض حيث نسبح في محيط لانهائي ونتحرك مع الموج بدون هدف، ونصطدم مع تيارات مختلفة، بل يجب البحث، معتمدين على خوفنا ومسؤوليتنا، عن نجمة رفيقة أنيسة، نجمة دليلة في سماء روحية، والسير وراءها غير مرتبطين بأي تيار، وربما ضدها.

النتيجة الثانية لتطورنا الروحي، المرتبطة بالأولى، هي المفهوم التقليدي الغامض لمفهوم وحدة الثقافة كمجموعة من منجزات الإنسانية وكأنها وحدة منسجمة غير منفصلة ومتكاملة من العلوم، الفنون،

الحياة الأخلاقية، التعليم والتربية، إبداع العظماء والمستوى الروحي للجماهير، العلاقات القانونية والنظام الحكومي، الاقتصاد والتكنولوجيا. عُرضت هذه المفاهيم أمامنا وكأنها وحدة متآلفة نسميها «الثقافة»، ولكننا رأينا سابقاً صعوبة وتناقض هذه المفاهيم. وفهمنا بأننا لا نستطيع أن نتحدث عن وحدة الثقافة وعبادتها بالتساوي، فنبجِّل إبداع «دانتي» و«شكسبير» كما نبجِّل كمية الصابون المستخدم أو لوحات «رامبرانت» و«فان كوخ» كما آخر صرعات الأزياء. وعرضنا سابقاً التناقضَ الواضح بين عمق الحياة الروحية من جهة وتوسع انتشار نتائجها وثمارها الخارجية من جهة أخرى، بين النهضة الحقيقية وإشعاع التعليم الخارجي، بين أسس الحياة الروحية الداخلية والشعارات العالية الرسمية، بين ثقافة الروح وثقافة الجسد. نحن نرى البربرية الروحية عند شعوبٍ ذات ثقافة سامية، ونرى القسوة عندما تسود مبادئ إنسانية عالية، ونرى القذارة الروحية عندما تسود النظافة الخارجية والغبطة الاقتصادية، كما نرى أيضاً الضعف الداخلي عندما تسود العظمة الخارجية.

فلننتقل من مفهوم الثقافة الغامض والمتناقض إلى مفهوم أصيل وبسيط، إلى مفهوم الحياة وحاجاتها ومطالبها الروحية الخالدة. الثقافة هي ترسبات الحياة الإنسانية الروحية، وعمَّ نبحثُ وماذا نقيمُ في هذه الحياة. سنسمي منتجات ثمار منجزات الحياة بـ «القيم الثقافية»، وهنا أيضاً لا توجد معايير ثابتة لتحديد مستوى الحياة. الحياة هي بداياتٌ مختلفة متصارعة فيما بينها، وينبغي علينا أن نعرف ما هو الرائع والحقيقي وما هو القبيح والكاذب فيها. فإذا وجدنا الخير الحقيقي، هدف ومعنى الحياة الحقيقيين وتعلّمنا كيفية تحقيق الخير والهدف والمعنى، عندئذ سنكون مشاركين في إبداع ثقافة حقيقية. لقد انهارت صورة الثقافة الأوروبية المألوفة، ولم تتحمل اختبار تجربة الحرب، وراحت تظهر أعراض خطيرة، وأصبحنا معلقين في فراغ بين الأرض والسماء، فينبغي علينا أن نجد في نفوسنا فقط الثقة والإيمانَ والرجولة لصناعة ثقافة حياتية وروحية.

آفاق المعرفة



النزوع البرناسي بين عمر أبو ريشة وبدوي الجبل

د. وفيق سليطين*

يتخذ هــذا البحث من قصيدة عمر أبو ريشة الموسومة «قيد الحرية»[1] وقصيدة بــدوي الجبل «الدمية المحطمة»[2] مثالين دالين على تأكيد النزوع المشار إليه في العنوان، ذلك أن كلاً منهما يتجاوب مع الآخر، ويلتقي به على أساســ من التقاطــع في المحاور الأساسية المتمثلة بالموضــوع والتوجّه العام والرؤيــا، وإن اختلفت طرائق التقــديم والمعالجة في اتخاذها منحى أسلوبياً خاصاً عند كل من الشاعرين.

* أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

في عمليات العبور والوصل النقدي بين النصين ما يهدف، إذاً، إلى تحديد مناطق الاشتراك، وتركيز نسب التفاعل، وتكثيف الأثر، من خلال استجلاء السمات الخاصة بالمنزع البرناسي، التي تحضر ههنا على نحو ما استقرت عليه في أصول هذا التوجّه. وليست الغاية إثبات تأثر الشاعرين، مباشرة، بأعلام البرناسية في الغرب، لأن ذلك أمر يحتاج إلى مزيد من الاستقصاء، وإلى كثير من التدقيق في الشروط التاريخية المختلفة التي تحكم عمليات الاتصال والتبادل الثقافي، وتضبط مجرى قنوات الترشيح، وتعيّن حدود إمكانها في الضخ والعمل على إحداث مفعولاتها في التعدي الذاتي إلى دوائر أخرى تكفل الاستقبال والانخراط في إعادة إنتاج الوافد نوعياً، بما يتحقق معه إثبات التأثر والتأثير. وهو -كما أبديت- شأن آخر خارج نطاق هذا التناول.

أولاً: في الموضوع والتوجيه:

يعكف الشاعران على تأمل موضوع الخلق والإبداع في الفن، متخذين من مثال «الدمية المحطمة» سبيلاً إلى المعالجة والتبصر والنفاذ إلى أفق أعلى. فكل منهما قد غدا أسير إبداعه المتحقق في هذا المثال الفني الرفيع، المتقن الصنع في شكل دمية تبلغ من الجمال ما تخلب به لُبّ مبدعها، فتستولي عليه، وتجعله منقطعاً إليها، ومأخوذاً بها، إلى درجة التقديس والتوثين، التي تجعل الفنان يعنو لصنيعه، ويهيم به، ويخلو إليه للتعبّد في محراب جماله.

وإذا كان في ذلك ما يذكّر بأسطورة «بيجماليون»[٣] الذي وقع في حبّ تمثاله البديع، وقد صنعه لأنثى متخيلة أسماها «جالاتيا»، فإن ما ينتهي إليه الأمر في القصيدتين يأتي على خلاف ما تنتهي إليه الأسطورة. هناك يدعو بيجماليون إلهة الحب «أفروديت» أن تبعث في تمثاله الروح. وعندما ما تسجيب له، وتدبُّ الحياة في التمثال يحقق بيجماليون حلمه بالزواج من تمثاله المعشوق. أما هنا، في القصيدتين، فتنتهي علاقة المبدع بإبداعه المجسّد في «الدمية» بأن ينهال عليها تحطيماً، انتقاماً لروحه المغلولة بها، وانتصاراً لآفاق الفن في طموح تجاوز المتحقق بالعلو صوب المثال، ومحاولة الالتحاق بالمطلق. يقول أبو ريشة:

يومَ حَطَمتُ دميتي
على صخور نقمتي
هتفتُ بي: وا فرحتي

عــدت إلى حـريـتـي!

ويقول بدوي الجبل:

أيـا دمـيـةً أنشـأتُـهـا وعـبـدتُـهـا
كما عبد الغاوونَ منحوتَ أحجارِ
سكبتُ بها روحي وأهواءَ صبوتي
وألوان أحلامي وبدعةَ أطواري
جمعتُ بها الدنيا فكانت سلافتي
وكأسي ونُدماني وأهلي وسمّاري
ويا دميةً أنشأتُها ثمّ حطّمتْ
يدايَ الذي أنشأتُ تحطيم جبَّار
جمالكِ من سحري وعطرك من دمي
وفتنتكِ الكبرى خيالي وأشعاري

وعلى الرغـم من التقاء هــذه النتيجة بدلالــة ما انتهت إليه علاقة «مايكل أنجلو» بتمثاله «موسى»، فـإن الفارق بينهما يبقى محفوظــاً، مــن حيــث إن الفنان هنــا أراد لتمثالــه أن ينطق على غــرار «جالايتا»، إذ رأى فيه مــن آيات الكمال الفني ما يتحدّى به أنموذج الجمــال الإنساني، وما يدفع إلى طموح مجاوزة الكتلة الجامدة بإمكان تدفّق الروح في أوصال التمثال.

مــا نسوقه، على هذا المستوى المتعيّن في القصيدتين، يؤكــد ملمحاً بارزاً من ملامح التوجّــه البرناسي، ويلتقي بــه في جعل فن النحت أنموذجاً لعمــل الشاعر. ولاشك أن هذا الربــط، الذي يقضي بإجــراء الشعر على النحــت، وبقياس إبــداع الشاعر على إبداع المَثَّال، هو إقرار بعظمة الفن اليوناني القديم، ودعوة إلى الاقتداء به، من جديد، في خصائص الدقة والإتقان والعناية بالشكل. فقــد كانت غاية البرناسيــين أن يبدعوا في الشعــر مثل تلــك التماثيل، اعتمــاداً على اللفظ والشكل والصــورة، فأخذوا ينحتون العبارات والأشكال نحتــاً دقيقاً، كما يفعل المَثَّال، أو كما يفعل الصائغ إذ ينحت جوهرة بين يديه(٤).

إن حضور الدميــة موضوعاً مركزياً في القصيدتين يحقق بذاته هذا الربط، ويؤكد مسعاه في التركيز على عناية الشعر بالتصوير، أســوة بالنماذج الكلاسيكية اليونانية. وعلى هذا الأساســ نلاحظ أن دميــة الشعر في القصيدتين ليست صنيعاً عادياً، بل هي، في مجال النوعي، آيــة في الإبداع لا تقلُّ سمواً عــن الأصل الجارية عليه في النماذج المشار إليها. وهو ما تذهب إليه البرناسية من جعل الشعر ضرباً من النحت في عالم الألفاظ(٥). واعتماداً علــى تجلية الخصائص الموصولة بذلك من إحكام الربط، ودقة الصنعة، وقوة

الوقع، كان تمجيد الفن لذاته، وتقديس الإبداع بطبيعته، نأياً به عـن كل أشـكال التوظيف والتسخير في مجـالات خارجة عنه. ومن هـذا القبيل ما نقع عليه في القصيدتين من مظاهر تعلّـق الفنـان بتحفتـه الفنية «الدميـة»، ومـن شغفـه بها، وافتتانه بجمالهـا، وانصرافه عن كل ما عداها، وكأنه ناسك يتبتل في معبد «أبولو» إله الشعر المتجلي في حضرتها.



ثانياً: في المعالجة والرؤيا:

كما تلتقي القصيدتان على محور عبادة الفنّ، من خلال استئثار الدمية بلُبّ مبدعها، على النحو الـذي يجعل من الفاعل مفعولاً لإبداعه المتحقق بصـورة خارجية مستقلة عنه، كذلك يجري التقاطع بينهما على فعل تحطيم الدمية التي كفّت التحفز الإبداعي عند صانعها بهيمنتهـا عليه، فأحالته على الفراغ من هذه الجهة، ووقفت نشاطه على ترجيـع مشاعر الهيام بهـا، والانقطاع إلى مناجاتها، والاكتواء بلهب الإبداع الذي صبّه فيهـا. ومن هنـا كان تحطيمها في النصين ينطوي على معنى استعادة الذات الإبداعية لذاتهـا على أفـق التوتـر الخاص بمنحى الخلق والتجاوز، وعلى ضرورة صيانتها من العطالة، والنأي بها عن الركون إلى متحقق إنجازهـا، لأن في ذلك خفضاً لها، وإخماداً لتوهج شرارة الإبداع فيها.

في بنـاء الموضـوع، علـى هـذا النحو، يتبدى ما قلناه واضحـاً عند بدوي الجبل. فهـو يقدّم موضـوع الخلـق الفني بضرب من التنامي الطبيعي، يبـدأ بإنجاز الدمية واستوائهـا تحققـاً إبداعياً فريـداً، يتلوه

الإفصاح عن لواعج الفنان في استكانته إلى ما خلق، وفي تحوله إلى الخشوع أمام ما أبدع، والاستنامة إلى رفعة ما أنجز، حتى ليغدو ذلك الولع بالمتحقق إقفالاً على ممكن الفن، وتهديداً بتيبّس الذات ونضوب منابع الإبداع فيها. وبهذا يكون تحطيم الدمية انتصاراً للمطلق الفني، واعتصاماً بالوحي البرناسي الموصول، عند أعلامه، بإله الشعر على جبل البرناسس. وهو، في الوقت نفسه، انتصار للذات الإبداعية بتسعير لهب الفن المقدّس فيها، وبحملها، من جديد، على ارتقاء معطياتها وجواز مفعولاتها في أفق الفن المحفوز بمطاولة المطلق والانفتاح عليه.

ولذلك يقول البدوي مخاطباً الدمية:

خلقتكِ من أهواء نفسي ونوَّعتْ
بكِ الحسنَ أهوائي وحبّي وأوطاري
فما يُشتهى خَدَّاكِ إلاّ لأنني
تركتُ على خدّيكِ إثمي وأوزاري
وما أسكرتْ عيناكِ إلاّ لأنني
سكبتُ بجفنيكِ الغويين أسراري
أيُنكرني حسنٌ خلقتُ فتونَهُ
فيخنقني عطري وتحرقني ناري
وتُنكرني! يا غضبةَ الشعر والهوى
ويا غضبةَ الدنيا ويا غضبة الباري

في مقابل ذلك، نجد أن عمر أبو ريشة يتخذ في قصيدته منحى أسلوبياً آخر، فيبدأ من حيث انتهت به المكابدة الفنية إلى تحطيم الدمية. وهو فعل يشير، بذاته، إلى سياق متقدم تكتفي العلاقات اللغوية النصية بالإشعار به. وفي اختيار هذه البداية يتجاوز الشاعر التركيز على دفق مشاعره وانفعالاته، فلا يُتيح لها أن تفيض وتتمدّد، كي لا تطغى على حفظ وضوح الموضوع واستقلاله، أو على القصد إلى استجلاء الحقيقة المرجوّة من خلال توجيهه ومعالجته. ولذلك يكتفي بالإلماح، ويترك فجوات السياق مفتوحة، نسبياً، على عمل التلقي وإعادة البناء، مؤثراً انتهاج طريقة في التقديم لها درجة عالية من الموضوعية. فبعد تحطيم الدمية، أملاً باستعادة حريته المسلوبة، يقول:

ومرَّت الأيام بي
عابثةً بسلوتي
فلم تطالعني بنعمى
دمعةٍ أو بسمةٍ!
فلا رؤىً في غفوتي
ولا منىً في يقظةٍ
أيُّ حياةٍ هذه!

رتيبةٍ مملّة،

بعيدةٍ عن مأرب

بريئةٍ من علّةِ

إذا كان تحطيم الدمية موجّهاً برغبة تحرير الذات من استيلاء جمال المنجز الفني عليها، وتوجهاً للعودة بها إلى حالٍ من الطمأنينة المتصورة في الوجود العاري الذي ينخفض فيه التوتر إلى نحو درجة الصفر، فإن وهم الحرية المقرون بالاستسلام إلى الوجود الحيواني العام، بعيداً عن قلق الإبداع وحرارة التوثّب نحو أفق الفنّ والجمال، سرعان ما يتلاشى، ويتكشّف عن ضدّه، إذ يغدو، هو نفسه، قيداً على الذات، يسجنها في إطار الوجود المتشيّئ. وهكذا تكون القصيدة مجالاً للكشف عن حقيقة سامية، يتقرر معها أن الحرية هي قرينة الخلق والإبداع، وصنو المغامرة بالوجود العادي، لتحقيق امتلاء الذات بذاتها عن طريق الفن والجمال. وهو ما يردّ آخر القصيدة على أولها عند عمر أبو ريشة لحفز التجربة الإبداعية نحو مزيد من العلو في أفق المعراج الفني. يقول:

ما لي إلى الماضي أعودُ

ثائرَ التَلَفّت؟

مستعرضاً جراحه

بلهفةٍ وحسرةِ

وا وحشتي في وحدتي

في القيد من حريتي!!

وتأتي جملة الختام في قفلة القصيدة، على عادة عمر أبو ريشة، لتحدث انقلاباً في الأوضاع والتصورات، على النحو الذي يضيء عمق المسافة بين البداية والنهاية، ويكشف عن سمو اللحظة الجمالية، التي هي معقد الحرية، ومناط الخلاص بالفنّ.

ولا شك أن تلك العودة، التي يعطف نحوها السياق، هي فتح جديد لتجربة الإبداع على أقاصي المادة ، تنقية للجوهر فيها، وتنزيهاً للوحي البرناسي عن التعلّق بالشوارد والأعراض، أو عن الركون إلى متحققات الفن، التي هي قيد على مطلقه الذي لا يستنفد. وبهذا المقياس تكون العودة من الصورة الظاهرة إلى القوة الفاعلة لها عودة إلى أعماق الذات الغائرة، حيث يتكثف الوحي البرناسي المأخوذ بمطلق الجمال. وذلك ما ينتهي إليه البدوي في نظرته إلى الفنّ، فيقول متوجهاً إلى الدمية المحطمة:

رددتُكِ للطين الوضيع وما حَنَا
على روضك الهاني هبوبي وإعصاري
وفارقتُ إذْ فارقتكِ الطينِ وحدَهُ
وعادتْ إلى نفسي عطوري وأنواري

ثالثاً: المكوّن البرناسي بين التجربتين:

في تأمل الفوارق اللغوية والأسلوبية، بين قصيدتي البدوي وعمر أبو ريشة، يتضح أن ثمة تفاوتاً في بروز ملامح النزوع البرناسي وانكشاف أثره. ففي قصيدة البدوي تتضافر عناصر المبنى، وتتجلي بقوة حضورها واستقراها أمام الحواس، فتطالعنا مواد التشكيل من صفاء اللفظ وفخامته، ودقة بناء العبارة، وقوة الوقع في القافية، ومتانة النسج، والمواءمة بين الأجزاء، والحرص على اتساق عناصر الشكل. وإن كان يتخلّل ذلك شيء من تسريب المشاعر والإبانة عن خلجات النفس، مما حاولت البرناسية أن تحدّ منه. وهو، على أية حال، لم يكن فوق المحتمل بحيث يعصف بالحدود، ويخلّ بوضوح الصورة.

يقابل ذلك عند عمر أبو ريشة التوجّه نحو الغوص على مطاولة الحقيقة الكلية، ومحاولة إبرازها بعيداً عن الانسياق وراء صور الذاتية وعوالمها الغائمة. ولذلك بدا في نسجه الحرص على جدية المضمون، والمقدرة على صيانته بضبط الانفعال وكبح الشحنة العاطفية، بغية جلاء الموضوع بدرجة عالية من الوضوح، ومن الصفاء الذي لم يتعكر بفيوض الذات. وهو ما رسّخ المحافظة على استقلالية الموضوع، ومكّن شأن العكوف عليه والنفاذ إلى أسراره.

وقد تجدر الإشارة إلى أن ما غاب عن قصيدة عمر أبو ريشة من عناصر المبنى، التي توفّر عليها نصّ البدوي، وجد تعويضه في مهارة التلاعب الفني بوحدات البناء، واستثمار التقديم والتأخير فيها على النحو الذي يحقق ثراء المعالجة بالحفر على درّة الأعماق، واستصفاء الفكرة، وتقديمها في الخارج بمزيد من الصلابة والموضوعية. وذلك مستوى آخر من المستويات التي حرصت عليها البرناسية، في رؤيتها للشعر، يتكامل مع المستوى السابق، ويتجاوب معه، على قاعدة تأكيد النزوع الفني المشار إليه في صدر هذا التناول.

إحالات :

١- عمر أبو ريشة: الديوان، المجلد الأول، دار العودة، بيروت ١٩٩٨م، ص ٢٨٥ – ٢٨٧.

٢- بدوي الجبل: الديوان، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، ط ٢، ٢٠٠٠م، ص ٣٥٩- ٣٦٠.

٣- ينظـر: سهيل عثمان، وعبد الرزاق الأصفر، معجـم الأساطير اليونانية والرومانية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٢م. ص١٩٨.

٤- ينظر: إيليا الحاوي، البرناسية، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠م، ص٢٣- ٥٣.

٥- ينظر: إحسان عباس، فنّ الشعر، دار الشروق، عمّان، ط٤، ١٩٨٧م، ص ٥٢-٥٣.

آفاق المعرفة

نظرية الشعر عند ابن طباطبا

عبد الرحمن عمار *

يُعـدّ كتاب «عيـار الشعر» واحداً من الكتب النقديـة العربية الهامة في مراحلها الأولى، منذ بدايـة العصر العباسي. وقد أثبت حضوره منذ تأليفه في بداية القرن الرابع الهجري ولا يزال حتى الآن، نظراً لما يحتوي عليه من آراء نقدية هامة ومعايير في نقد الشعر وتقييمه تصلح في معظمها لكل زمان ومـكان، ولا أبتعد كثيراً لو قلت إنه في مجمله يشكل نظرية شبه متكاملة، لو نظرنا إليه من منظار زمنه الذي عاش فيه.

* أديب وشاعر سوري

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ومفردة «عيار» التي جاء بها ابن طباطبا كمصطلح نقدي يعني بهــا «مفهوم» الشعر في عرفنــا الحديث، وهــي في اللغة مصدر من عاير المكاييــل والموازين، وهذا يعني أن ابن طباطبا، حين جاء بهذه المفردة، أو هذا المصطلــح، كان يعنــي بذلك تقييــم الشعر ووزن مفاهيمه بميــزان دقيق وحساس، بل وصارم، يذكرنا بقــول الله تعالى: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ» وهذا ما نلمسه في أكثر من موضع من كتابه.

وأول ما يطالعنا به ابن طباطبا في كتابه، هو تلك العبارة التعريفيــة الدقيقة المكثفة المختصرة للشعــر، وأسلوب الدقة والتكثيف والاختصار مع الشمولية المطلوبة، هو منهج اتبعه المؤلف في كتابه بشكل مستمر «الشعر -أسعــدك الله- كلام منظــوم» وهو عنده يختلف عن المنثور «الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خصّ به من النظم الذي إن عُدل به عن جهته مجّته الأسماع وفسد على الذوق». وهنا قد يفهم البعض من هذا القول أن ابن طباطبــا يعني بالنظم الوزن المعتمد في بحور الشعــر، وهذا فهم، إن وجد، ليس في مكانه الصحيــح، إذ لو كان الأمر كذلك لما خرج عمن عرف الشعر حين قال: «الشعر كلام موزون مقفــى» وهو تعريف غير دقيق وغير شامل، وكأني بابن طباطبا أدرك قصور هذا التعرف، فتابع رؤيته بالقول «فمن صحّ طبعُــه وذوقُه لم يحتــج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق بها حتى تصير معرفتــه المستفــادة كالطبع الذي لا تكلف معه».[1]

من خلال قراءتنا لهــذه البداية الهامة التــي استهل ابن طباطبــا الحديث بها عن رؤيته النقدية، أو لنقل عن نظريته الشعرية، يمكــن أن نستخلــص منها عــدة معطيات مختلفة، نلخصها بالتالي:

١- تعدّ الموهبة من الشروط الضرورية التي يجب أن تتوفر عند الشاعر، لكي يأتي بشعــر لا «تمجه الأسمــاع». والمطبوع على الشعر يستطيع أن يصوغ الشعر الموزون دون أن يكون له معرفة بالعروض، بما يمتلكه من سليقــة وحس موسيقي داخلي. وهذا القول يمكن أن يكون إشارة من ابن طباطبا إلى أن شعراء الجاهلية ومن جاء بعدهم في العصرين الإسلامي الأول والأمــوي، قد اعتمدوا في صياغة قصائدهم علــى طبعهم وسليقتهم وإحساسهــم الموسيقــي السليــم وموهبتهم العفويــة الشاملــة، فجاءت تلــك القصائد متفاوتة في تشكيلاتها ومتعددة في إيقاعاتها مع انسجام شبه تــام في تناغمها وأنغامها،

دون أن يكــون لأي شاعر من أولئك الشعراء أية خلفية معرفية بعلم العروض الذي يعود الفضل باكتشافه وترتيبه وتبويبه إلى الخليل ابن أحمد الفراهيــدي، حيث ألّف في هذا العلم عدة كتب، منها (كتاب العروض) وهو أوّل كتاب أُلف في هذا الباب، وكذلك (كتاب النغم) و (كتاب الإيقاع). ومن البدهي القول إن البحور الشعرية التي اكتشفها الفراهيدي وحدد قوالبها جاءت بعــد استقرائه للشعر العربي عموماً، واستناده إلى ما تمتلكه هذه القصيدة أو تلك من أنغــام وألحان خاصة بها وبمثيلاتها من القصائد.

ولا نزعــم القــول ههنــا أن القصائــد الجاهليــة ومــا جــاء بعدها قبــل مجيء الفراهيدي هي مُحكمة الوزن تماماً، وتخلو مــن أي خلــل عروضي أو نشــاز موسيقي، فشعراء تلك العصور ليسوا في سويه واحدة مــن التألق والقــدرة على سبــك القصائد بإحــكام تام، فقد زلّ حتــى الشعراء الكبار منهــم، إذ لم يتمكــن بعضهــم مــن تكوين النغمــات الموسيقية السليمــة عند صياغة جملهــم الشعرية، وقد أشــار الهمذاني إلى موضوع خروج الشعر على سلطة علم العروض وقواعــده في كتابه (الإكليل)، وكذلك شوقي ضيف في كتابه (العصر الجاهلي) حين ذكر أن قصيدة (عبيد بن الأبرص).

أقــفــر مــن أهــلــه مــلــحــوبُ
فــالــقُــطُــبِــيّــاتُ فــالــذنــوبُ

التــي هي مــن مخلــع البسيــط، قلّما يخلو منها بيت من حذف أو زيادة في بعض تفاعيله، قصيدة المرقش الأكبر:

هل بالديار أن تجيب صَمَمْ
لو كان رسمٌ ناطقاً كَلَّمْ

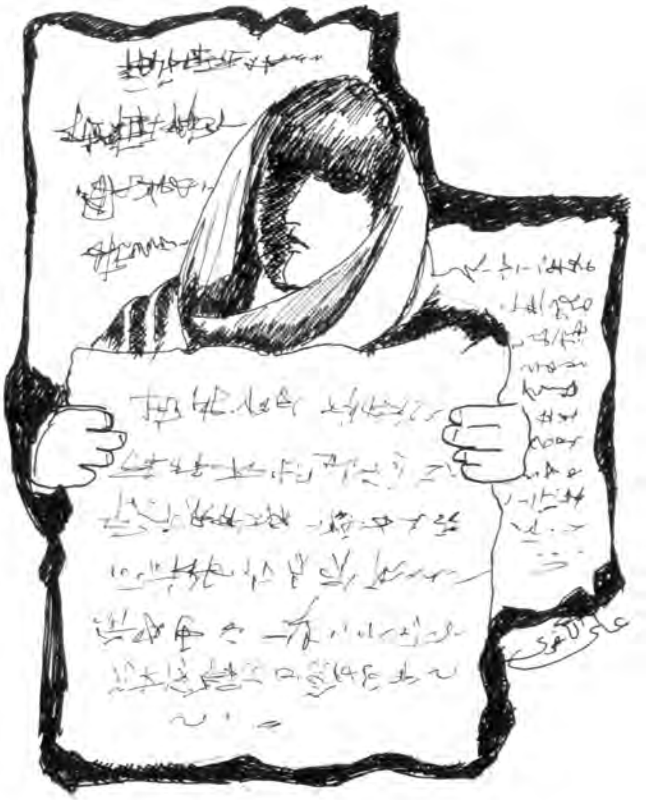
فهي مــن السريع، وقــد خرجت شطور أبياتهــا على هذا الوزن، كالشطر الثاني من هذا البيت:

مــا ذنبنــا في أن غــزا ملكٌ
مــن آل جَفْنَةَ حــازمٌ مُرغَمْ

فإنــه من الكامل. ومنهم من خرج تماماً على أوزان الخليل كنونيــة سُلَمِيّ بن ربيعة الذي يقول فيها:

إنّ شِــواءً ونَشْــوةً
وخَبَبَ البــازلِ الأمــونِ(٢)

إذن لا يشفــع للشعر عنــد ابن طباطبا أن يكــون موزوناً ومقفى حتــى ينال درجة الشعريــة، ما لم تتوفر فيــه المقومات الفنية الضروريــة، وإذا مــا فقد تلــك المقومات، فــلا يختلف عن النثر في شــيء إلا في كونه يمتلك موسيقى عروضيــة لا إحساس فيها ولاإدهاشــن. ولذلــك نستطيــع التأكيد أن العروضــ ليست إلا مجرد موازين أو قوالب تستقــرّ في داخلها البنيــة الشعرية، بكل ما



تحتوي عليه تلك البنية من صور شعرية ودلالات أو رموز.

٢- لو كان ابن طباطبا قريب العهد منا زمنياً لقلنا إن في كلامه التالي «فمن صحّ طبعُه وذوقُه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق بها» إيحاءً وإشارةً للنثر الشعري أو القصيدة النثرية التي بدأت تسود منذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين، فإذا اعتمدت الصياغة الأدبية على الطبع الصحيح والذوق السليم ضمن المعايير والمقومات الشعرية، فإن تلك الصياغة (النثرية) تدخل في نطاق القصيدة الشعرية، والعكس أيضاً صحيح، فمن جاء بنص موزون ومقفى وحسب، أي خال من كل ما يجب أن تحتوي عليه القصيدة من ألق شعري متواصل أو متقطع، فهو يُعدّ، في مثل هذه الحالة، نصاً منظوماً يدخل في باب النثر البارد الذي لا يشفع له لا إيقاع ولا قافية.

٣- والملاحظ في عبارته الأخيرة «حتى تصير معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه» أن فيها إشارة هامة إلى مسألة ما نطلق عليه اليوم «التجربة الشعرية» بمعنى ضرورة ممارسة الكتابة الشعرية باستمرار حتى تجعل من يقرض الشعر دون طبع يقترب من الطبع، أو بتعبير أوضح يصنع

لنفســه لوناً مــن الموهبة المقبولــة، وبذلك يصبــح أسلوبه في التعامل مع الشعر مريحاً «لا تكلف معه».

❀ ❀ ❀

وقد أدرك ابن طباطبا أن الموهبة وحدها لا تكفي لتجعل الإنســان شاعراً والقصيدة ذات مقومــات شعرية متكاملة أو قريبة من التكامــل، وإنما تحتــاج إلى الثقافة العامة التــي يجب على الشاعر أن يمتلكها ويحيط بها، لتكون الموهبة والثقافة كجناحي الطائر الشعري، إن صحّ التعبير. وهذا ما أشار إليه في الفقــرة الثانية عند حديثــه عن أدوات الشعر التي هي بحــد ذاتها الثقافة العامة التي أشرنا إليها، حين قال: «وللشعر أدواتٌ يجب إعدادها قبــل مَرامه (الشعر) وتكلّف نظمه، فمن نقصت عليــه أداةٌ من أدواته لم يَكْمُــل له ما يتكلّفه منــه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة». وهنا يضعنا ابن طباطبا أمام نظام لا يسر الكثير من الشعــراء، نظراً لصرامته وتعدد حالات شروطه، بحيث لا يجب على من يريد قرض الشعــر والتعامــل معه أن يخــل بجزء ولو بسيــط منه، على الرغم من صعوبة تطبيقه بشكل متكامل.

ومــن تلــك الأدوات التــي ذكرهــا ابن طباطبــا: التوسع في علم اللغة، والبراعة في علم الإعراب، والرؤية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهــم ومناقبهم ومثالبهم، والوقــوف على مذاهب العرب (في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فن قالته العرب فيــه وسلوك مناهجهــا في صفاتها ومخاطباتهــا وحكاياتهــا وأمثالها، والسنن المستعملــة منهــا، وتعريضهــا وتصريحها، وإطنابها وتقصيرهــا، وإطالتها وإيجازها، ولطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن مباديها، وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنــى حظه من العبارة، وإلباسه مــا يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وابهــى صورة، واجتناب مــا يشينه من سفاســف الكلام وسخيــف اللفظ، والمعاني المستبردة والتشبيهــات الكاذبة، والإشارات المجهولــة والأوصاف البعيــدة، والعبارات الغثة..».(٣)

إن المتأمــل جيــداً في هــذه العبــارات النقدية، أو الأدوات الشعرية، كما سماها ابن طباطبا، يدرك أنه أمام ما يشبه العناوين أو رؤوســ الأقلام لمنهج يكاد يقترب من نظرية شعريــة متكاملــة. فهو يبــدأ أولاً بضرورة امتلاك ما نسميه؛ العوامل المعرفية، لتكون قاعــدة انطلاق إلى رحاب الإبداع الشعري، وقد أورد فيما بعد مثالاً على الأسلوب الذي تعاطاه الكثــيرون واتبعه الأقدمون من قبله

والمحدثون في عهده، عندما ذكر أن عبد الله القسري قـال: «حفّظني أبي ألف خطبة ثم قال لي تناسها، فتناسيتها، فلم أُردْ بعد شيئاً من الكلام إلا سهل علي». ويعدّ ابن طباطبا أن ما حفظه عبد الله القسري من خطب، كان «رياضة لفهمه، وتهذيباً لطبعه، وتلقيماً لذهنه، ومادة لفصاحته، وسبباً لبلاغته ولَسَنِه وخطابته»(٤). وهذا يعدّ جانباً معرفياً من الجوانب الأخرى التي يشترطها ابن طباطبا، وتتلخص بـ «التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب.. والوقوف على مذاهب العرب (في تأسيس) الشعر». هذه هي منصة الانطلاق، إن صح التعبير، عند ابن طباطبا، للبدء بقرض الشعر الذي هو المرحلة الثانية من مراحل منهجه النقدي، إذ يجب على الشاعر أن يتصرف بمعاني شعر الأقدمين في مختلف فنونه من فخر وهجاء ونسيب ورثاء، لا أن يتناولها أو يقلدها وينسج على منوالها، كما يتبادر للذهن من كلامه.

أما المرحلة الثالثة التي يجب على الشاعر سلوكها ليكون شعره «كالسبيكة المفرغة والوشي المنمنم» حسب تعبيره، فهي القدرة والتمكن من «إيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله (أي ما يماثله ويناسبه) من الألفاظ حتى يبرز في أحسن ذي وأبهى صورة (في إشارة منه إلى تلاحم الشكل والمضمون) «واجتناب ما يشينه من سفاسف الكلام وسخيف اللفظ والمعاني المستبردة والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة».

ثم يكرّر فيما بعد تعاليمه النقدية، أو التأكيد على نظريته الشعرية، ولكن فيما يتعلق بالمرحلة التالية من العملية الشعرية، وهي المرحلة التنفيذية التي يبدأ فيها الشاعر ترتيب مشاعره وأحاسيسه في الذهن، ثم تسطيرها على الورق من بعد ذلك . كما في قوله التالي:

«وينبغي للشاعر أن يتأمّل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قُبْحه فيُلائم بينها لتنتظمَ له معانيها، ويتصلُ كلامُه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فضلاً من حشوٍ، ليس من جنس ما هو فيه، فيُنسي السامعَ المعنى الذي يسوق القول إليه . كما أنه يتحرّز من ذلك في كل بيت، فلا يباعد كلمة عن أختها، ولا يحجز بينها وبين أختها بحشوٍ يشينُها».(٥)

وفي أبحاثه التطبيقية يورد نماذج كثيرة من «الأشعار المحكمة، المُتقَنَة، المُسْتَوْفاة المَعاني، الحسَنَة الوَصف، السلسلة الألفاظ التي قد خرجت خروج النثر سهولةَ

وانتظاماً، فلا استكراه في قوافيها ولا تَكَلُّف في معانيها..»[٦] ومن تلك النماذج ما ذكره لزهير بن أبي سلمى من معلقته:

رأيتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَن تُصِبْ
تُمِتْهُ، ومَن تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فيُهْرَمِ
ومن لا يُصانِعْ في أُمورٍ كثيرةٍ
يُضَرَّسْ بأَنْيابٍ وَيُوْطَأْ بِمَنْسِمِ
وأَعْلَمُ ما في اليوم والأمس قبله
ولكنَّني عن عِلْم ما في غَدٍ عَمِي

وما ذكره أيضاً لأبي ذؤيب الهذلي، ص٨٤:

أَمِنَ المَنونِ وريْبِها تَتَوَجَّعُ
والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ
وإذا المَنِيَّةُ أنْشَبَت أظفارَها
أَلْفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنْفَعُ
والنَّفْسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبْتَها
وإذا تُرَدُّ إلى قَليلٍ تَقْنَعُ

ولعلَّ هذه القواعد الصارمة التي أتى بها ابن طباطبا توافق العقل أكثر مما توافق الأحاسيس، وقد يتبادر للذهن أن ناقدنا قد أغفل الجوانب الذاتية في صياغة النص الشعري، وهذا ما أشار إليه أحد النقاد المعاصرين حين رأى أن اهتمام النقاد القدامى «كله منصب على أن الشعر صنعة تُتعلم بالمران والخبرة، مع تجاهل الجانب الذاتي في الشعر، وهو الشاعر المبدع، وما يتعلق بانفعالاته وأحاسيسه وقدرته التخييلية».[٧]

ومع تقديري لهذا الرأي المصيب في كثير من الحالات ولرأي الكثيرين ممن ذهبوا هذا المذهب، إلا أنني أرى أن النقاد القدماء لم يهملوا تماماً هذا الجانب الهام، ولعل ابن طباطبا كان الأوضح مقاربة في عدم إغفال الأحاسيس والانفعالات الذاتية ودورها في صياغة القصيدة، فها هو يقول موجها كلامه إلى المتلقي والشاعر معاً: «والنفسُ تَسْكُنُ إلى كلِّ ما وافَقَ هَواها وتَقْلَقُ مما يُخالِفُه، ولها أحوالٌ تتصرَّفُ بها، فإذا وَرَدَ عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزَّت له وحَدَثَت لها أَرْيَحِيَّةٌ وطرَبٌ وإذا ورَدَ عليها ما يخالفها قلقَت واستوحَشَت».[٨]

ولا أظن أن الشاعر، وهو يمارس الكتابة الشعرية، يخرج عن هاتين الحالتين؛ حالة الأريحية والطرب أو حالة القلق والاستيحاش، مهما كان غارقاً في لجة الإبداع الشعري وما يرافقه من التوتر الجسدي والانفعالات النفسية والأطياف الخيالية، فقد يخطر في ذهنه وخياله العديد من العبارات البلاغية المناسبة وغير المناسبة، ومن الصورة الشعرية المبتكرة وغير المبتكرة، ومن المعاني الملائمة وغير الملائمة. وهنا يأتي دور الناقد الصارم القابع في ذات الشاعر الذي يعيش فعلاً

حالتين متناقضتين في أثناء إبداع القصيدة، أي في أثناء ما يرد على النفس والبال من تشكيلات شعرية متنوعة، فيثبت على الورق في المرحلة الأخيرة من كتابة القصيدة ما يستهويه ويرضيه، ويلغي ما هو خلاف ذلك . وهذا يتم بشكل عملي منذ تسطير أول عبارة شعرية وحتى تعديل وتنقيح آخر عبارة من القصيدة .

❀ ❀ ❀

وبعد أن حدد ابن طباطبا مفهوم الشعر وأدواته، ينتقل إلى كيفية بناء القصيدة، والإجراءات التي يجب أن يتبعها الشاعر أثناء صياغته لها، وهنا يذكرنا بأسلوب زهير بن أبي سلمى وقصائده الحوليات التي يظل،كما تقول الروايات، حولاً كاملاً في تقييم القصيدة وتعديلها وتنقيحها، حتى يتم الرضا النفسي عنها . وقد كان ابن طباطبا، كما عهدناه، دقيقاً ومفصلاً في الخطوات التي يجب أن يسير عليها الشاعر قبيل كتابة القصيدة وأثناءها .

وفي الفقرة التي سأثبتها تؤكد على أن ابن طباطبا قد أسس قاعدة تامة ومتكاملاً لبناء القصيدة، وهذه القاعدة لا أزعم أنها ابتداع نقدي جاء به ابن طباطبا، ولكنه رصد دقيق مستحدث في زمانه للحالة التي يعيشها كل شاعر أثناء تكوين القصيدة وإبداعها وربما ساعده على دقة هذا الرصد كونه مارس كتابة الشعر، وأراد أن يرصد هذه الحالة بدقة متناهية، وهي، فيما أعتقد، حالة متواترة ظهرت منذ نشوء أول قصيدة في العصر الجاهلي واستمرت حتى الآن، ولم يشذ عنها ولن يشذ أحد من الشعراء، لا في الماضي ولا في الحاضر إلا أحياناً، وفي بعض الجوانب الجزئية فقط . يقل ابن طباطبا : «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مَخَضَ المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً، وأعدّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافق، والوزن الذي سلس القول عليه، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه بل يعلّق كل بيت يتفق له نظمه على تفاوت ما بينه وبين ما قبله، فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفق بينها بأبيات تكون نظاماً لها، وسلكاً جامعاً لما تشتت منها . ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه، ونتجتّه فكرته فيستقصي انتقاده، ويروم ما وَهَى منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية».(٩)

هذه هي القاعدة التي صاغها ابن طباطبا، أو بتعبير أدق كشف عنها الغطاء

وأوضحها وأعلنها على الملأ، بعد أن كانت في كثير من الأحيــان، وفي بعض حالاتها، شأناً من شؤون الشاعــر أو لنقل سراً من أسراره الخاصــة. إن كل شاعر يطلع بقصيدته بعد الانتهاء من صناعتها وإتقانها الإتقان الذي اقتنعت به نفسه ورضيت عنه، ويضعها بين أيــدي الناس دون أن يلتفت كثيراً، لا هو ولا المتلقي، إلى إظهار الكيفية التي تمت بها تلك الصناعة أو الصياغة الشعرية، لاعتقاده أن ذلــك ليس من الأهميــة في شيء، فالكيفية تكاد تتشابــه عند الشعــراء كافة، وحسب الشاعــر أنه أبــدع قصيدته وخرج بها على النــاس، وحسب المتلقي أنه يتناول القصيدة بقراءته الاستمتاعية أو النقدية. ولكن الملفت أن ابن طباطبا اهتم بهذا الجانب من حياة الشاعر الداخليــة، وقام بتفصيله التفصيل الذي تحول إلى قاعدة مسبوكة بإتقان، تكاد تنطبــق على كل شاعر أثنــاء محاولته كتابة القصيدة.

ولو عدنــا إلى محتوى الفقــرة السابقة من كلام ابن طباطبــا لخرجنا بالتصورات التالية:

١- إن أول مــا يقوم به الشاعر عندما تتكون في أحاسيسه الرغبة بكتابة القصيدة، هــو «محض المعنى» كما قــول ابن طباطبا، أي البحث عن فكره أوليــة، يقلّبها الشاعر في ذهنــه على وجوهها كافــة، نثراً لا نظماً وذهنياً لا كتابة .

٢- الفكــرة الشعريــة هــي أولاً مادة هيوليــة عشوائيــة شبه بدائيــة، ومادامت كذلك، فالألفاظ اللغوية تظل تدور في فلك الفكرة وحولها بشكل غير محدد ولا متناسق، إذ لم تصبح تلك الألفــاظ بعد حاملاً فعلياً لتلك الفكرة ومتماهياً معها في الوقت نفسه، فحالهــا تماماً كحال الالكترونات التي تدور حول نواة الذرة المادية، مع فارق بسيط، هو أن الالكترونات تكون متشابهة في محتوياتها، بينما الألفاظ مختلفة في أشكالها ومعانيها، وأن الالكترونــات تظل تــدور بنمط آلي في محاورهــا حول النواة، بينمــا يعمل الشاعر على مزج الفكــرة والألفاظ أو تعديلها المرة بعد الأخرى، ثــم أخيراً يتم التحامهما معاً، ليشكلا في النهاية جسد القصيدة، وروحها وحياتها.

٣- ولا يبــدأ معنــى البيــت الشعري بالتشكل والتوضح والتلاؤم إلا عندما يُلبسه الشاعــر ما يناسبه من الألفاظ، وما يوافقه مــن القــوافي والــوزن، وهذا لا يتــم بيسر وسهولة، وإنما بعد جهد فكري ومشقة وعناء في الذهن واضطــراب وتوتر في الإحساس، عــبر إثبات لفظــة هنا وعبــارة هناك، ثم تغيير هذه اللفظــة أو العبارة، والاستعاضة

عنها بمـــا يرضي الـــذات الشاعرة ويتلاءم مـــع المعنى، ويسمو به نحـــو التألق الفكري والجمال الفني.

٤- يؤكد ابن طباطبا على أن الشاعر لا يبدع قصيدته عفو الخاطر، كما يقال، أي بشكل تسلسلي، يتـــم فيه إبداع البيت الأول ثـــم الثاني.. وهكذا حتـــى البيت الأخير من القصيدة، فهـــذا لا يحدث أبداً، ولا يقر به أحد، ومن يدعي ذلك، فادعاؤه غير صحيح، إلا في حالة البيت أو البيتين أو الثلاثة على أبعد تقدير. أما الواقع الذي يعيشه الشاعر في أثناء كتابة القصيدة، فهو أنه يكتب على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول «أي أنـــه يمكن أن يكتـــب عدة أبيـــات، منها ما يلائم الوقوف على الأطلال مثلاً، ومنها ما يلائـــم وصف الناقة، أو الفخـــر أو الهجاء، وإذا صادف أنه خرج ببيتين أو ثلاثة تتلاءم مـــع فن واحد من فنون الشعر أو غرض من أغراضـــه، فإنها قد لا تتـــلاءم مع الأسلوب التسلسلـــي المنهجي، الـــذي يتناسب فيه ما بعد، مع ما قبلـــه . والخلاص هو استمرار المعاناة عند الشاعر حتى تكتمل «له المعاني وتكثر الأبيات» ثم يوفق بينها، إما بنقل بيت من مـــكان إلى أخر، أو نقل هـــذا إلى أعلى وذاك إلى أسفل، ويظـــل يمارس على نفسه النقد الصارم، فيضيف هذا البيت أو يبدل ذاك أو يغير هذه اللفظة بأخرى أنقى وأجود منهـــا، حتى يجهد نفســـه، ويصيبه نوع من الإشباع أو عدم القدرة أبداً على التبديل أو التغيير، وعندئذ يكون قد رضي عن قصيدته واعتبرها تامة في جودتها وحسنها وأناقتها، وهذا ما عبر عنه ابـــن طباطبا بقوله «فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات، وفق بينها بأبيـــات تكون نظاما لها، وسلـــكا جامعا لما تشتت منها. ثم يتأمل ما قد آداه إليه طبعه، ونتجته فكرته، فيستقصي انتقاده، ويروم ما وهي منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية».

٥- وإذا قلنـــا إن كل معنـــى في البيت الواحد يشابه، من حيث المبدأ، الذرة المادية، فإن التحام مجمل الأبيات الشعرية المتناسبة معنـــى ومبنى، يـــؤدي إلى خلـــق القصيدة وتشكيلها، تماماً مثلما تشكل مجمل الذرات قطعة فنية، يكون جوهرها من معدن الذهب أو النحاس أو الحديد.

هذه هي المراحل التي يجب على الشاعر اتباعهـــا. فهل ينكر أي شاعر منا أنه لا يمر بتلك المراحـــل التي حددها ابن طباطبا من أجل صياغـــة القصيـــدة ..!!؟. صحيح أن لـــكل شاعر نمطا ذاتيا خاصـــاً يسلكه أثناء كتابة قصيدتـــه، وصحيح أيضاً أن الأنماط يمكن أن تتعدد بتعدد القصائد التي يكتبها

هذا الشاعر أو ذاك، نظراً لخصوصية ما يمتلكه كل شاعر من طاقة نفسية وفكرية واجتماعية، وحتى جسدية.. ولكن الصحيح أيضاً أن هذه الأنماط لا تخرج عما حدده ابن طباطبا في هذا الصدد إلا خروجا طفيفاً، يكاد لا يؤثر في عمومية ما نظر له ابن طباطبا.

والطريف في الأمر أنني، وقبل أن أطلّع على رأي ابن طباطبا في كيفية كتابة القصيدة، قد كتبت قصيدة مطولة ومؤلفة من خمسة مقاطع مرقمة، عنوانها «ولم تأت القصيدة» وهو عنوان المجموعة الشعرية ذاتها التي صدرت لي عن اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٩٩، وكشفت فيها عما يعانيه الشاعر من جهد ومشقة وقلق واضطراب في أثناء إبداع القصيدة، وكأنني ألخص، شعراً، ما ذهب إليه ابن طباطبا في هذا الموضوع. وكان بودي أن أقدم القصيدة كاملة، لأبين مدى التقابل بين الموقف النقدي النظري والموقف الشعري العملي في هذا الموضوع، ولكنني أحجمت عن ذلك نظراً لطول القصيدة، ولذلك سأسمح لنفسي أن أقدم المقطع الثاني منها فقط.

يجلسُ الآن وراء الطاولةْ
حائراً كيف يلاقي نجمةَ الإلهامِ
ما بين ملايين النجوم السابلةْ
في ندى عينيه شبّتْ زهرةٌ حَيْرى.
وفوق الطاولةْ
بُعثرَتْ بضعةُ أشياءَ؛
هناك الورق الأبيضُ المنتظرُ الغافي
على أجنحة الوقتِ.
وفنجان من القهوةِ
تختالُ على صفحته رائحة الهال،
وعينٌ راحلةْ.
في فضاء الغرفة العابقِ بالأشجانِ.
كم يُبصر في غرفته..!!
ذلك فيضٌ من كوابيسَ حَسانٍ..
تلك أسرابٌ من الطير الخرافيِّ الترانيم،
وهذي خفقاتٍ ذابلةْ
أطلقتها وردةُ الروح.
فهل ينزفُ حالُ الشعرِ..!!؟.
أم تنكسرُ الرؤيا،
وتطفو فوق جدران الزمان القاحلةْ..!!؟.
هذه راحته، يحملُ فيها قلماً،
ظلَّ زماناً صامتاً، تفتلُه في حَيْرة الطفل الأصابعُ،
ولا يقوى على تشكيلِ حرف مُبْهَماً
يعجَزُ أن يكتبَ حتى الفاصلةْ.
فرأى أن من الخير إذا ما قام من مقعدِه.
قام، وقد حاصَ قليلاً ههنا، ثم هنا،
جرّبَ أن يقرأ شيئاً من كتابٍ أو جريدةْ
علّه يفتحُ باباً لانطلاق الحافلةْ..
علّه يَلْقَى كليمَ الشعر..

تأتيه القوافي كالغزالات.
هو الحُلمُ الذي يسعى إليه كي يَصيدَهْ.
إنما لمّا يزلْ أبيضَ ذاك الورقُ
وبقايا القهوة المرّةِ في الأعصابِ،
والأعصابُ يلتفُّ عليها الأرَقُ
ما الذي يفعلُه بعدُ..؟!!! وقد جاهدَ كي تأتي،
ولم تأتِ القصيدةْ.

❁ ❁ ❁

الإشارة إلى الومضة الشعرية

إن الإيجاز أو التكثيف، بلغة هذا العصر، هو غاية البلاغة عموماً وغاية الشعر خصوصاً وغاية غايات الومضة الشعرية على الأخص. فابن طباطبا بعد أن يعدّ الشاعر في تعامله مع المفردات والكلمات عند كتابة القصيدة «كناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها» [١٠]، وبعد أن يبين ضرورة وقوف الشاعر «على مراتب القول والوصف في فنّ بعد فن، ويتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته وحكاياته»[١١]، فإننا نجد ابن طباطبا يصل إلى عامل التكثيف القريب من مفهوم ما يسمى في الوقت الراهن بالومضة الشعرية حينما قال«فإذا استقصى (الشاعر) المعنى وأحاط بالمراد الذي إليه يسوق القول بأيسر وصف وأخف لفظ لم يحتج إلى تطويله وتكريره»[١٢]. من هذا المقبوس الأخير يتبين لنا أن ابن طباطبا أشار بوضوح إلى قضية التكثيف الشعري وضرورة الوقوف عنده بعد استيفاء المعنى، وعدم تخطيه إلى التكرار والإطالة، وهي إشارة تقترب كثيراً من مفهومنا للومضة الشعرية التي أخذ النقد الحديث يتناولها في الوقت الحاضر بالبحث والدراسة والتحليل والاستقصاء، وإن كان الحديث نقدياً عن كينونة الومضة الشعرية وعواملها الفنية لم يزل في بداياته الأولى، حيث لم يتضح بعد المفهوم النقدي لهذا المصطلح.

الإشارة إلى دور المتلقي

وإذا أردنا أن نحمّل أقوال ابن طباطبا فوق ما يمكن أن تحتمل، لقلنا إنه أشار مبكراً إلى دور المتلقي في قراءة الأثر الشعري وإلى تعدد القراءات التي تدعو إليها النظريات النقدية الحداثوية كالبنيوية والتفكيكية، حين أكد على أن «الأشعار هي متفاضلة في الحسن على تساويها في الجنس. ومواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم واختيارهم لما يستحسنونه منها، ولكُلٍّ اختيارٌ يُؤْثِرُه وهوى يتبعُه وبِغْيَةٌ لا يَستبدِلُ بها ولا يُؤْثِرُ عليها»[١٣].

إن هذه العبارات الأخيرة المظلّلة يمكن أن تكون حجر الزاوية في فهمنا لأفكار ابن

طباطبـا فيما يتعلق بالقـراءة الثانية ودور المتلقـي في تكوين النص عبر فهمه الخاص لما يحتويـه ذلك النص مـن عوامل دلالية وإيحائية وجمالية.

تلازم اللفظ والمعنى

يُعـدّ تـلازم اللفـظ والمعنـى عند ابن طباطبا من بين أهم العوامل الفنية الواجب توفرهـا في القصيـدة الشعريـة، وهذا ما نجده عندما فرز الشعر إلى نوعين مختلفين؛ الأول «أشعار مُحْكَمَةٌ مُتقَنَة، أنيقَةُ الألفاظ، حكيمةُ المعاني، عجيبةُ التأليف، إذا نُقضَت وجُعلَت نثراً لم تَبْطُل جَوْدَةُ معانيها، ولم تَفْقِد جزالة ألفاظها.. كالقصور المُشَيَّدّة والأبنيَةِ الوَثيقَةِ الباقيةِ على مر الدَّهور».(١٤)

نفهم ممـا قاله ابن طباطبـا عن النوع الأول، علـى وضوحـه، أنـه يجـب علـى القصيدة الشعرية أن يتلازم فيها اللفظ مع المعنى ملازمة لا يمكن فيها فصل أي واحد منهما عن الآخر، وأن يتوازيا توازياً بحيث لا يتباعد فيه سبك الألفاظ عن توارد المعاني، وبذلك يتماهى السبك والمعنى تماهياً يجعل من الصعب جداً استخلاص الأول من الثاني أو الثاني من الأول.

وهو يؤكد في مكان آخر على النوع الأول، أي تـلازم اللفظ والمعنى، حين قال «وإذ قد قالت الحكمـاء أن للكلام جسـدا وروحاً، فجسده النطـق وروحه معناه، فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفه مقبولة مستحسنـة مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه.. فيحسنه جسماً ويحققه روحاً، أي يتقنه لفظاً ويبدعه معنىً، ويجتنب إخراجه على ضد هذه الصفة..»(١٥)

ونحـن هنا لا ندّعي أن ابن طباطبا كان السباق إلى مثل هـذه الفكرة النقدية، فقد تناولها معظـم النقاد العرب قبله تناولاً قد يتقارب أو يتباعد مع ما جاء به ابن طباطبا، وهذا مـا تحدثنا عنه بالتفصيل في الفصل الثاني مـن هذا الكتاب حينمـا استعرضنا نظرية اللفظ والمعنى عند النقاد القدماء.

أمَّـا النوع الثاني الـذي تحدث عنه ابن طباطبـا، فهو «أشعار مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهـام إذا مـرَّت صفحاً، فإذا حُصِّلت وانتُقـدت بُهرجت معانيها، وزُيفت ألفاظها، ومُجَّت حَلاوتُها، ولم يصلح نقضها لبنـاء يستأنف منه.. كالخيـام الموتدة التي تُزعزعها الريـاح، وتُوهيها الأمطار، ويُسرع إليها البلى، ويخشى عليها التقوُّض»(١٦).

وممـا يلفـت في قول ابـن طباطبا عن هـذا النوع مـن الشعر، أننا نجـده متوفراً في شعرنـا العربـي الحديـث، ولاسيما في قصيدة التفعيلة وقصيده النثر، حيث اهتم بعض الشعـراء بأساليب تكون فيها صياغة

الكلام بعيــدة عن المعنى وقريبــة جداً من البهرجــة اللفظية، فالفكــرة ليست هدفاً، بل غاية الغايات عندهــم هي الالتفات إلى تهويمــات كلامية، تستنــد إلى معطيات في الجملــة البلاغية والصــورة الشعرية، هي أقــرب إلى الاستهجان والاستغراب منها إلى إدهاش القارئ وإمتاعه والتأثير في وجدانه، وبذلك نقضوا أساساً فنياً من أسس العملية الشعرية، وهــو أساس تلازم اللفظ والمعنى، وانطبــق على قصائدهم قــول ابن طباطبا «أشعــار مزخرفة عذبــة، تــروق الأسماع والأفهــام إذا مــرت صفحاً، فــإذا حُصِّلت وأنتقــدت بهرجــت معانيهــا ..» أي ظهرت رداءة تلك المعاني وسطحية تلك الألفاظ.

وهنــا لا بد مــن الإشــارة إلى أن بعض الاحتجاجــات قد تصدر مــن هنا أو هناك مدّعيــة أن وراء تلك «التهويمات الكلامية» رموزاً خلابة ودلالات عميقة، لا تستبين ولا تتكشف إلا أمــام كل ذي عقل سديد وذهن بصير.

❁ ❁ ❁

وخلاصــة القــول إن ابــن طباطبا، في كتابه «عيار الشعر» قدم رؤى نقدية متعددة هي أقرب إلى النظريــة الشعرية المتكاملة، نظــراً لمــا اشتملت عليــه أفكاره مــن آراء نقدية مستجــدة، لم يتطرق إليها من سبقوه أو عاصــروه من النقاد، وتلك الآراء ما تزال تمثــل دعامات صالحة للكثــير من مفاهيم النقد الحديث.

فالشاعــر عنده ليس ذلــك الذي يتقن العروض والقافيــة، بل مــن يمتلك الطبع الصحيح، أما من اضطرب ذوقه فلا تشفع له معرفته بعلم العروض والقافية، وما يأتي بــه في مثل هذه الحالة يعــد نظماً باهتاً لا شعراً. وهذه إشارة منه إلى أن النثر يمكن أن يقــترب من الشعر فيما إذا امتلك بعضاً من المقومات الشعرية.

وابن طباطبا وضع نظاماً لقرض الشعر، أو بتعبــير أصــح رصــد الحالــة النفسية والإنسانيــة التي يمــر أو يجب أن يمر فيها الشاعــر عند إبداعه للنصــ الشعري. كما أنه أشار إلى مــا نطلق عليه اليوم «التجربة الشعرية» حين أكد على أن الموهبة لا تكفي لكي يصبح الشاعر شاعراً، وإنما يجب عليه أن يكتســب الكثــير من المعــارف الشعرية، لتعينــه في عملية الإبداع الشعري، فالمعرفة المستفادة كالطبع الذي لا تكلف فيه.

وتحدث بشكل مبكر عن وحدة القصيدة، موضحاً ذلــك غاية التوضيــح، وباختصار وعمق شديدين، وأكــد على وجوب تماسك القصيــدة شكلاً ومضمونــاً وعدم انفصال بنيتها اللفظية والمعنوية منذ ابتداء القصيدة

وحتى نهايتها، وهذا ما تناولناه في الفصل الثامن الخاص بوحدة القصيدة.

وكان موضوع السرقات الشعرية من جملة ما تناوله ابن طباطبا مع غيره من نقاد ذلك العصر، وقد دفعه بحثه في ذلك إلى نتيجة، قلّما وصل إليها غيره من النقاد، وهي ما يطلق عليه النقد الحديث مفهوم التناص، وهناك أكثر من إشارة حول مفهوم التناص يمكن استخلاصها من عبارته التي يقول فيها «كلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض» أو عبارته التي ينفي فيها التفرد التام عند أي شاعر مهما كان عظيماً في شعره «فمن هذا الذي تعرّى من الاتباع وتفرد بالاختراع والابتداع». وسوف نتحدث بشكل موسع في موضوع التناص عند ابن طباطبا في الفصل التاسع من هذا الكتاب.

وبكلمة مختصرة نقول: لقد اشتمل نقد ابن طباطبا على العديد من القضايا التي سبقت عصره، ولا تزال صالحة حتى الآن في الوقت الراهن.

المراجع

١- انظر «عيار الشعر» لأبي الحسن ابن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق الدكتور عبد العزيز ابن ناصر المانع، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق ٢٠٠٥، ص٥-٦.
٢- انظر د.شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص١٨٤-١٧٥، وكذلك الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ٩، دار العلم للملايين بيروت ودار النهضة بغداد، ط ٢، ١٩٧٨، ص٢٠٩-٢١٠.
٣- ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٦-٧.
٤- المصدر نفسه، ص ١٥.
٥- المصدر نفسه، ص ٢٠٩.
٦- المصدر نفسه، ص ٨٢.
٧- د. أحمد علي نبهان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٠، ص٣١٤.
٨- ابن طباطبا، المصدر السابق، ص٢١.
٩- المصدر نفسه، ص ٨-٩.
١٠- المصدر نفسه، ص ٨.
١١- المصدر نفسه، ص ٩.
١٢- المصدر نفسه، ص ٩.
١٣- المصدر نفسه، ص ١٠.
١٤- المصدر نفسه ص ١١.
١٥- المصدر نفسه ص ٢٠٣.
١٦- المصدر نفسه، ص ١١.

آفاق المعرفة



ظاهرة ضعف النخب باللغة العربية

حسين حمدان العسّاف ❋

كلمة أولى

لايــكاد يمر يوم إلاّ وتصب الإذاعات والفضائيات العربية على مسامعنا سيــلاً من مقابلات أو خطب أو تصريحــات لمسؤولين كبار في مواقع قيادية متقدمة، يتحدثون فيها عن علاقات بلدانهم مع بقية بلدان العالم أو عن أزمة أمتهــم الراهنة، أو عن أحداث الساعــة بلغة يستمع إليها ملايين العرب من المحيط إلى الخليج.. وسيأخذك العجب كل مأخذ لركاكة لغتهم التي تهشمها ألسنتهم تهشيماً، وتمزّق أوصالها تمزيقاً، فتحسبهم لايفقهون في اللغة شيئاً،

❋ كاتب سوري

العمل الفني: الفنان محمد غنوم.

ولا يلمــون بأبسط مبــادئ قواعدها، كأنها كانت

غائبة عنهــم منذ دخولهم المدرسة حتى تخرجهــم وحصــول بعضهم علــى شهادة الدكتــوراه، ويتســاءل المرء، وبحــق، كيف حصــل هــؤلاء المسؤولون علــى شهاداتهم، وهم بهــذا الضعف الشائن في اللغة؟ وكيف تتهافــت شهــادة الدكتــوراه إلى المؤسسات الرسميــة القيادية في غــير بلد عربي حتى كادت أن تغصــن بها، لكــنّ العجب سيزول إذا علمنــا أن كثيراً من شهــادات المسؤولين تعدو إليهم بجهود غيرهم، ومعروف أن هذه الشهادة في حقيقة الأمر لا ينالها أصحابها الجديرون بها إلا بعد بذلهم جهوداً مضنية في البحث والتأمــل والكتابة وخوضهم فيها امتحاناً عسيراً.. فأي شهادة هذه التي نالها حاكم أو مسؤول، وهــو لم يكتب أطروحتها، ويجهــل لغتها؟ لا يعــرف وظيفــة العامل والمعمول، يرفع المجــرور، وينصب المرفوع، ويجر المنصوب، ولا يعسر عليه، وهو البارع في فنون السياسة وصعود المناصب، واقتناص الفرص أن يتخطى ضعفه في اللغة، ويلم بها إلماماً مقبولاً لــو أراد ذلك، غير أنّه لا يجد مــن يحاسبه على ضعفه في اللغة ،أو يعاتبه عليــه، وهو لا يتحــرج في إعلان جهله فيها على ملايين العرب مادام يرى أن إتقانه لها لا يحقق لــه مكسباً، أو يضمــن له منصباً لهــذا انصرف عن لغته، ولم يلق لها بالاً، ولو أنه وجد من يسأله عن ركاكة لغته، أو يعيب عليه ضعفه فيهــا، أو رأى أن إتقانها شرط لازم من شروط الصعــود إلى المناصب التي يطمح في الوصول إليها، أو يتمنى الاستقرار فيها لما بقي في عالمنا العربي مسؤول يجهل لغته. فأغلبية أعضــاء المؤسسات الحاكمة في عالمنــا العربي تعاني من ضعف شديد في لغتها حتــى إن بعضهم لايجيد القراءة، ولا يستطيــع التعبير عما يريد قوله بلغة عربية فصيحة سليمة ولــو في عدة جمل قصيرة، وهــذا لا يعنــي أن مستوى لغــة المؤسسات الأخرى في بلداننا العربيــة وفي مجتمعاتنا المدنيــة أفضــل حــالاً مــن لغــة المؤسسة الحاكمــة، لكنني آثرت تقديمها في الحديث على غيرها لتواصــل تصريحات المؤسسات القيادية ومقابلاتهــا وخطبها المستمرة مع جماهير الناس وتأثيرها البالغ على حياتهم ومستقبلهم.

حال اللغة اليوم عند النخب العربية

في مؤسســة القضــاء مثلاً تــبرز ركاكة اللغــة التي تعج بالأغلاط اللغوية والأخطاء النحويــة في مرافعات المحامــين وقرارات القضاة بــروزاً واضحاً جلياً، وقل مثل ذلك في مؤسسة الإعلام المرئي والمسموح والمكتوب

التي أخذ يتسلل إليهــا ضعاف اللغة، حيث يخــترق الإعلاميــون كل يوم قواعــد اللغة العربية في برامجهــم ومقابلاتهم ونشراتهم الإخبارية، وغدت كفة العلاقات الشخصية في الإعــلام والصحافة ترجــح أحياناً على الكفاءة اللغوية والمهنية. ونجد هذا الضعف اللغــوي في مؤسســات السلطــة التنفيذية والمنظمات الشعبيــة ،والنقابات المهنية كما يبــدو في بيانات وسجلات وتقارير ومحاضر وقيــود الدوائــر والمديريــات والــوزارات والمنظمات والنقابات وفي المراسلات المتبادلة فيما بينها، ونجد ضعف اللغة ملحوظاً، وإن كان علــى نحو أقل في المطبوعات والمجلات والدوريــات وفي كتابــات ودواوين ومؤلفات بعض الأدباء والشعراء والمفكرين والكتاب. والأخطــر من هــذا وذاك ضعــف مستوى اللغة في المؤسسة المعنية بتعليم اللغة وتنشئة الإنسان، مؤسسات التربية والتعليم في الوطن العربي: فالأطفال يدخلون المدارس ليتعلموا اللغة العربية الفصيحة، فيجدونها مهجورة حتــى عند معلمي اللغة العربية، ولا يجدون في مدارسهــم أجواء لغويــة نقية تساعدهم علــى اكتساب اللغــة الفصيحــة والتدرب على النطــق بها، وإنما يجــدون اللغة التي يريدون تعلمها محاصــرة باللهجات العامية على ألسنة معلميهــم وغيرهم، كما يجدون أساليب تعليمها وتعليــم قواعدها ونحوها جافــة مرتجلة، ينفــرون منهــا، فينشئون ضعافــاً في قواعد لغتهم، ويصعدون ضعافاً فيهــا إلى المراحــل التعليميــة المتوسطــة والعاليــة ويعاني طلبــة المدارس حتى حملة الشهــادات الجامعية والماجستير والإجازات العالمية (شهــادات الدكتــوراه) من ضعف شديد في لغتهم العربية لابتعادهم عن ينابيع ثقافتهــم العربية الأصيلــة، فهم لا يقرؤون القــرآن ولا درر الشعــر العربي، ولا أمهات كتب التراث في اللغــة والأدب والقواعد ولا كتب أو دواوين أعــلام الأدب والنقد وروّاد الشعــر المعاصريــن، وإنما تنحصــر قراءة أغلبهــم إمّا في الكتــب والصحف الأجنبية أوفي الصحــف العربيــة اليوميــة، وهكذا تخــرّج المدارس والمعاهد والجامعات أجيالاً متعاقبــة من ضعاف اللغة يقــودون الدولة والمجتمع. حتــى أصبح ضعف اللغة العربية لدى جماهير الناس المتعلمة والمثقفة ظاهرة عمت حياتنا الوطنية والقومية، وتغلغلت في مؤسساتنا المختلفة وأنشطتنا المتعددة، وهذا الضعف اللغوي علــى امتداد ساحة الوطن العربي الكبير قد يعطي انطباعاً خاطئاً لمن لا يتحرى الأسباب أن العلة تكمن في طبيعة اللغة وفي صعوبة قواعدها مما يوفر ذريعة لأعــداء اللغة العربية داخــل الوطن الكبير

وخارجه لطعن هذه اللغة بأسهمهم المسمومة.

وظيفة اللغة العربية ودورها

لا بد في البداية من فهم وظيفة اللغة العربية فهماً صحيحاً لندرك مدى أهمية اللغة العربية في حياتنا، ذلك أنّ النظر إلى وظيفة اللغة العربية لا يقتصر على أنها وسيلة للتفاهم بين الأفراد والمجتمع، وإنما يتعدى هذه الحدود إلى وظائف أخرى شديدة الأهمية وبالغة التأثير، فهي لغة القرآن، وهي لغة التراث وجسر العبور من الماضي إلى الحاضر، وهي وعاء ثقافتنا، وبها نفكر، ونكتب، ونبدع، وهي أهم رابط قومي يوحد بين العرب من محيطهم إلى خليجهم، هي لغة الدولة العربية، ولغة الأمة العربية لأنها لغة الشخصية العربية، وقد أدرك الاستعمار أهمية اللغة العربية عند العرب ودورها الكبير في حياتهم ووحدتهم، فحاربها، وراح يشوّه صورتها، ويرميها بالجمود والقصور



ليثبت للأجيال العربية الصاعدة أنها لغة جامدة عاجزة عن مواكبة التطور، وأنها دون اللغات العالمية منزلة وحيوية ورقياً، وأخذ أتباعه في الداخل يدعون إلى إلغاء قواعد اللغة العربية واستبدال الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية واستخدام اللهجات العامية في كل بلد عربي بدلاً من اللغة الفصيحة، ويطالب أتباعه بالثقافة التغريبية بديلاً عن الثقافة العربية، ويحثون

الناس على تعلم اللغات الغربية لاسيما اللغة الإنكليزية لتحل مكان اللغة العربية، وهذه دعوة قديمة حديثة متجددة، وهكذا تعرضت اللغة العربية إلى حصار شديد من اللغات الأجنبية خاصة الإنكليزية والفرنسية واللهجات العربية المحلية تحاصرها اللغة الإنكليزية واللهجات المحلية في دول الخليج العربي وبعض الدول العربية الأخرى، كما تحاصرها اللغة الفرنسية في دول المغرب العربي ولبنان وغيرها، ويزعم هؤلاء أتباع الداعون إلى محاصرة اللغة العربية أن إتقان اللغة الإنكليزية والفرنسية واستخدامهما في العمل والشركات والمؤسسات المختلفة هو سمة العصر ودلالة على التطور والحداثة ومنفذ الولوج إلى العالم كله.

ربط اللغة العربية بالسيادة الوطنية والنهوض الحضاري

في الحق أن لغتنا هي لغة الماضي والحاضر والمستقبل، لغة التراث ولغة التجديد والتطور. وينبغي أن تربط نهضة اللغة العربية بالنهوض الثقافي والسياسي والاقتصادي والحضاري، وتربط قبل ذلك بالسيادة الوطنية والتوجه القومي أيضاً، التمسك بها يعني التمسك بالاستقلال والسيادة الوطنية والتوجه القومي، وتعزيزها يعني تعزيز وجودنا الوطني والقومي، ويظل دفاعنا عن حريتنا واستقلالنا ونهوضنا ناقصاً ما لم يكن مقترناً بدفاعنا عن لغتنا العربية أيضاً. لذا فإن إهمال اللغة العربية أو استباحة اختراق قواعدها أو استبدالها باللهجات العامية أو باللغات الأجنبية هو انتهاك للسيادة الوطنية واستهتار بتوجهنا القومي وإعراض عن لغة القرآن. على أنّ درء الأخطار عن اللغة وتعزيز دورها في حياتنا أكبر من جهود فرد أو جماعة أو مؤسسة، وإن كان بحاجة إلى جهود هؤلاء جميعهم، إنه يحتاج إلى قرار سياسي نافذ من الملوك والرؤساء العرب، وأسجل هنا تقديري للسيد الرئيس بشار الأسد على قراره الذي له فضل الريادة بين القادة العرب في دفاعه عن اللغة العربية. هذا القرار الذي ينم عن فهم عميق لأهمية دور اللغة العربية في حاضرنا ومستقبلنا، فقد أمر تشكيل لجنة من أعلى المستويات، طالبها بوضع برنامج عمل ملزم لتفعيل دور اللغة العربية في مؤسسات الدولة المختلفة، كما طالب الملوك والرؤساء العرب في مؤتمر القمة بضرورة التمسك باللغة العربية عنوان وحدتنا وشخصيتنا وحضارتنا وحمايتها من الأخطار المحدقة بها، فهو يحرص على إتقان لغته وسلامتها في أحاديثه وخطبه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد خصها بمساحة

واسعة في أحد خطبه، دافع عنها، وأكد على ضرورة تنشيطها في مجالات حياتنا كافة، ولنا أمل أن يتخذ الملوك والرؤساء العرب قرارات مماثلة حتى يكون القرار السياسي جماعياً لافردياً ينعش اللغة العربية، ويفعّلها في الوطن العربي كله، وليس في بلد واحد. إن غياب القرار السياسي عن نصرة اللغة العربية أسهم في تدهورها ومأزقها وتغربها بين أبنائها إلى درجة لاتحتمل الأمر الذي دفع الغيارى عليها من أبنائها إلى التصدي لواقعها المهين والدفاع عنها بصلابة، وانتقادهم أنظمتهم في إهمالها اللغة العربية. وأثني في هذا المجال على موقف الدكتور عبد الوهاب المسيري الجريء في مقاضاته رئيس النظام المصري حسني مبارك على إهماله اللغة العربية في مصر، فقد ذكر الأستاذ محمود جمعة (القاهرة) في مقال له، نشر بالموقع الالكتروني (ديوان العرب) بتأريخ ٢٥ أيار (مايو) ٢٠٠٧ (أن الدكتور المرحوم عبد الوهاب المسيري أقام دعوى قضائية ضد رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء بصفتيهما «لإلزامهما بإصدار القرارات المنظمة والملزمة لمنع استخدام ألفاظ أو عبارات أجنبية للإعلان في وسائل الإعلام أو عناوين المحال التجارية وإلزام وسائل الإعلام المختلفة باستخدام اللغة العربية الفصحى». جاء ذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده الدكتور المسيري، وقال فيه: «من يطالع لافتات المحلات بشوارع القاهرة ومراكزها التجارية، ومن يقرأ إعلانات الجرائد التي يخلو بعضها من حرف واحد بالعربية، يعتقد أننا في دولة أخرى لا ينص دستورها على أن العربية هي لغة الدولة الرسمية»، وقال: إن عدداً كبيراً من جمعيات المحافظة على العربية إضافة إلى مفكرين وسياسيين وأدباء تضامنوا معه في رفع الدعوى التي اعتبرها شرارة الانطلاق، سيتبعها عدة فعاليات أخرى من بينها إطلاق موقع إلكتروني لجمع التوقيعات المتضامنة، ونشر بيان التضامن في الصحف ووسائل الإعلام والمواقع الإلكترونية. وأضاف د. المسيري «إن تبعية الأنظمة العربية والنخب السياسية بها للغرب قادت مجتمعاتنا نحو حالة من التغريب أصبحت معها اللغة العربية ضيفاً غير مرحب به في ثقافتنا وتراثنا الحديث». وهاجم «إهمال» الحكومة المصرية اللغة «وتورطها» أحياناً في الإسهام بتراجعها وتغريبها لدى قطاعات المجتمع خاصة مجالي الإعلام والتعليم، متهماً القطاع الخاص بتحقير اللغة عبر اشتراطه تعيين موظفين من خريجي الجامعات الأجنبية وإجبارهم

أحيانا على التحدث بتلك اللغات في أوقات وأماكن العمل. وحمّل الكاتب أساتذة اللغة بالجامعات العربية مسؤولية مماثلة، وقال: (إنهم يتحدثون بالعامية، وهم يدّرسون العربية موضحاً أن رفض تلك الجامعات تعريب بعض المواد العلمية مثل الطب والصيدلة والهندسة يزيد من «الغربة» التي تعيشها اللغة في مجتمعاتنا العربية). وأنا أدعو الكتّاب والمفكرين والأدباء والشعراء والمثقفين الغيارى على لغتهم العربية في كل أرجاء الوطن العربي أن يتخذوا موقفاً جريئاً، فيقتفوا خطا الدكتور عبد الوهاب المسيري، ويقوموا بمقاضاة حكامهم وحكوماتهم على إهمالهم اللغة العربية الذي يمس السيادة الوطنية والشخصية العربية والأمة العربية، ويبادروا بإقامة جمعيات فاعلة، من مختلف النخب المثقفة الواعية، يتسع مداها لنصرة اللغة العربية، تضغط على حكوماتها لإيلاء هذه اللغة ماتستحق من تعزيز وتطوير بما يساعدها على مجابهة التحديات التي تحدق بها.

معالجة الضعف اللغوي

إن الأزمة التي تعاني منها اللغة العربية اليوم، ناجمة فيما أحسب عن سببين:

السبب الأول الضعف العام للنخب الواعية المختلفة بلغتها العربية، إذا لم نقل ضعف المجتمع بلغته. والثاني التحدي الخارجي المتمثل بالغزو الحضاري الثقافي الغربي لحياتنا، ومايرافقه من غزو لغوي جارف. أمّا عن السبب الأول، وهو الضعف العام في اللغة فمردّه إلى تخلف الأمة الحضاري في مختلف جوانب حياتها السياسية والفكرية والثقافية والفنية والاقتصادية والاجتماعية. وهو أحد إفرازات تخلفنا الحضاري الذي يعكس واقع الأمة المأزوم. وهذا الضعف كامن فينا، وليس بطبيعة لغتنا، فاللغة بأبنائها وبمجتمعها وبأمتها، تقوى بقوتهم، وتضعف بضعفهم. ومعالجة هذا الضعف العام في اللغة أمر مُلِح وضروري، وليس عسيراً على المرء أن يتخطى ضعفه في لغته، ويتحدث بها على نحو سليم إذا أراد ذلك، ولكن الحلول الفردية على أهميتها تظل محصورة في نطاق ضيق، ولا تحدّ من استفحال هذه الظاهرة، فلا بد من معالجة هذه الظاهرة معالجة شاملة، تنهض بها الدولة من جذورها وأسبابها، وليس من نتائجها التي تعاني منها اليوم. وإني أرى لمعالجة الضعف اللغوي عدة حلول، أذكر منها:

١- الإصلاح اللغوي وتجديد مناهج تعليم اللغة:

مثلما تحتاج أوضاعنا السياسية

والاقتصادية والاجتماعية إلى إصلاح، تحتاج لغتنا العربية أيضاً إلى إصلاح لغوي يدفعها إلى الأمام، هذا الإصلاح يشمل نحوها وصرفها وإملاءها، وييسّط تدريسها بحيث يتدرج تدرجاً منطقياً ترابطيا، تنقل المتعلم من الأسهل إلى الأصعب، ويجنب الطلاب المسائل اللغوية والنحوية الصعبة التي ينبغي أن لا يواجهها إلا الطلبة المتخصصون بدراسة اللغة العربية. ويعمل هذا الإصلاح على إيجاد ضوابط متفق عليها تحذف فيها كل الزوائد الثانوية التي لا لزوم لها. ويعيد النظر بمناهج تعليم اللغة العربية معتمداً أحدث الطرق وأبسطها بما تؤدي إلى فهم الطلبة إلى لغتهم، وميلهم إليها.

٢- مكافحة الأمية بالزامية التعليم:

مازالت نسبة الأمية مرتفعة في عدد من البلدان العربية ومنخفضة في بلدان عربية أخرى، هذا يعني أن عدداً لا يستهان به من الأطفال والفتيان والفتيات والرجال والنساء في مجتمعاتنا العربية تجهل لغتها العربية بسبب هذه الأمية التي شكل تحدياً آخر للغة العربية، ولابد أن تتسع مساحة اللغة العربية في الانتشار لتشمل أبناءها من هذا القطاع الأمي الواسع المحروم منها، وإذن على الدولة أن تتخذ إجراءات ملزمة لتطبيق مجانية التعليم، ونشر المدارس الابتدائية في كل مكان.

٣- إعداد معلم اللغة العربية إعداداً صحيحاً:

لابد من العودة إلى البدايات الأولى إلى مرحلة الطفولة التي يتعلم فيها الأطفال، فمؤسساتنا التربوية والتعليمية التي تنشئ الإنسان، وتعلمه لغته. مسؤولة إلى جانب غيرها عن هذا الضعف اللغوي العام، ومازالت مضامين مناهجها وطرائق تعليمها متخلفة عن مواكبة التطور، عاجزة عن إحداث التغيير الإيجابي المطلوب في سلوك الناشئة وعقولهم، وتقويتهم في لغتهم العربية وتهيئة المناخ اللازم من الألفة والمحبة بين المتعلم ولغته والاندفاع إلى تعلم هذه اللغة وإتقانها، يضاف إلى ذلك أن القائم على تعليم هذه اللغة معلم ضعيف، والطالب الذي سيتمكن من لغته يحتاج إلى معلم كفيّ جدير بتعليم هذه المادة، ولن يتوفر هذا المعلم إلا إذا أعددناه إعداداً جيداً، وما يؤسف له، أننّا نجد اليوم الطلاب المتفوقين يعرضون عن المعاهد والكليات التي تعدّهم للتعليم، ويندفعون إلى غيرها بحثاً عن رواتب أعلى تؤمن لهم مستوى من المعيشة أفضل، بينما يقبل على معاهد إعداد المعلمين والمدرسين والكليات

الأخرى الطلاب الأقل تفوقاً والأكثر ضعفاً في مستواهم الدراسـي، ومعروف أن المعلم الضعيـف لا ينشئ جيلاً متفوقـاً ومتمكناً من لغتـه، والدولة تتحمل بذلك تبعات هذا الضعف اللغوي العـام، وتستطيع أن تسهم في معالجته، فهي حين تمنـح المعلم رواتب تفي باحتياجاته، وتغطي نفقاته، فإنما تهيئ الظـروف اللازمـة لتوفر حيـاة كريمة له، لائقة بمكانته، وحين تشترط الدرجة العالية في اللغة العربية لمن يريد الانتساب إلى مهنة التعليـم، فسـوف يقبل على مهنـة التعليم الطـلاب المتفوقون في معدلاتهـم، ويتفرغ ذهن المعلم في هذه الحال للتعليم، ولاتسيطر عليه أعبـاء البيت ولاهمومه، ولايهرول إلى منازل طلابه، يطرق أبوابها، كما ينشط دور الطالب المتفوق الناجح في المدارس والمعاهد والجامعات، ويستطيع المعلـم لاسيما معلم اللغة العربيـة أن يـؤدي رسالته في خدمة لغتـه علـى أكمل وجـه. ولا يكـون معنياً وحـده بالتحدث بهـا إلى طلابه في الدرس والفرصة، وإنما ينبغـي أن يشاركه في ذلك معلمو المواد الأخرى جميعهم، فالتحدث إلى الطلاب باللغة العربية الفصيحة في الدرس والفرصة هـو واجب على المعلمين بمختلف اختصاصاتهـم. وعلـى مؤسسـات الدولة لاسيمـا التعليمية منهـا والتربوية أن توجد ضوابط تلزم المعلمين جميعهم التحدث إلى طلابهم باللغة الفصيحة باستمرار في الدرس والفرصة، وتطلـب إليهم أن يحثوا طلابهم على التحدث بها، إسوة بمعلميهم، ويحفزوهم عليها بالثناء والدرجات حتى يألف الطلاب سماعها، ويتيسر لهم التحدث بها، ومطلوب من إدارة المدرسة ومعلميها أن يحثوا طلابهم على المطالعـة وارتياد المكتبـات المدرسية والعامـة أيضاً للنهل مـن معينها، ويسهموا في الأنشطة اللغويـة المختلفة، وحين يتوفر للطلاب معلم على هذا المستوى من الكفاءة والنشاط، فإنهم سيقتدون به، ويندفعون إلى مادته، وتغدو المؤسسـة التعليمية والتربوية في هـذه الحال أملاً للطـلاب المتفوقين في حياتهم الدراسية، يتطلعون إلى مهنة التعليم بعد تخرجهـم، فتخـرّج مؤسسـة التربية والتعليم أجيالاً متعاقبة تقود المجتمع والبلد ملمّـة بلغتها الفصيحـة، مهتمة بها، راغبة فيها، حريصة عليها، مدافعة عنها، تستطيع التعبير بها عن كل ما تحتاج إليه وعن كل ما تعلنه أو تكتبـه أو تذيعه أو تصرح به تعبيراً صحيحاً فصيحاً سليماً.

٤- إتقان اللغـة العربية شرط ضروري مـن شـروط القبـول في المراكـز القياديـة والمناصب الهامة:

على الدولة أن تسن قانوناً ملزماً لحماية

اللغة العربية وتفعيل دورها في حياة أبنائها يشترط على كل من يطمح أن يتبوأ مركزاً قيادياً أو يشغل منصباً هاماً في السلطة أو إحدى مؤسسات الدولة أن يتقن لغته العربية، ويحصل على درجة عالية في مادة اللغة العربية إلى جانب الشروط الأخرى، ويلزم الوزارات ومؤسسات الدولة أن تشكل لجاناً لغوية في مواقعها، مهمتها التدقيق اللغوي في البيانات والمحاضر والكتب والتقارير المرفوعة إليها من المديريات والدوائر والمراكز التابعة لها، وتحاسب أو تعاقب كل من أخل بلغته. وإذا توفر حافز العقاب والثواب، وعرف الناس أهمية اللغة عند الدولة، وأنها أحد مفاتيح الوصول إلى مايريدون، فإنهم يتحسبون لها، ويندفعون لإتقانها، ويحرصون على سلامتها فيما يلفظون، ويكتبون. أما معالجة التحدي الخارجي الذي تعاني منه اللغة العربية المتمثل بالغزو الحضاري الثقافي اللغوي، وأدى إلى تفاقم أزمتها الراهنة، فإني أرجئ الحديث عنها إلى مقال قادم.

آفاق المعرفة



تاريخ النساء في الغرب نجاحات وخيبات على طريق طويلة

صلاح دهني*

موضـــوع المرأة، وحياتهـــا وتاريخها وموقعها في المجتمـــع يظل موضوعاً مطروحـــاً في كل مكان من العالم.. وحتى في الغرب. ولعلنا في شرقنا العربي الهاجـــع نتصور أن قضايا المـــرأة في الغرب حُلت منذ زمن بعد أن حصلت، شرعـــاً وقانوناً، علـــى حقوقها كلها، أو ما نظن أنهـــا حقوقها كلها. حصلت عليها بعد كفاح طويل وصراع مرير استمر أكثر من قرن ونصف القرن.

* أديب ومخرج وناقد وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وأنا لست خبيراً في شــؤون المرأة تلك، لكــن كتاباً، أو لأقل مجلداً، من ألف صفحة، وقع تحت يدي خلال الأسابيع التي قضيتها مؤخــراً في فرنســا، أثار اهتمامــي، بدايةً لتصفحــه، ثــم شوقني لقراءتــه، فقضيت معــه الأيــام والليالي، غارقــاً بحق في بحرٍ من الشؤون والشجون والقضايا والدراسات والتحليــلات التي مالي فيها بــاع ولا ذراع والتــي لا تكاد تخطــر في البــال، بالنا في شرقنا.

لكن كفاتحــة للحديث عن هذا الكتاب، أورد شذراتٍ مما سمعته في برنامج لإحدى محطات الإذاعة الفرنسية عن موضوع الكتب والإصدارات الجديــدة. استضافت مقدمة البرنامــج كاتباً مغربياً يكتــب بالفرنسية لا أذكــر اسمه، أصدر مؤخراً كتاباً في موضوع المرأة الشرقية لا يحضُرني عنوانه، لكنه صدر عن إحدى دور النشر الكبرى في باريس، دار « سوي « . نقطتان فقط أتوقف عندهما.

أولاهمــا تتلخص كما يلــي : فالمذيعة خفيفــةُ الظل حقــاً رأت أن تثير مع الكاتب المغربي المسلم موضوعــاً يظل يستثير هوى وتطلع الرجل والمرأة، المستمع والمستمعة، في الغــرب. فسألت الكاتب عن تعدد الزوجات عند المسلمين وعن موضوع «الحريم» الأكثر إثارة. فكانت إجابتــه مثيرة بمقدار ما هي غير متوقعة. قال:

– فليكــن أن هــذا شائــع عنــد المسلم بزوجــات أربع، أو عند بعض ذوي السلطان بالحــريم. ألا تتصورين معي، ما يكون شأن الفحل بين كل تلك الدجاجات ؟ فهو القلة، وهنّ الكثرة. تصوري ذلك. أنا على ثقة بأن الكلمة العليــا ستكون لهن في كل ما ستكون له علاقة بالجنس وبالتواصل الجنسي على أقل تقدير. وتالياً، لا يعلم إلا الله!!

وسألتــه المذيعــة الهمامة عــن موضوع العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة في شهر رمضــان. كانت إجابته لا تقل إثارة للمذيعة ولمستمعيها .. ومستمعاتها. قال:

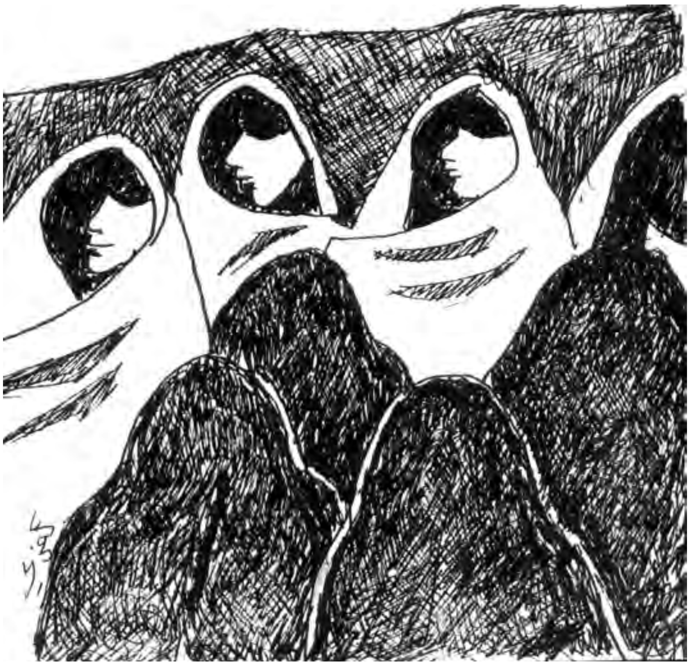
– وهــل تظنــين أن الحيــاة تتوقف في رمضــان ؟ الإنســان هو الإنســان. يتوقف المسلم المؤمن عــن تعاطي الشراب والطعام والتدخين على مدى النهار كله يحرم نفسه من كل متــع الحياة ساعــاتٍ طويلة وشاقة حتماً. فما تكون حاله بعد كل ذاك الحرمان ؟! تأكــدي أن الزوج والزوجــة سيعّبان من متــع الإفطار وما يلي متع الإفطار مما أباح لهما الله فعله، لا بما جريا عليه فحسب في

الشهور الأخرى من خارج رمضان، بل بأكثر منه، بل وبأشدّ تلاقياً وتعاطفاً وحميمية !!

مصادفة هذا الحديث الإذاعي بين مذيعة فرنسية وكاتب مغربي جاءت في حميّا استغراقي في قراءة ذاك المجلد العتيد عن المرأة وقضاياها. عنوان المجلد ذي الألف صفحة «تاريخ النساء في الغرب» في القرن العشرين. ألف صفحة لملاحقة هذا التاريخ. وقبلها آلاف الصفحات في أربعة أجزاء سابقة تبدأ بدراسة عن تاريخ النساء في الغرب في العصر القديم، ففي القرون الوسطى، انتقالاً إلى العصر الحديث، مع جزء بتمامه عن القرن التاسع عشر، وصولاً إلى الجزء الأخير: في القرن العشرين.

يقول الكتاب إن ما ورد في هذه المجلدات من معلومات ودراسات لا يعني أبداً أنه يمثل تاريخ النساء في كل أنحاء العالم. فلكل مجتمع ولكل حضارة ولكل صقع تاريخه. ولكن فيما يخص هذا الجزء من التاريخ الذي نحن بصدده فقد انفتح بالضرورة على علوم اجتماعية عدة من مثل: «السوسيولوجيا، العلوم السياسية، الفلسفة». ويظل الكتاب يصدر عن فكرةٍ أساسية هي أن للنساء تاريخاً من الضرورة بمكان، وبحق مشروع، أن يكتب. ذاك أن تطور التصور العام عن النساء، والفكرة القائلة بافتراق الجنسين، يفرضان علينا ألا ننسى جملة من الحقائق ومن الممارسات يتوجب إيضاحها، كالعلاقات بين الجنسين في كل مستوياتها: المعارف، السلطات، الممارسات اليومية.. هذه الأمور التي لا غنى عن بحثها لدى كتابة تاريخٍ حقيقي للمرأة. وما دفع إلى ذلك سوى تنبه المؤرخين والجمهور إليه، بروز ما يمكن اعتباره مطالبة اجتماعية للتوقف وللتأمل حول علاقة الجنسين، إضافة إلى فكرة استمتاع نساءٍ كثيرات بأنهن يكتشفن أنفسهن جديرات بأن يمثّلن موضوعات يبحثها علم التاريخ.

لهذا كله كان لا معدى عن عمل ودأب للمقارنة بين مواقف الجنسين ومكانة كلٍ منهما أمام الآخر، عمل ودأب يثريان معلوماتنا عن وسائل كل أمة لكتابة تاريخ النساء وعن أحوال العلاقات الجنسية في هذه الأمة أو تلك. أما الغرض الذي يرجو الكتاب بلوغه فهو محاولة كسب الرهان في كتابة تاريخٍ مقارن لا يكون بمعزل عن الممارسات والنقاشات الدائرة في أنحاء أخرى من العالم، وليس في الغرب فحسب..



وذلك بسبب أن تاريخ النساء بات يتغذى بالمبادلات المتزايدة بعد أن أصبح قضية عالمية.

يتطرق الكتاب - كما يقتضي موضوعه الأساسي - إلى ما حدث في قضية المرأة من تطورات نتيجة الحرب العالمية الأولى في بداية القرن الفائت، ثم الحرب العالمية الثانية في منتصفه وما نجم عن الحربين من مقتل عشرات ملايين الرجال، الأمر الذي دفع بالمرأة إلى النزول إلى ميدان العمل، في كل مجالات العمل من اليدوية وحتى المكتبية، بما جعلها مستقلة مادياً وبما أكسبها بنحوٍ ما مزيداً من الثقة بمكانتها في البيت وفي المجتمع. ومع شيوع نظرةٍ أكثر تفهماً لموضوع المرأة بانتصار الثورة الروسية ازدادت مواقع المرأة ترسخاً. لكن رغم تضمين الدساتير الجديدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي مواد تؤكد تأكيداً قاطعاً على المساواة بين الجنسين في الدول الاشتراكية السابقة بخاصة، فقد نجم عن الانتقال السريع من الاشتراكية الحكومية إلى اقتصاد السوق ضربٌ من الأسى الاجتماعي والمعنوي، في أعقاب بروز فكرة القومية وتطور المافيويّة السلطوية، بما عمّق في نهاية الأمر الفروقات الاجتماعية والعلائق الجنسية، فأدى إلى مزيد من تدهور أحوال معظم النساء، وبقيت أسطورتا المساواة بين الجنسين ومجتمع بلا طبقات، حيّة قائمة.

نتيجةً لذلك أخذت تتشكل حركات مقاومة نسائية عن طريق الكتابة والتأليف والنشر، ووسائل الإعلام كافة للدفاع

عن حقــوق المرأة، وازداد عــدد الجمعيات النسائيــة التــي تضم عناصــر متفتحة من النســاء للوقوف في وجه تدهــور أحوالهن، وكذلــك للمطالبة على سبيــل المثال بنظام جماعي لحراسة الأطفــال والعناية بهم في غيــاب أمهاتهم. .وذهب تطــور الأمور إلى موضــوع الحق في الإجهاضــ، وإلى ضرورة معالجة نقصــ وغلاء وسائــل منع الحمل (الحبوب والواقيات البلاستيكية)، وتطوير أنظمــة الحق في عطلة الأمومة. ويذكر هنا أن الالتزامــات المبهظــة الواقعة على فئات واسعة من النســاء قاد كثيرات منهن إلى ما دعي بحق «إضراب البطون» بأمل الحصول علــى عمل أو حتــى إلى تعاطي علاج يؤدي إلى العقم التام.

يأتــي كتاب «تاريــخ النساء في الغرب» إلى التبسّــط في الحديث عــن أحوال المرأة المسلمــة في بلــد غربــي كيوغسلافيا بعد تفكك جمهوريتهــا الاشتراكيــة الفدرالية، وانفصال البوسنة وكوسوفو، دون إهمال ما وقع أيضاً مــن أذى على سلوفينيا وكرواتيا بين البلدان الأخــرى التي قررت الانفصال عن يوغسلافيا السابقة. فالصِرب الأصليون في ذاك البلد بقيــادة رئيسهم ميلوزوفيتش عمدوا، تحت تأثير كرامة القومية الصِربية إلى اعتماد سياسة «التصفية العرقية». وكان من أثر هــذه السياسة التي أدت إلى مذابح وجرائم رهيبة ضد الإنسانية، حسب منظمة الأمم المتحــدة لهــا، أن تم ترحيــل ملايين الأشخاص عن ديارهم، واعتقال وقتل مئات الألوف. وكان أن قــام الجيش اليوغسلافي والميليشيــات المتآزرة معــه بممارسة أعمال الاغتصاب المنظم لنساء «العدو» (خصوصاً منهن المسلمات من أهل البوسنة وكوسوفو) فتــمّ اغتصاب مــا قُدر عددهــن بعشرات الألــوف حســب الإحصــاءات الرسميــة الدولية. وقــد تم التعتيم على تلك الجرائم فــترة طويلة، غير أن الكشف عنها فيما بعد أدى إلى احتجاجات واسعة في فرنسا وألمانيا وانكلترا والولايات المتحدة الأمريكية (التي يُعترف لها بأنها هي التي قامت بكبح جماح ميلوزوفيتش وجيشه)، وتواصلت، خصوصاً في فرنسا مع رجال ونساء من الفئات المثقفة اليساريــة، والحــركات والنقابــات الموالية لقضايا المرأة. فسعى الكل للاحتجاج والعمل على المستوى الإنســاني والسياسي حتى إن وزيراتٍ ألمانيــات قمن بالإعلان عن اكتتاب شعبي لفتح ملاجئ تستقبل وتعتني بالنساء

المغتصبات اللواتي هدمهن خزيُهن بما جرى لهن، أو اللواتي لفظتهن أسرهن.

الأمـر الغريـب أن الدعايـة الرسمية اليوغسلافية شرعَنَت ما جرى وكان يجري، وحرضت على كراهية الآخر، وعلى التصفية العرقيـة لمجرد توكيد الـذات بتدمير هوية الآخر باستخدام القسوة، ونبش قبور الموتى والإجهاز على النُصب التذكارية وهدم بيوت العبـادة وترذيـل النسـاء. والأصل في هذا كله لـدى أولئك الزبانيـة الجلادين هو في تصورهم أن الرجال هم الذين ينقلون الدم والهويـة القومية، فقتلهم يـؤدي إلى وقف الانتقـال.. واغتصـاب النسـاء وإجبارهن على الحمـل، يعني دمار مستقبل الجماعة، والهيمنة «عرقياً» عن طريق أرحام النساء.

يبدو في الحقيقة أن التعذيب والاغتصاب يمارسـان أكـثر فأكثر في العـالم، في جميع النزاعـات المعاصرة، مثلمـا هي الحال في أعمـال التنكيل «المبرمجـة». وقد استنكرت عـدة حلقات دولية نسائية هذه الأمور التي باتت تقع على الأهـالي المدنيين، واعتبرتها جرائم ضد الإنسانية، واعترفت بذلك محكمة العدل الدولية (الأمم المتحدة)، وسبقتها إلى ذلـك محكمة الجزاء الدوليـة السابقة لها، حيث تمكنت المدعية العامة الكندية بإقناع المحكمة بتجـريم ميلوزوفيتش. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن تأنيث القضاء بات حقيقة عالميـة، وأن تسـاوي الحصص في صفوف القضاة بات أمراً ملموساً ويكاد يصبح واقعاً ونحن في بديـات القرن الحادي والعشرين، علماً بـأن هذه المهنة لم تنفتـح أمام النساء إلا عـام ١٩٤٦ وكانت أعدادهن قليلة حتى عام ١٩٧٠، بسبـب ممانعة زملائهن الذين ظلوا أمداً طويلاً ينادون بعدم أهلية النساء، ويجهرون بخطورة اكتساحهن الساحة.

تولت الحـركات النسائية في بعض دول الغرب منذ سبعينيـات القرن قرعَ نواقيس الخطـر حول موضـوع الأشـكال المختلفة للعنـف ضد النساء. واتصـل بهذا موضوع آخر يتعلق بالعنف ضد الأطفال، وخصوصاً الاعتـداءات الجنسيـة علـى القاصريـن والقاصرات. فتشكلت هيئات عديدة في كندا وفرنسا وفي النروج وفي عشرة بلدان أوروبية أخرى لحشد الجهود ضـد العنف الزوجي والاغتصاب. وقدر في الغرب أن واحدة من كل سـت نساء كانت ضحيـة الاغتصاب في حياتها. وفي الولايـات المتحدة تموت عشر نسـاء يومياً من العنف البيتـي، ومئة امرأة

في فرنسا سنوياً. كما أثبت تحقيق حكومي شاركت فيه منظمات نسائية أن واحدة من كل عشر زوجات مرت في حياتها الزوجية بحالات من العنف المتتالي. وإذا كان القانون الأمريكي جرّم الاغتصاب الزوجي منذ عام ١٩٩٣، فقد استمرت المطالبة في مساعدة الضحايا ودعم الجماعات، وتدريب رجال الشرطة والقضاة، وخلق حالة ثقافية تربوية مضادة للعنف، غير أن الشواهد اليومية والدراسات ما تنفك تشير إلى وقوع حالات لا نهاية لها من المضايقات الجنسية في العمل، واستخدام الألفاظ الجنسية، وشراء الخدمات الجنسية. ولعل من أشهر الأمثلة قضية الرئيس الأمريكي السابق كلينتون.

ثمة إشارات على إدراك عام لخطورة هذه الحالات، مع توجيه اجتماعي لفضح أنواع العنف. لكن حتى هذا الحد من الإدراك ولوعي المشكلة وجد من يهاجم المنظمات النسائية المكافحة من أجل قضية المرأة، خصوصاً في سنوات حكم ريغان وبوش الأب، كما تؤكد الصحفية الأمريكية «سوزان فالودي» في كتاب نشرته فضحت فيه ما سمته Backlash بمعنى «رد الفعل» أو «رجعية».

إنها الصحوة للنساء بعد أن ظللن على مدى أمد طويل قابعات تحت ظل التاريخ. شاركت في هذه الصحوة أمور عدة. منها التأكيد على دور العائلة، وتطور فكرة الاهتمام بالأمور اليومية وبالفرد الإنساني. تلك كلها أسهمت في إخراج النساء إلى ساحة الاهتمام. وسارعت في ذلك حركةُ النساء أنفسهن والتساؤلات التي طرحتها: «من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟» بخاصة من أجل فهم جذور السيطرة عليهن، وعلاقات الجنسين عبر المكان والزمان. ثم ما هو موقعهن وشرطهن وأدوارهن وكلامهن. فهل واحدتهن: - ربّة، سيدة، ساحرة..- تساؤلات تتوجه إلى المجتمع برمته، تمثل في الوقت ذاته، تاريخ الرجال كما تاريخ النساء.

وإنها لحكاية طويلة: من قديم الأزمنة إلى يوم الناس هذا، ترويها الأجزاء الخمسة من كتاب «تاريخ النساء في الغرب». ويعي مؤلفو ومؤلفات الكتاب أن البحر الأبيض المتوسط من جهة والأطلسي من جهة أخرى ويجاوران شواطئ بلدان الغرب. ويحلمون بتاريخ يكتب عن النساء في العالم الشرقي أو في القارة الإفريقية. وتلك مهمة متروكة للنساء والرجال في تلك البلدان بكتابة ذاك التاريخ ذات يوم.

شارك في كتابة «تاريخ النساء في الغرب» على مدى العصور ٦٨ شخصاً من أساتذة الجامعات في مختلف بلدان أمريكا وأوروبة، مع فلاسفة ونقاد أدب وباحثين علميين وقضاة وكتّاب. وتم في هذا الجزء الذي بين يدي توزيع الموضوعات على النحو التالي وتكليف مجموعات متخصصة. لبحث كل موضوع:

- تأميم النساء
- النساء، إبداع وتَصَوّر
- التحولات الكبرى في قرن
- تحديات
- كلام نساء

ثم قسمت الموضوعات، كل على حدتها، بمنهجية محددة، لا أقف منها إلا على رؤوسها، على النحو التالي:

- الحرب العالمية العظمى: انتصار التفرقة الجنسية.
- المرأة الحديثة: النموذج الأمريكي لعشرينات القرن.
- ما بين حربين: الأدوار النسائية في فرنسا وانكلترا.
- الأبويّة الفاشيّة: موسوليني والإيطاليات (١٩٢٢ –١٩٤٠).
- النازية: سياسات مجنَّسة، وحياة النساء في ألمانيا.
- نساء إسبانيا: من الجمهورية إلى الفرانكوية.
- الفرنسيات في ظل حكومة فيشي.: نساء الكارثة – مواطنات الكارثة.
- النموذج السوفيتي

وتلي ذلك بحوث بأقلام كاتبات وباحثات من مختلف الدول الأوروبية حول: موقع النساء في الإنتاج الثقافي في مجتمع الاستهلاك والثقافة الجماهيرية –فقر نسائي، حقوق الأمهات – أمومة، أسرة، دولة – تربية وحمل النساء في القرن العشرين – تحديات – القانون والديمقراطية، الفرد – المرأة – الحركات النسائية في سنوات ١٩٦٠ – ١٩٨٠ – من النسوية إلى الأنثوية – وأخيراً: نصان لكاتبة ألمانية، ولممثلة فرنسية.

كتاب من ألف صفحة – لن تحيط به مقالة عابرة. إنما هي ملامح فحسب تعطى عما يحتويه من بالغ الأهمية لعلَّ بعض المهتمين – وخصوصاً المهتمات – بالحركات النسائية وبتطوير دور المرأة، أن يمنحوه مزيداً من الدراسة، ويستفيدوا من منهجيته.

علــى أنني لــن أختــم دون أن أشير إلى الدور الذي لعبته أدوات الثقافة الجماهيرية في مناسبــات عديدة، وبطــرق متنوعة، في الترابــط الفكري القائم حســب رأيهم، بين هــذه الثقافة وما هو «نسوي» كما يتبين من تقليب صفحات تاريخ الحضارة الغربية. إذ أشار بعض الباحثين إلى أن نسونة المجتمعات وقد بلغت مبلغاً محدداً من الازدهار إنما بني بالدرجة الأولى على ضرب من انقلاب القيم، فانعتاق المرأة منحها حق الوصول إلى المهن الرجالية إن في الحياة المهنية أو السياسية. كمــا أن النساء أخذن علــى عاتقهن كذلك، أكثر فأكثر، المبادأة في الميادين الخاصة.. وفي المقابل بات الرجل أكثر ميلاً نحو العاطفية، واللطافة، والضعف.

يشار بنحو خاصــ إلى أن كثافة تواجد الوجه النسائــي في الدعايات، وعلى أغلفة المجــلات، والإعلانــات جعــل المــرأة تبرز كموضـــوع يحمل طاقــة كامنـــة، وكمجرد عرض يُحتمل له أن يلعب دوراً ما. فانقضاء قرن ونصـــف على انعتاق المـــرأة اجتماعياً وسياسيـــاً، دفع بالنســـاء إلى استخدام قيم تاريخيـــة محددة: قـــوة وعدوانية كانت من حظ الرجال، نعومـــة وحنان كانت ولا تزال حكراً على النساء.

آفاق المعرفة

لورنس.. والثورة العربية

فايز قوصرة ❋

لقد شغل لورنس الكثيرين في الساحة السياسية والسينمائية والإعلامية، بل حتى الثقافية،

– فهل هو جاسوس؟ بذل جهده في التمهيد للسيطرة الاستعمارية! أم هو قــد وضع خدماته في سبيل الثورة العربيــة؟!. وهل هو مواطن بريطاني من الدرجة العليا والممتازة؟!.ليقول عنه (تشرتشل) رئيس الوزراء حينذاك باكياً في جنازته أنه «واحد من أعظم الأحياء في عصرنا..» وقائلاً عنه أيضاً «إننا

❋ باحث من سورية

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

لن نرى قريناً له مرة ثانية..»؟

بل أقيم له تمثـال نصفي في كاتدرائية (سـان بـول) إلى جـوار تمثـالي (نلسون) و(لنجتون)، ويتحول بيته إلى متحف يقصده الجميـع، وكذلك في (طريـق لامبيت) أحد شـوارع لندن هناك مبنى ضـم كل مايشير إلى بريطانية العظمـى وأمجادها الحربية، وفي ركن صغير خصص لضابط المخابرات البريطانيّـة لورنـس والملقب فيمـا بعد بـ لورنس العرب نجد صوراً له برفقة كثير من المسؤولـين في الجزيرة العربيـة، كالشريف حسـين ورجـال الباديـة ورؤسـاء القبائل والعشائر.

لورنـس هـذا قدمـت السينمـا فلماً عنـه باسـم (لورنس الجزيـرة العربية) في الستينيات من القرن الماضي، ومؤخراً فلماً (تلفزيونياً) أجنبياً شارك فيه الممثل العربي عمـر الشريف، والآن إنتاجـاً عربياً قدمته الفضائية السورية

إن كل مـا قـدّم، لم يتمكن مـن تقديم حقيقته الموضوعية لأنه هـو نفسه قد موَّه عن شخصيته، ففـي كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) الذي عرض فيه الكثير من أحداث الثورة العربية، ومشاعره الخاصة قد أهداه إلى (S. A) والتي قال بعضهم إنها اليهودية (سارة اورنس) الجاسوسة.

و أمـا أوراقه الخاصة المودعة في مكتبة البودليان في أوكسفـورد بقى سرها مطوياً حتى عـام ٢٠٠٠م، إضافـة إلى التوجهات العليـا الرسمية للإبقاء على حقيقة نشاطه السري باعتباره عميلاً سرياً.

لقد جاء إلى المنطقة قبل الحرب الأولى، بعـد تلقيـه العلـم في جامعـة أوكسفورد، سافر إلى سوريـة وفلسطين لدراسة القلاع الصليبيـة، ليقدمه كبحـث لجامعته، كما شـارك في بعثـة أثرية مرسلـة من المتحف البريطاني إلى كركميش (جرابلس) على نهر الفرات، وتعلـم العربية في مدرسة تبشيرية بلبنان، ثم تابع العمل مع الدكتور (هوجارت) المستشرق المشهور في كركميش عام ١٩١١م، ثم شارك في بعثه إلى صحراء سيناء للتمهيد لمخططـات بريطانية، تحت اسـم (علمي) والحقيقـة كان هدفهـا ليس كمـا قالت، اكتشـاف الطريق التي سلكهـا بنو إسرائيل بعد خروجهـم من مصر، بل رسم الخرائط للمنطقة، لاستخدامها في حال وقوع الحرب مـع الأتـراك، وحين عـاد إلى لنـدن كتب تقاريره ورسـم الخرائط، وطُلب منه إعداد

الدليل عن صحــراء سيناء ليكون في خدمة الجنود، ثم نقل بعدئذ إلى مكتب المخابرات العسكرية في القاهرة.

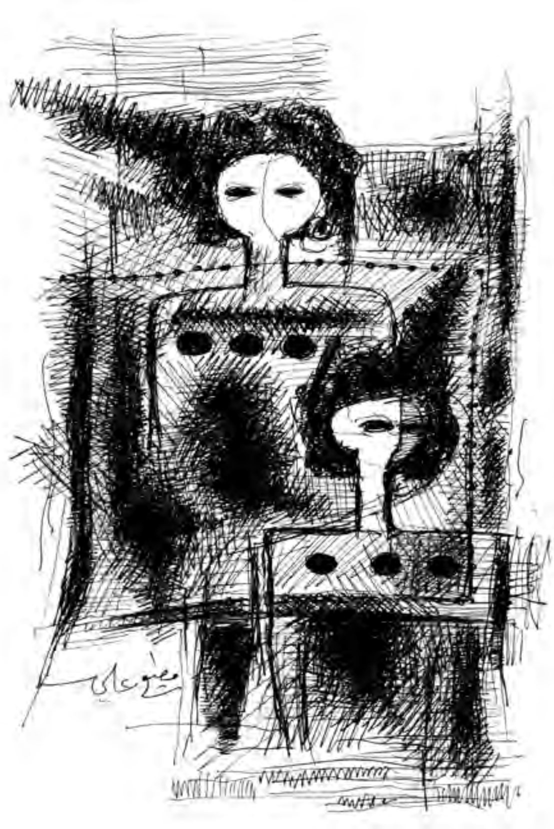
في اليوم العاشر من حزيران عام ١٩١٦ أعلن حســين شريف مكة الثــورة العربية، لتولــد معها حكاية أسطــورة لورنس، الذي اتصــل معها مدة سنتــين ونصف، ولتصفه بطل العرب في معركة الحرية، ومجاهداً من أجل لمّ شمل العرب، لكن الحقيقة وكما ورد في تقاريــره السرية أن مهمتــه هي إخضاع العرب للسيطــرة البريطانيــة، والعمل عل تقسيمهم وتباغضهم.

ومثالنــا مــا ورد في تقريــره المؤرخ في ١٩١٦/١/١٦ تحــت عنوان (سياسات مكة) ورأيــه في الثورة العربيــة «إن نشاط حسين يبدو مفيداً لنا لأنه يتفق مع غاياتنا العاجلة وهي تحطيــم الكتلة الإسلاميــة، وهزيمة الإمبراطورية العثمانيــة، وتقويض بنيانها، لأن الدول التي ســوف يقيمها حسين خلفاً للأتراك تكون طيعة لنــا مثلما كانت تركيا قبل أن تصبــح صنيعة للألمان. وإذا عوملت هذه الدول بالأسلوب الصحيح فإنها ستبقى في حالة تخبــط سياسي»، بل إنه يصرح في كتابه (أعمــدة الحكمة السبعة) عن حقيقة دوره في الخــداع لمــن وثقوا بــه دون خجل «إذا انتصرت بريطانية في الحرب فستكون وعودها للعرب كالورقة الميتة. ولو أنني كنت ناصحاً شريفــاً لسرحت رجالي ولمنعتهم من المخاطــرة بأرواحهم لمثل هذا،ومع ذلك فإن الأماني العربية كانت أداتنا الأساسية لكسب الحرب في الجبهــة الشرقية» ثم يقول «لقد غامرت بالتضليــل لإيماني بأن عون العرب كان لازمــاً لإحراز نصــر رخيص وسريع في الشــرق. وخير لنــا أن ننتصــر وأن نخلف وعودنا من أن نمنى بالهزيمة».

وفي تقريــر سري مطــول، حدد أهداف الثــورة العربية –طبعاً من جهة نظره وليس كما هــو طمــوح الشريف حســين أو ولده فيصــل – أعده في مستهل عام ١٩١٦ «لابد لهذه الحرب، إذا كان لها أن تسفر عن شيء على الإطلاق، من القضاء نهائياً على سيادة السلطــان (التركي) ذلك لأن قدرة بريطانيا علــى أن تنصب خليفة جديــداً كما نصبت سلطانــاً جديداً (في مصــر) لا تعدو قدرة اليابانيــين على (فرض بابــا) جديد على الكنيسة الكاثوليكية، وحتى سلطان مصر لا يستطيع أن ينصب نفسه للخلافة، لأن فعلته ستكون مثــاراً للريبة بسبب علاقاته معنا..

إن أكثر المطالبين بالخلافة رجحاناً، بعد السلطان، هو شريف مكة».

لعلَّ هذا التقرير يوضح الهدف الأولي للعبة السياسية البريطانية في التمكين لبريطانيا من التحكم في المنطقة، ووجد بغيته في أسرة الشريف حسين وخاصة في ابنه فيصل، إذ قال عنه «..ووجدت فيه القائد ذا الحمية المطلوبة!» وتعاون معه إخوته إلا عبد الله الذي كان تواقاً إلى الاستقلال، وكان يشك في نوايا لورنس ولا يحبه؟!



ولعل الأستاذ (سليمان موسى) الوحيد الذي وضح أن الثورة العربية كانت عربية روحاً ودماً، وأن العرب هم الذين وجهوها، وأن لورنس لم يكن سوى ضابط من الضباط في كتابه (لورنس والعرب) الصادر عام ١٩٦٢م بعد صدور كتاب انطوني نتنغ عام ١٩٦١ بعنوان (لورنس بلاد العرب) الكتاب الأخير غني بالأخطاء التاريخية، والأول تشوبه العاطفة، والإسهاب في إثبات أن تناقض من كتبوا عن لورنس في روايته الحادثة الواحدة مرده إلى لورنس نفسه.. وأن لورنس كان يكذب، ويلفق قصصاً تحط من قدره..

❀ ❀ ❀

أما حادثة دمشق في دخول لورنس على اللنبي ليعفيه من منصبه ويعود إلى بريطانية بشكل مفاجئ، حيَّر الكثيرين في دوافعه،

ولماذا تــرك فيصل في قمــة فرحته(؟) في دخول الجيش العربــي دمشق في ٣٠ أيلول ١٩١٨، هل تركه لخــذل الانكليز العرب في تحقيــق وعدهم بالاستقـــلال، أم لأنه اتّهم بأنــه جاسوســ في المخابــرات البريطانية، وعند تحقيق ما خطــط له اختفى، ولعدم تحقيــق مصلحة العرب التــي لاتعني عنده شيئـــاً، وكما ورد في مقـــال له (تطور ثورة) نشــر في مجموعة مقـــالات كتابه (مجموعة مقـــالات شرقيـــة ١٩٣٩) « ..لقـــد جازفت بخديعة العـــرب لاعتقـــادي أن مساعدتهم كانــت ضرورية لانتصارنـــا القليل الثمن في الشرق، ولاعتقـــادي أن كسبنـــا للحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار..» وفي حضـــوره مؤتمر القاهـــرة الذي عقده تشرشل ١٩٢١ م معلقـــاً عليه –أي لورنس– القـــول «إنها تفـــي بصورة مشرفـــة بجميع الوعـــود التي قطعناها للعـــرب، فيما يتعلق بالمناطق التي تخص بريطانية!!».

ولعـــلَّ هذا العمل الذي ســـرَّ لورنس هو تحقيـــق الوعد المقطوع للصهاينة في السعي لإنشاء دولة لهم. والدكتور الشهبندر الوطني السوري كشف عـــن لعبة لورنس في مقال له عام ١٩٣١ منشور في مجلة المقتطف «في أنه غير مخلص إلا لأمته..» وتتابعت المؤامرة في صمـــت الانكليز عن دخول غورو دمشق، وإنذاره فيصل بترك دمشـــق، رغم أمله في دعم لورنس له، ولكن خاب فأل فيصل فيه، لأن لورنس لم يكن يهمه أمر العرب في شيء، بل مصلحة بريطانية أولاً، إذ ورد في تقرير سري له تحـــت عنوان (غـــزو سورية): «إذا كنـــا نرد أن نكون في ســـلام بجنوب سورية، وأن نستولي أيضـــاً على جنوب العراق، وأن نسيطـــر على المـــدن المقدسة..فلا مندوحة مـــن أن نحكم نحن دمشـــق، أو أن تحكمها دولة أخـــرى، غير إسلامية تكـــون صديقة لنـــا!» لم يكن يهم لورنس فقـــدان العرب في هذه الحـــرب لعشرين ألف رجـــل،أو مبادئ الشرف التي قطعها للعرب، إذ إنه كان يعلم بتفاصيل محادثات اتفاقيـــة سايكس–بيكو، ويفـــرح عند قراءته رد الشريف حسين لابنه فيصل في قوله:

«إن الوعـــد البريطاني كالذهب.. مهما جلّوته بشدة فإنـــه يسطع دائماً!» إذ وعدوه بفلسطـــين قبل سوريـــة لتكـــون كجزء من منطقة عربية ومستقله في المستقبل.

أما لورنس فموقفـــه مختلف، بعد صدور الوثائـــق السرية في كتاب (الحيـــوات السرية

للورنس الجزيرة العربية).. إذ عبر واثقاً أنه سيقنع فيصل بالصمت والعطف على مصالح اليهود، وأكد أستاذه هوجارت ومعلمه في المخابرات البريطانية في أنه سيقابل الشريف حسين عام ١٩١٨ ليشرح له سياسة بريطانية، حول التوطين الصهيوني في فلسطين، وأكد في تقريره استعمال القوة ضد العرب قائلاً: «.. لامناص من أن تفرض بريطانية تعهدها للصهاينة بواسطة القوة!» بل سعى بعد تعرفه على وايزمان زعيم الحركة الصهيونية في القدس، إلى الجمع بين فيصل ووايزمان، لعرض خطة جديدة للشرق الأوسط يقدمها وايزمان في لندن، حين حضور فيصل مؤتمراً فيها، كان خاتمة المؤتمرات . مع أن هذه المحاولة سبقتها أخرى من قبل وايزمان لمقابلة فيصل وعرض المال عليه،حين عرف أن فيصل بحاجة إلى المال ومن الثابت أنه لم يفلح في مسعاه هذا!!!

❃ ❃ ❃

و أخيراً.. تظل (عقدة لغز لورنس) قائمة، رغم كل الوثائق التي تدينه، في أنه لم يعمل لصالح العرب، مع أن (أنطوني نتنغ) يراه مخلصاً للعرب،ولكنه اختفى من الميدان لشعوره بالإثم وتأنيب الضمير.. وقوله هذا - لورنس - «أما الشرف فقد فقدته قبل سنة، يوم أن أكدت للعرب بأن بريطانية ستحافظ على وعودها لهم» ثم يعود للقول مرة أخرى «إنني لم أبلغ درجة من الحمق تجعلني لا أدرك أنه لو قيض للحلفاء أن ينتصروا، فإن وعود بريطانية للعرب، لن تكون سوى حبر على ورق، ولو كنت رجلاً شريفاً، وناصحاً أميناً، لصارحتهم بذلك، وسرحت جيوشهم، وجنبتهم التضحية بأرواحهم في سبيل أناس لايحفظون لهم عهداً ولا ذمة».

❃ ❃ ❃

إن تاريخ لورنس قبل ذلك، اتهامه بالتجسس في العراق، حين كان في بعثة للتنقيب عن الآثار عام ١٩٠٨.

وهو باعترافه نفسه بذلك، في أنه أعتقل وهدد بالإعدام، بل حاول أن ينتحر، وفقد وعيه..، ورغم صداقته مع السيدة (شو) زوجة الكاتب البريطاني (برنارد شو) فقد دعته كذاباً لعيناً.

وما العنوان الجانبي لكتابه (أعمدة الحكمة السبعة) (النصر أو الانتصار) غير رمز هش، لشخصية بريطانية عاشت التاريخ في وقع الحدث، الذي لم يكن في صالح أبناء المنطقة، فهل يأتي اليوم الذي سيكون التاريخ في يد أبناء البلد دون الغرباء!!!.

المراجع

- ألبرت حوراني: الإسلام في الفكر الأوروبي – بيروت ١٩٩٤م
- سليمان موسى: لورنس والعرب. بيروت ١٩٦٢.
- د.محمود السمرة: غربيون في بلادنا – بيروت ١٩٦٩م
- مجلة الثقافة العربية- ليبيا عام ١٩٧٥م عدد ١١.
- مجلة الهلال المصرية – القاهرة عام ١٩٧١م عدد ٧.





آفاق المعرفة



كيف نتغلب على اكتئاب المراهق..

سهام شباط*

مسألــة الصحة النفسية تهــم الكبير والصغير، في جميــع البلدان، وفي جميــع الأوقات والأزمان لأنها تشكل العنصر الهــام في التواصل مع الحياة والآخريــن والذات. وهي صلة الوصل بين الإنسان والعمل والنجاح والطموح والمستقبــل. فكلما كان التواصــل إيجابياً انعكس ذلك علــى حياته إيجابياً

* باحثة في التربية وعلم النفس

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

والعكس صحيح.

فالصحة النفسية شغلت بال الكثيرين في الأسرة والمعمل والقيادة والمجتمع لتأمين فرص وشروط آمنة مناسبة لتحقيقها.

وإذا كانت حياة العصر الحاضر الذي نعيشه شديدة التعقيد، كثيرة المفاجآت، سريعة التطور، فإن ذلك يجدر بنا أن تستدعي منا الكثير من الدراسة والتمحيص والاهتمام، لأنها شديدة التأثير بصحة الأفراد في جميع الأعمار سلباً كما أسلفنا أو إيجاباً. لأننا نعرف بأن الصحة النفسية السليمة للأفراد وسعادة الأسرة، وأمن المجتمع، وثمرات عمله، وحسن نموه من جوانب شخصه المتعددة، أدركنا لماذا نواجه المزيد من الاهتمام على ضرورة الاهتمام بالصحة النفسية وإجراءاتها وإنجازاتها.

ولأن بين أيدينا أمانة كبيرة وخطيرة وهامة لنا ولمجتمعنا في مستقبله. علينا أن نعرف بأن هؤلاء الأطفال أو المراهقين هم عماد المستقبل وجذوره التي سوف تصبح أشجاراً مثمرة يستفيد منها المجتمع بأكمله محملة بالثمار من كل نوع ولون تدعم الغد ذاخرة بالمعرفة والتطور والحداثة هذا إذا اهتممنا بها وغذيناها بالأصالة والتجديد.

وعلى الرغم من أننا نحاول الوصول إلى الهدف وذلك بتحقق صحة نفسية إيجابية أي بمعنى أن يحقق الفرد ذاته، ويعي وجودها، ويعمل وفق ما توجه إليه، وهي ما يبدو على الإنسان من سلوك أمام الضغط أو الشعور بالشدة واستجابته لها. أو هي حالة إيجابية توجد عند الفرد وتكون في مستوى قيام وظائفه النفسية بمهماتها كما يبدو ذلك في عدد من المظاهر على شكل حسن ومتناسق ومتكامل ضمن وحدة الشخصية.

وعكس ذلك من عدم التناسق والتكامل والانسجام في وحدة هذه الشخصية يحصل الاضطراب. وفي دراستنا هذه نحن أمام اضطراب من نوع خاص وهو الاكتئاب عند المراهق الذي يواجه مجموعة من الأنظمة الصارمة في الأسرة والمدرسة والمجتمع الذي بدوره «المراهق» يحاول أن يفرض فلسفته الخاصة به لإثبات شخصيته من خلالها فيواجه الرفض والقمع والترهيب، فتزداد عنده الاضطرابات النفسية والقلق والاكتئاب

ويؤدي ذلك إلى مزيد من العزلة وسوء التكيف والقسوة والعدوان والانحرافات وخاصة أن هــذه الاضطرابات قد تزيد من ابتعاده عن أسرته.. وقــد وجدت الدراســات الحديثة الصادرة عن الولايات المتحدة والتي أجراها روجــرز ومعه آخرون في المدارس الإعدادية بأن التمرد على النظام في هذه المدارس كثير وبأساليب مختلفة منها:

الكذب- السرقة- الضــرب- العدوان- الشتائــم- بــكاء متكــرر- قســوة- عناد- أوجاع الرأســ- وساوس- تعب- انفجارات هستيرية- شدة الإثارة- عــدم الاستقرار- غضب سريع- هــروب من المدرسة- غيرة- قلق- اكتئاب- تخلف دراسي.

والاكتئــاب عنــد المراهــق مــن أكــثر الاضطرابــات شيوعاً بعــد القلق ومن أكثر المشكلات الانفعالية في العالم العربي خاصة، والتــي تحتــاج إلى مساعدة وطلــب العون النفســي والاجتماعي والأســري، وتختلف نسبــة المكتئبين في المجتمعات الحاضرة عن المجتمعــات الماضية طبعــاً. نتكلم عن هذه النسب التي زارت العيادات ومن الطبيعي أن هنــاك مرضى ولكنهم يتألمون بصمت بعيداً عن العيــادات والعلاج يتخبطــون بآلامهم ويتركــون أنفسهــم تحت رحمــة الظروف والمعاناة السلبية التي قد تطول لدرجة الموت أو الانتحار.

فضلاً عــن أن هــذا الاضطــراب إذا تــرك أو أهمل يــؤدي إلى مشكلات صحية ونفسيــة وجسمية وبهذا تقل فرص شفائهم من الأمراض الأخرى. بمعنى آخر إن فرص الشفــاء مــن المرض الجسمــي واضطراب الوظائــف العضوية تطــول إذا كان المرض مصحوباً بشخصية تميــل للاكتئاب، وهذا الاضطــراب لا يميــز بــين الأذكيــاء وغير الأذكياء، ولا بــين المشهور وغير المشهور ولا بين المفكر وغير المفكــر وهنا يكمن الخطر لما سيتركه هذا الاضطراب من أخطار على الفرد والأسرة والمجتمع من نتائج سلبية.

وهــذا الاضطــراب يصيــب جميــع المجتمعات بنسب متقاربة في الغالب وتتزايد نسبــة انتشاره من جيــل إلى جيل، وقد كان يعتقد أن هذا الاضطــراب يصيب الأعمار الكبرى فقط وقد ثبــت خطأ هذا الاعتقاد

إذ وجد أن هـذا الاضطراب يصيـب جميع الأعمـار، وإن بعض الدراسـات العربيـة قللت مـن فرص معالجة هذا الاضطـراب. كما أن بعض الدراسـات العربيـة الأخرى اعتبرتـه مرضاً طبياً ولم تركز عليه باعتباره اضطراباً يصيب الناس العاديين وما يرتبط به مـن يأس وتشـاؤم وكذلك أن هذه الدراسـات العربية غير وافية أو شاملة لتعطي المواطن العربي الشرح عن التطبيقات السلوكية والمعرفية لهذا المرض للاستفادة منها.



حسبنا أن نعرف دون استثناء بأن جميعنا مررنا بحالات من الحزن والألم والأسى على بعض الآمال المجهضة والفرص التي ولت، والأعزاء الذين فقدناهم، وجميعنا أحسسنا في بعض المواقـف بـأن حياتنـا ليس لها معنـى أو دون جدوى، وأن كفاح الحياة التي عشناهـا لم يكن لها معنـى كل هذه المشاعر اختبرناها وأحسسنا معهـا بالبكاء واليأس والفشل، وفقدان الشهية، واضطراب النوم، والتشاؤم، في مثل هذه اللحظات شعرنا بأن العمل البسيط جهداً لا يطاق وأن طاقتنا قد نضبت وأنَّنا عاجزون عن القيام بأي مجهود سـواء كان عضليّاً أم جسديّـاً، ولكن علينا أن نعـرف بأن الإحساس بهـذه الانفعالات تختلـف من فـرد لآخر وهـذا نسبي، فقد

يكون ما أشعر به من ألم لايحس به آخر على الإطلاق، فالبعض لديهم الاكتئاب بشكل أحاسيس قاسية من اللوم، وتأنيب النفس، ويأتي البعض بشكل آلام جسدية، وبدنية، والبعض لا تفرق بين آلامهم فتأتي جسدية تارة ونفسية تارة أخرى.

ولكن بشكل عام الاكتئاب هو تعبير عن خبرة مؤلمة كالفشل في علاقة، أو خيبة أمل، أو فقدان شيء مهم كالعمل، أو الدراسة، أو وفاة إنسان غالٍ. وهذا النوع العادي من الاكتئاب الذي تظهر معالمه في شدة الانفعال ويستمر لفترات طويلة، ويعيق الفرد عن أداء نشاطاته وأعماله. ولكن إذا استمر أكثر من اللازم فهذا ما يسمى الاكتئاب العصابي إذ إن المزاج المضطرب ومشاعر النكد واليأس تكون أكثر حدة وأكثر استمراراً، ويمتزج الاكتئاب العصابي مع المشاعر العصابية بما فيها القلق والتوجس والخوف من المستقبل ومشاعر التهديد والإحباط وكلها مشاعر تزداد حدة عند المراهق عندما تتعارض مع طموحاته وتبعد به عن مستوى إنجازاته وأهدافه المتوخاة. ويفرز من الاكتئاب العصابي اكتئاب يسميه يحيى الرخاوي «١٩٧٩» الاكتئاب اللزج وفيه يبدو الشخص اعتمادياً، سلبياً، كثير الشكوى، ناعياً حظه، متفنناً في اكتشاف أخطائه، والإعلان عن جوانب ضعفه وسلبياته. وهناك الاكتئاب الداخلي ويحصل دون وجود أسباب خارجية واضحة وهذا أشد خطراً في علاجه واكتشاف مرضه إذ يتدخل في بعض الأحيان العلاج بالعقاقير وبعض الجلسات الكهربائية.

وهناك الاكتئاب «الاضطراب الدوري أو الهوس». وهذا النوع من الاضطراب خطر لأنه يصيب بالإضافة إلى المشاعر والعواطف القدرات الأخرى «كالقدرة على التفكير، والعلاقات الاجتماعية، وإدراكه لنفسه وللعالم وللمحيط» وهذا ما يشكل الخطر من المريض نفسه على نفسه «يضر بنفسه كالانتحار مثلاً».

أما الاكتئاب الموسمي فهو الشائع عند بعض الناس في بعض أشهر السنة وخاصة في أشهر الشتاء إذ يميل الشخص للانعزال، والحزن، ميل شديد للأطعمة الدسمة

والدهون. وأسباب هـذا النوع غير معروفة وعلاجها أخذ قسطاً وافراً من الشمس في الفترات السابقة على الغروب، ولكن؟! في البلدان المعرضة بشكل كبير للشمس ماذا يفعل الفرد. (لا يوجد إجابة وافية) لأن كثيراً من الناس يسعدون بأشهر الشتاء وبالأمطار ويشعرون بالنشاط والحيوية؟

إذاً نقول بأن الاكتئاب له أثواب كثيرة ومتعددة ومتباينة. ولكن يجب أن نعرف بأن للاكتئاب عند المراهق أعراضاً جسدية ونفسية يجب التعرف عليها لنسارع في علاجها ونحمي أولادنا منها قدر المستطاع.

تشتمل الزملة الاكتئابية على مجموعة من الأشياء السلوكية والأفكار والمشاعر التي تحدث مترابطة مع بعضها تصف السلوك الاكتئابي وهي:

- الإحباط والكدر ونعني به سيطرة مشاعر الاستياء والكدر وعدم البهجة. وأي مشاعر من النجاح والسرور يردونه إلى الفشل والنقص «إذ يرى نفسه فاشلاً في كل شيء يوكل إليه في المدرسة أو الأسرة أو العمل».

- ضعف مستوى النشاط الحركي والخمول: وخاصة الأشياء التي كان يستمتع بها تصبح غير ذات قيمة وغير جديرة بالاهتمام «القراءة- العمل- مشاهدة التلفاز---»..

- الشعور بتثاقل الأعباء: دائماً دائم الشكوى من الأعمال الملقاة على عاتقه وهو غير قادر على القيام بها أو تحملها «مزحوم بالأعمال».

- دائم الشكوى جسدياً مع الآلام العضوية: والتي تدل على سرعة التعب والإرهاق. وضعف الطاقة، وآلام الظهر والجسم.. وكل هذا للهروب من الواقع والتقوقع حول نفسه.

- توتر العلاقات الاجتماعية: شخص متردد- عصبي- غير قادر على معرفة حقوقه أو واجباته، غير واثق من نفسه، يفتقد حب الآخرين ودعمه، يجد صعوبة أو استياء في التعبير عن نفسه، يبتعد عن الآخرين ويحب الوحدة،

- مشاعر الذنب واللوم المرضي للنفس:

وهــؤلاء غالبــاً ما يسيطــر عليهــم بأنهم عبء على الآخريــن وعلى الأسرة والمقربين وخاصــة عندما يشعرون بالفشل في تحقيق رغبة ما.

- الإدراك السلبــي للبيئــة والتفكــير الانهزامي: وهنــا يشعر المكتئــب بالنقص والفشل، وعــدم اللياقة ويميــل إلى وصف شخصيتــه بالتافهة/ والعاجــزة. وهذا ما يشعر به الأهــل عند قيام حوار بينهم وبين أولادهــم فيقولون «نحن نعــرف بأننا نفعل ذلــك وذلك لأننــا فاشلون، تافهــون.. لماذا يكتئب المراهق؟

في الدراسات الحديثة العربية والغربية وجــد أن الاكتئــاب في تزايــد مستمر بين جميع الفئات والأجناس والبلدان والأعمار. وأحــدث هــذه الدراسات بينــت أن هناك «اكتئاب الأطفال».

فالسبــب لهذا التزايد هــو تزايد نسبة الانفصــال والطلاق بــين الأزواج في جميع البلدان والمجتمعات.

- افتقاد الفرد لمصادر الدعم والحماية والأمــان في الأسرة والمجتمــع. لأن افتقاد الطفــل للأسرة «وخاصــة في دولنا العربية الأسرة الممتدة والتــي تضم الجد- الجدة- العم- العمة.. والتي يشعر الطفل من خلالها بالدعم والأمان والحماية». وعمل الأم خارج المنزل له إيجابيات وسلبيــات لسنا معنيين بها الآن لمــا لها من أهمية في حياة الإنسان وخاصة للطفل والمراهق بالذات لأننا بعيدون كل البعد حتى الآن في مجتمعاتنا عن الفطام النفسي كما في المجتمعات الغربية المتقدمة. طبعاً لا ننسى لما لذلك من سلبيات.

- التلوث البيئي ساهم في خلق مناخ صحي عام مضاد للصحــة النفسية والاجتماعية. فالتلــوث الجوي من السيــارات، والمصانع، والحرائــق، والغــازات ، وثقــب الأوزون.. وتلوث المياه ومصادرها. والاحتلال البيئي.. أدى إلى إثــارة الكآبة والضيق بشكل مباشر، وبشــكل غير مباشــر أدى إلى ظهور جراثيم وأمراض لم تكن موجودة أصلاً مثل «انفلونزا الطيور- السرطانات..إلخ».

- انتشــار الــلاءات عنــد المراهق «لا تدخــن- لا تشــرب مخــدرات- لا تتعاطى الكحول- لا تدمن على العقاقير الطبية وغير

الطبية- لا ولا.. كلها تخيف الأسرة وتنعكس سلباً على سلوك المراهق إذا تعاطاها.. وخاصة عندما نسمع بأن الاكتئاب يوجد وينتشر بصورة وبائية عند الفئات المتعاطية، والمدمنة، وخاصة نحن الأهل عندما نعرف بأن هناك صلة معروفة ومؤكدة بين الاكتئاب والانتحار.

- عدم الشعور بالحب والأمان في المدرسة مع أقرانه ومعلميه يشعره بأنه لا قيمة له وغير مرغوب فيه وبأنه منبوذ من الآخرين، وبأن الآخرين محبوبون وهو غير محبوب يجعله في حالة الهوس الانفعالي «ضيق، غضب، تكسير، شتائم..» ينعكس سلباً على دراسته وعطائه ويبتعد عن معلميه وأهله ويتقوقع على ذاته مفكراً بأنه فاشل لا قيمة له ولا لوجوده في هذه الحياة إذاً ما العمل؟!

هذا يقودنا إلى سؤال هل الذكور والإناث بنفس النسبة في الإصابة بمرض الاكتئاب؟

نقول إن نسبة انتشار مرض الاكتئاب عند الأطفال أقل منها عند الكبار. حيث يصيب الصغار بنسبة ١-٣٪ ولكن عند المراهقين بنسبة ٣-٥٪. وإن إصابة الذكور أكثر من الإناث قبل سن البلوغ، ولكن بعد البلوغ نسبة الإصابة عند الإناث أكثر، والحزن واليأس في بعض الأوقات نتيجة ضغوط الحياة شيء طبيعي لكن الشيء غير الطبيعي أن يستمر ويزداد قوة عند المراهق ولمدة زمنية طويلة هنا يجب التدخل وعدم الإهمال. وإن إصابة أحد الوالدين بالاكتئاب له تأثير كبير بإصابة أحد أبنائه وهذا التأثير له عدة نواحي. وراثية تتعلق بالجينات. بيئية تتعلق بتصرفات الأب أو الأم ومزاجه وسلوكه. عوامل كيميائية فإن نقص مادة السروتنين في المخ لها سبب كبير وهذا ما تقوم به الأدوية المضادة للاكتئاب. أحداث مؤلمة في حياة المراهق. دخول المراهق المستشفى أو إصابته بمرض، أو تغيير مدرسته، تعرضه للعنف في المدرسة سواء كان لفظيّاً أم جسدياً.

وتشير الإحصاءات الطبية الأمريكية إلى أن الإناث يصبن بمرض الاكتئاب الشديد بنسبة الضعف مقارنة بالذكور، بينما حالات الاكتئاب الخفيف تزداد بنسبة ما بين ٥-٦

أضعاف بين الإناث مقارنة بالذكور. وحسب رأي خبيرة علم النفس في جامعة ستانفورد الأمريكية «سوزان بكسيما» فإن سبب حدوث الاكتئاب الشديد لمشاعر الحزن بطريقة تؤدي إلى الاستسلام لمشاعر الحزن والسماح لها بالسيطرة الكلية على مشاعر الإنسان الأخرى وبالتالي الوقوع في دوامة الحزن الدائم والعميق على عكس الذكور الذين يستطيعون نسيان الحزن بطريقة ما أو بأخرى.

ومن المعروف بأن سن الشباب والمراهقة والتي من المفروض أن تكون أسعد أوقات الإنسان أصبحت حسب رأي خبراء الصحة النفسية من أتعس فترات حياة الكثيرين من الشباب والمراهقين في العصر الحديث حيث يميلون إلى التعبير عن مشاعرهم الداخلية نحو متطلبات المجتمع العصري ومشاكله العديدة من خلال إظهار مشاعر الغضب والتمرد والهرب من المنزل والمدرسة أو إدمان الكحول والمخدرات أو إظهار السلوك العدواني في المنزل أو المدرسة.

وفي الواقع وحسب رأي خبراء الصحة النفسية فإن عدم معالجة حالات الاكتئاب عند المراهقين تحمل معها مخاطر لإقدام المرضى على الانتحار وبدليل زيادة نسبة الانتحار لأكثر من ثلاثة أصناف بين فئات المراهقين والشباب ومن كلا الجنسين وذلك حسب الإحصائيات الأمريكية فقد أثبتت الأبحاث بأن أكثر المراهقين الذين يقدمون على هذا الفعل يعانون من الإحساس بالفشل، السخط، وعدم الرضا، الإحساس بالندم أو الذنب، توقع العقاب، كراهية النفس، إدانة الذات، وجود أفكار انتحارية، الحزن، التشاؤم من المستقبل، البكاء، الاستثارة وعدم الاستقرار النفسي، الانسحاب الاجتماعي، التردد وعدم الحسم، هبوط مستوى الكفاءة والعمل، اضطرابات النوم، فقدان الشهية، التعب والإرهاق، تأثر الطاقة الجنسية، الانشغال على الصحة.

هذا كله وهناك الكثير يجب على الأهل الاهتمام به وعدم إهماله عند وجود ثلاث من هذه الصفات أو أكثر وديمومتها واستمرارها لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة عند ولدهم يجب الانتباه والمسارعة إلى إيجاد

الحـل المناسب ومن أهـم الأشياء المفروض البحـث عنهـا في بيت المراهق هـي البعد عن الضغوط النفسيـة التي تأتي غالباً من الخارج كالأعباء المنزليـة، ضغوط الدرس، التلوث البيئي، العلاقة بين الأب والأم، الأم والأولاد، المراهق وأخوته، المراهق وأقرانه، المراهق وعلاقاته بالأهل والأصحاب،غذاءه، نومه، نشاطاتـه، وكل هـذه الضغوط هي الأشيـاء التي تعتـبر طبيعية لـدى غالبية النـاس ولكن هناك بعضـ الأفراد حتى في المناسبـات السعيـدة «حالة النجـاح مثلاً» نجدهم يصابـون بالاكتئاب ومعنى ذلك أن عمليـة ترجمة الضغط وأحداث الحياة إلى اضطراب انفعالي واكتئاب يحتاج إلى وجود ثلاثة شروط أخرى معها فمثلاً:

- تبـين أن أسـوأ الضغـوط، وأكثرها ارتباطـاً بالتوتر والاضطـراب النفسي هي تلك التي تحدث للفرد المنعزل، والذي يفتقد المسانـدة الوجدانية، والصـلات، والدعم الاجتماعـي والمؤازرة والتـي تجعل للحياة معنـى «الجنة بلا ناس مـا بتنداس». وهنا تجعل التغلب على المرضـ والاكتئاب سهلاً مع الأهل والأحبة والأقارب والأصدقاء.. إذ يمدونه بالدعم والتشجيع والمحبة.

- وكذلك من الثابت أن الاستجابة باليأس والاكتئاب لأحداث الحياة أو عدم الاستجابة يختلف من فرد لآخر حيث الفرد الذي يملك المهارات المهنيـة والاجتماعية الجيدة يكون أكثر قدرة على مواجهـة الضغوط أكثر من الفرد قليل الخبرة والمهارات «تعويد المراهق معاركة الحيـاة لاكتساب الخـبرات والثقة بالنفس وعدم الاتكال على الآخرين».

- ويتوقـف كذلـك تأثـير الخـبرات والضغوط اليوميـة على مدى تقدير الفرد لها، وعلى مـدى إدراكه لخطورتها الرمزية لـه. فأهمية الأحـداث اليومية تختلف من فرد لآخر وكذلـك ارتكاسنا لها. فقد يكون أمرٌ ما قد حدث مع أحدهم يصيبه بالمرض والاكتئاب والحزن في حين نفس الأمر لا يهز في فرد آخـر أي إحساس مما نقول. مثال: الفشـل في الحياة الزوجية قد يكون مصدر إزعاج ويأس وحـزن كبير لأحدهم ومصدر فرح عارم لأحدهـم الآخر بأنه تخلص من عبء الحياة المزعجة التي يعيشها مع قرينه

وحـان الوقت ليغـير حياتـه وسلوكه نحو الأفضل.

إذاً مـا هـو دور الكبـار في عـلاج اكتئاب المراهق:

يساور الكثير من علمـاء الأعصاب بأن دماغ المراهـق لديه استعـداد للاضطراب العاطفي والتراجع والابتعاد عن العائلة وقد يساعـد المراهقين عن الانفصال عن آبائهم والتواصل مع أقرانهم «الفطام النفسي كما أسلفنا».

ولكن تلـك الميول نفسها يمكن أن تجعل مـن أمر القـول متى يكون عمـل النمو في صدد أن يتحـول إلى اكتئاب يستحق العلاج أمراً صعباً.

إن نحو (١ من ١٢) مراهقاً يعاني اكتئاباً ملحوظاً قبل السن ١٨ والفتيات حالما يبلغن سن المراهقـة أكثر عرضة بمعدل الضعفين مـن الفتيـان لأن يصبحـن مكتئبات ونحو نصف المراهقين الذيـن لديهم اكتئاب غير معالـج يمكن أن يحاولـوا الانتحار. وهو لا يزال ثالث أبرز سبب للوفاة في هذه الجماعة العمرية..؟!

ولذلـك نجد أن دور الأهل مهم جداً في هذه المرحلة العمرية لما لديها من أخطار قد تفوق التصور.

فعلـى الأهل تقع مهمـة مراقبة سلوك أولادهـم ومحاولـة الحـوار والنقاش دون تذمر أو غضب أو سخرية أو تهكم ومحاولة سبر أغوارهـم بالمحبة والتواصل والتعاطف إذ إن الشخصيـة الاكتئابية تردد كثيراً من العبارات والتي منها: لم يعد بمقدوري تحمل ذلك –لا يوجد من يسنـدني– مسكينة أنا؟ كيف أعيشـ في مثل هذا الجو؟ أستحق كل مـا أنا فيه؟ يجـب أن أعاقب؟ أنـا إنسانة فاشلة؟.. وهذه أفكار يجـب أن ننتبه إليها كأهل لأنها أفـكار سلبية تطفو على الذهن على نحـو آلي، إذ إن التفسيرات التي نفسر بهـا المواقف التي تواجهنـا هي التي تحكم انفعالاتنـا ومشاعرنا اللاحقـة. وعلينا أن نعرف أن خبراتنا السابقة وثقافتنا المتراكمة وعاداتنا وتقاليدنا تحكم الكثير من سلوكاتنا وانفعالاتنـا وتؤثر بها «تفعل وتنفعل». حتى الاستجابة للعـلاج الطبـي والنفسي تتأثر بأفكارنـا واتجاهاتنـا. حتـى إن الشخص

الواحد يمكن أن يستثير نفسه انفعالياً في اتجاهات مختلفة كالاكتئاب أو السرور أو القلق في اللحظة الواحدة حسب ما يقوله أثناء استعادته لفكرة ما. أو عند أدائه لعمل ما. أو مواجهته لموقف معين، أو عند تفاعله مع أشخاص معينين.

طبعاً لا ننسى كأهل بأن العقاقير تلعب دوراً كبيراً في الشفاء وخاصة عند مرضى الاكتئاب إذ نجد بأن هناك عقاقير وهمية تلعب دوراً إيجابياً في شفاء المريض فالمريض الذي يؤمن بأن العقار الذي يتعاطاه فعال، ويثق في المعالج، فإن العقار الذي يتعاطاه سيكون فعالاً والعكس بالعكس. وفي سلسلة من الدراسات الأمريكية لمقارنة الأدوية الطبيعية التي تعطى في مختلف حالات الاضطرابات الصحية والنفسية والجسمية، بأدوية كاذبة «أقراص من السكر، أو النشا تعطى للمريض على أنها عقاقير طبية» تبين أن وجود العديد من النتائج الإيجابية العلاجية يمكن أن تؤدي إليها استخدام الأدوية الكاذبة، إذا ما أعطيت للمريض على أنها قوية فعالة وأنه أمكن تجربتها على كثير من المرضى الآخرين في السابق. وقد أعطت نتائجها على مرض «القلق- الاكتئاب- الصداع- الربو- آلام الأسنان».

وملخص القول من الدراسة أنه يجب التوافق بين السلوك الإنساني وبين جوانب تفكيرنا وانفعالنا لأنها جميعها تتفاعل مع بعضها. إذاً أساليب تفكيرنا الخاطئة تؤخر العلاج وتعيقه.

ولذلك على المهتمين بالمعالجة الاهتمام بطريقة التفكير الإيجابية للمراهق في جميع جوانب حياته. لأن التفكير والسلوك والانفعال عنده جميعها أشكال متلاحمة والتغيير في إحداها يغير في العناصر الأخرى جميعها. ومن الخطأ أن نقول بأن تغيير الانفعال وحده يغير التفكير، أو أن التفكير وحده ودون محاولة من الشخص أن يغير من السلوك الذي يثير هذا التفكير يؤدي إلى التغيير في الانفعال، لأن تغيير التفكير يؤدي إلى التغيير في الانفعالات والمشاعر، والعكس أيضاً صحيح. وهذا يدعو إلى القول بأن المراهق المكتئب عندما يفكر يهول الأشياء ويعطيها أكثر من حقها من الانفعال

والتفكير ويحاول أن يعمم الأشياء الحاصلة معه على نفسه وعلى الآخرين مطلقاً الأحكام جزافاً. وبأنه يجب أن يحصل على الأشياء كلها التي يريدها أو لا شيء.. وأن الحياة أمامه إما بيضاء أو سوداء وهذا ما نعنيه بالتفكير المتصلب أو الجامد. ودائماً يحاول أن يفسر الأشياء بطريقة تشاؤميه سلبية لما هو إيجابي وخاصة المستقبل أمامه أسود قاتم.

أظهر وكأنني في هذه الدراسة لا مجال للعلاج!. طبعاً من الخطأ قول ذلك ولكن على الأهل تعويد أولادهم على التوازن في الحياة بين الذات والآخرين. والتعود على مواجهة ضغوطات الحياة والتعايش معها ومنع تراكمها لئلا نصاب بالإحباط عند علاجها. ومحاولة التخفيف منها وليس إلغائها نهائياً. ومحاولة إقامة التوازن بين احتياجاتنا واحتياجات الآخرين وعلى الأهل قول كلمة «لا» عندما تكون الطلبات غير معقولة بعد النقاش والحوار البنّاء. ومن المحبذ التفهم بالنسبة لاختلاف الرأي بين الأهل والمراهق لأنها صفة إيجابية. كذلك توزيع المسؤوليات كل حسب طاقته في البيت. والتعود من الجميع على ضبط الغضب والانفعال. والتقليل من الشعور العدواني نحو بعضنا البعض. كذلك التعود على الاسترخاء وسماع الموسيقى في زحمة المشكلات اليومية. والاهتمام بالنظام الغذائي المتوازن، والتعود على العادات الصحية: منع التدخين، الكحول، الإدمان.. واللجوء إلى الأخصائيين إذا ما تطلب الأمر ذلك.

وفي النهاية أن نتعود على سلوك طريق الصدق، والثقة، واحترام الآخر في تعاملاتنا، مزودين بالمحبة والتعاون.

مراجع البحث:

- العلاج النفسي بين الشرق والغرب. آلان واطسن. ترجمة ثائر ديب.
- علم الشذوذ النفسي، د. علي سعد، ١٩٩٣-١٩٩٤م.
- الإرشاد النفسي والاجتماعي وتطبيقاته، د. سبيت سليمان، ٢٠٠٥م.
- الصحة النفسية، دراسة في سيكولوجية التكيف، د. نعيم الرفاعي، ١٩٩٤-١٩٩٥م.

- **العلاج النفسي الحديث «قوة الإنسان»، عبد الستار إبراهيم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ١٩٨٠م.**
- **في الصحة العقلية، د. سعد جلال، دار المطبوعات الحديثة، الإسكندرية، ١٩٧٠م.**
- **علم الطباع «المدرسة الفرنسية» لسامي الدروبي، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.**
- **الأمراض النفسية والعقلية، لـ أحمد عزت راجح، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.**
- **العيادة النفسية والعلاج النفسي، د. نعيم الرفاعي، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٨٢م.**
- **علم النفس الاكلينيكي «التشخيص»، محمود الزيادي، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٩م.**

آفاق المعرفة



المدارس الحديثة لروائع الفن التشكيلي

جهينة علي حسن ❋

غني عن القول إن الفن هو بحر رحب واسع، ومع ذلك، وعلى الرغم من التطور الهائل الذي مرت به البشرية، منذ رسم الإنسان خطوطه في محاولات «التصوير» الأولى على جدران الكهوف وحتى اليوم، فإن «الأدوات» اللازمة لإنتاج العمل الفني تظل كما كانت أبداً: لوحة، وفرشاة، وفنانا..

والنتيجة هي «الفن» أو الإبداع الفني الذي قد يخرج عادياً فتطويه الأيام، أو قد يأتي عبقرياً فيبقى على مر السنين. وفي العصر الحديث، مر الفن

❋ باحثة سورية

العمل الفني: الفنان علي الكفري

التشكيلي عامة، وفن التصوير خاصة، مثله في ذلك مثل جميع أوجه النشاط الإنساني، بمراحل تطور جديدة وعميقة، أخضع الإبداع الفني لدراسات أكاديمية، ووضعت له أصول وقواعد وارتكازات، وتشعب إلى اتجاهات ومدارس يطرق أسماعنا الحديث عنها بين الحين والآخر، وهذه المتابعة المتواضعة هي محاولة اقتراب من هذا البحر الواسع، أو هذا العالم الرحب المغلف بالرقة والتبجيل. نقصد به عالم الفن.

العمل الفني المعاصر

لا يحتاج الإنسان بالضرورة لأن «يفهم» العمل الفني المعاصر حتى يكون قادراً على تذوقه. ذلك أن الغاية التي يرمي الفنان إلى تحقيقها، عن طريق ما يبدع من فن، هي أن ينقل فكرته الفتية أو إحساسه الفني -النابع من البيئة المحيطة به- بلغة هي في حد ذاتها انعكاس للعصر الذي يعيشه ولهذا، فإنه قد يكون من المهم فهم «العملية» التي تتمخض في النهاية عن تحقيق تلك الغاية التي يرمي إليها الفنان، أي العملية الفنية الإبداعية، بل وقد يكون الأهم من ذلك متابعة مايحققه العمل الفني من بهجة ومتعة عندما يتذوق الإنسان هذا العمل ويستوعبه عقلياً وعاطفياً.

لقد كان دور الفنان في الماضي -وإلى حين اختراع التصوير الفوتوغرافي- هو نقل الواقع بصورة أمينة، حتى إن قيمة عمله الفني كانت تقدر بمدى دقته في عرض صور الحياة اليومية المألوفة، كالاحتفالات والمناظر الطبيعية والمعارك وغير ذلك، وعلى مدى القرون المتعاقبة، تطورت أساليب الرسم ووسائل مزج واستخدام الألوان، مع التطور والتغير المستمرين في أذواق الناس، وظل الفنان هو ذلك الإنسان الذي يوظف خياله أو هو يسخره من أجل التعبير عن شعوره وإحساسه ومع ذلك، فمن المسلم به أن «الموهبة» الفنية كانت، في أغلب الأحوال، تستغل لإنتاج أعمال فنية بناء على تكليفات من قبل أشخاص آخرين. غير أنه في أواخر القرن التاسع عشر، أصبح في الإمكان «إنتاج» مناظر طبيعية أكثر واقعية وصدقاً من أي وقت مضى، وذلك بمجرد الضغط على زر آلة التصوير (الكاميرا)، وهكذا بدأ الفنانون يبحثون عن شيء آخر، وتركز هذا بصورة خاصة على البحث عن المشاهد أو

الأجسام الملونة التي يكسبها الضوء طابعاً خاصاً أو «يحتويها» - على حد تعبير الفنانين- ثم حاولوا تصوير ذلك، وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا إلى انحسار الرسم والتلوين الواقعي اليدوي، وتراجعه إلى المرتبة الثانية في تسجيل صور الحياة، وأخذ التلوين يستخدم للحصول على نتائج مرئية جيدة يستفاد فيها من الحركة والتركيب اللوني للضوء، وقد أطلق على هذا الأسلوب الجديد اسم «الانطباعية» أو الاتجاه الانطباعي الذي لاقى نجاحاً في باريس أكثر من غيرها. وشهدت العاصمة الفرنسية فنانين من أمثال «مانيت» (Manet) و «ديغاس» (Degas) و «رينوار» (Renoir) وغيرهم- يهجرون مراسمهم، ويخرجون كي يرسموا في الهواء الطلق، حيث يمكنهم العثور على «الانطباعات» التي تكون الألوان قادرة على تكوينها بفعل الشمس والضوء والهواء الخارجي.

وبدخول المجتمعات الغربية عصر التصنيع، طرأت تغييرات جعلت المرحلة تبدو حرجة بالفعل، ذلك أن المجتمع الغربي أخذ يخرج من عصر «الرومانسية» (العاطفية) ويدخل في مرحلة مراجعة القيم الأصيلة التي كانت تحكمه اجتماعياً. وسنحت الفرصة بذلك للفن كي يلعب دور «المترجم» لهذه النقلة الاجتماعية، وليعبر عن ميلاد الآراء المغايرة في قضايا الفكر والأخلاق، ونتيجة لذلك، تعرضت الأنماط الجمالية التقليدية لنقد مكثف، حيث اعتبرت من مخلفات الماضي الذي انتهى والذي لم يعد يعبر عن الشعور والاهتمامات الحديثة. فقد أصبح الناس يعتمدون في معاشهم على الماكينة والآلة، وأخذوا ينظرون إلى دواخلهم بحثاً عن التحرر الروحي، وقد تصدى لهذه القضية الجديدة اتجاه جديد تمثله المدرسة «التعبيرية» التي تجاوزت ميوعة الرومانسية و«باستيلية» ألوان المدرسة «الانطباعية». وإذا بفناني هذه المدرسة -التعبيرية- يفيضون على لوحات الفن بشواظ متفجرة من الألوان الزاهية والصاخبة، وقد كان ذلك ينطوي، في الحقيقة على انعكاس للمشاكل التي كأن يعاني منها الفرد في ذلك الوقت، وهي المشاكل الناجمة عن التغيير و«الاضطراب» الذي بلغ أوجه في الفترة ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، وكأن



من ألمع رموز هذا الاتجاه الفني (فينسنت فان غوخ) الذي كان -بحق- أشهر رواد المدرسة «التعبيرية». لا تشهد بذلك لوحاته الفنية فحسب، بل وحياته الشخصية أيضاً، حيث كانت كلتاهما تعبيراً عن التمزق العقلي الذي تعاني منه المرحلة، كما كان لهذا الاتجاه الفني (التعبيري) آثار قوية في ألمانيا، حيث ظهرت مجموعات مختلفة من الفنانين التعبيرين في ذلك الوقت ممن وجدوا لفنهم غذاء في فلسفة «كيركجارد» التي كانت صدى أميناً لشكوكهم الروحية، ومن هنا بدأ اتجاه نحو اتخاذ عدسة بصرية خاصة، كوسيلة لنقل المعطيات الحسية والانطباعية، ولخلق تفاعل داخلي مع شعور الشخص الذي يتلقى أو يستقبل المادة الفنية.

ومع بداية القرن العشرين، قادت المدرسة «التكعيبية» الفن إلى إطار خارج عن دائرة تقليد واقع الحياة، وقد حدث هذا عندما بدأ فنانون أمثال «بيكاسو» و«براك» و«جريس» يفككون تراكيب الأشكال -موضوع العمل الفني- مستخدمين قوالب هندسية جامدة، ومخترقين قيم الحجم والمنظور، ومن هذا المنعطف في تطوير الفن، وقبيل الحرب العالمية الأولى، ظهرت مجموعة فنية متمردة عرفت باسم «داداز» (Dadas) أو «الداديين». بدأ هؤلاء بمهاجمة مفهوم الفن نفسه، ثم فتحوا الباب لأول مرة للتعريف

النسبي للفن: في فأصبح كل شيء يعتبر عملاً فنياً إذا مااعتبره الناظر إليه كذلك، وأدى اتجاه «الوظيفية» إلى جلب المزيد من الاهتمام في هذه الناحية باعتبارها ترجمة حقيقية لأحداث العصر، وبينما التزمت المدرسة «التكعيبية» بالإطار العام للوحة والعمل المنحوت، بالرغم من التصرف في تركيب الجسم، نجد أن «الدادية» فتحت مجالاً لثورة شاملة في مجالات الأخلاق والجماليات، تسمح حتى باعتبار إطار الدراجة نحتاً فنياً رائعاً إذا ما شاء لها الناظر ذلك، لقد كان ذلك ثورة ضد الفن، وضد كل القيم النظامية، وبفضل الحرية التي سمحت بربط البيئة بالفن، ظهرت أساليب تقنية حديثة -كالتصوير العادي والسينما- وقبلها الناس كوسائل لتصنيع الأعمال الفنية، كانت شهرة «الداديين» وقمة ازدهارهم في سنة ١٩١٦ عندما هاجر كثير منهم -مثل «بيكابيا» و«دوشام» إلى سويسرا هرباً من الحرب، حيث كانت حركتهم الفنية تمرداً مباشراً ضد الأشكال المهترئة من النظم الاجتماعية والسياسية. ويمكن القول إن أخلاقيات «الدادية» جاءت من نظريات التحليل النفسي عند «فرويد» حول اللاوعي وتفسير الأحلام. ولهذا فإن «السريالية» جاءت فيما بعد -أو هي بالأحرى تولدت- نتيجة لهذه الاتجاهات التي أدت عملياً إلى تحرير الأنماط السلوكية المعروفة، وهكذا ظهرت إلى الوجود «الرؤى» السريالية للواقع مثل صور الأحلام والرغبات الخفية اللاواقعية.

غير أن الفنانين «السرياليين» عادوا إلى استخدام اللغة التصويرية (أسلوب الرسم التصويري) وركزوا على الطبيعة اللاواقعية للصورة، فأخذوا يظهرون الصور الواقعية للأحلام لأول مرة بعد أن كانت ملكاً للفرد وحياته الخاصة ولاسبيل لها إلى الظهور. وشجع هذا الاتجاه إلى «الرسم التلويني الآلي» كواحد من أساليب إطلاق اللاوعي لاستخراج أحاسيس جديدة للرائي، ولهذا أصبح مفهوم الزمن والمسافة مفهوماً نسبياً وشخصياً، ونجمت عن هذا الاتجاه الفوضوي قيم ما يعرف بالفن الحديث، وسمح للفنان بالوصول إلى مرحلة «التجريد»، الذي هو تكسير لمادية الصورة وبحث، عبر أشكال وصور مكتملة الأصالة، عن إدراك جديد

للقيمة المادية والروحية للعالم، وبقي هذا الاتجاه «نمطاً مؤسساً» وظل طوال القرن العشرين يمثل جزءاً حياً من ثقافة العالم. فإذا انتقلنا إلى فن «التجريد البنائي» فإننا سنجد أنه تولد مباشرة من الفن «التكعيبي»، وهو يتميز بأشكاله الهندسية مع مسحه من البساطة الهادفة إلى الصفاء الكامل، كما يتميز أيضاً باختيار الألوان الأولية، مثل الأحمر والأصفر والأزرق، والصبغتين اللونيتين مثل الأسود والأبيض، واضطلع بأمر هذا الفن كل من الهولندي «بييت موندريان» وفناني «باهاوس» في ألمانيا وجعلوه حركة فنية ذات اهتمام عالمي.

بعد الحرب العالمية الثانية تطور هذا النوع من التجريد إلى ما يسمى بـ«فن الأوب» (OP ART) وذلك لما يتركه العمل الفني من هذا النوع من أحاسيس مرئية نتيجة للخدع البصرية التي يلجأ لها الفنان في التعبير، وقد تمكن بعض الفنانين من أمثال «فارسالي» و«بريدجيت رايلي» من إنجاز لوحات فنية تبدو بالفعل وكأنها ترتجف، ويستعان في رسم مثل هذه اللوحات بأشكال يتم تحديدها وفق هياكل رياضية وباستخدام قوانين الطبيعة (الفيزياء) التي تحكم أثر الضوء في عين الإنسان. وبهذا يكون المجهود جامعاً لنشاط البحث العلمي والتسلية المشوقة التي يلعب فيها الرائي دوراً هاماً هو في حد ذاته مشاركة منه في العمل الفني، وليس غريباً أن ينمو «الفن الحركي» من هذه التجربة، حيث تجتمع فيه القطع المتحركة مع الأضواء والألوان المتغيرة، ويحدث بذلك انقلاب حقيقي في المساحة ونطاق الرؤية.

ثم تطورت التكنولوجيا سريعاً مع تطور حياة الإنسان، ودخل الكمبيوتر – العقل الآلي- إلى مجال الفن ليحقق قمة الدقة الفنية، واستمر هذا الاتجاه نحو التحسين والبحث عن الدقة والنقاء ضمن الفن «المفهومي» الذي اشتمل على خطط لعمل مستقبلي والذي أصبحت فيه «الفكرة» هي «الجسم» نفسه موضوع العمل الفني. ثم تطور الفن أكثر ليظهر الفن التبسيطي (Minimal Art) في مجال النحت ليقوم بدور الفن التكعيبي في مجال التلوين، فهدف إلى إعادة الشكل أو الجسم موضوع العمل الفني إلى أصله الهندسي المبسط الواضح.

وكان هذا الفن محاولة لإيجاد توازن في مجتمع لا يزال يتعلق -نفسياً ووجدانياً- بأهداف التقدم التكنولوجي وما يعكسه من رشاقة فنية.

كانت هناك اتجاهات فنية أخرى نتجت عن إبداعات السنوات من القرن العشرين، وصارت تؤثر في الحركة الفنية بجانب ما تقدم ذكره من قواعد فنية محددة المعالم، ومن بين هذه الاتجاهات ظهرت «التعبيرية التجريدية» بعد الحرب العالمية الثانية وحققت نجاحاً قوياً ومؤثراً، وقد اتصف هذا النوع من التجريد بصبغة عاطفية، وهو يسعى لتحقيق التوازن الفني اعتماداً على عدة أساليب مختلفة، فظهر في فرنسا «التلطيخ» أو (Taehisms) باللغة الفرنسية، و«التلوين الحركي» في أمريكا حيث يستخدم فيه أسلوب «تنقيط» اللون على اللوحة وهي على الأرض وهو الأسلوب الذي استخدمه «بولوك» في خمسينيات القرن الماضي. وكل هذه الاتجاهات متأثرة تأثراً مباشراً بالفلسفة السريالية للتلوين الآلي، وفيها تجاهل للقيم الفنية المكتسبة والولوج إلى التلوين بأفكار لحظية مباشرة.

وفي خضم هذا التطور المضطرد، كان المجتمع بعاداته السلوكية الدائمة التغير، يملي الاتجاهات التي اتبعها الفنانون وهم يحاولون نقل عصارات إحساسهم الفني إلى الناس بلغتهم الخاصة، وما لبث أن أصبحت اللغة نفسها هي الرسالة الموجهة إلى الناس، وبتصاعد الاتجاه الاستهلاكي، ظهر فنانو «البوب» (POP) الذين جعلوا من علبة الصلصة لوحة فنية، وطغوا في الظهور إعلامياً على الأعمال الفنية العريقة، حتى صارت علبة العصير أكثر أهمية من لوحة «فينوس» الشهيرة للفنان «ميلو» لا لشيء إلا لأن العلبة تمثل الواقع المعاصر في عالم اليوم الاستهلاكي.

ومن الأنماط الأخرى في هذا المضمار «الأحـداث»، حيث يتوجب على الجمهور أن يشارك بصورة فعالة في الخيال الفني، و«هايبر- رياليزم» التي تمثل تضخيماً للأشكال والأجسام على اللوحات الملونة بحيث تبدو أكبر من حجمها الحقيقي، و«فن التعبئة والتغليف»، لقطع الزينة والأحجار، و«فن التركيب» و«الكولاج» الذي يعتمد على أسلوب اللصق لتكوين لوحة

فنية من قصاصات الصحف ونحوها، و«فن الفيديو»، و«الفن التعبيري الجديد»، و«الغرافيتي» الذي يأتي في آخر سلسلة التطورات الفنية. وهو مأخوذ من الثقافات الفرعية للمراكز السكانية والعواصم، وهو اليوم من الفنون المعترف بها كضرب من ضروب التعبير الفني.

إن الفن إدراك حسي نسبي في غاية من الخصوصية الشخصية التي تحتاج –لكي تصل إلى مرحلة العالمية– إلى أن ينقل الفنان معطيات بيئته بشكل صادق يستجيب له الجمهور، إلا أنه نظراً لدخول الآلة وطغيان الآلية على حياة المجتمعات المعاصرة، تكاد تكون كل التيارات الفنية التي استعرضناها هنا تلقي حظها من التنفيذ والوصول إلى مختلف القطاعات البشرية في وقت واحد.



حوار العـدد

مع د. محمود شاهين:

رحلة إبداع طويلة..

حـــوار: عادل أبو شنب

حوار العدد



د. محمود شاهين: رحلة إبداع طويلة..

حـــوار: عادل أبو شنب ❁

عندمـــا اقترح رئيســـ التحرير إجراء حوار مـــع الدكتور محمود شاهين، اتصلت به، على غير معرفة، وأبديت له غرضي، واتفقنا على أسئلة افتراضية. طلبت إليه الإجابة عنها، وأشهد أنه كان ملبياً بإخلاص وتفان، كنت لمستهما فيه، وأنا أقرأ عنه كفنان تشكيلي (نحات)، وأقرأ بعض نقوده، في الصحف، فقـــد أعدّ الأجوبة كما أريد، عارفاً أن حواراتي هذه، لا تستهدف إلا خدمة الفـــن والثقافة، وأنني أحاور الأدباء والفنانين والمفكريـــن، ساعياً إليهم ما قدرت، وبكل الوسائل المتاحة.

❁ أديب وقاص سوري.

80

هذا هو الدكتور محمود شاهين الفنان والناقد المعروف الحاضر في الحياة التشكيلية السورية المعاصرة.

رسوم مقلدة..

- حدثنا عن البدايات؟

• كغيري من المسكونين بالفن، بدأ هاجسه معي باكراً، خلال الدراسة الابتدائية، يومها أثارت اهتمامي لوحات الفنان الرائد «محمود حماد» التي كان ينشرها في مجلة «الجندي» خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي، فعكفت على تقليدها وتعليقها. حظيت رسومي المقلّدة هذه بالإعجاب والتشجيع من قبل إخوتي (وأنا أصغرهم سناً) وأصدقائهم، ما شجعني على متابعة هذه التجربة، وبالتدريج، بدأت هذه الفنون البصرية تتفاعل في ذاكرتي ووجداني، لتخرج على شكل تعابير مسطحة (رسوم وتصاوير) أو على شكل تعابير مجسمة (منحوتات طينية وخشبية وجصية) وفي أحايين أخرى، كانت تأخذ طريقها، إلى حرف ومشغولات تتماهى فيها الحرفة بالفن (تشكيلات فنية من القرع المجفف وجذوع الشجر والأخشاب المختلفة).

هاجس فني..

- هل استمر هذا الهاجس معك في المراحل اللاحقة؟

• استمر برفقة هاجس جديد، أخذ ينافسه بقوة هو هاجس كتابة الأدب والتعلق به وبرموزه. فخلال مرحلة الدراسة الإعدادية مطالع ستينيات القرن الماضي، انبثقت لديّ رغبة عارمة للكتابة (خواطر، أشعار، وأكبت الرغبة الأولى المتمثلة بالفنون البصرية. وضعت العديد من الخواطر الشعرية، والقصص القصيرة، والمقالات، نشرت معظمها في مجلات «الحسناء» و«الأسبوع العربي» و«الدنيا الجديدة» و«الخمائل» و«المضحك المبكي».. وغيرها.

وفي خط مواز، كنت أتابع سفري السعيد والممتع، في أقاليم الفنون البصرية، حيث أنجزت أربعة معارض فردية خلال دراستي الإعدادية والثانوية، قدمتها للمتلقي عبر صالة المعارض في المركز الثقافي العربي بمدينتي «مصياف»، يضاف إلى ذلك قيامي بتزويد الثانوية التي كنت أدرس فيها، بكل ما تحتاجه من وسائل الإيضاح المتمثلة بالخرائط واللوحات والرسوم اللازمة للجغرافية والتاريخ وعلم النفس والعلوم المختلفة.

كيف تم الانتقال؟

- أنت أكاديمي شغلت عدة مناصب في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، آخرها النائب العلمي فيها، حدثنا متى انتقلت إلى هذه الرحاب؟

• بعد حصولي على الشهادة الثانوية (الفرع الأدبي) عام ١٩٦٨، انتسبت إلى كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، وكنت في طليعة دفعتي.

• في هذا العام، غادرت لأول مرة، ملاعب الطفولة واليفاعة النقية، البسيطة الساحرة، التي كونتني وتكونت فيها فأصبحنا واحداً، وهذه الملاعب تحمل من الجمال الطبيعي، والبساطة الإنسانية الدافئة، الشيء الكثير، ما جعل عملية انفصالي عنها، وانتقالي إلى العاصمة الواسعة، الرحبة، والمعقدة الحياة، أمراً صعباً وشاقاً علي، لاسيما وأنني لم أكن أعرف دمشق، ولا كيفية السفر إليها، وهو ما جعلني أصطحب معي أحد أقاربي عندما تقدمت إلى مسابقة القبول في الكلية. حيث كان يوصلني إلى الكلية (وكانت في ساحة التحرير) صباحاً، ويعود لأخذي منها إلى الفندق عقب انتهاء مادة الامتحان الذي كان يستمر لمدة أسبوع، ويشمل خمس مواد: ثلاث عملية هي: الرسم بقلم الفحم، والرسم بقلم الرصاص (رسم سريع) والتصوير بالألوان. ومادة اللغة الأجنبية، ومادة تتعلق بعلوم الفن. هذا الانتقال من بيئة جميلة وبسيطة، إلى بيئة واسعة ومعقدة الحياة، هز كياني، فحاولت تغيير اختصاصي من الفنون الجميلة إلى الفلسفة، لكن أحد موظفي شؤون الطلاب في جامعة دمشق الذي راجعته لهذا الغرض، وبخني بأدب وحزم قائلاً كأنه فهم السبب: لا تلق بالاً، وابحث عن عمل لتأمين نفقات دراستك.

اليانصيب ساعدني !!

- هل فعلاً نفذت رغبة هذا الغيور الغريب المحبّ والإنساني؟

• نعم.. لكنني تدبرت أمور دراسة السنة الأولى، بمساعدة من أحد إخوتي الذي فاز بالجائزة الأولى بيانصيب معرض دمشق عام ١٩٦٨ وكان مقدارها ٢٥ ألف ليرة سورية. وفي السنة الثانية، أعطاني الفنان الرائد «ممدوح قشلان» الذي كان يشغل يومها منصب مفتش الفنون في وزارة التربية، ساعات تدريسية في إحدى ثانويات دمشق، ما جعلني أعتمد على نفسي، وأتابع مشواري بثقة. وهكذا ظللت أدرس وأدرس حتى حصلت على الإجازة في الفنون الجميلة عام ١٩٧٢ وبدرجة جيد جداً.

- النقد الفني التشكيلي.. كيف بدأ معك؟

• مع دخولي إلى رحاب الدراسة الأكاديمية الفنية، تلونت، وبسعة لافتة، كتاباتي بالاختصاص الجديد. وكنت قد استمريت بمراسلة مجلة «الأسبوع العربي» التي كان يرأس تحريرها آنذاك «ياسر هواري» وربطتني فيما بعد صداقة خاصة مع عدد من محرريها مثل «فاروق البقيلي» و«داود الصايغ».

أول مادة..

- ما هي المادة الفنية الأولى التي نشرتها؟

• كان ذلك في العام ١٩٧٠ عندما تخرج زميلي وابن بلدي الدكتور عبد الله السيد من القسم الذي كنا ندرس فيه سوية «قسم النحت». كتبت مادة تحليلية لأعمال مشروع تخرجه، ونشرتها في مجلة «الشبيبة» الشهرية التي كان يرأس تحريرها الصديق «جورج قيصر».. بعدها انتقلت إلى جريدة «الثورة» فمجلة «جيل الثورة».. ثم مجلة «جيش الشعب» حيث أمضيت فيها خدمة العلم: مصمماً لأغلفتها، ومحرراً فيها، ومخرجاً فنياً لها، وذلك ما بين عامي ١٩٧٣ . ١٩٧٥ . خلال وجودي في الجيش،



عينت معيداً في قسم النحت بكلية الفنون الجميلة، وعام ١٩٧٧ أوفدت إلى ألمانيا لأتابع دراستي العالية. في العام ١٩٨١ عدت من مدينة «دريسدن» حيث كانت دراستي في اختصاص فن التمثال والنصب التذكارية، لأبدأ مشواري الأكاديمي.

والميدان العربي

- والأفق العربي.. كيف انتقلت إليه؟

• بعد أن ترسخ مشواري مع النقد الفني التشكيلي، لا سيما وأنني اعتمدت مراسلاً لجريدة «الثورة» أثناء وجودي في ألمانيا، ما وفر لي إمكانيات كبيرة، لمتابعة الأنشطة الفنية والثقافية فيها خلال إقامتي التي استمرت نحو خمس سنوات.

بعد عودتي من ألمانيــا، وتحديداً العام ١٩٨١ انتقلــت لنشــر مقالاتــي في جريدة «تشريــن» وما زلت فيها حتى الآن. بدءاً من هذا العــام، طرقت باب مجــلات ودوريات عربية عديــدة منها مجــلات: فكر، اتحاد الجامعــات العربية (وهي مجلــة محكمة)، العربي، الفيصل، الكويت، البحرين الثقافية، الكفاح العربي.. وغيرهــا، إضافة إلى عدد من الصحــف اليومية كالبيــان، والاتحاد، وعُمــان، والحيــاة، والسفــير.. كما تابعت نشــري في المجلات السورية المختلفة ومنها: المعرفــة، الحرفيون، المعلومــات.. وغيرها. ومنــذ بضعة سنوات، كلفــت بأمانة تحرير مجلة «الحياة التشكيلية» الفصلية.

حركة النقد

- هل ما زال هذا المشوار مستمراً؟

• نعم.. وبنفس الحيوية.

- كنـت متابعـاً للحركـة التشكيليـة السورية المعاصرة منذ ما يربو على أربعين عاماً، كيف تنظر إلى حركة النقد المواكبة لها؟

• مع أن العديد من الفنانين التشكيليين السوريــين يدعون عــدم وجــود مثل هذه الحركة، لأهداف شخصيــة بحتة، إلا أنني أرى أنهــا موجــودة، وتشبــه إلى حد كبير، الحركة الفنية نفسها، ولكي أوجز في ذلك، أصنف حركة النقد الفني التشكيلي السوري بست نقاط هي:

١- كتابة جــادة ومسؤولة، حاولت قدر المستطــاع عدم الانسياق إلى مطب الشللية، أو المذهبيــة، أو المصلحــة الضيقة، وهذه الكتابــات (صدرت في الغالــب) عن فنانين تشكيليــين جمعوا بين إنتــاج الفن والكتابة عنه. أو هجروا الأول وتفرغوا للثاني.

٢- كتابــات اتسمت بالطابــع الفلسفي الإنشائــي التنظــيري الفضفاضــ. وهذه الكتابات، لامست قضايا كثيرة تتعلق بالفن التشكيلــي، لكنها لم تدخــل نسيجه، وتحلله كمــا يجب. مع ذلك، قدمــت هذه الكتابات خدمــات جلــى للفــن التشكيلــي السوري المعاصر.

٣- كتابــة أخــذت طابــع الدراســات الأكاديميــة الصارمة المأخــوذة بالإحالات والمراجــع، وهــي قليلة وهامــة، لكن ليس مجالهــا الصحافــة اليوميــة، وإنما بطون الكتب والمجلات التخصصية. هذه الكتابات (للأســف) رغم أهميتها، ظلــت بعيدة عن مدارك القارئ والفنان في آن معاً.

٤- كتابة اعتمدت سحر العبارة الغربية الخادعــة والمصطلحات الخلبيــة، والكلمة

المنمقة الفارغة من أي محدد، أو دلالة مفيدة ومقنعة وواضحة، ما جعل منها لغواً لا طائل منه ولا فائدة.

٥- كتابة تملقية، مداهنة، وصولية، منحازة، ارتبطت بأسماء معينة، أو باتجاهات فنية لغاية بنفس يعقوب، كأن يكون الكاتب من الشلة، أو الطائفة، أو يعمل والفنان تحت مظلة سفارة، أو إرسالية ثقافية أجنبية، أو يلتقيان على مصلحة متبادلة، وأهداف وغايات مشتركة.

٦- كتابة عجيبة غريبة، بدأت تظهر مؤخراً في صحافتنا، تنتقي ألفاظها ومصطلحاتها بعناية فائقة، وفق مصطلحات العصر وإرهاصاته ومخاتلاته. هذه الكتابات تتصدى لقضايا كونية كبيرة، وتعالج موضوعات محلية بسيطة في آن معاً، بصياغة تغلب عليها سمة الاستعراض اللفظي الفارغ الذي يذكرنا بأدب عصر الانحطاط. هذا النوع من الكتابات، قراءتها عقوبة حقيقية!!

.. والنحت ما قضيته؟

- لننتقل إلى المضمار الآخر في تجربتك الإبداعية وهو «النحت»، لماذا هذا الإصرار على موضوع «المرأة» في غالبية أعمالك؟

• كانت المرأة وما زالت، الموضوع الرئيس للنحات قديماً وحديثاً، وباعتقادي ستبقى موضوعه الأثير والمحبب، في المستقبل أيضاً، تختزل المرأة في أعمالي جملة من القيم والدلالات والمفاهيم، لعل أبرزها وأهمها، دورها الأساسي في صنع الحياة واستمرارها. فهي والأرض صنوان، بهما ومن خلالهما، تتجدد الحياة وتستمر، والمرأة كانت ومازالت لصيقة بالأرض والبيت والأولاد، خلاف الرجل المسكون بهاجس الترحال وارتياد الآفاق المجهولة. لذلك نجد العديد من القواسم المشتركة بين المرأة والأرض، وهو ما أحاول تضمينه منحوتاتي، من خلال جملة من المعالجات والرموز، كتضخيم منطقة الحوض عند المرأة، وشدها إلى الأرض، بهدف التدليل على مكان توالد الحياة وانبثاقه. وثمة معالجات أخرى كثيرة في أعمالي، تدلل على القيم النبيلة والرفيعة التي تمثلها المرأة، وفي الوقت نفسه، أحاول من خلالها، عكس الحالات المختلفة التي يعيشها هذا الكائن الذي لولاه لبدت الحياة مقفرة وموحشة، من ذلك حالة الانكفاء، والانطواء، والحلم والتأمل، والانتظار، والوجد، والنضال متعدد الجبهات، الذي تعيشه المرأة.

ولكي تتجلى هذه المعاني والرموز

والـدلالات، بأبهى مظاهرها التشكيلية والتعبيرية، أحيط جسد المرأة في أعمالي، بفراغ رحب، تتلقى سفوحه ووهاده وتضاريسه المختلفة، الضوء والهواء والجمال، بسخاء كبير، بعكس القيمتين الأساسيتين في المنجز النحتي وهما: الحاضن والمحضون، أو الشكل والفكرة، وذلك من خلال توازن مدروس، لعلاقة الكتلة بالفراغ المحيط، والعكس صحيح أيضاً.

ما هو الأهم؟

- ما هو الأهم في هذه الأعمال، الجانب الحسي أم الروحي؟

• تتماهى في أعمالي الحالة الحسية بالحالة الروحية، رغم أن الحالة الحسية، قد تبدو هي الأبرز والأكثر سطوة فيها، غير أن التوقف عندها وتأملها بعمق من قبل المتلقي، سيجد أن الحسي فيها تصعد بالفني، مقدماً صورة ساحرة لزهوة الحياة وجمالها، عبر رمزها الخالد «المرأة».

الشكل أم المضمون؟

- في هذه الحالة، أيهما توليه الاهتمام الأكبر: الشكل أم المضمون؟

• الدخول إلى مضمون المنحوتة يتم عبر أدواتها التعبيرية الخاصة بها. فهي الأساس ووسيلة الوصول إليه وتقديمه بكثير من الألق والبهاء والوضوح. وباعتقادي، المضمون الجيد بحاجة إلى شكل جيد، والعكس صحيح أيضاً، إذا كنا نريد لهذا المضمون أن يصل إلى المتلقي بصورته المثلى والصحيحة. من أجل هذا أسعى دوماً، للتوفيق بين الحاضن والمحضون، دون أن أترك لأحدهما اضطهاد الآخر، أو الطغيان عليه !!

تنوع الخامات..

- في هكذا حالة، هل يؤثر تنوع الخامات والمواد المستخدمة في إنجاز المنحوتة، على عملية التوفيق والانسجام والتكامل هذه؟

• بالتأكيد.. ذلك لأن لكل مادة أو خامة مستخدمة في إنجاز المنحوتة خصائصها التعبيرية المختلفة عن غيرها. ولكي يوفق النحات في الاستثمار الأمثل لهذه الخصائص والقيم والقدرات الكامنة في هذه المادة، وتلك الخامة، عليه استيعابها بشكل جيد، ومن ثم، احترامها والقيام بتوظيفها لصالح شكل وتعبير العمل النحتي، بمعنى آخر: على النحات عدم اضطهاد وسيلة تعبيره، بل إقامة حوار مفعم بالحب معها، واستلال التكوين الملائم منها، ومن ثم استنهاض أقصى ما تحمل من طاقات تشكيلية وتعبيرية، بالشكل الجميل الآثر والمؤثر.

بين النحّات والناقد

- هنا يحضرني تساؤل أجده مشروعاً وهاماً. فأنت في الأساس نحات أكاديمي، تنتج فن النحت وتقوم بتدريسه في جامعتك، وفي نفس الوقت تمارس عملية النقد الفني التشكيلي، ومنذ سنوات طويلة تعادل عمر تجربتك العملية. كيف توفق بين شخصية «النحات» و«الناقد» فيك؟ بمعنى آخر كيف ينظر «الناقد» شاهين إلى «النحات» شاهين؟

• لا أكتمك أن هذا الوضع يشكل لي إحراجاً أحياناً. أو لنقل إشكالية حقيقية. فكوني نحاتاً وناقداً يحملني مسؤولية مضاعفة في عملية مزاولة العمل الفني. إذ إنه علي أن أقدم للمتلقي، المنجز الفني المثالي، المتكامل، والناجح الذي طالبت به الآخرين. هذا يعني أن (الفنان في) مراقب، وبشكل دائم، من قبل (الناقد في).. ومن هنا تحديداً، تطل برأسها إشكاليتي الخاصة.

- أما من حل لها؟

• أحاول قدر المستطاع، أثناء قيامي بإنجاز العمل النحتي، تغييب شخصية الناقد محمود شاهين، لصالح النحات محمود شاهين، ومن ثم أستحضر شخصية الناقد، بعد ولادة العمل النحتي، لتمارس دورها في تقييمه، ذلك لأن العمل الفني، أي عمل فني، بحاجة إلى شيء من «التلقائية» وهو ما لا يمكن أن يتحقق، بوجود المراقبة العقلية الصارمة، لعملية ولادة الإبداع الفنيَ !!

ماذا بقي للفنان؟

- بوجود هذا التطور المذهل لوسائل التعبير البصري في أيامنا، هل بقي دور للفنان التشكيلي؟

• لا شك أن ولادة (الكاميرا) ثم امتداداتها الكثيرة. وتطور وسائل تعميم الصورة الضوئية من سينما وتلفاز وانترنيت ولوحات إعلان مختلفة، أثر بشكل كبير على الفن التشكيلي، وقلص من الأدوار والمهام التي كان يؤديها قبل ولادة «الكاميرا».. وهو ما جعل هذا الفن يرتد إلى لغته، والانكفاء ضمن نسيجها، للبحث فيها وتطويرها، وتأدية دور جديد وهام، لصيق بروح الإنسان وأحاسيسه، وهذا الدور لا يقتصر على الفن التشكيلي، وإنما يتجاوزه إلى أنواع وضروب الفنون كافة، يمكن اختصاره بالعبارة التالية: البحث الدائم، عن أسباب جديدة للحياة وحب الحياة، وتقديمها لإنسان هذا العصر المعطوب، المسلوب، الخائف، المهدد بألف شكل وشكل، من أشكال التدمير المادي والروحي !!

❁ ❁ ❁

لمحات في حياة أ.د. محمود شاهين

• مواليد مصياف ١٩٤٨.

• درس الابتدائية والإعدادية والثانوية في مصياف.

• نال إجازة في الفنون الجميلة (اختصاص نحت) من جامعة دمشق، عام ١٩٧٢.

• عين معيداً في قسم النحت بكلية الفنون الجميلة.

• نال «دكتوراه» في النحت والنصب التذكارية من المدرسة العليا للفنون التشكيلية في مدينة درسدن بألمانيا عام ١٩٨١، ثم عين مدرساً في قسم النحت بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، فأستاذاً مساعداً فيه ثم أستاذاً.

• كان منذ عام ١٩٩٤ رئيساً لقسم النحت بكلية الفنون الجميلة ثم نائباً لعميد كلية الفنون الجميلة للشؤون العلمية.

• هو أستاذ مادة النحت والدراسات العليا في قسم النحت بكلية الفنون الجميلة.

• عضو المؤتمر التربوي الثاني لتطوير التعليم.

• عضو لجنة المقتنيات والمعرض السنوي وبينالي المحبة.

• عضو لجان تحكيم المسابقات الفنية والترفيعات الأكاديمية السورية والعربية.

• عضو لجنة تحكيم المعرض الحادي عشر للفن التشكيلي العماني ٢٠٠٧.

• شارك في الندوة الوطنية الأولى حول خصائص فنون الأطفال (بالتعاون بين وزارة الثقافة ومنظمة الأمم المتحدة للأطفال) دمشق ٢٠٠٢.

• أعماله الفنية موزعة في العديد من دول العالم.

• نفذ العديد من النصب التذكارية الكبيرة في سورية.

• يعمل في الصحافة المقروءة والمسموعة والمشاهدة السورية والعربية منذ مطلع السبعينيات وحتى اليوم، وقد كتب آلاف المقالات والدراسات حول قضايا الفن المعاصر.

• أمين تحرير مجلة (الحياة التشكيلية) الفصلية الصادرة عن وزارة الثقافة.

• تم تكريمه من قبل: رئاسة مجلس الوزراء، وزارة الثقافة، نقابة الفنون الجميلة، نادي فن التصوير الضوئي السوري، الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون في سورية، وزارة الإعلام..

متابعات

متابعات



صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين *

مكتشفات أثرية جديدة:

عــثرت دائرة آثار بصرى خلال أعمال تنقيــب قامت بها في بلدة معربة على مدفن بيزنطي يتألف من أربعة قبور وله مدخل رئيسي عبارة عن بوابة حجرية أمامها قاعة أو فسحة صغيرة.

وأوضــح رئيس دائــرة آثار بصرى أنــه عثر في القــبر الأول على أربعة أساور نحاسيــة متأكسدة وكسر زجاج وفخار مختلفة الأشكال ومكحلة فخار

* كاتب وباحث في التراث العربي (سورية)

ذات شكل أسطواني ، فيها بعض الكسور الصغيرة، مضيفاً أنه تم العثور في القبور الثاني والثالث والرابع على

ست أساور نحاسية متأكسدة وثلاث أساور حديدية عليها طبقة من الصدأ وقطع نحاسية مهترئة على شكل حلقة لها مقبض فيها ثقب على شكل مستطيل وآخر دائري صغير ومكحلتي فخار ذات شكل أسطواني، إضافة إلى كسر زجاج وفخار مختلفة.

وبيّن رئيس دائرة الآثار أن التنقيب في عتبة باب المدفن أسفر عن العثور على ستة أسرجه فخارية مختلفة الأحجام لها تقريباً نفس الشكل وذات ألوان بيج فاتح وبني وقرميدي عليها بعض الزخارف البسيطة على شكل عناقيد عنب وخطوط معقوفة ونافرة ومؤطرة بدائرة المقبض عليها آثار أتربة عند فتحة الفتيل وعلى بعضها خطوط نافرة على جوانب السراج، وقال: إن الدائرة عثرت في الفسحة الموجودة أمام المدخل على سراجين فخاريين لونهما قرميدي على شكل دائرة محاطة بأخرى لها شكل سنبلة القمح تخرج منها خطوط على جوانب السراج وعند نهايتهما توجد أنصاف دوائر مضاعفة وزخرفة على شكل خطوط منحنية تخرج من فتحة الفتيل وتنتهي بنقاط، مشيراً إلى أن مقبض السراجين مرتفع للأعلى بشكل مائل عليه زخارف على شكل أنصاف دوائر مضاعفة وعلى السراجين توجد آثار دخان وشعر يمتد بين فتحتي السراج.

أما في ريف دمشق فقد اكتشفت دائرة آثارها ثلاثة مدافن من العصر الروماني- البيزنطي في منطقة حينة عثر فيها على لقى زجاجية وفخارية ومعدنية تعود للعصر الروماني، واكتشفت كذلك مدفناً إفرادياً من العصر البيزنطي دون لقى أثرية في حفير الفوقا كما تابعت الدائرة ترميم ودراسة وتوثيق اللقى الأثرية التي تم اكتشافها في مدافن حينة (تل الكروم) والتي تعود لعصر البرونز الوسيط علما أن عدد الأواني الأثرية المكتشفة قارب ٣٠٠ إناء مختلفة الأحجام والأشكال.

وفي سياق مكمّل تم الكشف في موقع جبل مارتقلا في عين منين على عدد من اللقى والمنشآت المنحوتة والمبنية العائدة للعصرين الروماني والبيزنطي كما أنهت البعثة الأثرية السورية الألمانية المشتركة العاملة في كهوف معلولا ويبرود موسمها التنقيبي لهذا الموسم كما تمّ إنهاء أعمال التنقيب في موقع تل سكا في غوطة دمشق وعثرت على أول نص مسماري في منطقة

جنوب سورية يعود لعصر البرونز الوسيط وهو عبارة عن رسالة ملكية مرسلة إلى ملك ماري زمري ليم.

وقد أنهت البعثة الأثرية السورية - الفرنسية أعمالها للموسم الثاني في موقع تلول النار في الغزلانية بالكشف عن منشآت تعود للألف الثالث قبل الميلاد وكشفت دائرة آثار ريف دمشق ضمن أعمال التنقيب في تل الكروم بحينة عن مدفن جماعي مؤلف من طابقين يحتوي على ١٥٠ معزبة مدفن يعود للعصر البيزنطي. (١)

الألكسو تطالب بالحفاظ على هوية القدس المحتلة:

أوصى المشاركون العرب في ختام المؤتمر العام التاسع عشر للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الألكسو» المنعقد في تونس بإسقاط موقع القدس من القائمة المبدئية الإسرائيلية المقدمة للجنة التراث العالمي في منظمة اليونسكو.

ودعا المشاركون في البيان الختامي للمنظمة التابعة للجامعة العربية وتتخذ من تونس مقراً لها «الدول الأعضاء في لجنة التراث العالمي التي تترأسها إسبانيا لرفض إدراج القدس في القائمة التمهيدية الإسرائيلية»، تنفيذا لقرار مؤتمر القمة العربية المنعقدة في المملكة العربية السعودية العام ٢٠٠٧.

وشدد البيان على «ضرورة استمرار التنسيق العربي»..«للتصدي لمخططات إسرائيل لتسجيل مواقع التراث الثقافي في فلسطين والأراضي العربية المحتلة على أنها إسرائيلية»، وأوصى البيان بان يوجه الأمين العام لجامعة الدول العربية رسالة إلى وزراء خارجية الدول الأعضاء في لجنة التراث العالمي لدعم الموقف العربي في هذا الشأن.

وفى سياق متصل دعت المنظمة إلى الاحتفاء «بالقدس عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٩» للتعريف على أوسع نطاق «بالتراث الثقافي العربي في القدس وتسليط الضوء على الانتهاكات الإسرائيلية ومعاناة أبناء القدس العرب»، وأكدت على «أهمية توحيد الجهود وتنسيق المواقف مع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة حول الدفاع عن القدس والحفاظ على هويتها في المحافل والاجتماعات واللقاءات الدولية».

وكان المؤتمر أقر جملة من القرارات المتعلقة بجدول أعمال دورته التاسعة عشرة، حيث وافق على «اعتماد خطة العمل المستقبلي للمنظمة ٢٠١١/ ٢٠١٦» التي

تتضمن «خطـة تطوير التعليـم في الوطن العربي» و«مشـروع الاستراتيجيـة العربية للتخفيف من خسائر الكوارث الطبيعية».

وتم انتخـاب التونسـي عبـد العزيـز بن عاشـور مديراً عاماً جديـداً على رأس الألكسو لمدة أربع سنوات، ويخلف بن عاشور على رأس المنظمـة مواطنه منجي بوسنينة الـذي شغل منذ ٢٠٠١ منصـب مدير عام هـذه المؤسسة المتخصصة التـي تدعو إلى تعزيز الهوية العربيـة والإسلامية والحوار بين الثقافات.(٢)

موسوعة تاريخ الفن الإسلامي:

صـدر عـن «هيئة أبـو ظبـي للثقافة والـتراث»، بالاشتراك مـع مؤسسة «متحف بلا حدود» و«الدار المصرية ـ اللبنانية» كتاب «اكتشف الفن الإسلامي في حوض المتوسط»، وهو كتاب موسوعي ضخم، يتناول بالصورة والشـرح تاريـخ الفن الإسلامـي منذ زمن النبي محمـد صلى الله عليـه وسلم وحتى نهاية السلطنة العثمانية.

وقالت إيفا شوبرت، مديرة «متحف بلا حدود» في تصديرها للمجلّد: إن هذا الكتاب جاء نتيجة عمل دؤوب ومشترك، وهو موجّه «إلى جميع أولئك الذين يتقاسمون معنا فكرة أن ليـس هناك تاريخ واحـد فقط، بل ثمة عدد من التواريخ يوازي، أقله عدد الشعوب الموجـودة، لافتة أن هـذا الكتاب يتطلع إلى فهـم أدق، وبالتـالي أصـدق، للإسلام عبر تقـديم وجهات نظـر متباينة علـى صعيد تفسير التاريخ والفن والثقافة.

وجـاء في تصدير هيئة أبو ظبي للكتاب والـتراث أن هذا الكتاب يأخـذ القارئ في رحلـة فريدة ومختلفة عـبر التاريخ.. حيث تجتمـع بين دفتيه، بالصورة والنص والسرد التاريخـي الموثّق، شواهـد لا تحصى على روعـة منجـز الـتراث الفنـي للحضـارة الإسلامية علـى مرّ العصـور، حيث شكّل الفـن بمختلف أشكالـه وتجلياته، ولاسيما على صعيـد العمارة والفن الزخرفي، صورة زاهية عمّـا مثلته وتمثله هذه الحضارة من قيم جماليـة رفيعة، قامت علـى استيعاب الحضارات السابقة والاستفادة منها».

يشار إلى أن مثل هذه المبادرات الثقافية تأتـي في إطار سعي أبـو ظبي الدؤوب لكي تكون مركـزاً ثقافيـاً تنويريـاً في المنطقة العربية، وهـي رؤية استراتيجية تعمل هيئة أبـو ظبي للثقافة والتراث بهديها، «انطلاقاً من الرسالة التي تمثلها تجربة دولة الإمارات العربية المتحـدة، كدولة حب وحوار وسلام وانفتاح وتعايش حضاري وثقافي».

ويضمّ الكتاب عدداً من المقالات والدراسات المتعددة والمتنوعة والتي وضعها وأشرف عليها عدد كبير من الأخصائيين والأكاديميين وذوي الخبرة في مجالاتهم، حيث نقرأ عناوين مثل «الفن الإسلامي في المتاحف. سفراء الحضارة»، و«حوض البحر المتوسط قبل الفتوحات الإسلامية»، و«النبي والخلفاء الراشدون»، و«الأمويون: العاصمة الأولى دمشق»، و«الزخرفة بالرسوم»، و«العباسيون: الدولة الإسلامية الأولى»، و«اجتياح الغرب: عاصمة الأمويين في الأندلس قرطبة»، و«الخط: أسمى فنون المسلمين»، و«الفاطميون: قرنان من التفوق»، و«الهندسة الإسلامية: فلسفة الفضاء».. وغيرها الكثير من العناوين التي تغطي الرحلة الكبيرة التي قطعها الإسلام والمسلمون فناً وحضارة عبر العصور والدول المختلفة، لإنجاز هوية جمالية مازال أثرها حاضراً بقوة حتى يومنا هذا. (٣)

مؤتمر قضايا اللغة والترجمة:

شارك مشروع «كلمة» للترجمة الذي أطلقته هيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث في المؤتمر الدولي الذي نظمته الأمم المتحدة واليونسكو في مركز المنظمة بنيويورك بعنوان: «قضايا اللغة في عصر العولمة: التنوع الألسني والتنمية، وذلك بالتزامن مع قرب انتهاء سنة اللغات العالمية».

وقالت روشيل روكا أخصائية البرامج في وحدة التراث المعنوي والثقافي بمنظمة الأمم المتحدة «إن الوطن العربي يمتلك في حاضره وتراثه تاريخاً ألسنياً وأدبياً وثقافياً ضخماً، وكنت مهتمة بمعرفة قضايا اللغة العربية المتصلة بالتنوع الثقافي والعولمة، وماهية التداخل الثقافي واللغوي المرتبط بناطقي العربية؟ وقد شد انتباهي وأسرني ما قرأته عن مبادرة مشروع كلمة لترجمة أدب الآخر وثقافته للعربية»، مضيفة أن مشروع كلمة يعطي مثالاً ونموذجاً نوعياً للعمل على ترجمة الأعمال الأدبية المعاصرة من اللغات الأخرى إلى العربية، وذلك يساعد في فتح قنوات المعرفة والمعلومات، ومن ثم المساعدة في نشر الفهم والاحترام والتنمية.

وقدم الدكتور علي بن تميم مدير مشروع «كلمة»، ورقة عمل تتناول بدايات مشروع «كلمة» والغايات من تأسيسه والإنجازات التي حققها حتى اليوم، إضافة لتطرقه لمجمل المشاريع الهامة التي أطلقتها هيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث منذ بداية تأسيسها.

واعتبر جمعة القبيسي مدير دار الكتب

الوطنية بهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث «إن مشاركة مشروع كلمة للترجمة في مؤتمر اللغات بمقر هيئة الأمم المتحدة تعد فرصة كبيرة لتجلية العمل الثقافي بهيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث، خاصة تلك الأنشطة التي ترفد التعددية الثقافية وتسعى إلى ترقية الفهم الثقافي الكوني بين الأمم»، وأضاف «نحن نسعى إلى ردم الهوة الفاصلة بين الأمم عبر الثقافة والحوار، ومن ثم كان هدفنا يظهر في تطوير معرض (أبو ظبي) الدولي للكتاب ليغطي عدة ثقافات، ويسهم في الوقت نفسه في صناعة الكتاب والثقافة».

من جانبه قال د. علي بن تميم مدير مشروع كلمة للترجمة «تعد المشاركة في مؤتمر اللغات الذي تنظمه منظمة الأمم المتحدة واليونسكو مهمة، لأن اللغة بحد ذاتها تشكل عنصراً أساسياً في كثير من مشاريع هيئة (أبو ظبي) للثقافة والتراث سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، فلا يمكن أن يتحقق أي مشروع دون لغة، واللغة هي العنصر الأهم في تشييد العلاقة بالآخر، ولها دور فعال في التنمية الاجتماعية والثقافية والتجارية والاقتصادية، فبدونها لا يوجد واقع مادي، لأن واقعنا مشيد بوساطة اللغة».

واعتبر بان كي مون الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة السنة الدولية للغات فرصة لإدراك الأزمات الخفية التي تواجه لغات العالم والأغلبية الساحقة من لغات السكان الأصليين. وقال قائلاً: «إن فقدان هذه اللغات لا يسبب إضعاف التنوع الثقافي في العالم فحسب ولكنه يضر بالمعرفة الإنسانية جمعاء. إنني أدعو الدول والسكان الأصليين ومنظمة الأمم المتحدة والقطاعات المعنية الأخرى لاتخاذ خطوات فورية لحماية اللغات من الانقراض، والسعي إلى المحافظة على التراث المشترك من أجل إيصاله للأجيال في المستقبل».

وقال كويشيرو ماتسورا المدير العام لمنظمة اليونسكو بمناسبة إطلاق السنة الدولية للغات «إن اللغات هي جوهرية بحق لهوية الجماعات والأفراد كما أنها مهمة لتواجدهم مع بعضهم بأمان، واللغات تخلق العوامل الاستراتيجية للتقدم نحو تنمية مستقرة وعلاقات منسجمة بين العولمة والسياقات المحلية».

ويهدف المؤتمر لمعاينة استعمالات اللغة ونماذجها وسياساتها في مجمل أقاليم العالم، وتشجيع حماية جميع اللغات وخاصة تلك

المعرضــة لمخاطر الانقراضــ، والسعي إلى التنوع الألسني والتعددية الثقافية.

وحضر في هذا المؤتمر مئات من المهتمين والممثلين عن هيئة الأمم المتحدة واليونسكو والمنظمات الدوليــة الفرانكفونية والسفراء والأكاديميــون وممثلــون عــن دار اللغات بإسبانيا وأهــم القنوات الإعلامية والعالمية والسفراء في هيئــة الأمم المتحدة وممثلون عن الاتحــاد الأوروبــي وكنــدا ونيوزلندا وممثلــون عن مراكــز الترجمــة والهيئات الثقافية العالمية. (٤)

تماثيل تكشف عن أقدم اللغات الإفريقية:

أكد علماء آثــار أنهم اكتشفوا ثلاثة من التماثيل القديمة في السودان تحمل كتابات قد تساعدهــم على الاقتراب من فك شفرة واحــدة من أقدم اللغــات الإفريقية، وتمثل المكتشفــات المذكورة مجموعــة من الكباش الحجريــة المنحوتة التي تمثــل الإله آمون خــلال إمبراطوريــة ميروي وهـــي فترة من الحكم الملكي دامت بين حوالي عام ٣٠٠ قبل الميلاد و ٤٥٠ بعد الميلاد وخلفت المئات من الآثار على طول نهر النيل شمال الخرطوم.

وقال فينيسنت روندوت مدير الحفريات التي يقوم بهــا القسم الفرنسي التابع لهيئة الآثار السودانيــة: إن كل تمثال منها يحمل كتابــات باللغة الميروتيكيــة، التي تعد أقدم لغــة مكتوبة في إفريقيا جنــوب الصحراء، موضحــاً أن هــذه اللغة تعتــبر واحدة من أواخر اللغــات القديمة التي لم نفهمها بعد، إذ يمكننا قراءتها ولا توجد مشكلة في نطق حروفهــا، لكننا لا نفهــم معانيها فيما عدا بعض الكلمات الطويلة وأسماء الأشخاص.

وأضــاف رونــدوت: إن الحفريــات في منطقة الحسا موقع بلدة ميروتيكية كشفت عن أول نسخــة كاملة لمرسوم ملكي وهو ما كان يعثر عليه متناثراً في منحوتات من نفس الفترة التاريخية، مشــيراً إلى أن الخبراء لا يزالــون يحاولون معرفة معاني الكلمات عن طريق مقارنتها بالبقايــا المحطمة لمراسيم ملكية مماثلــة باللغة نفسها، مؤكداً في هذا المجال أهمية هــذا الاكتشاف الكبير الذي تم تحت تل رملي في موقع معبد الإله آمون الذي يمثل بالكبش في السودان.

تجدر الإشارة إلى أن موقع هذه المكتشفات يقع بالقرب من أهرام ميروي بالسودان وهي مجموعة من أكثر مــن ٥٠ ضريحاً جرانيتياً على بعد ٢٠٠ كيلومتراً شمال العاصمة التي تعــد واحدة من المقاصــد الرئيسية للسياح القليلين الذين يزورون السودان. (٥)

ليبيا في كتب الرحالة:

نظم مجمع اللغة العربية بمقره في طرابلس الأحد ندوة علمية بعنوان «ليبيا في الرحلات العربية والغربية: نحو رؤية تحليلية ومقارنة»

وقال رئيس المجمع الدكتور علي فهمي خشيم «إن هذا الموضوع الذي تم اختياره لهذه السنة يأتي لأن ليبيا كانت باستمرار مقصدا للرحالة الذين كان بعضهم يمر خاصة من أهل المغرب إلى الحج في العادة ويسجل انطباعاته عن هذا البلد.. كما يسجل انطباعاته عن بقية البلدان الأخرى، وأضاف أن هناك رحّالة جاءوا إلى ليبيا في مختلف الأزمنة من القرن الثالث عشر حتى القرن العشرين من ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، ومجموع هذه الرحلات تمثل في الواقع ثروة كبيرة جداً لأنهم سجلوا أشياء قد لا نجدها في تسجيلاتنا.

يذكر أن الندوة ناقشت قرابة ثمانية عشر بحثاً لعدد من الباحثين الليبيين وغيرهم من بعض الدول العربية الأخرى الأعضاء في هذا المجمع، حيث سيتم جمع هذه الأبحاث وإصدارها في مجلد مطبوع، وسيتم توثيقها حفاظاً على جهود الباحثين المشاركين فيها على اختلاف تخصصاتهم التي تغطي مختلف الجوانب الثقافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والفكرية واللغوية.

يشار إلى أن هذه الندوة تناولت كتب الرحلات مصدراً لدراسة التطور اللغوي وأحوال المجمع الليبي خاصة فيما يتعلق بالجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية من خلال تحليل محتوى المعلومات التي دونها الرحالة الذين زاروا ليبيا من عرب وأجانب ومروا بمناطقها وكتبوا عنها.[٦]

مهرجان الموسيقى اللاتينية بتونس:

استضافت العاصمة التونسية أول مهرجان للموسيقى اللاتينية في تاريخ تونس، يجمع بين أنغام موسيقية من البرازيل وكوبا والأرجنتين، حيث استهل المهرجان فعالياته بعرض لفرقة كوبية عزفت موسيقى السون الكوبية التقليدية، التي تعتبر نوعاً من الموسيقى نشأ في كوبا وشاع بشكل خاص في عشرينات وخمسينيات القرن الماضي، يمزج في تكوينه الموسيقي بين ضرب من الموسيقى الإسبانية في أميركا اللاتينية والقيثار الإسباني والأنغام والإيقاع من إفريقيا.

وقال فينو جوميز قائد الفرقة الكوبية: إن العبيد الأفارقة هم أول من أدخل الإيقاع إلى الموسيقى الإسبانية، موضحاً أن الموسيقى

الكوبيـــة التقليدية هي موسيقى أفرو كوبية لأن الإيقاع جاء مـــن إفريقيا أثناء استعمار أميركا الجنوبية، حيث جلب العبيد الأفارقة الإيقاع الـــذي مزجوه مع الموسيقى من فترة الاستعمار الإسبـــاني، وكان يطلق على هذه الموسيقـــى سون كوبان وكانـــت هذه البداية وهي أصـــل الموسيقـــى الافروكاريبية التي أصبحت حالياً السالسا، ثم طور الأميركيون السالسا في نيويـــورك بالولايات المتحدة في بداية العقد الأول من القرن العشرين بفضل المهاجرين من كوبا وبويرتوريكو.. القادمين من أميركا اللاتينية. (٧)

الأتـراك يفـوزون بجوائـز المنمنمـات والزخرفة:

تمكـــن الفنانـــون الأتـــراك مـــن الفوز بمعظم جوائـــز المسابقة الدولية للمنمنمات والزخرفة المنظمة بمدينة المدية الجزائرية، وفي هذا الإطار فقد حصلت الفنانة التركية نسرين تكشـــر على الجائـــزة الأولى في فن الزخرفة، وتعـــود كل من الجائزة الثانية في فن المنمنمـــات للفنانة التركيـــة ازين كازاز اوغلـــو والجائزة الثانية في فن الزخرفة إلى الفنانة التركية أيضاً زهرة قوك دوينز.

وقد نالت الجزائر الجائزة الأولى في فن المنمنمات من خـــلال الفنانة فريدة حمزة، ونالت كذلك الجائزة الثالثة في فن المنمنمات بفضل الفنان مناد بن حليمة.

وقـــد تم الإعلان عـــن النتائـــج خلال حفـــل اختتام المسابقة الدوليـــة للمنمنمات والزخرفة في طبعتهـــا الثانية، وقد تشكلت لجنة التحكيـــم من مختصـــين وفنانين من الجزائر واليمن والمغرب، وقد أوصت لجنة التحكيـــم في تقريرها النهائـــي برفع قيمة الجائـــزة التي تقدر بستـــة آلاف دولار، كما دعت إلى الاستمرار في تنظيم هذه المسابقة وتوسيع المشاركة فيها.

الطبعـــة الثانيـــة من المسابقـــة الدولية للمنمنمـــات والزخرفـــة تميـــزت بمنافسة شديدة حيث بلغت المشاركة أكثر ١٧٥ لوحة من فني الزخرفـــة والمنمنمات، واحتضنتها مدينة المدية جنوب الجزائر العاصمة وهي المدينة التي أصبحـــت اليوم عاصمة لفنون المنمنمات والزخرفة شارك فيها أكثر من ١٤ بلداً من العالمين العربي والإسلامي. (٨)

قاسم أمين وتحرير المرأة:

شهدت مكتبة الإسكندرية افتتاح فعاليات مؤتمر قاسم أمين وتحرير المرأة الذي أقيم بمناسبـــة مرور مئة عام علـــى رحيله، وقال الدكتـــور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندريـــة في كلمة له بهـــذه المناسبة: إن

تعليم المرأة وتمكينها ضرورة حتمية، مشيراً إلى أنه في بلادنا العربية والإسلامية نتذكر الرائد الذي اقترن اسمه بقضية تحرير المرأة وتطور المجتمع.

وعبّرت القاضية تهاني الجبالي نائب رئيس المحكمة الدستورية العليا عن عميق تقديرها لقاسم أمين، القاضي والمحامي الذي تصدى لنشر العدل والمساواة الاجتماعية، والذي لم يكن ليتخيل قبل مئة عام أن دعوته لتحرير المرأة ستأتي ثمارها، وقالت: إنني أشعر بالاستفزاز حين أتذكر الردة عن التراكم التاريخي الصحيح حين اجتاح مصر في سبعينيات القرن الماضي ضدين لا يلتقيان، أولهما العولمة وما نتج عنها من تحويل المرأة إلى سلعة واستهلاكها البشع، أما الآخر فهو الاتجاه التشددي الذي ساندته قوى البترودولارات، والذي يصور المرأة على أنها (عورة)، وأضافت أن المرأة وقعت الآن في أسر جديد يختلف في تفاصيله عما واجهه قاسم أمين، مما يستدعي ريادة تنويرية جديدة تستلهم روح قاسم أمين في ذكراه.

وفي ذات السياق، شدد الدكتور جابر عصفور مدير المركز القومي للترجمة على أن الحرية بكل جوانبها للرجل والمرأة هي الشرط الأول والأساسي لتقدم المجتمع، لافتاً إلى أن العقلانية هي المرادف للحرية في شروط التقدم، مشيراً إلى أن أساس تحرير المرأة هو عبارة عن مثلث أضلاعه الثلاثة هم: التعليم والقانون والإصلاح السياسي، مضيفاً أنه يجب مواصلة رسالة قاسم أمين ومواجهة العواصف الظلامية التي تهب علينا منذ فترة ليست قصيرة.

وفي بحثها حول موضوع الأساس الاجتماعي لتحرير المرأة، قالت د. إيمان محمد جمال الدين رئيسة الجمعية المصرية للحفاظ على التراث والبيئة والأسرة: إن قاسم أمين يعتبر أول من أرسى الأساس الاجتماعي لتحرير المرأة، فقد حمل لواء حركة تحرير المرأة، وألف كتباً عديدة في هذا المنحى، حيث كان يرى أن تربية النساء على الحرية هي أساس كل شيء، وتؤدي لإقامة المجتمع المصري الصالح، وتخرج أجيالاً صالحة من البنين والبنات، مشيرة إلى أن أمين دعا لتحرير المرأة لتخرج للمجتمع وتلم بشؤون الحياة، بالرغم من عواصف النقد والاحتجاج التي صدرت ضده، وهاجمت كتبه ومؤلفاته، وأفكاره التنويرية في هذا المجال، وأضافت إيمان جمال الدين أن حركة تحرير المرأة تعتبر حركة لإعادة الحقوق التاريخية المسلوبة من

المرأة، والقضاء علــى الأفكار الهدامة التي تنظم المجتمع على أساس ذكوري.

وقالت الدكتورة سامية الساعاتي أستاذ علم الاجتماع بجامعة عين شمس في بحثها الموســوم بقاسم أمــين بين تحريــر المرأة، وتحرير العائلة، وإصلاح النظام العام: قبل أن نبــدأ في الحديث عن قاسم أمين المحرر الأول للمــرأة المصريــة لابد مــن أن نذكر أن رفاعــة رافــع الطهطاوي، قــد سبق في الحديث عن النهضة النسائية في مصر، في كتابيه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)، و(المرشد الأمــين في تعليم البنات والبنين)، وكذلــك الإمــام محمد عبده مفتــي الديار المصرية، ثم يأتينا قاسم أمين بكتابيه (تحرير المــرأة)، و(المرأة الجديدة) الذي ينقض فيه الــتراث، ثم يأتي بعــده أحمد لطفي السيد أول مــن أدخل الفتاة الجامعــة»، وأضافت الساعاتــي أن قاسم أمــين أخذ على عاتقه حمل هذا العبء الثقيل، عبء السعي بالمرأة المصرية، إلى نظام العائلــة، وبنظام العائلة إلى الرقي الاجتماعي المنشود، وبهذا الأخير إلى استقلال البلاد، ولم ينزله خوف الانتقاد عن فكرة من أفكاره، ولا لفظ من ألفاظه.

وذكــرت د. سامية الساعاتــي أن قاسم أمين يرى:أن من احتــكار الرجل للمرأة أن يطلــق الرجل زوجته بــلا سبب، كما أن من احتقــار المرأة أن يقعد الرجــل على مائدة الطعام وحده ثم تجتمع النساء من أم وأخت وزوجة ويأكلن ما فضل منه، وأشارت إلى أن قاسم أمين يذهب إلى أن هذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنــا هو أهم مانع في سبيلنا ليصدنا عن التقدم إلى ما فيه صلاحنا.[٩]

الجابري يفوز بجائزة ابن رشد:

فاز المفكر العربي محمد عابد الجابري بجائزة ابن رشد للفكر الحر لعام ٢٠٠٨ بعد أن أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات والدراســات التي تهدف إلى إعــادة قراءة الــتراث العربي كخطــوة تمهيدية ضرورية للمُضــي قدماً في المشــروع النهضوي الذي عالجه الجابــري على مدى نصف قرن من الزمان.

وتكرّســ المؤسسة جهدهــا لدعم حرية الــرأي وممارســة الديمقراطيــة في العالم العربي مهتدية بذلــك بفكر الفيلسوف ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) ودوره البارز في الحوار بين الثقافات.

ولد محمد عابد الجابري الذي يعد أحد روّاد الفكر العربي المعاصر في عام ١٩٣٥ في بلدة فجيج في المغرب. وبعد استقلال المغرب عــام ١٩٥٧ سلك طريق التعليــم وانخرط

مبكراً في العمل السياسي والصحفي، وفي نفس الوقت ثابر على إكمال دراسته العليا في مادة الفلسفة في جامعة الرباط حيث نال درجة الدكتوراه عام ١٩٧٠ وكانت بذلك أول دكتوراه تمنح في مادة الفلسفة من دولة المغرب.

وتحتفي مؤسسة ابن رشد بعامها العاشر في نفس يوم ذكرى وفاة الفيلسوف العربي ابن رشد وذكرى الإعلان عن حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، وقد قدّمت المؤسسة جوائزها حتى الآن للمبدعين العرب في حقول الصحافة والإعلام، تحرر المرأة، الفكر النقدي، السياسة، الفلسفة، الأدب الملتزم، الإصلاح الديني وحقوق الإنسان والإخراج السينمائي. وهذا العام لدراسة أسباب تعثّر النهضة العربية. (١٠)

حضور المدّونات الشعرية اليابانية:

يرى الباحث عماد الدين الجبوري أن المحور العام الذي تدور حوله القصيدة اليابانية ظل محصوراً في الطبيعة، فاليابان من وجهة نظره عبارة عن جزر بركانية شاسعة، تحاصرها مياه بحر تهدأ تارة وتهتاج تارة أخرى، فلا عجب أن تحتل الطبيعة مركز الصدارة في شعر اليابانيين، وبالتالي أن يتصف الياباني بالحدة والمزاج العصبي.

وفي هذا السياق عرف ديوان الشعر الياباني عدة أنواع وأشكال شعرية قديمة وحديثة ومعاصرة ذكر منها الجبوري: كوجيكي، مانيوشو، تانكا، غوزان، رينغا، حيث يتمثل أقدمها في شعر كوجيكي الذي يُعَد السجل الأدبي للشعراء اليابانيين في عصورهم القديمة، بما يتصف به هذا النمط من البساطة والإيجاز والتعبيرات المحدودة.

أما «شعر مانيوشو» فإنه يمتد من القرن الخامس إلى القرن الثامن الميلادي، وهذا النوع من الشعر يعتبر البداية الحقيقية التي ظهرت فيها القصيدة اليابانية بأسلوب جزل في السبك والتعبير، ليس عن الطبيعة فحسب، بل في مختلف الفنون والشعور، حيث أن الشعراء الذين نظموا في هذه الفترة كانوا خليطاً من محترفي الأدب والرهبان والأباطرة والعسكريين والقرويين أيضاً، وبذلك فإن فترة مانيوشو لم تكن مقتصرة على طبقة معينة دون غيرها، وإنما كانت شعر الحياة اليومية التي يحق لكل مواطن من المجتمع أن يُعبر بما يشعر فيه من عاطفة أو بلاغة أو تفكير وفق لغة منظمة ومسبوكة.

ويمتد شعر تانــكا من القرن العاشر إلى الخامس عشر، حيث بدأ ظهوره في الفترات التقليدية التي تعــرف باسم «هييان» خلال فترة العصور الوسطى، وقد اتسمت قصائد هذا الشعر بالإيجاز القصير، ومن بين أهم أشكالــه التــي برز فيها هي شــكل «هوكو» وذلــك في فترات توكوغاوا، حيث تم توضيح هذا الشعر مــن خلال علة اللغة في تراتيبه وحدوده.

أما شعر غوزان أو الجبال الخمسة، فهو يمثل الفترة التي استخدم فيها معابد المرشد الصيني الكبير رينزاى زين في مدن «كيوتو» و«كاماكــوا» و«موروماتشي» أثناء وجوده في اليابان، بغية نشر تعاليمه البوذية، وفي تلك الفترة كان بعض الرهبان اليابانيين يدرسون المذهــب الزينــي في الصين، ولقــد نظموا القصائد الكثيرة حــول الطبيعة والخيرات الروحية ونمــط الحياة اليوميــة، على أية حالة، فإن هذا النوع من الشعر استمر ثلاثة قرون ما بين الرابع عشر إلى السابع عشر.

ويمتــد «شعر رينغا» مــن القرن الثالث عشــر إلى القرن التاسع عشــر، حيث واكب ذلــك نهاية مــا يسمى فترة هييــان، حيث ظهرت نزعة تقابل هذا الاتجاه في التقسيم اللفظــي للقصيــدة في صياغــة وتنظيــم الصــورة البلاغية وذلك وفق جزءين، حيث ساعــد هــذا الطــرح الشعــري في تطوير نظــم القصائد الطويلــة، وتكريس ظاهرة المشاركات أو المطارحات الشعرية.

أما على صعيد الشعر الحديث والمعاصر فقــد اكتست القصيــدة اليابانيــة أشكالاً جديدة مثل «شعر هايكاي» مع الحفاظ على النظم الشعرية التقليدية، وذلك في النصف الثاني من القــرن التاسع عشر عندما بدأت التأثــيرات الأوروبية الفكرية والأدبية تنتشر في الأوســاط الآسيوية، وقــد أدى ذلك إلى تغير كبــير في أسلوب التعبير الوجداني لدى الشعراء اليابانيين، إذ إن النظم وفق أشكال مثل: تانكا، رينغا، هوكو، هايكو أدت بهم إلى الاشتقاق من الشــكل الطويل، الشكل الحر المنظوم على الطراز الأوروبي.

ويخلص الباحث الجبوري إلى مجموعة من الأحكام المتعلقــة بتقييم الشعر الياباني في مراحله المختلفة، فيقول: على الرغم من أن الشعر الياباني له تاريخه الموغل بالقِدم، ولــه خصوصياته الأدبية التي يتمتع بها، إلا أنه ظل يدين في تطوره بشكل عام إلى الأدب الصينــي، فالديانة البوذية مثلاً وما تحمله مــن ثقافة روحية لم تعتنقهــا اليابان إلا من خلال رهبان صينيين، بل إن تأثير الصين كان

على الكثير من بلدان شرقي آسيا، مؤكداً من جانب آخر أن شعـــر كوجيكى يعكس صورة التفكـير القديم الــذي كان سائداً في حقب الفترات الغابرة، كمــا كان الأمر في الصين والعراق ومصــر واليونان وبقية الحضارات القديمة، حيث النظر إلى الطبيعة كأمّ تأوي البشر، فهي مصدر الحياة المتدفقة.

أما شعــر مانيوشو، فرغم ما أحدثه من تطور هام في تاريــخ الأدب الياباني، إلا أن نضوجــه لم يأت هكذا من تلقاء نفسه، وإنما مــن تأثير الأدب الصينــي أيضاً، خصوصاً أن الصــين في تلك الفترة مــن حكم سلالة تانــغ «٦١٨-٩٠٧» وصلــت إلى أوج رقيهــا وازدهارها الحضاري.

أما بالنسبة إلى شعر تانكا، فإن انسيابه على نحو الإيجــاز القصير قد عكس تطور اللغــة اليابانيــة التــي كانت قابعــة ضمن أشكال ترتيبية قديمة. ولهذا تجد أن بعض الشعــراء والشاعرات مــن الذين نظموا في المانيوشو قد نظمــوا في التانكا كذلك، أما شعر غوزان، فإنــه انعكاس جليّ على مدى التأثير الصينــي في الشعر الياباني، بل وفي منــاح كثيرة أخرى منهــا الروحية التي كان المرشد زين يبــث تعاليمه في اليابان بدعوة من أهلهــا، وعموماً ما بــين بساطة الشعر القديم وتأثيرات الأدب الصيني في العصور الوسطى، وإلى الفــترة الحديثة والمعاصرة، فــإن الشعر الياباني صار له طابع مميز من ناحية، وتاريخ حافل بالتنوعات والتطورات من ناحية أخرى. (١١)

إحـــالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا» WWW.SANA.ORG

٢- شبكة المعلومات العربية المحيط WWW.MOHEET.COM

٣- وكالة الأنباء الخليج WWW.JAMAHIRIYANEWS.NET

٤- موقع ميدل ايست أن لاين WWW.MIDDLE-EAST.ONLINE.COM

٥- وكالة رويترز WWW.REUTERS.COM

٦- وكالة الأنباء الليبية «جاما» WWW.JAMAHIRIYANEWS.COM

٧- وكالة الأنباء التونسية
WWW.AKHBAR.TN

٨- وكالة الأنباء الجزائرية
WWW.APS.DS

٩- موقع البوابة
WWW.ALBAWABA.COM

١٠-موقع نسيج
WWW.NASEEJ.COM

١١-موقع العرب أونلاين
WWW.ARABONLINE.COM



كتاب الشهر

سمير اميس.. ملكة آشور وبابل

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن

كتاب الشهر



سميراميس.. ملكة آشور وبابل

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن *

الأنتربولوجيا، في التشكيل الاجتماعي، لحضارات الشرق القديم، في مرحلة ما قبل الميلاد، تشير إلى وجود «اجتماعي أمومي». والدلالة في ذلك، تعني في ما تعنيه، أن القيادة الاجتماعية على الصعد كافة: السياسية والاقتصادية والثقافية، المقام الأول فيها للمرأة.. لعلَّ ذلك ما دفعنا، عبر المعطيات الأثرية في سورية (بلاد الشام) والعراق، إلى نسيج معرفي يعطي المرأة (الأنثى) عموماً أولوية قيادة المجتمع: إنانا، عشتار، عشتروت، على مستوى الآلهة.

* باحث من سورية.

وعلى المستوى السياسي ظهرت شخصيات هامة من قبل (سميراميس = سمورامات). بل إن تشكيلاً سياسياً ديمقراطياً بامتياز، كان وليد الحضارة الكنعانية على الساحل السوري، التي أقرت بحكم المرأة، بل تجاوزت ذلك إلى جواز حكم الملك من خارج الطبقة الأرستقراطية، أي من عامة الشعب.

دراستنا هذه، تقف عند حدود شخصية تاريخية على غاية من الأهمية هي (سمورامات = سميراميس). هذه المرأة البابلية الآشورية ذات الجذر الآرامي، والتي ظهرت تاريخياً في الألف الأول قبل الميلاد.

المعطيات الأولى لهذه الشخصية ظلت لفترة طويلة، رهينة النسيج الأسطوري الإغريقي، كمعطى معرفي، لكن مع تقدم المعطيات الآثارية في سورية (بلاد الشام) والعراق قدمت المعطيات الآثارية معلومات جد دقيقة تؤكد على أن هذه الشخصية ليست من نسج الخيال. بل هي شخصية حقيقية فاعلة، مارست الحكم السياسي بوصفها ملكة آشورية بابلية ذات أصول آرامية بامتياز.

الكتاب مثار التقديم يقع تحت عنوان: «سميراميس.. ملكة آشور وبابل». من تأليف الباحث الإيطالي «جيوفاني بيتيناتو». قام بترجمته إلى اللغة العربية عن الألمانية الأستاذ «عيد مرعي». نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب. وهو من إصدارات «دار روافد» لعام «٢٠٠٨».

١ - أصل الأسطورة..

حاصر الجيش الآشوري بقيادة الملك «نينوس» عاصمة «بكتريا» الفارسية الأخمينية. وبما أنه لم تكن هناك نهاية لهذا الحصار الأشوري، قرر ممثل قائد الجيش الآشوري أن يجعل زوجته تلحق به. لم يرد أن يُحرم من حب السورية الجميلة الرائع والتي اسمها «سميراميس». لم تتأخر «سميراميس» فسافرت بسرعة. وبعد أن وصلت إلى معسكر الجيش الآشوري، أدركت أن المخرج الوحيد لهذا الحصار مرتبط بالاستيلاء على القلعة العليا، فوضعت خطة عسكرية ناجحة لتنفيذ ذلك. أراد الملك (نينوس Ninos) أن يتعرف إلى مسببة هذا النصر، فجعل المرأة الشابة، تمر أمام عرشه، ثم طلبها من زوجها، ولم يوافق. في هذه اللحظة اليائسة شنق الزوج نفسه، وهكذا، صعدت إلى العرش الآشوري. بهذا الشكل بدأ تاريخ نجاح «سميراميس» أشهر نساء العالم

القديم، التي بصفها بصدق المؤرخ «أولمستد Olmstead» بقوله: «الأجمل والأقسى والأقوى والأحيل بين ملكات الشرق».

٢- من الأسطورة إلى الحقيقة التاريخية

إن محاولة البحث عن حاكمة لبلاد آشور في القوائم الملكية وقائمة الموظفين وفي التاريخ المقارن، وكذلك في حوليات الملوك الآشوريين الموجودة لا جدوى منها. أيضاً «يبدو أن الكتّاب الإغريق والرومان أدركوا هذه الحقيقة. حسب «يوستينوس» وبالتأكيد «بومبيوس تروغوس» فإن «سميراميس» استلمت السلطة نتيجة الضرورة: كان عليها أن تمارسها لأن ولي العهد صغير السن كي يحكم. ويذكر «هيرودوت» أيضاً بين الملوك البابليين ملكتين: الأولى كانت ملكة عاشت قبل الثانية بخمسة أجيال، وكان اسمها «سميراميس». المشكلة الأولى تعود إلى تحديد الفترة التاريخية التي يجب أن تكون «سميراميس» قد عاشت فيها وأثّرت. يمكننا الادّعاء بتأكيد كاف أن الإشارات الموجودة تحت تصرفنا، تلك التي من «هيرودوت» وتلك التي من «بوزبيوس» وأخيراً، تلك التي من التقاليد الأرمنية، بالمقارنة مع حوليات «شلمنصر»، تسمح بالتأكيد على القرن التاسع قبل الميلاد. إن حكم «سمّورامات» يجب عدم تعقيده. فتسلسل الحقائق التاريخية يؤكده. «أددنيراري» لم يعتل العرش مباشرة بعد وفاة «شمشي أدد» بل بعد ذلك بخمس سنوات. إن الحفريات الأثرية أعطتنا الاسم الآشوري للملكة من جديد، حيث ارتبطت بعلاقة مع ثلاثة ملوك، وبرهنت أنها تسلمت السلطة عندما كان ابنها قاصراً. إن أول ذكر لاسم «سميراميس» عُثر عليه على تمثال لـ «نابو» وهو إله بابلي قديم، تم إدخاله إلى مجمع الآلهة الآشورية في عهد «سمورامات وأددنيراري» بشكل رسمي واحتفالي. بفضل المكتشفات الأثرية تظهر سميراميس من جديد على حلبة التاريخ.

٣- أصل سميراميس..

إن مختلف الأساطير التي ألفت عن «سمورامات = سميراميس»، الملكة الآشورية توجد جذورها في أرضية العالم الآشوري. والعلماء المعاصرين جعلوا من «سمورامات» أميرة تعود في أصولها إلى بابل أو أوراراتو. فكلاهما لا يطرح أي شك في أصلها السوري. إن الرواية المفصلة عن أصل «سميراميس»يعطينا إياه «كتيسياس» عبر

«ديــودور». يتم نقلنا من بـلاد آشــور إلى سواحل البحر المتوسط المضيئة، وبالتحديد إلى بلدة «عسقلان» التي تقع بالنسبة للطبيب الإغريقي «كيتسياس» في سورية الكبرى.. بهذه الكلمات: «سميراميس»: كما يخبرنا، ابنة ديركيتو، إلهة سورية، وأحد السوريين. رباها «سيّما Sima» أحدِ خدم الملك « نينوس ». قال «لوكيوس أمبيليوس L. Ampelius»: سميراميس ابنة الإلهة ديركيتو، رتبها الحمائم. التقاليد نفسها توجد بشكل مختصر عند «كليمنت الإسكندري» في معجم «سودا» وعند هيجينوس». أيضاً يتحدث «أوفيد» في «التحولات Metamorphosen» عن أصل سميراميس بقوله: «هي تفكر ماذا يجب أن تخبر؟ هي تعرف الكثير. هل تتحدث عنك يا ديركيتو التي من بلاد بابل، التي تحولت، واستبدلت الأعضاء بالحراشف، ونزلت إلى البركة. هكذا يعتقد الناس في فلسطين، أو ربما كسيت ابنة ديركيتو بالريش كالطيور، وأخيراً قضت السنين الأخيرة في برج أبيض. ولكن من كانت سميراميس فعلاً؟ ومن أين جاءت؟ لا يوجد أي موحد. كانت سميراميس بالنسبة للعالم القديم إما سورية من عسقلان أو



أميرة آشورية. بالنسبة لـ «بلوتارخ»، كانت سميراميس سورية المولد.

٤- نينوس الزوج الأسطوري وحاكم آشور..

«نينوس» كان وسيبقى شخصية أسطورية. جعله الكتّاب الكلاسيكيون مظهراً تاريخياً لشخصية أسطورية. بالنسبة للإغريق واللاتين «نينوس» هو مؤسس الإمبراطورية الآشورية. إن أقدم المعلومات عن «نينوس» يعطينا إياها «هيرودوت» عندما يذكره كابن «لبيلوس» والجد الأول لملوك ليديا. يتجه «ديودور» بأنظاره إلى آسيا: يبدأ بالفترة التي أصبحت فيها بلاد آشور القوة المسيطرة،

الحاكم الأول الذي دخلت أعماله التاريخ هو «نينوس» ملك الآشوريين. كان محبّاً للقتال وراغباً بالمجد. في الحملات الثلاث الأولى خرج نحو الجنوب ضد بابل، ونحو الشمال ضد أرمينيا، ونحو الشرق ضد الميديين. الحملات الثلاث كلها كانت انتصارات كبيرة. انتصاراته جعلته ملكاً لا مثيل له، أصبح «نينوس» سيد أكبر إمبراطورية في الشرق. وتتابع القصة مجراها: نينوس يأخذ سميراميس زوجة تلد له ابناً هو «نينياس» بعد ذلك توفي الملك العجوز.

٥- في الطريق إلى العاصمة..

قضت سميراميس طفولتها وشبابها الأول في تلك الجنة البعيدة على ساحل البحر المتوسط. ولم يعد الجيش الآشوري يعرف أية عوائق. تحولت إلى صبية صغيرة. أصبح عمرها خمس عشرة سنة. وهي ناضجة للزواج. أعلم الأب المربي أن بعثة تفتيش ملكية قادمة.

ويُدعى الموظف الذي يرأسها «أونيس Onues»، وتصفه الأسطورة بأنه «الأول بين ضباط المجلس الملكي» و«حاكم سورية». التقى هذا مع «سيّما» الذي دعاه إلى بيته. هنا أبصر أونيس الجمال الفتي، وأبى أن يسافر دون سميراميس. وافق الأب المربي. وهكذا قامت السورية الجميلة بالرحلة إلى العاصمة «نينوى» حيث تزوجها «أونيس». وأثمر الزواج عن ولدين هما: هيا باتيس وهيدا سبيس. بعد أن توصلت «سميراميس» إلى احتلال «بكترا». التقت بالملك «نينوس» الذي طلبها لنفسه من الزوج الشرعي. وبعد أن قام هذا بالانتحار نتيجة وضعه الصعب، أصبح باستطاعة السورية الجميلة أن تصبح ملكة على بلاد الآشوريين، وتدخل العاصمة الآشورية بابل، بعد وفاة زوجها. ووضع ابنها من زوجها الجديد الذي هو تحت السن الشرعي للحكم.

٦- شلمنصَّر.. حمو المستقبل

مضت سنوات الصبية «سميراميس» في بلاد آشور. في تلك السنوات التي حكم فيها «شلمنصر الثالث» الذي قالت سميراميس التاريخية بفخر أنها كنته. في العام /٨٥٨ ق.م/ صعد «شلمنصر» إلى العرش، وحكم حتى العام /٨٢٤ق.م/. يُذكر بالإجماع أنه أحد الملوك الكبار للعصر الآشوري الحديث. قدّم شلمنصر نفسه قائلاً: «آشور السيد الكبير. ملك مجموع الآلهة الكبرى، وأنوم، ملك الإيجيجي والأنوناكي، سيد البلاد،

وإنليل، السامي، أبو الآلهة، خالق العالم، وإيا، سيد الماء العميق، وسيد، ملك التاج الملكي، وشماش، قاضي السماء والأرض، ونينورتا، الأول بين الآلهة، وعشتار، سيدة الحرب والقتال، إنهم هم الذين منحوني بطريقة كريمة اسماً مليئاً بالتأثير ومجداً سامياً أكثر من كل الملوك الآخرين».. «أنا شلمنصر ملك البشر كافة، ملك أجزاء العالم الأربعة، السليل النقي لتوكولتي نينورتا..».

٧- الإمبراطورية الآشورية.. الدولة والاقتصاد..

سنعمل بعض الأفكار عن الدولة الآشورية وعن اقتصادها. نظرة الآشوريين إلى العالم، الذي توجب على امرأة من منطقة البحر المتوسط، أن تتعامل معه. إن تحليل الدولة الآشورية يجب أن يبدأ دون تردد بفحص فكرة الملكية. إن الحاكم بالنسبة للآشوريين هو السلطة الأعلى، ورأس الدولة، لا بل الدولة نفسها. وكانت الدولة الآشورية تنقسم إلى قسمين كبيرين هما: ملك البلاد وشعب البلاد، يتدخل الحاكم في المسائل كلها ويقرر، ويمكن للشعب التوجه إلى الحاكم في كل قضية. كل سنة في عيد رأس السنة الجديدة تنص الترنيمة أنه على الحاكم أداء يمين الولاء: يتعهد بالطاعة التامة، ويقسم بإرادته القوية، أن يوسع حدود آشور.

إدارياً، قسّمت بلاد آشور إلى مقاطعات، وهذه إلى مناطق تشمل وحدات أصغر منها. كان يحرس الملك مع مجلس «كبار المملكة» الأربعة المقاطعات. هي: منصب التورتانو، أي نائب القائد العام. ويأتي بعده منصب «رب شاقي» أي «كبير السقاة»، وثم منصب «ناجير إكالي» أي «منادي القصر»، وأخيراً منصب «أباراكو» أيّ «المدير الكبير».

نتوجه الآن إلى ولي العهد. يُخبرنا «سنحريب» أن الابن الذي اختير لولاية العهد قد تربى في بيت خاص هو «بيت ريدوتي = بيت الوراثة». حيث هيأ المرء الأمير لمهماته المستقبلية لمُلك.

كانت إحدى المهمات الرئيسة لإدارة المقاطعات تحصيل الضرائب للحكومة المركزية. وبذلك نصل إلى النقطة الثانية من فصلنا هذا، ألا وهي: اقتصاد الإمبراطورية. كان يوجد هيئة جماعية تسمى (خزانوتي Chazannuti) وظيفته مراقبة دخول وخروج البضائع وكذلك رئاسة الإدارة القضائية.

ماذا كانت مصادر الغني؟ القيام بالحرب أمر بديهي بالنسبة لكل ملك آشوري، تنتهي بتعداد غنائم الحرب من بشر وبضائع. تضاف إلى العوامل الخارجية عوامل داخلية. تتألف من ممتلكات الدولة ومن الممتلكات الخاصة.

٨- الجيش الآشوري..

إن الإمبراطورية الآشورية، كانت تقوم على عمودين: الأول ممارسة للسلطة متركزة على طليعة صغيرة، والثاني جيش شجاع منظم. يخبرنا ملوك آشور عن الزحف المستمر للجيوش الآشورية. وعن قيمتهم التي لا يشك بها، وعن انتصاراتهم الباهرة، وعن قسوتهم الشديدة. مع ذلك، هل تألف الجيش الآشوري من عساكر محترفين أم من رعايا بسطاء. يخبرنا الملوك أنهما كانا يأمران بنفير في البلاد. ويمكننا تمييز ثلاثة أنواع من الجنود: عسكريون محترفون يؤدون خدمة دائمة. وعساكر نفير. واحتياط يجمعون في الحالات غير العادية. يمكن الاستنتاج أن رجال الملك شكلوا كتيبة المقاطعة، ووزعوا بين الفرق المختلفة: الآشوريون في الخيالة والعربات والإدارة. وخدم غير الآشوريين في المشاة. وشكل الأجانب جزءاً من الجيش الآشوري، كانوا عساكر محترفين تضمن لهم الدولة راتباً. يخبرنا القائد «شلمنصر» أنه جمع مئة وعشرين ألف رجل من أنحاء البلاد كافة بوساطة النفير العام. وكان هذا الجيش يكبر مع كل انتصار. وعلى الرغم من محاولات «سميراميس» خلق اصلاح في مؤسسات الجيش والدولة، إلاّ أنّ الجنرالات لم يفهموا محاولاتها.

٩- شمشي أدد الزوج..

لم يتمكن أي أجنبي من الدخول ولا مرة إلى قلب بلاد آشور. وقد شكل هذا الوعي الوطني دعامتين حاملتين للإدارة المدنية والنظام العسكري. في الداخل وفي الإمبراطورية.

بعد العام /٨٢٧ ق.م/ من حكم شلمنصر، وصله الخبر أن سبعاً وعشرين مدينة قد ثارت عليه، بقيادة ابنه «آشور دان أبلي Assurdan-apli». إن المعلومات عن هذه الثورة نجدها في حوليات شمشي أدد الخامس. يعزو الباحث (غاد) سبب الثورة إلى أن الملك العجوز استبعده، وهو الابن البكر، من ولاية العهد لصالح الابن الأصغر شمشي أدد. ويبدو أن هناك دافع آخر أكثر أهمية من تركز السلطة بيد «التورتانو». يسمي

«شموكل» كأسباب للحرب الأهلية: سياسة الصداقة التي اتبعها القائد شلمنصر تجاه بلاد بابل، والتي وصلت الأوج في زواج الأميرة البابلية سمورامات من ولي العهد شمشي أدد، والتنافس بين ولدي الملك، وحسد آشور ونينوى لكلخو المفضلة، وقسوة الإجراءات الضريبية المتخذة من قبل الملك. لكن حكمة وبُعد شلمنصر الذي رتب زواج شمشي أدد من سمورامات السورية، ترفع هذا الملك فوق جميع الملوك الآشوريين في الألف الأول قبل الميلاد. وهكذا بدأت سمورامات مباشرة بممارسة تأثيرها الصامت في القرارات التي تحدد مصير الإمبراطورية. يعرّف شمشي أدد نفسه بالقول: أنا شمشي أدد، الملك القوي، ملك الجميع، الذي لا يعرف منافساً، حارس المعابد، مدير الأماكن المقدسة، سيد البلاد كلها، القائد الكاهن المقدس، ابن شلمنصر ملك أجزاء العالم الأربعة. استلم شمشي أدد الحكم ووجه حملاته العسكرية في سنة حكمه الثالثة عشرة نحو الشمال والشرق والجنوب. دامت هذه الحملات العسكرية حتى العام /٨١٦ ق.م/. دخل الآشوريون قلب بلاد بابل وهزموا الجيش البابلي في معركة مفتوحة. لقد أراد شمشي أدد إخضاع بلاد بابل لكنه أصيب في وسط المعركة -إصابة قاتلة، وتوفي أمام بوابات مدينة بابل. ولأول مرة في بلاد آشور، تقع مسؤولية الحكم كاملة على أكتاف امرأة لبضع سنوات.

١٠- نينوى وبابل..

السؤال الذي يطرح نفسه على المؤرخ هو: هل كان بالإمكان إنقاذ المملكتين؟ ما هي الأخطاء التي ارتكبت؟ لماذا كره الآشوريون والبابليون بعضهما البعض لدرجة التدمير الكامل للخصم؟

أثبتت سياسة شلمنصر السلمية تجاه بلاد بابل فائدتها، عندما استطاع «شمشي أدد» توقيع اتفاق عدم اعتداء. لكنه هو نفسه خرق الاتفاق في نهاية حكمه، وقرر احتلال بلاد بابل.

أيضاً كانت «سمورامات» تتألم عندما كان زوجها سائراً إلى بلاد بابل. حاولت «سمورامات»، كحاكمة، وأم للملك «أددنيراري» التدخل كوسيط. لكن أحداث السنوات اللاحقة أدت إلى إسقاط المبادرات الشجاعة لهذه الملكة. وقد حاول «أسر حدون»، وكذلك «آشور بانيبال»، تحسين العلاقات. لكن البابلين كانوا ينتظرون

الفرصة للثأر من الآشوريين.

لكن الحقيقة التاريخية: نينوى وبابل هما تقمص لعالمين كان من المستحيل عليهما أن يتصالحا. الآشوريون هم الأقوى، وجيوشهم هي الأفضل. أما البابليون فهم دائماً يعرضون بهدوء ابتكاراتهم في كل مجالات الثقافة.

١١- حكم سميراميس..

حكمت سمورامات = سميراميس مكان زوجها القتيل. وقضت على رأس الجيش الآشوري، على التمرد البابلي. ربما أقنع هذا التصرف السديد والسريع المجتمع الآشوري. فمنحها كبار رجالات الدولة، ثقتهم ودعمهم. لم تسمّ نفسها «ملكة بلاد آشور». بل استخدمت لقب زوجة الملك: «الزوجة الملكية لشمشي أدد، ملك الجميع، ملك بلاد آشور». وهكذا روعيت التقاليد بشكل تام. إن حكمة هذه المرأة، تظهر بخاصة في حذرها الذي مارسته في السلطة. إن أول عمل يقوم به الملك الآشوري الذي يتسلم الحكم، كان تقلد منصب (الابيونوم). لكن سمورامات لم ترتكب الخطأ، بل تركت ابنها الصغير السن يفعل ذلك: في العام /٨١٠ق.م/. فأمنت بذلك قضية وراثة العرش الآشوري بشكل نهائي. عندما تسلّم «أدد نيراري» السلطة بعد بلوغه سن الرشد، لم يعد ممكناً أن يبتعد عنه كثيراً ظل الأم الحامية له. وصار حكّام المقاطعات يذكرون دائماً في كتاباتهم الرسمية الأم والابن سوية.

تنتمي سمورامات إلى المجال السامي الغربي. كانت آرامية الأصل، وباحتمال كبير من سورية. بدأت مباشرة بإعادة توزيع المناصب، وتعيين حكّام المقاطعات الكبيرة. وبينها آشور وكلخو. إن ممارسة السلطة في بلاد آشور كانت تتطلب أيضاً القيام بحملات عسكرية، وهذا لم تتخل عنه سمورامات. كما يمكن لنا أن نعزو لها آثاراً عمرانية: أعمال تجديد الأبنية في كلخو، وبناء قصرين، وبناء معبد نابو، كتعبير عن الإصلاح الديني. ومن حسن حظ سمورامات أنها خرقت التقاليد بإقامة نصبها الذي نقشت فيه اسمها ولقبها العظيم الذي شرّع تسلمها للسلطة. لقد كانت الوريثة الشرعية لسياسة شلمنصر الثالث.

١٢- أدد نيراري الابن..

عندما أصبح «أدد نيراري» بالغاً في العام /٨٠٦ ق.م/ أعطته أمه الحاكمة قيادة الإمبراطورية. لم تحدث تغيرات راديكالية

في السياستين الداخلية أو الخارجية. وقام الملك الشاب في العام /٨٠٦ ق.م/ بمتابعة زحفه على رأس الجيش الآشوري. تظهر النتائج، أنه كان خليفة مهماً لأسلافه. أما فيما يتعلق بشؤون البلاد الداخلية فقد استمر في الاستفادة من خبرة أمه. ظهرت الاتجاهات اللامركزية خلال حكم هذا الملك بشكل واضح: تفتت مبدأ الوحدة الملكي، على الطريق إلى اللافدرالية.

شعر «أدد نيراري» أنه مساوٍ لوالده «شمشي أدد» الخامس. ويعزو نجاحاته كلها إلى مساعدة آشور الرائعة. نجد كل الآلهة الرافدية، الآشورية والبابلية.

في السياسة الخارجية، فإن شمالي بلاد آشور وغربها كانت بيد الآشوريين. وكان ناجحاً في حملاته الغربية أكثر من جده «شلمنصر» فقد أخضع مملكة دمشق الصغيرة. كان «أدد نيراري» قائداً عسكرياً بارعاً. وتشهد سياسته تجاه بلاد بابل على نضجه وحكمته.

يجب التحدث أيضاً عن قرارين آخرين «لأددنيراري» الأول: يوجد اسم الملك مرتبطاً مع اسم الأم «سمورامات». وبالثاني: يضيف «أدد نيراري» إلى اسمه «شمشي إلو» المساوي له في العمر، والمتصادق معه. فمن هو؟

١٣- من هو شمشي إلو..؟

بدأت مظاهر غير مثيرة للانتباه بالارتسام خلال عهد «أدد نيراري»، ألا وهي تلقي حكّام المقاطعات دعماً مهماً متزايداً من قبل الملك. في العام /٧٤٥ق.م/ حدث انقلاب جلب على العرش الآشوري حاكم مقاطعة (كلخو) تبجلات بيلاصر الثالث. كانت له نتائج سيئة على وحدة الدولة. إن هذا ما حدث تماماً من قبل «شمشي إلـو»، صديق «أدد نيراري» الذي سيطر على الساحة السياسية لمدة تزيد عن ستين عاماً. في عهد «شلمنصر الثالث» الحملات العسكرية لم تعد تقاد من قبله شخصياً. كان «شمشي إلو» بحق ملكاً آشورياً غير متوج. كان عليه الاستيلاء على السلطة بدلاً من حاكم (كلخو).

أثار هذا الحدث الانتباه بالتأكيد. كان «شمشي إلو» ينتمي إلى طبقة النبلاء الآشوريين، أو أنه ربما كان ابن أحد رجالات الدولة الأقوياء. ليست الثقة الممنوحة «لشمشي إلـو» من قبل سمورامات ومن قبل «أدد نيراري» مفاجأة. فقد كرّس نفسه لخدمة الدولة لمدة تزيد عن الستين عاماً.

إن النجم الوحيد الذي سطع في هذه السماء كان نجم «شمشي أدد». بينما كان الملوك يتغيرون، بقيّ هو ثابتاً ومنفذاً لواجباته. إنه الحاكم الآشوري الحقيقي، لكنه يقبع في الظل. ويرسم صورته الشخصية بالتالي: شمشي إلو، نائب القائد العام للجيش، المنادي الكبير، مدير المعابد، قائد جيوش كثيرة، ذلك الذي يحكم بلاد خاتي وغوتي وكامل نمر، فاتح الجبال الغربية، مدمر مناطقها، ذلك الذي أخضع بلاد موشكي وأورارتو، الذي هجّر شعوبها، ودمرها. إن أفكار سمورامات الإصلاحية تبناها ابنها «أدد نيراري الثالث» وتابعها «شمشي إلو» بعد وفاته. لذلك، ربما أنقذت بلاد آشور.

١٤- بلاد آشور.. بداية الزوال..

إن الأخبار التي كانت تصل باستمرار، والتي تتحدث عن تقدم الأورارتيين باتجاه الغرب والجنوب، جعلت الملكة اليقظة تنصت باهتمام إلى ما يجري، إن انتصار «شمشي إلو» العظيم على ملك أوراروتو كان مهدى بالتأكيد إلى هذه الملكة وذكراها. وجدت بلاد أورارتو شخصيتها القوية في عهد الملك «إشبواني» معاصر «شمشي أدد الخامس»، زوج «سمورامات». يستنتج من ذلك أن أورارتو وجدت نفسها بذلك على مقربة خطيرة من الحدود الآشورية.

في البداية رأت آشور نفسها مجبرة على خوض حرب دفاعية. وقفت أوارارتو باستثناء العلاقة مع بلاد آشور، منتصرة على كل الجبهات. شكل الميديون التهديد الثاني لبلاد آشور.

ماذا فعل الآشوريون تجاه هذا الوضع الحرج؟ إن الوثيقة الرسمية الوحيدة هي معاهدة سلمية. حاول الآشوريون من خلاله مواجهة خطر أورارتوا الزاحف باتجاه سورية.

إن الحلم السياسي لحاكمة بلاد آشور، أصبح وهماً عبر التطورات التي حدثت.

١٥- الإصلاح الديني لبلاد آشور..

إن الحاكمة «سمّورامات» الزوجة الملكية، لبلاد آشور. فكرت كيف يمكنها ضمان العرش الملكي لسلالة «شلمنصر» للمستقبل القادم. إن بلاد آشور يجب أن تتغير بتغيير حكم القوة إلى حكم الفكر.

هذا ما هدف إليه تماماً، إصلاح الحياة الدينية الذي قادته «سمورامات». ببناء معابد الإله البابلي «نابو» في كلخو

ونينوى. كان الهدف من ذلك المساعدة في عبور الفجوة ما بين الآشوريين والبابليين في التفكير والشعور. طمحت «سمورامات» كسياسة إلى إصلاح عام بين الدولتين، لا بل العمل على اتحادهما. وقد أدرك البابليون فيما بعد الأهمية الحقيقية لسمورامات.

أرادت سمورامات بإصلاحها الديني، إدخال عبادة الإله الجديد. وهكذا نشأت معابد «نابو» في كلخو ونينوى، وكذلك في العاصمة المقدسة آشور.

تشهد كل هذه الأمثلة على نجاح الإصلاح الذي قامت به الحاكمة سمورامات، إلا أنها لم تكن تسعى إلى تحول ديني فقط، بل إلى تحول في مفهوم الملكية أيضاً. أدرك الملوك الآشوريون، أن التتويج عن طريق الإله آشور لم يعد كافياً. فقد احتاجوا للاعتراف بهم من قبل بابل.

١٦- سميراميس تغادر المسرح..

لا نعرف شيئاً عن وفاة «سمورامات». فظروف وفاتها يلفها الظلام. إن ذلك تقليد آشوري بالطبع. ولم يتوصل الآثاريون أيضاً إلى الكشف عن قبرها. ولكن بقيّ تأثيرها الكبير في بلاد آشور كنصب تذكاري.



النصيحة بجمل !؟

رئيس التحرير

قديماً كانوا يبيعون النصيحة بجمل، وكان حكيم اليونان «اينایاس» يقول للاسكندر الأكبر، الذي كان يستعد لغزو مصر: ماذا بعد ذلك؟ فكان جواب الاسكندر: سأغزو المشرق وبلاد الهند، فسأله الحكيم: وماذا بعد ذلك؟ فقال الاسكندر: سأستريح، فرد عليه الحكيم قائلاً: ولماذا لا تستريح منذ الآن؟!

طبعاً لم يقتنع الاسكندر بكلام حكيمه، وارتحل إلى الهند، وفي طريق عودته إلى بلاده حتى يستريح، لدغته بعوضة فمات، دون أن يتمتع بالراحة..

في مدينة عربية مشهورة بتاريخها القديم، عاش شخص يدعى «هيرودوت الطبل»، استطاع بفضل أساليبه الملتوية، أن يصل إلى منصب حامي حمى التاريخ، وأصبح السادن الأكبر لأرشيف تاريخ المدينة، فضرب عصفورين بحجر واحد، من خلال هذا المنصب الذي تبوأه، إذ أوهم أصحاب النفوذ، بأنه الوحيد القادر على فهم وكتابة التاريخ، وأنه من يستطيع قراءة الأسرار وكشف مكنونات العلم والمعرفة.. كما استطاع أن يوهم الآخرين بأنه رغم بلوغه سن التقاعد، هو الوحيد القادر على تحقيق آلاف المخطوطات، التي وضع يده عليها، وأقفل عليها الأبواب والنوافذ، حتى لا يسمح لأحد من أولئك الباحثين الشباب، بالتطفل على منصبه.. ومعرفة أسراره..

لقد ظل «هيرودوت الطبل» يتحدث عن مشاريعه سنوات طويلة، وفي ذات الوقت يشكو من عدم وجود من يساعده من الشباب.. الذين تخلّو عن الجد والاجتهاد..

❀ ❀ ❀

في حوار مع رسام صيني شهير، كان السؤال: ما هو أسهل، وأصعب شيء ترسمه؟ فقال الرسام: إن أسهل شيء هو رسم العفاريت والجن.

أما أصعب شيء فهو القطط والكلاب.

وعند السؤال عن سبب ذلك، أجاب الرسام الصيني: إن الناس عندما يشاهدون رسوم القطط والكلاب، فإنهم يعرفون الصح والخطأ في أشكالها، لأنهم يشاهدونها أمام أعينهم في كل لحظة، ولكن من شاهد الجن والعفاريت حتى يعرف الفرق؟!

❀ ❀ ❀

في مقابلة مع أحد كبار تجّار العطور، تحدث عن طريقة ابتكار العطر الجديد، فقال يصف خطوات ابتكار مثل هذا العطر: إن أهم ما نبتدئ به لابتكار عطر جديد، هو صنع قارورة العطر، أي اختيار شكل الزجاجة وبعد هذه الخطوة الأولى، نقوم بانتقاء الاسم، أي اسم العطر الجديد، وتجهيز الحملة الإعلانية له من عبارات ومواصفات.. وفي نهاية الأمر يتم اختيار نوع العطر!!

❀ ❀ ❀

كثيرون من الناس الذين يعانون من الإحباطات، لا يجدون حلاً لمشاكلهم سوى أن يتحدثوا مع أنفسهم، يلعنون، ويصرخون، ويسبّون الزمن والإحباط، ويضعون كل الحق على «الطليان».

❀ ❀ ❀

يقول حكيم الصين «لوتزو»:

- كن وعاءً فارغاً لا يمتلئ أبداً، لأن المغرور فقط هو الذي يحس بالامتلاء.

- كن فاضلاً مثل الماء، حيث ينساب للعطاء دون جهد.

- كن كإبريق الفخّار، فالفراغ الذي داخل الإبريق، هو الذي يجعله صالحاً للشرب.. ولا تكن كالصخرة التي لا يمكن أن تتشرّب أية مياه.

❁ ❁ ❁

عندما أمسك القلم لأكتب بعد أكثر من ثلاثين عاماً من العمل الصحفي والأدبي، أحس بأنني أكتب كمن يمسك القلم لأول وهلة..

قديماً وصفوا فأبدعوا، حينما قالوا بأنه تعاطى حرفة الأدب، والتعاطي لا يكون إلا إدمان، وهل يكون إدمان أكثر من إدمان الصحافة والكتابة في عالمنا المعاصر؟!!

❁ ❁ ❁

عندما وصف الناس اللسان بأنه لا يوجد فيه عظم، لم يكونوا يتجاوزون الواقع، فهذه القطعة الصغيرة من اللحم، التي تشبه الثعبان الصغير، تجدها في لحظة سيفاً بتّاراً يقطع، وفي لحظة أخرى يصبح قطعة من السكر!؟.